تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م





ISSN: 2090 - 0449
Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
سبتمبر ٢٠٢٤ – ربيع الأول ١٤٤٦

السنة السابعة عشرة
العدد الخامس والستون

https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

Kan Historique périodique

ISSN 0209-004X



دورية كان التاريخية.- س١٧، ع٦٥ (سبتمبر ٢٠٢٤/ ربيع الأول ١٤٤٦)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 17, no. 65 [Sep. 2024]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٤.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2024.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البيليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net

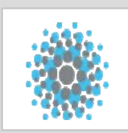


أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org





مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحَكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

المشرف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

الهيئة العلمية

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام

هيئة التحرير



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات التّي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

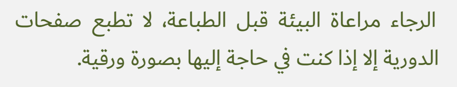
دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المّحَكّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

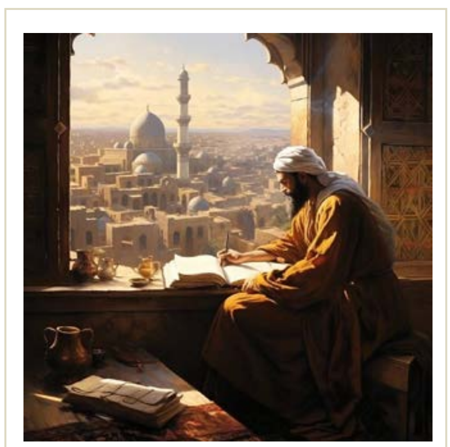
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



An Arab scholar
in the past writing in Baghdad city
Source: www.pinterest.com

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historicalkan


groups/kanhistorique


kanhistorique


kanhistorique.blogspot.com


goodreads.com/kanhistorique


www.kan.nashiri.net


https://kan.journals.ekb.eg



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كـان التّاريْخيـة هـي أول دوريـة عربيــة مُحكمــة ربــع ســنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غـرة جمـادى الأول ١٤٢٩ هجريـة، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمـات المعرفـة، تـدعم قـيم التبـادل المعـرفي، يتعـاون فيهـا الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، مـن أجـل المحافظـة عـلى الهُويّـــة الثقافيـــة العربيـــة والإسـلامية وخصوصًـا اللغــة العربيـة كونهـا الوسـيط الـرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكـون فريـق عمـل دَّورِيـةُ كَـان الْتَّارِيْخيـة مـن متخصّصـين معتـرف بهـم في مجـال الدراسـات التاريخيـة والأثريـة والتراثيـة. ويتـولّى رئـيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلميـة للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلـى استشـارة المحـررين الآخـرين أو المحكّمـين المتخصصـين في اتخـاذ القـرارات حـول البحـوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسـوّغات القانونيـة المتعلقـة بالتشـهير وانتهـاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

C O P E

دَّورية كان التَّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشفة وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرفِوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقا)	سوريا
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية **https://www.facebook.com/historicalkan**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرةً إلى رئيس التحرير: **mr.ashraf.salih@gmail.com**

مُحتَوَيَاتُ العَدَدِ





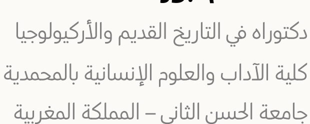
دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية
وجه من وجوه سياسة الرومنة



د. هشام أبورك



دكتوراه في التاريخ القديم والأركيولوجيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

جندت روما إمكاناتها المختلفة بشمال إفريقيا بوجه عام وبإقليم موريطانيا الطنجية بشكل خاص من أجل إخضاع البلاد والعباد، ولم تكن الترسانة القانونية في منأى عن هذه التعبئة العامة، فقد سخرت الوضع القانوني للمدن في سبيل تحقيق ما يعرف بالرومنة القانونية. وليست هذه الرومنة سوى آلية من آليات الرومنة الشاملة، بعبارة أخرى سياسة إجبار الساكنة المحلية – بشكل سلمي وتدريجي ومخطط له- على التخلي عن الإرث الثقافي والحضاري البوني، وتبني هوية رومانية صِرفة، تعكسها الحياة البلدية بكل مقوماتها داخل هذه المدن، مستوطنات وبلديات على حد سواء. واعْتُبِر منح المواطنة للسكان المحليين حجر زاوية هذه السياسة، حيث اعتمدت السلطات الرومانية عدة أساليب وطرق لتمتيع قاطني مختلف مدن موريطانيا الطنجية بما سُمِّي "قانون المدينة". وعُدَّت الرومنة القانونية لبنة أولى وضرورية في سبيل إدماج ساكنة المدن في الحياة البلدية، أو ما يمكن أن نطلق عليه الرومنة البلدية. وهما آليتان متناسقتان متطابقتان ومتلازمتان، بمعنى لا يمكن الوصل إلى الرومنة البلدية الكاملة دون تحقيق الرومنة القانونية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٨	أبريل	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٤	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

موريطانيا الطنجية؛ الوضعية القانونية؛ الرومنة القانونية للمدن؛ سياسة الرومنة؛ الإمبراطورية الرومانية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.283670.1125 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

هشام أبورك، "الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية: وجه من وجوه سياسة الرومنة".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٤ – ٣٢.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: ibourkhicham9@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

تبنت روما الرومنة القانونية للمدن خيارًا استراتيجيًا لبلوغ هدفها الأسمى المتمثل في تحقيق سياسة الرومنة، وقد استغلت السلطات الرومانية نواة المدن الأولى بإقليم موريطانيا الطنجية، وغيره من الأقاليم، لِتُحوِّلَها إلى مدن أجنبية (villes pérégrines) في بداية الأمر، ثم إلى بلديات (municipes)، فمستوطنات (colonies) في نهاية المطاف، وذلك وفق قواعد وشروط وسيرورة معينة. واعتمدت في سبيل ذلك على المواطنة الرومانية التي كانت تمنح -قبل قرار كركلا الشهير- من قبل الإمبراطور للأشخاص والجماعات وفق مرسوم، وخلال انتهاء الخدمة العسكرية، وللموظفين البلديين عند إتمامهم لمهامهم بإحدى البلديات اللاتينية، وكذلك من خلال الوراثة.

لقد ظهرت الدراسات الأولى حول الوضعية القانونية لمدن شمال إفريقيا الروماني منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين، مستفيدة من التطور الكبير الذي عرفه ميدانا الأركيولوجيا والإبيغرافيا. وصدرت أولى الدراسات المتعلقة بالوضعية القانونية موريطانيا الطنجية مع الباحث الفرنسي شارل سوماني (Saumagne) سنة ١٩٥٢م، حيث تناول فيه تمتع مدينة وليلي بالوضع اللاتيني خلال القرن الأول للميلاد[١]. ثم توالت بعض ذلك الدراسات سواء مع الباحث جاك كاسكو (Gascou) الذي استعرض في إحدى مقالاته تطور الوضعية القانونية لمدينة تنكي (Tingi) عاصمة الإقليم بين سنة ٣٨ قبل الميلاد وفترة حكم الإمبراطور كلود (Claude=41-54)[٢]، أو مع الباحثة كريستين حمدون (Hamdoune) التي جعلت من وضعية مستوطنتي تنكي وليكسوس موضوع دراستها سنة ١٩٩٤م[٣]. وجاءت آخر محاولة في قراءة الوضع القانوني لمدن موريطانيا الطنجية خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد سنة ٢٠٢٣م[٤]. أما قضية الرومنة القانونية لمدن الإقليم المذكور فهي مغيبة تماما، لذلك جاءت هذه المقالة لنفض الغبار عنها ومحاولة استشراف ملامحها الكبرى.

أولاً: ظهور مفهوم الرومنة

١/١-الرومنة: مدلولها، أنواعها، أساليبها، مظاهرها، تأريخها، مقوماتها ونطاقها

ظهرت البوادر الأولى للنقاش الأكاديمي - الذي سيستعر فيما بعد- حول مسألة الرومنة بشمال إفريقيا منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع المؤرخ أوسكار مكارتي (Oscar Mc Carthy)[٥]، ومع الباحث جيل طوطان (Jules Toutain) خلال نهاية نفس القرن[٦]، وستتضح بشكل أكبر مع القس ميسناج (Mesnage) خلال بداية القرن العشرين حينما تناول موضوع رومنة كل من تونس والجزائر والمغرب خلال العهد الروماني[٧]. لكن قضية الرومنة ستعرف نقاشا واضحا بين الباحثين بعد إصدار الباحث مارسيل بنعبو (Marcel Benabou) لدراسته الشهيرة "المقاومة الإفريقية للرومنة" سنة ١٩٧٦م، وكذا إصدار عدد خاص من مجلة الحوليات لسنة ١٩٧٨م حول هذا الموضوع.

في البداية لا بد من الوقوف عند مفهوم الرومنة كما جاء على لسان المتخصصين، وذلك في محاولة لفهم مدلوله واستشراف حدوده وإدراك حمولته القانونية، بهدف استيعاب حضوره ومكانته داخل الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية، وذلك منذ نهاية العهد الجمهوري وإلى غاية الفترة الإمبراطورية السفلى. يميل دوفيشر (De Visscher) في تحديده لمفهوم الرومنة إلى التفسير القانوني للكلمة، حيث يعتقد أن: "الرومنة هي المساواة التدريجية للشروط أو الظروف القانونية للأجانب والمواطنين"[٨]. ويصف بنعبو (Benabou) الرومنة بكونها: "مسلسل معقد يمزج بين عمليات مختلفة تهدف، ليس إلى تحويل مجال ما بأي ثمن، بل إلى تمكين روما ومن يدور في فلكها من الاستفادة القصوى من هذا المجال"[٩].

من جهتها، تقرن دوندان باير (Dondin-Payre) مفهوم الرومنة بالحضارة الرومانية، حينما تقول:" الرومنة معناها استنبات الحضارة الرومانية بالأقاليم المحتلة... وتتخذ عدة أوجه: الدين والقانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع"[١٠]. أما الباحث هُويِّسلر (Häussler) فيركز في تناوله لمفهوم الرومنة على الهوية

والمواطنة حينما يقول: " إن تبني هوية رومانية يعبر أكثر فأكثر عن هوية تشمل الإمبراطورية برمتها... إن الهوية الرومانية هي شريك للمواطنة"(١١). في حين ينحو لورو (Le Roux) منحى مغايرا وهو يتحدث عن الرومنة، إذ يعتبر أن:" الرومنة هي بنت السلام أكثر منها الحرب والمقاومات"(١٢).

يتضح من خلال هذه النماذج المقترحة لتعريف مصطلح الرومنة، أنه مفهوم واسع وعميق ومعقد في نفس الآن، مرتبط بالوضعية القانونية للأشخاص والحياة البلدية للمدن، من خلال المجالات المتعددة التي تهمه، من المجال السياسي إلى آخر مجال إنساني يمكن أن نتصوره. كما أنه رهين التصورات الذاتية للباحثين وخاضع لإيديولوجية المتخصصين، يكفي أن نذكر مثلا نَعْتَ "استنبات الحضارة الرومانية بالمجالات المحتلة" لنفهم معنى ذلك.

حقيقة الأمر أن هناك مجموعة من المصطلحات تشير إلى مفهوم الرومنة، يستعملها الباحثون الغربيون، إما تجاهلا له أو رغبة في التخفيف من وقعه وحمولته القوية. من هذه المفاهيم نجد: الثورة الثقافية والاندماج الثقافي والتعايش والانصهار والاندماج وأخيرًا التثاقف أو المثاقفة (Acculturation). ويعتبر المصطلح الأخير الأكثر تداولا بين الدارسين، بمعنى البصمات والتأثيرات التي تنبثق عن الاتصال بين ثقافتين، هما في ورقتنا البحثية الحالية: الثقافة الرومانية والثقافة المغربية القديمة. وفي نفس السياق، وبعد دراستها لبعض نقائش ومسكوكات موريطانيا القيصرية، خلصت الباحثة كريستين حمدون إلى أن التثاقف أو المثاقفة يظهر كمسلسل تفاعل بين نظامين ثقافيين مستقلين، ينجم عنه تغييرات معينة(١٣). وتقصد حمدون بالنظامين هنا النظام الثقافي الروماني ونظام قبائل موريطانيا القيصرية.

إن طبيعة الرومنة المتشعبة جعلت الباحثين يتحدثون عن وجود عدة أنواع، فهناك من قسمها إلى رومنة طوعية وأخرى رسمية تأتي بعد الأولى(١٤)، بمعنى أن الأولى اختيارية قد تتجسد في وضع المدن الأجنبية المتحالفة مع روما والمدن ذات القانون اللاتيني المُمهِّد لنظيره الروماني، والثانية قانونية تتمثل في تحول المدن إلى مستوطنات أو بلديات. وهناك من ذهب إلى ربط الرومنة بالمجال حينما تحدث عن الرومنة الحضرية والرومنة القروية(١٥). ثم هناك من يركز على الجانبين القانوني والثقافي، فيعتبر أن الرومنة هي رومنة قانونية ورومنة ثقافية(١٦). وذهب مارسيل بنعبو أبعد وأعمق من سابقِيه عندما صنف الرومنة خلال العهد الإمبراطوري، في ارتباط بسياسة الأباطرة، إلى رومنة سلطوية (Romanisation autoritaire) فعالة بشكل خاص من خلال الإحداث المُعَقلن للمستوطنات المؤسسة (colonies déduites) مع الأخذ بعين الاعتبار الضرورات الدفاعية أولا ثم الاقتصادية ثانيا. ويتمثل النوع الثاني في الرومنة المتحررة (Romanisation libérale) التي بدأت متأخرة ولم تمس سوى مراكز بعينها، ويبدو حسب الباحث أنها كانت متعمدة بهدف تأخير مسلسل التحول على مستوى الوضعيات الإدارية. أما الصنف الثالث فيتجلى في الرومنة الإدارية التي ظهرت طيلة القرنين الأولين للإمبراطورية وإلى غاية فترة حكم الإمبراطور سيبتيم سيفير (Septime sévère=193-211)، واعتبرها الباحث بمثابة سلاح بيد الإدارة الرومانية وممثليها(١٧).

يمكننا الحديث عن كل هذه الأنواع وغيرها وجمعها في نوع واحد تحت مسمى الرومنة البلدية (Romanisation municipale)، والسبب وراء هذا الاختيار بسيط، يتجلى في كون كلمة بلدية شاملة لجميع المجالات، بمعنى المجال القانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وكل ما يتعلق بالإنسان كمواطن داخل المدينة. كما أنها تعتبر ذروة سنام سياسة الرومنة بالأقاليم الرومانية المحتلة خارج روما. من جهة أخرى لا يمكن تأريخ ظهور مسلسل الرومنة بالعهد الإمبراطوري، رغم التحول الكبير الذي عرفه خلال القرنين الأول والثاني للميلاد اللذين اعتبرا قمة سياسة الرومنة بشمال إفريقيا الروماني، أو بظهور قرار كركلا لسنة ٢١٢م والقاضي بتعميم المواطنة على جميع سكان الإمبراطورية الأحرار. بل إنه أقدم بكثير، ويرجعه أحد الباحثين إلى القرن الرابع قبل الميلاد، حيث ظهر خارج حدود سهل الليتيوم (Latium)(١٨).

وقد ارتكزت سياسة الرومنة خلال العهد الإمبراطوري على مقومات وقواعد أساسية، تمثلت كمرحلة أولية في الإبقاء على البنية المحلية الموجودة سلفا والمنظِّمة للجماعات المحلية للمدن[١٩]، وهي تبدو كلحظة تمهيدية لاستئناس المجتمعات المحلية بالنموذج الروماني في التدبير قبل التأسيس لنظام الحكم الروماني. وتتمثل القاعدة الثانية في نشر وإرساء بنية قانونية للمدينة مع تطوير تخطيطها البلدي (urbanisme municipale)[٢٠]. ولن تكتمل هذه الركائز إلا بمأسسة حياة بلدية تعتمد على نظام بلدي صارم ومبني على أسس سياسية وإدارية واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، ودينية.

ولإرساء سياسة الرومنة اتبعت روما أساليب متعددة بشمال إفريقيا عموما والمغرب القديم بشكل خاص، تمثلت في استعمال اللغة اللاتينية في الإدارة على وجه التحديد، وإدخال القانون اللاتيني بالمدن الأجنبية، وإدماج المواطنين الرومانيين ضمن السياسة البلدية للمدينة. ناهيك عن التحالف مع القادة المحليين والارتقاء بهم بشكل ممنهج إلى أعلى المناصب، مما يسمح لها بتشكيل طبقة حاكمة قريبة وتابعة لروما[٢١]. ولم تَسلم البوادي من أساليب مماثلة اتبعتها روما، اعتمدت أساسًا على سياسة تشتيت (dispersion) الساكنة القروية وتحديد أراضيها (centuriation)، والتي اعتبرها أحدهم أداة سياسية وضريبية واقتصادية لرومنة البوادي[٢٢].

وعرف نطاق انتشار الرومنة بشمال إفريقيا اهتماما من لدن الباحثين، وفي هذا الإطار ترى الباحثة دوندان باير (Dondin-Payre) أن الرومنة بدأت بأفريقية البروقنصلية وانتهت عند موريطانيا الطنجية، وقدمت في السياق ذاته تقسيما مجاليا لانتشارها، فميزت بين مناطق شمالية شرقية مترومنة بشكل كبير، ومناطق موريطانيا القيصرية وموريطانيا السطيفية التي عرفت فيها بعض النطاقات رومنة محدودة، ومناطق موريطانيا الطنجية وإقليم الطرابلسية التي عرفت رومنة محتشمة إلى حدود فترة الإمبراطور هادريان[٢٣].

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الباحثين الغربيين عملوا على تمجيد سياسة الرومنة وإظهار فضلها على الشعوب، ضاربين عرض الحائط الإرث الحضاري المحلي المتراكم عبر قرون، فمنهم من اعتبرها سببا في غنى وثراء سكان شمال إفريقيا المترومنين[٢٤]، ومنهم من جعلها حلما لكل شخص غير مترومن للانتماء للمجتمع الروماني، وتبني قيمه والانخراط في فن العيش الروماني، وإظهار الهوية الرومانية بشكل عمومي[٢٥]، وهناك من يصفها على أنها تُدخل المجتمع في مرحلة "إبداعية" جديدة وتمكنه من نسج علاقات مع السلطة الحاكمة وعلاقات اجتماعية وعلاقات اقتصادية وتبني هويات ثقافية جماعية وفردية جديدة[٢٦].

٢/١-رومنة إقليم موريطانيا الطنجية

شكلت مستوطنات موريطانيا الطنجية - تنكي، بناصا، زيليل، بابا- خلال العهد الإمبراطوري معاقل فعالة في سياسة الرومنة التي تبنتها روما. ويبدو أن السلطات الرومانية قد استغلت البنية الموريطانية السابقة لاحتلالها للمجال، وللتأسيس لهذه السياسة التي استمرت لفترات لاحقة. وقد اعتمدت روما بشكل كبير على قدماء المحاربين -الذين استوطنتهم- في سياستها هذه. فمستوطنة تنكي، التي استفادت من موقعها الاستراتيجي كبوابة نحو أوروبا، ومن إرثها التاريخي القديم ومكانتها عند الرومان، والتي ستتوج باختيارها عاصمة الإقليم الجديد، مما جعل منها أحد أهم مراكز الرومنة بالمجال المغربي القديم، بلغت درجة مهمة من الترومن خلال القرن الأول قبل الميلاد، على الأقل هذا ما تعكسه المسكوكات التي ضربتها المدينة خلال حكم الملوك المور، والتي كانت تحمل الكتابة اللاتينية.

أما مستوطنة ليكسوس، فرغم التأثيرات الفينيقية-البونية التي استمرت لعقود طويلة، إلا أنها عرفت رومنة واضحة انعكست على مرافق الحياة اليومية من حمامات ومسرح ومباني عمومية وغيرهما من المرافق البلدية ذات الطابع الروماني. وترى أرانيكي (Aranegui) مع ثلة من الباحثين أن مسلسل استيعاب العناصر الثقافية الرومانية بدأ خلال نهاية الحرب البونية الثانية، ويستدلون على موقفهم هذا، بالمواد ذات الأصل الروماني التي عثر عليها، والتي تدل على اندماج المدينة ضمن منظومة التجارة (دائرة المضيق على الأرجح)

خلال الحقبة المذكورة[٢٧]. كما لم تسلم مستوطنة زيليل بدورها من التأثيرات الرومانية، وهو ما يوحي به تاريخ المدينة المليء بالأحداث التاريخية المضطربة منذ مساندة الملك بوكوس للرومان ضد يوغرطة. فانفتاح المدينة على التأثيرات الرومانية يبدو أنه بدأ بعد حرب يوغرطة، كما توضح ذلك التنقيبات الأثرية التي تم القيام بها بموقع المدينة[٢٨].

وقد عرفت مدينة تاموسيدا مسلسلاً مشابها انطلاقًا من منتصف القرن الأول قبل الميلاد، يظهر ذلك من خلال قطع المسكوكات الرومانية التي تؤرخ لفترات مختلفة من العهد الجمهوري، وكذا قطع الخزف والأمفورات والمصابيح التي تم العثور عليها، وهو ما حدا بالباحثين لاعتبارها رومنة مادية فقط[٢٩]. وشهدت مستوطنة بناصا كذلك رومنة ظهرت على مستوى الأعلام، فاسم يوليوس (Iulius) يعد من بين أكثر الأسماء انتشارا بالمدينة[٣٠]. كما عرفت انتشار أسماء عشائرية من خلال مختلف نقائش المدينة، إلى جانب الألقاب اللاتينية التي سجلت حضورًا واضحًا في هذا الباب. وتمثل مدينة سلا الحد الجنوبي الفاصل لرومنة الإقليم، ويبدو أنها عاشت رومنة سريعة وعميقة وطويلة في نفس الآن، على الأقل هذا ما تشير إليه مختلف المواد الأركيولوجية التي عُثِر عليها خلال عمليات التنقيب المختلفة[٣١].

ويبدو أن وليلي بلغت درجة كبيرة من الرومنة بسبب تأثيرات هذه المستوطنات، فقد اعتبرها العديد من الباحثين مركزا مهما للرومنة والترومن داخل المجال الموريطاني[٣٢]. ويرجح أحدهم أن تكون المدينة قد ترومنت قبل إحداث إقليم موريطانيا الطنجية، ويستدل على ذلك بالأسماء اللاتينية التي اختارها السكان المحليون وكذا في الأسماء المتأثرة باللاتينية، ويشير إلى دور الاحتكاك والعلاقات التجارية بين موريطانيا الغربية وبين الأقاليم الرومانية الإسبانية منها والإيطالية[٣٣]. وتفسر رومنة المدينة المبكرة برغبة السلطات الرومانية في القضاء على التأثيرات البونية المتجذرة بوليلي، والتي يعد منصب الشوفيط الوارد في نقيشة ماركوس فاليريوس (Marcus Valerius) من أهم مظاهرها.

رسميًا، وعلى المستوى النقائشي (تعد النقائش المرآة العاكسة لسياسة الرومنة على المستوى البلدي)، تعتبر نقيشة وليلي المؤرخة بنهاية النصف الأول من القرن الأول للميلاد أقدم نقيشة لاتينية تعكس وجها من وجوه الرومنة الرسمية أو البلدية. ومن عجيب الصدف أن يتعلق موضوع هذه النقيشة بالرومنة، فقد أهدى سكان بلدية وليلي، بقرار من المجلس المحلي للمدينة وتحت رعاية حاكم الإقليم، نصبًا تذكاريًا للإمبراطور كلود (Claude=41-54) الذي منحهم المواطنة الرومانية، وامتيازَيْ الشرعية الرومانية فيما يخص الزواج، والإعفاء من أداء الضريبة[٣٤].

وتعتقد سيغمان (Sigman) أن موريطانيا الطنجية كان آخر الأقاليم – ضمن أقاليم روما– التي تمت رومنتها، وأن إدماجه في بنية الإمبراطورية كان محدودا بالنظر إلى معطيات حضرية واقتصادية وتجهيزية وثقافية معينة[٣٥]. ينضاف إليها عاملا البعد الجغرافي وكذا المحيط الأطلنتي باعتباره حاجزا طبيعيا. ويبدو أن مدينة سلا شكلت الحد الجنوبي للمجال المترومن بالإقليم. واعتبرت الباحثة كريستين حمدون أن سياسة الرومنة التي انتهجتها السلطات الرومانية بموريطانيا الطنجية كانت سطحية وهشة[٣٦]، ونفس الموقف عبر عنه مارسيل بنعبو لكن هذه المرة بتشبيه لا يخلو من رمزية ودلالة، حيث شبه شمال إفريقيا المُتَروِّمن بمثلث قاعدته إقليم البروقنصلية ويضيق عند القيصرية ونوميديا ورأسه إقليم موريطانيا الطنجية[٣٧].

ونجد تفسيرًا لهذا الأثر المحدود لسياسة الرومنة – حسب ما يذهب إليه الباحثان– بالمجال الموريطاني الطنجي في التأثيرات البونية العميقة والمتجذرة في مجالات عديدة من مجالات حياة المجتمع المغربي القديم[٣٨]. وقد كانت روما مُدركة لحجم هذه التأثيرات التي كبحت سيرورة الرومنة خلال القرن الأول للميلاد عبر استمرار التقاليد البونية على حد قول الباحث لوبولي (Lepelley)[٣٩]، لذلك سعت قبل إلحاق الإقليم بالإمبراطورية، إلى تكثيف وتنويع آليات هذه السياسة في سبيل طمس معالم البصمات البونية وتثبيت ركائز نموذجها "الحضاري"، وذلك عبر تحييد جذور الإرث البوني (Dépunicisation)[٤٠]. إلى جانب هذه

التأثيرات البونية كانت هناك تأثيرات أقل حدة لكنها واضحة، تتعلق بتلك الهيلينية، التي يقول عنها دوزونج (Desanges): " بموريطانيا، على العكس، لدينا العديد من الأدلة على وجود تأثير إغريقي في مجالات الهندسة المعمارية والتعمير، إلى جانب شواهد على التأثيرات الهيلينية (influences hellénistiques) على الملوك قبل إحداث المملكة المحمية(royaume protégé)"(٤١).

وتورد بعض المصادر أن بوكود (Bogud) ملك موريطانيا الغربية كان متزوجا من سيدة تحمل اسمًا إغريقيا وهو أونووي (Eunoé)، وأن قيصر روما كان يحبها، لذلك كان يغدق عليها وعلى زوجها بالهدايا الكثيرة والنفيسة(٤٢)، وهو ما يعكس تأثيرًا أونوماستيكيا هيلينيا على ملوك موريطانيا الغربية.

إلى جانب ذلك أكدت الأبحاث الأثرية حضور التأثيرات الإغريقية على بقايا أبنية في كل من مدن تامودا (Tamuda) ووليلي (Volubilis) وليكسوس (Lixus) وتنكي (Tingi) وسلا (Sala)، تؤرخ للقرنين الثاني والأول قبل الميلاد، وتشير إلى وجود بصمات قواعد التعمير الهيليني التي تعايشت مع الهندسة المحلية الموريطانية الخالصة(٤٣). يضاف إلى ذلك تأثر الملك يوبا الثاني (Juba II) بالثقافة الإغريقية، حيث ينسب إليه تأليف عدد من الكتب -التي لم يصلنا منها شيء- باللغة الإغريقية وفي مجالات مختلفة مثل التاريخ والجغرافيا وعلوم النباتات(٤٤). كما كان عبيد ومعتقو البلاط الملكي ليوبا الثاني يتخذون أسماء إغريقية في غالب الأحيان(٤٥). ولم يقف التأثير الإغريقي عند هذا الحد، بل مَسَّ كذلك رمز السيادة المالية لمملكة يوبا الثاني، فقد ضرب الملك نفسه خلال توليه الحكم نقودا برونزية تضم كتابة باللغة الإغريقية جاء فيها ما يلي(٤٦): (IOBA BACIAEY). واستمرت الملكة كليوباترا سيليني (Cléopâtre Séléné) في سك نقود ذهبية وفضية باللغة الإغريقية (KAEOIIATPA BACIAICCA)، إلى جانب اللغة اللاتينية (REX IVBA)(٤٧).

كما كان وراء محدودية تأثير سياسة الرومنة على ساكنة إقليم موريطانيا الطنجية ما اصطلح عليه "مقاومة الرومنة"، وهو مفهوم ظهر لأول مرة - حسب علمنا- مع مارسيل بنعبو خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ويعني رفض الساكنة المحلية لشمال إفريقيا الروماني للنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والثقافي الذي أتت به روما. ويقدم الباحث العديد من نماذج هذه المقاومة لدى المجتمعات المحلية بشمال إفريقيا، إذ يكفي أن نذكر استمرار تواجد الآلهة الإفريقية المحلية مثل الإله ساتورن (Saturne) والإله بكاكس (Bakaks) اللذان يدل، انتشارهما بأقاليم شمال إفريقيا، على فشل روما في سياسة الرومنة الدينية(٤٨). ونفس الشيء نجده ببلدية وليلي التي عرفت استمرارا لعبادة آلهة محلية مثل ساتورن (Saturne) وأفريكا (Africa) وأوليزوا (Aulisua)، كما تُظهر ذلك مختلف النقائش اللاتينية المتعلقة بالمدينة.

وتظهر مقاومة الرومنة كذلك في التمردات والثورات والقلاقل التي قادها أفراد محليون ضد القوات الرومانية منذ نهاية القرن الأول قبل الميلاد وطيلة القرون الثلاثة الأولى للميلاد، يكفي أن نذكر ثورات كل من تاكفاريناس (Takfarinas) وأيديمون (Aedemon)وفيرموس (Firmus) وغيرها. إلى جانب ذلك وجود قبائل محلية شكلت شوكة في حلق روما، من قبيل قبائل الباكوات (Baquates) والباوار (Bavares)والماكينيت(Macénites) بالمجال المغربي القديم. يبدو أن الساكنة المحلية غير المترومنة كانت تشكل غالبية مجتمعات المدن، كان موقفها رافضًا للرومنة أبانت عنه من خلال المظاهر سالفة الذكر. لقد وصف لورو (Le Roux) هذا الرفض بالمحافظة (conservatisme) العنيدة(٤٩)، وقال في هذا الصدد: " في الأقاليم لا يشكل المترومنون سوى الجزء الطافي من قطعة الجليد (iceberg)، ويخفون السخط الصامت وإحباطات العدد الأكبر من الذين لا يترددون في التعبير عنه"(٥٠).

ثانيًا: الرومنة القانونية لمدن موريطانيا الطنجية

٢/١-الرومنة القانونية قبل الرومنة البلدية

إن تأسيس مدن رومانية ذات وضعيات قانونية مختلفة – مستوطنات وبلديات– وعلى النمط الروماني الخالص يُعَدّ مظهرًا أوليًا لسياسة الرومنة القانونية التي انتهجتها روما، ليس فقط بأقاليم شمال إفريقيا وضمنها إقليم موريطانيا الطنجية، بل بجميع الأقاليم الملحقة بالإمبراطورية الرومانية انطلاقًا من العهد الجمهوري وطيلة العهد الإمبراطوري بفترتيه العليا والسفلى. ويبدو أن السلطات الرومانية اعتمدت الرومنة القانونية للمدن قبل الرومنة البلدية، ففي المدن الأجنبية سبقت الرومنة القانونية نظيرتها الرسمية حسب أحد الباحثين[٥١]. بمعنى أن روما كانت تتبنى سياسة الارتقاء بالمدن من الوضع الأجنبي القائم على الأعراف والتقاليد الأهلية، وعلى نظام التدبير المحلي الموروث عن النموذج البوني كما هو الشأن بالنسبة لمدينة وليلي ما قبل الوجود الروماني، نحو نموذج أقرب ما يكون إلى نموذج المدينة الرومانية المعروفة بمؤسساتها البلدية.

إن هذا التحول على مستوى الوضع القانوني للمدن يعتبر لبنة أولى نحو بناء أسس متينة لرومنة شاملة، لأن هذا التغيير تتبعه مجموعة من المقتضيات الجديدة والمستجدات القانونية والإدارية التي توحي بترسيخ الثقافة اللاتينية، وذلك من خلال استنساخ النموذج الروماني بكل مقوماته. وفي هذا الإطار لا يجب الحديث عن الوضعية القانونية بمعزل عن الرومنة، فالحديث عن الأولى رهين بسياسة الرومنة التي تبنتها روما وبمدى نجاعتها، فكلما ارتقت المدن باستمرار إلى وضعيات قانونية أسمى، كانت سياسة الرومنة على الأرجح ناجعة وفعالة، وبالتالي يتم الانتقال إلى مراحل أخرى متقدمة. من الواضح أن منح المدن الأجنبية وضعا قانونيا جديدا كان الهدف منه قطع الصلة بين هذه المدن وبين نظام تدبيرها الموروث، ومحاولة إدماجها ضمن منظومة روما الجديدة، وهو ضرب من ضروب سياسة الرومنة التي اعتمدتها سلطات الاحتلال الروماني لبسط مزيد من السيطرة والنفوذ على المجال المحتل.

وقد استندت الرومنة القانونية على أسس وقواعد أساسية تمت مراعاتها، تمثلت بشكل أساسي في المعطيات المحلية التي جمعتها روما عن كل مجال تريد السيطرة عليه[٥٢]، فوليلي البونية مثلا وقبل التحول الذي عرفته نحو الوضع الروماني كانت هدفا لبعثتين استكشافيتين، حسب كاسكو: الأولى لِسويطونيوس باولينوس (Suetonius Paulinus)، والثانية لكنايوس هوزيديوس كيطا (Gnaeus Hosidius Geta)[٥٣]. أما الأساس الثاني فيتمثل في الاختيارات السياسية للأباطرة[٥٤]، بمعنى السياسة التي سطرتها السلطة الإمبراطورية لهذا الإقليم أو ذاك فيما يخص ارتقاء المدن إلى وضعيات قانونية جديدة.

أما احترام القوانين والتقاليد المحلية للساكنة الأهلية، والذي يروج له بعض الباحثين باعتباره مبدأ أساسيًا وأحد مفاتيح نجاح هذه السياسة[٥٥]، فلا يعدو أن يكون إلا إقرارا بالأمر الواقع وتريثا من قبل السلطات الرومانية وتدرجا في مسلسل الرومنة بشكل عام. وينزع البعض الآخر نحو الاعتقاد بأن منح المدن وضعية قانونية جديدة رهين بمدى تقديم سكان هذه الحواضر للخدمات التي تعكس ولاءها لروما[٥٦]، في حين أن المسألة أعمق بكثير. فالسبب الحقيقي وراء ذلك، يكمن في مدى ترومن نخبة المدن وقابلية الساكنة للانصهار داخل المنظومة الثقافية والإدارية والسياسية الرومانية. وقد بدأت الرومنة القانونية بموريطانيا بشكل مبكر، فرغم وجود نظام ملكي محلي بهذا المجال (مملكة يوبا الثاني)، إلا أن الحكام الرومان نهجوا سياسة إدماج قانونية للساكنة المحلية بدأت مع أوكتافيوس (Octavius) الذي تعتبر فترة حكمه مرحلة مهمة ضمن مشروع رومنة البلاد برمتها[٥٧]. وسار الإمبراطور كلود (Claude) على نفس النهج منذ سنة ٢٥ قبل الميلاد، حيث لم يتوان عن تحويل معتقي ورعايا الملك بطليموس إلى مواطنين رومانيين أو مواطنين يتمتعون بالحق اللاتيني[٥٨].

٢/٢-القانون اللاتيني أساس الرومنة القانونية

يعتبر القانون اللاتيني من القضايا التي مازالت تثير العديد من الإشكاليات إلى حد الساعة، ويتسم بالغزارة

على المستوى البيبليوغرافي[٥٩]، كما أنه قسم الباحثين إلى معسكرين: الأول يعتقد بوجود الوضع اللاتيني قبل الوضع الروماني ويمثله سوماني (Saumagne)، والثاني لا يعترف بوجود هذا الوضع ويؤكد سيادة القانون الروماني مباشرة، ويمثله كاسكو (Gascou).

ظهر القانون اللاتيني (ius Latii) خلال العهد الجمهوري لتنظيم العلاقة بين روما والمدن اللاتينية، التي تتمتع بالحق في التجارة (ius commercium) والحق في الزواج (ius conubium)، اللذان أضيف إليهما سنة ٢١٢ ق.م حق الاستئناف (ius provocationis) بالمحاكم[٦٠]. ويسمى السكان الأحرار غير المترومنين بمختلف هذه المدن لاتينيين (cives Latini)، وهم الذين يمكنهم الحصول على المواطنة الكاملة من خلال ثلاث طرق: ممارسة وظيفة سنوية بإحدى البلديات اللاتينية، والتخلي عن "المواطنة المحلية" والاستقرار بروما، وأخيرا كسب قضية أمام المحكمة ضد موظف بلدي بتهمة الاختلاس[٦١].

ويبدو أن هذا القانون اللاتيني عرف تطورات وتغييرات مع مرور الوقت، وأصبحت تخضع له المدن غير الرومانية، بمعنى البلديات والمستوطنات ذات القانون اللاتيني التي تم تأسيسها خارج إيطاليا بالأقاليم المتنوعة، مثل مدينة إيرني (Irni) الإسبانية ومعها باقي مدن الولاية على أغلب الظن، ومدن غاليا السيزالبينية (Gaule Cisalpine) الواقعة شمال إيطاليا، خلال النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد.

ينقسم هذا القانون إلى قسمين: قسم يشمل القانون اللاتيني الأدنى (ius Latii minus) أو القديم الذي أسسه أوغست، ويظهر من اسمه (minus) الذي يعني في اللغة اللاتينية الأقل والأدنى، إنه قانون غير مكتمل ويُمنح لأشخاص لا يتمتعون بكامل الحقوق المدنية داخل المدينة. وقسم ثان يهم القانون اللاتيني الأعلى (ius Latii maius) الذي تم إحداثه من قبل الإمبراطور هادريان (Hadrien=117-138) الذي حكم خلال النصف الأول من القرن الثاني للميلاد، ومنح بموجبه المواطنة الرومانية إلى ديكوريونات (Décurions) وأعضاء المجالس المحلية للمدن وعائلاتهم[٦٢]. ويبدو أن هذا القانون جاء لتسريع رومنة الساكنة المحلية، حيث اعتمدت السلطات الرومانية في هذه المرحلة على الجانب اللغوي والثقافي من خلال إقامة الحفلات والألعاب[٦٣]. ويظهر الأمر منطقيًا لأن السلطات الرومانية في هذه المرحلة كانت تسعى جاهدة لإدماج ساكنة المدن اللاتينية وتهييئها لولوج منظومة الثقافة الرومانية، والوصول في نهاية المطاف إلى وضعية المدن ذات القانون الروماني.

يقوم القانون اللاتيني بنوعيه الأدنى والأعلى بدور مهم وحاسم في رومنة المدن الأجنبية. إذ أن منح هذا القانون شكل تشغيلاً لأداة رومنة قانونية فعالة على نطاق واسع[٦٤]. كما أن وضعية المدينة اللاتينية تسبق غالبًا ولوج القانون الروماني، بمعنى الحصول على المواطنة الكاملة حسب مارسيل بنعبو[٦٥]. إن عملية الارتقاء بالوضعية القانونية للمدن من أجنبية إلى مدن ذات القانون اللاتيني يسبقها حسب فرنسوا جاك (F. Jacques)، مسلسل "لَيْتَنَة" (Latinisation) مكثفة ومنظمة على مستويات متعددة: سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية[٦٦]. ويعد هذا المسلسل قاعدة أساسية وعاملا حاسما نحو اندماج أفضل للعناصر الأجنبية (peregrinus) بالمنظومة الرومانية.

كما عرفت المناطق الإيطالية انتشارًا واسعًا للقانون اللاتيني، حيث شكل خلال العهد الجمهوري أداة أساسية لرومنة المجال[٦٧]، ويقدم لنا هويسلر (Häussler) نموذجين لمدينتين بمنطقة طرانسبادانيا (Transpadane) إحدى أخصب الأراضي بشبه الجزيرة الإيطالية، يتعلق الأمر بمدينتي فيرسيل (Verceil) ونوفار(Novare) الأجنبيتين اللتين تحولتا إلى مستوطنتين لاتينيتين بعد سنة ٨٩ قبل الميلاد، ثم إلى بلديتين رومانيتين خلال سنة ٤٩ قبل الميلاد[٦٨].

وتحدث شاسطانيول (Chastagnol) عن مدن أجنبية بإقليم الناربونيز (Narbonnaise)، كانت تتمتع بالقانون اللاتيني قبل أن تتحول إلى مدن ذات القانون الروماني[٦٩]. فقد حصلت فيين (Vienne) –التي تبعد بحوالي ٣٠ كلم جنوب مدينة ليون (Lyon) الحالية– على القانون الروماني بين سنتي ٣٥ و٤٨ م، وارتقت مدينة

تريكاستان (Tricastin) – التي تقع جنوب شرق فرنسا– إلى مصاف المستوطنات الرومانية خلال عهد الإمبراطور فيسباسيان (Vespasien=69-79)، وتحولت مدينة أفينيون (Avignon) –القريبة من المدينة السابقة– إلى نفس الوضعية القانونية السالفة خلال حكم الإمبراطور هادريان.

أما بأفريقية البروقنصلية، فيرى الباحث لورو (Le Roux) أن الجماعات المحلية ذات الوضع البلدي (مستوطنات وبلديات) مرت من مرحلة الوضعية اللاتينية قبل أن تتحول إلى الوضع الروماني، وأن القانون الروماني اختفى بمجرد إصدار كركلا (Caracalla=212-217) لقراره الشهير الخاص بمنح المواطنة لجميع ساكنة الإمبراطورية الرومانية الأحرار[٧٠]. لا يستبعد أن تعرف مدن موريطانيا الطنجية القانون اللاتيني في فترات مختلفة، وأن تَهُب نسماته من الجيران الشماليين والشرقيين على حد سواء، وأن تمر بفترة قانونية انتقالية تخرجها من المرحلة اللاتينية نحو المرحلة الرومانية، بعد أن تكون قد قطعت شوطا مهما من الترومن في ظل نظام بلدي روماني خالص.

٣/٢-وليلي وتنكي اللاتينيتان، نموذج الرومنة القانونية لمدينتين بموريطانيا الطنجية

(٣/٢) ١-إشكالية وليلي اللاتينية

أثيرت مسألة الوضع القانوني لبلدية وليلي بشكل كبير بين الباحثين، بين من يعتبرها بلدية لاتينية خلال عهد الإمبراطور كلود، وبين من يصنفها ضمن البلديات الرومانية التي حصلت على كامل المواطنة الرومانية، مستندين في فرضياتهم إلى معطيات تاريخية وإبيغرافية وأونوماستيكية.

يرى الباحث شاسطانيول (Chastagnol) أن وليلي تمتعت بالقانون اللاتيني خلال عهد كلود، ويقول في هذا الصدد: "مع صعود نجم البلديات اللاتينية منذ عهد كلاوديوس، من المحتمل أن يكون وَضْعُ بلديات المواطنين الرومان قد اختفى شيئًا فشيئًا في مدن أخرى من هذا النوع، بما في ذلك وليلي بموريطانيا الطنجية، على الرغم من أن غياب نقائش خاصة بهذا الموقع، والتي تؤرخ لفترة ما بعد تراجان (Trajan)، لا يَسمح لنا بالتأكد ضمنيا بالاحتفاظ بنفس الوضع الذي أصبح متقادمًا من حيث الممارسة"[٧١].

ويعتقد الباحث التونسي بيشاوش أن المدينة كانت عبارة عن بلدية ذات القانون اللاتيني، حيث تم منح هذا الامتياز للساكنة بشكل جماعي خلال عهد الإمبراطور كلود، ويقدم نموذجا مشابها لوليلي بموريطانيا القيصرية، يتعلق الأمر بمدينة إيكوزيوم (Icosium) التي حازت نفس القانون خلال عهد فيسباسيان (Vespasien)[٧٢]. واعتبر أنه بعد نهاية فترة حكم الإمبراطور كلود (Claude) وإلى حدود عهد فيسباسيان كأبعد تقدير، لم تعد هناك سوى البلديات ذات القانون اللاتيني[٧٣]. وتعتبر إحدى النقائش الخاصة بمدينة كيغتيس (Girthis) بالبروقنصلية النقيشة الوحيدة بشمال إفريقيا برمته حسب علمنا[٧٤]، التي تشير إلى تمتع المدينة بالقانون اللاتيني الأعلى (Latium Maius)، بعد سفارتين لكبار موظفيها لروما بهدف الحصول على القانون المذكور، كما رأينا ذلك على امتداد صفحات من دراسة سابقة[٧٥]، ويعتبر ارتقاء هذه المدينة شبيها إلى حد كبير بارتقاء مدينة وليلي.

لقد تم تطبيق هذا القانون في العديد من الأقاليم الرومانية المختلفة، حيث أثبتت القوانين البلدية أو النقائش اعتماده في أقاليم إسبانيا (Hispania)، وغاليا طرانسبادانا (Gallia Transpadana)، والأراضي السيلتية (territoires celtiques)، والأقاليم الدانوبية (les provinces danubiennes)، وأقاليم شمال إفريقيا. وفي نفس السياق يحدد شاسطانيول (Chastagnol) نهاية القرن الأول للميلاد كتاريخ لانتشار القانون اللاتيني في كل مكان بالغرب الأوروبي، وحتى داخل المستوطنات الرومانية بالنسبة للساكنة الأهلية التي لا تتمتع بحقوق المدينة الرومانية[٧٦]. (جدول نماذج مدن ذات قانون لاتيني تحولت فيما بعد إلى القانون الروماني)

يمكن أن نتحدث عن سياسة الليتنة[٧٧] (Latinisation) قبل الرومنة، وقد باشرت روما هذه السياسة قبل الاحتلال المباشر للمجال المغربي القديم،

فقامت بتغيير أسماء المدن إلى اللغة اللاتينية، والأمثلة كثيرة: زيليل (Zilil)، وبناصا (Banasa)، وتاموسيدا (Thamusida)، وأوبيدوم نوفوم (Oppidum Novum)، وليكسوس (Lixus)، وروسادير (Rusaddir)، وتنجيس (Tingis)، وسيبتيم (Septem)، وفوليبيليس (Volubilis). ونفس النهج اتبعته بموريطانيا القيصرية وبأفريقية البروقنصلية.

تلت هذه العملية "ليتنة" النخبة المحلية الحاكمة، حيث استغلت السلطات الرومانية الإرث البوني في مختلف المدن كي تبني عليه نموذجها الروماني، لكن هذه العملية تمت بتدرج محكم وسلس، بهدف إدماج كامل وفعال لهذه النخبة كمرحلة أولى، ثم لباقي المكونات السكانية للمدن في مرحلة لاحقة. وصَاحب هذه العملية أيضا رومنة قانونية من خلال تحويل العديد من المدن من الوضع الأجنبي إلى الوضع اللاتيني. كما رافق هذه العملية "ليتنة" الأسماء والأعلام (Latinisation onomastique) تبنتها روما لمواجهة التأثيرات البونية وإضفاء الصفة اللاتينية على الأسماء المحلية، ويمكن اعتبارها من المظاهر الكبرى لسياسة الرومنة بالمجال المغربي القديم. وتعد مدينة وليلي نموذجا واضحا لهذه السياسة، فقد استمر انتشار الأسماء اللاتينية بالمدينة، حيث أفرزت النقائش اللاتينية عدة ألقاب (surnoms) لاتينية في هذا الباب[٧٨]، مما يدل على تمتع وليلي بالقانون اللاتيني في مراحل معينة.

والظاهر أن هذه السياسة الرومانية كانت نفسها المتبعة بالبروقنصلية، حيث يتحدث الباحث التونسي بن عكاشة عن سياسة ليتنة "أونوماستيكية" واضحة لمدينة ماكتاري (Mactaris) خلال عهد حكم الأسرة الفلافية (Les Flaviens=69-96)، والتي سبقت الرومنة القانونية للمدينة ولساكنتها[٧٩]. وشهدت مدن ولاية إسبانيا سياسة مماثلة عند تحولها إلى بلديات لاتينية خلال عهد الإمبراطور فيسباسيان، مما يظهر أن وليلي لم تكن استثناء داخل شمال إفريقيا الروماني وداخل حوض البحر الأبيض المتوسط عمومًا. وتجدر الإشارة إلى أن أول حاكم أو ديوفير (Duovir) ببلدية وليلي كان يحمل لقبين من أصول لاتينية (Valerius Severus) ضمن اسمه الثلاثي، مما يوحي بانتشار هذين اللقبين بالمدينة خلال النصف الأول من القرن الأول للميلاد، وحتى قبل هذا التاريخ، ضمن الألقاب اللاتينية الأخرى التي كانت تهدف روما من خلالها طمس معالم التأثير البوني، والذي نجده أيضًا ضمن اسم الشخصية المذكورة "ابن بوسطار".

وإن دل هذا الأمر على شيء فإنما يدل على سياسة التدرج في رومنة الساكنة التي تحدثنا عنها سابقًا، حيث يتم الانتقال من الوضع القانوني الأجنبي إلى الوضع اللاتيني ثم أخيرًا الوضع الروماني.

كما أن مدنا أخرى بموريطانيا الطنجية عرفت انتشارا واسعا لألقاب ذات أصول لاتينية، لا شك أنها انتشرت في هذه المدن خلال الفترة التي عرفت فيها، على ما يبدو، القانون اللاتيني. ونقصد بذلك مدن تنكي وبناصا وسلا. هكذا يبدو إذن أن وليلي الأجنبية ارتقت إلى وضع البلدية اللاتينية أو الشوفيطية (municipe suffétal) على حد تعبير مارسيل بنعبو[٨٠]، وهو الأمر الذي تزكيه العديد من الأدلة والقرائن التاريخية والقانونية[٨١]، حيث حافظت على عملتها المحلية ومؤسساتها وعاداتها وتقاليدها الأهلية، مثلها مثل المستوطنات اللاتينية التي عرفت انتشارا واسعا بإقليم الناربونيز (Narbonnaise)[٨٢].

(٣/٢) ٢-تنكي مدينة لاتينية؟

أثارت المعطيات المتعلقة بالمسكوكات (numismatiques) والأعلام (onomastiques)، في ظل غياب وثائق أدبية وإبيغرافية شافية، العديد من الإشكالات حول وضعية المدينة القانونية، مثلها مثل باقي مدن موريطانيا الطنجية، وبشكل خاص الوضع القانوني اللاتيني. نعلم من خلال نص لديون كاسيوس (Dion Cassius) أن تنكي تحولت إلى جماعة أو تجمع للمواطنين الرومانيين خلال فترة حكم أوكتافيوس (Octavius) سنة ٣٨ ق.م[٨٣]، اعتبرها كاسكو (Gascou) بلدية رومانية[٨٤]، حافظت على نفس الوضعية إلى غاية مجيء الإمبراطور كلود (Claude)، الذي حولها حسب كريستين حمدون (C. Hamdoune) إلى مستوطنة شرفية نظرا لماضيها العريق، ولدرجة الرومنة المتقدمة التي وصلت إليها المدينة[٨٥].

واستناداً إلى الفرضيتين السابقتين من المرجح أن تكون المدينة قد عرفت القانون اللاتيني قبل ارتقائها إلى بلدية رومانية خلال عهد أوكتافيوس (Octavius)، ونرتكز في افتراضنا هذا على منطلقات تهم الأعلام والمسكوكات، وأخرى ذات طابع إداري. يمكننا اعتبار وجود عدد مهم من الأسماء ذات الأصل اللاتيني بمثابة حجة لصالح تمتع المدينة بالقانون اللاتيني. فبمجرد أن أصبح سكان المدينة "مواطنين لاتينيين" فإنهم حافظوا على الأسماء اللاتينية التي لُقبوا بها عندما كانوا أجانبًا، وقد خَلَّدت لنا النقائش والنقود المتعلقة بالمدينة أمثلة كثيرة لهذه الألقاب اللاتينية[٨٦].

كما هو معلوم كان على رأس البلديات والمستوطنات الدومفيرات والأيديلات والكوايسطورات، لكن ظهرت هيئة حاكمة تتكون من قاضيين وأيديل (Triumviri)، أو من قاضيين وأيديلين (Quattorviri)، ظهرت بالمستوطنات اللاتينية وغالبية البلديات الإيطالية[٨٧]، وبالمدن ذات القانون اللاتيني بشمال إفريقيا على ما يبدو. فخلال عهد قيصر (César) كانت مدينة كيرتا (Cirta) النوميدية حسب الباحث توتش (Teutsch) مستوطنة لاتينية وعلى رأسها أربعة حكام (Quattorvirs) وأن أوكتافيوس (Octavius) هو الذي منحها لاحقا وضعية المستوطنة الرومانية التي يسيرها دومفيران (Duumvirs)[٨٨]، وهو ما يعارضه بشدة الباحث الفرنسي كاسكو (Gascou) الذي اعتبر أن المستوطنة التي أسسها أوكتافيوس بين ٣٦ و٢٧ ق.م كانت تتمتع بالوضع الروماني، بمعنى مستوطنة رومانية، كان يسيرها دومفيران وأيديلان أو أيديلات (Aediles) حملوا، وفق تقليد سائد، اسم الحكام الأربعة (Quattorvirs)[٨٩].

ونجد نفس الباحث يتحدث عن الحكام الثلاثة (Triumviri) لمدينة ماكتاري (Mactari)، وأن هذه الصفة التي نعتوا بها إنما هي صفة للشوفيطات (Suffètes) الذين ترومنوا[٩٠]، على ما يبدو خلال الفترة الانتقالية التي تسبق الوضع الروماني، وهو ما يشير إلى تناقض واضح وقع فيه الباحث. فنظام الحكم الثلاثي أو الرباعي هذا في حقيقته موروث عن الحقبة البونية، حافظت عليه روما في مرحلة أولى عند تحول المدينة الأجنبية إلى مستوطنة أو بلدية لاتينية، وبمجرد حصول المدينة على القانون الروماني فإن نظام الحكم هذا يتحول إلى الدومفيرا (Duumvirat)، وهو ما تناوله الباحث التونسي بيشاوش بالتفصيل في مقال له حول مدينة ماكتاري اللاتينية، حيث اعتبر أن الإمبراطور هادريان منح المدينة القانون اللاتيني، وسُمِي خلالها الشوفيطات الثلاث حكاما أو تريوفيرات (IIIviri)، بعدما كان التقليد البوني - يقصد نظام حكم المدينة- هو السائد إلى غاية فترة الإمبراطور تراجان (Trajan=98-117). ولاحقا تحولت المدينة ذات القانون اللاتيني خلال حكم الإمبراطور مارك أوريل (Marc Aurèle=169-180) إلى مستوطنة[٩١].

وقد قدم الباحث مازار (Mazard) في جامعه الشهير لمسكوكات موريطانيا عدة قطع نقدية خاصة بمدينة كيرتا (Cirta) النوميدية، ورد بها اسم أحد حكام المدينة (Quattorvir) المدعو ب. سيتيوس موكونيانوس (P. Sittius Mugonianus)، كما وردت صورة له إلى جانب رموز مختلفة مثل حيوان الخنزير البري أو صورة تمثال نصفي للإله يوبيتر (Jupiter)[٩٢]. ولم يقتصر الأمر على شمال إفريقيا فقط، بل إن العديد من المدن بإقليم الناربونيز (Narbonnaise) مثلا، عرفت وجود أربعة حكام أو ثلاثة على رأس هرم سلطتها المحلية، ويحدثنا كريسطول (Christol) في هذا الصدد عن مستوطنة فيين (Vienne) اللاتينية التي كان على رأسها أربعة حكام (Quattorvirs)، ويؤكد أن هذه المناصب تدخل في إطار التنظيم المؤسساتي للمدينة[٩٣].

وبالعودة إلى مدينة تنكي المحتمل حصولها على القانون اللاتيني كما رأينا، فقد أفرزت مسكوكاتها نظام الحكم الرباعي (Quattorvirat) إن صح القول، والذي يعد نظاما انتقاليا من المرحلة الأجنبية نحو المرحلة الرومانية. وظهرت العديد من القطع النقدية الخاصة بتنكي تحمل عبارة «IV VIR» [٩٤]، كان آخرها القطع النقدية التي وردت عند عالم الآثار والمتخصص الإسباني في المسكوكات الرومانية ريبوليس (Ripollès) وآخرين، والتي حملت الكتابة التالية[٩٥]:

"يوليا تنكي فابيلوس أنتيستيوس حاكم رباعي ... "
IVL TINGI FABVLLVS ANTISTIV-S IV VIR E
D D// L BAEBIVS COSA M CLODIVS L M AID.

كما وردت عند مازار (Mazard) العديد من القطع النقدية ذات اللغة المزدوجة اللاتينية والبونية[٩٦]، مما يعد شاهدا على رومنتها التدريجية قبل أن تصبح الكتابة لاتينية في نهاية المطاف، وتختفي التأثيرات البونية والبونية الجديدة بشكل نهائي، رغم تقليل البعض من أهمية استمرار وجود هذه الكتابة البونية على نقود مدينة تنكي واستبعاد كونها دليلاً على الوضع اللاتيني[٩٧].

ثالثًا: المواطنة الرومانية رافعة الرومنة القانونية

تعرف المواطنة الرومانية (Civitas Romana) بكونها تلك الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية التي يخولها القانون الروماني لكل متمتع بصفة مواطن روماني[٩٨]، إلى جانب الامتيازات المتعددة التي يمكن أن يحصل عليها، في مقابل الالتزام بواجبات وأعباء (Munera) تجاه الجماعة التي ينتمي إليها. وإذا كان العهد الجمهوري قد عرف منحا محدودا للمواطنة شمل بشكل خاص كبار الموظفين والمسؤولين، فإن العهد الإمبراطوري، وإلى غاية بداية القرن الثالث للميلاد، عرف انتشارًا كبيرًا وواسعًا للمواطنة الرومانية خاصة بالأقاليم المحتلة.

٣/١-طرائق الحصول على المواطنة الرومانية

(١/٣) ١-منح الأباطرة للأشخاص

منح الإمبراطور المواطنة الرومانية بشكل شخصي (concession viritane) لأفراد معينين بتوصية من موظف سام كحاكم الإقليم أو من صديق أو مقرب من الإمبراطور[٩٩]. وتقدم لنا لائحة بناصا النحاسية الشهيرة مثالاً واضحًا عن هذا النوع من المنح الإمبراطوري بموريطانيا الطنجية خلال النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد[١٠٠]، حيث حصل زعيم قبيلة الزكرنتيين المدعو يوليانوس (Iulianus) على المواطنة الرومانية بعد تقديم التماس، إلى جانب زوجته زيدينا (Ziddina) وأبناءه الأربعة وهم: يوليانوس (Iulianus) وماكسيموس (Maximus) وماكسيميانوس (Maximianus) وديوكينيانوس (Diogenianus).

(١/٣) ٢-انتهاء الخدمة العسكرية

تمكن الخدمة العسكرية، التي قد تستمر لخمس وعشرين سنة، العناصر الأجنبية من الحصول على المواطنة الرومانية، وتعد الديبلومات العسكرية شاهدا مهما على حصولهم على هذا الامتياز خلال نهاية الخدمة، إلى جانب امتيازات أخرى تمثلت بشكل أساسي في قطعة أرضية ومكافأة مالية[١٠١]، ونسختين من الشهادة التي يتحصل المستفيد على إحداها، بينما تُعَلَّق الأخرى بالمدينة، بالإضافة إلى إضفاء الشرعية على زواجه بمعنى الزواج وفق القانون المدني، ومنح أبناءه وذريته المواطنة، حسب ما جاء في الديبلومات العسكرية البرونزية والنحاسية التي تم العثور عليها بمختلف مدن موريطانيا الطنجية، والتي تعد كل من وليلي وبناصا أكثر مدينتين غنى على هذا الصعيد، حيث بلغ عددها حوالي ثلاثة عشر نسخة في كل مدينة.

من جهة أخرى تفيدنا هذه الديبلومات العسكرية مسألة غاية في الأهمية، تتجلى في تراجع تجنيد العناصر الإيطالية على حساب العناصر الأجنبية في الأقاليم وضمنها موريطانيا الطنجية، حيث أصبحت عملية الانتقاء تتم من داخل المدن والقرى. ويُرَجَّح أن تعود الأسباب الكامنة وراء ذلك إلى انخفاض نسبة الولادات بإيطاليا، ورفض المواطنين الخدمة العسكرية في المناطق البعيدة، وسياسة الأباطرة القائمة على الاعتماد على العناصر الأجنبية بدل المحلية التي كانت مهابة الجانب (تجربة الحروب الأهلية)[١٠٢].

(١/٣) ٣-القانون اللاتيني

تحت تأثير القانون اللاتيني يتمكن بعض الأفراد من ولوج قانون المدينة الرومانية، وذلك إثر تقلدهم مهام أو وظائف رسمية بالمستوطنات والبلديات اللاتينية. وحدد الفصل الواحد والعشرون من قانون إرني (Irni) الطريقة التي يحصل من خلالها موظفو البلدية اللاتينية –سيناتورات وديكوريونات– على المواطنة الكاملة بعد انتهاء خدمتهم البلدية، كما يستفيد آباؤهم وأزواجهم وأبناؤهم وأحفادهم من نفس الامتياز[١٠٣].

وقد يستفيد "المواطن اللاتيني" القاطن ببلدية لاتينية من المواطنة الرومانية في حالتين اثنتين: تتمثل الأولى في التخلي عن مواطنته الخاصة والإقامة بروما، وتتجلى

الثانية في كسب قضية أمام المحكمة ضد موظف روماني استغل منصبه للحصول على مبالغ أو إعفاءات مالية أو ضريبية مستحقة لخزينة المدينة التي يقطنها (délit de concussion)[١٠٤]. وتتحدث إحدى الباحثات عن استفادة اللاتيني من المواطنة الكاملة في حالة قيامه بأنشطة ذات نفع عام داخل المدينة، مثل الجندية وتشييد المباني العمومية ومهام البحرية وغيرها[١٠٥].

(١/٣) ٤-الوراثة

يحصل الأبناء من أب وأم رومانيين - متمتعين بالمواطنة الرومانية- على المواطنة بشكل آلي، ويكتسب الابن من أب يتمتع بحق الزواج الشرعي - كما هو الشأن بالنسبة للجنود-، كما يحصل ابن من أب لاتيني متزوج من مواطنة رومانية على نفس المواطنة، وهو ما جاء عند المشرع الروماني كايوس (Gaius) الذي يقول في هذا الصدد: "...على العكس، فإن الطفل الذي ينبثق عن أب لاتيني وأم متمتعة بالمواطنة الرومانية يولد مواطنا رومانيا"[١٠٦].

٢/٣-مميزات ومظاهر المواطنة الرومانية

من النتائج المباشرة والآنية لحصول الفرد على المواطنة الرومانية، تقييده بواحدة من الوحدات الترابية أو القبائل (tribu)، وانخراطه بسجل الإحصاء (cens)، وأخيرا حصوله على الاسم الثلاثي (tria nomina).

(٢/٣) ١-الوحدات الترابية أو القبائل tribus

يتم تسجيل المواطنين الحاصلين على المواطنة ضمن وحدات ترابية إدارية وانتخابية بعيدة كل البعد عن مفهوم القبيلة التقليدي، رغم استعمال هذا المصطلح مجازا. وتعد كلمة تريبوس (Tribus) اللاتينية الأقرب - على المستوى الإداري- إلى مفهوم الدائرة أو المقاطعة الترابية. وقد ألحق مواطنو مختلف البلديات والمستوطنات التي حصلت على القانون الروماني بـ"القبائل" المعروفة، وهكذا نجد بمدينة وليلي مواطنين تم تقييدهم بقبيلة كلاوديا (Claudia)[١٠٧]، وآخرين بقبيلة كيرينا (Quirina)[١٠٨]، وفئة ثالثة تم تسجيلها بقبيلة كاليريا (Galeria)[١٠٩]. ونجد كذلك بمدينة بناصا العديد من المواطنين الذين تم إلحاقهم بقبيلة فابيا (Fabia)، كما تظهر ذلك مختلف النقائش التي وردت فيها[١١٠]، والأمر عينه نجد في جميع مدن الإقليم.

بعد صدور قرار كركلا الشهير لسنة ٢١٢م[١١١]، لم تعد الإشارة إلى هذه الوحدات الترابية أو القبائل أمرا مهما كما عبر عن ذلك رونيه كانيا (René Cagnat)[١١٢]، وأفرغت من حمولتها المؤسساتية وذهب بريقها بعد هذا التاريخ، قبل أن تختفي بشكل نهائي خلال نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع[١١٣].

(٢/٣) ٢-سجل الإحصاء Census

يبدو أن المواطنين الحاصلين على المواطنة كان يتم إحصاؤهم ضمن لوائح يتم الاحتفاظ بها داخل أرشيف المدينة، حيث يقوم الموظفون البلديون الذين أسندت إليهم هذه المهمة بجمع بيانات خاصة بهؤلاء المواطنين، والتي تشكل قاعدة لولوج الجيش، ولتحديد الحقوق السياسية والمدنية، ولتنظيم الانتخابات المحلية، ولحساب الضرائب. والراجح أن الشق المدني في هذا الإحصاء حاضر، حيث يتم إطلاع السلطات المحلية المعنية بالاسم الثلاثي الذي اختاره المواطن، ووضعيته الاجتماعية هل هو متزوج أو أعزب، وعدد الأطفال وأعمارهم في حال توفرهم، بالإضافة إلى تصريح بممتلكاته الخاصة.

(٢/٣) ٣-الاسم الثلاثي Tria nomina

عرف إقليم موريطانيا الطنجية تحولات قانونية كبيرة مثل باقي أقاليم شمال إفريقيا، حيث حصلت تغييرات بنيوية وجذرية على مستوى رمز من رموز الهوية، يتعلق الأمر بالاسم. فقد أصبحت التسمية الثلاثية هي السائدة منذ تمكن روما من المجال المذكور. ويرجح أن يختار المواطنون الجدد أسماءهم بشكل حر.

يتكون نظام التسمية الثلاثي هذا من الاسم الشخصي (Praenomen)، الذي يأتي غالبا في مقدمته، ويشار إليه باختصار (en abrégé)، فاسم ماركوس مثلا يشار إليه بحرف الميم: (M.=Marcus). قد يطابق الاسم الشخصي للفرد اسم والده وقد يخالفه، وفي هذا الصدد أمدتنا الإبيغرافيا اللاتينية لمدن موريطانيا الطنجية بالعديد من الأسماء الشخصية التي عرفت انتشارا واضحا أكثر من غيرها، ومن هذه الأسماء نجد: لوكيوس (Lucius) وماركوس (Marcus)

وبوبليوس (Publius) وكوينطوس (Quintus) وسيكسطوس (Sextus) وتيتوس (Titus).

وهناك الاسم العشائري (Gentilice) الذي يحمله مواطنون من نفس العشيرة، ينتهي غالبا بعبارة الانتماء إلى العشيرة أو العائلة (ius). ينتقل هذا الاسم من الأب إلى الابن، ويتم اكتسابه عن طريق الزواج والعتق وعلاقات الحماية والخدمة العسكرية. ويعتبر اللقبان العشائريان كايكيليوس (Caecilius) وفاليريوس (Valerius) على سبيل المثال الأكثر تداولا بمدينة وليلي. وأخيرا اللقب (Cognomen) الذي يشير في الأصل إلى ميزة خاصة بالفرد، وتفيد نقائش شمال إفريقيا عموما أن المواطن الذي يحمل الاسم الثلاثي لا يشير إلى والده بالاسم الشخصي، بل باللقب. ويعد هذا التقليد الأكثر شيوعا بمدينة وليلي الطنجية، وكمثال على ذلك: ماركوس كايكيليوس كايكيليانوس ابن ماركوس كايكيليوس لوكانوس كايكيليانوس. هذا فيما يتعلق بالذكور من المواطنين، أما بخصوص الإناث فقد تميزن باسم من نوع آخر وهو ثنائي الأبعاد (Duo nomina) إن صح القول، بمعنى أنهن حملن الاسم الشخصي واسم العشيرة، مثل اسم أيميليا سيكستينا (Aemilia Sextina). وحمل الأجانب (peregrinus) اسما وحيدا، مثلهم مثل فئة العبيد.

٣/٣-قانون كركلا وتعميم المواطنة على السكان الأحرار للمدن

حسب ما هو متعارف عليه فإن الإمبراطور كركلا اتخذ قرارا سنة ٢١٢م، منح بموجبه المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الأحرار، سواء تعلق الأمر بالأجانب (Pérégrins) أو باللاتينيين (Latins)، وسُمي بالمرسوم الأنطونيني (Constitutio Antonina)، الذي يعد أولبيان (Ulpien) أحد مهندسيه البارزين[١١٤]. لكن أحد المصادر الأدبية أكد أن الإمبراطور مارك أوريل (Marc Aurèle) منح قانون المدينة –المواطنة الرومانية– لجميع أفراد الإمبراطورية الأحرار، وأن قراره هذا تضمن بعض الاستثناءات التي اختفت خلال مجيء الإمبراطور كركلا للحكم[١١٥]. ويبدو أن هذا النص الأدبي القديم جاء لينهي الجدل القائم بين الباحثين حول التاريخ الحقيقي لهذا القرار[١١٦].

لقد كان وراء إصدار هذا القرار عدة خلفيات، ولم يكن منح المواطنة الرومانية سوى السبب المعلن، أما الدوافع الحقيقية فكانت أعمق بكثير. فقد كان الهاجس على ما يبدو تهدئة الأوضاع الأمنية المزرية، والاحتقان الداخلي المتواصل بالأقاليم، والثورات التي اندلعت منذ بداية القرن الأول للميلاد. ناهيك عن الأسباب الاقتصادية التي كانت حاضرة هي الأخرى بشكل قوي، لذا كان هدف الإمبراطور الزيادة في مداخيل خزينة الإمبراطورية، من خلال فرض المزيد من الضرائب[١١٧]، مثل ضريبة الإرث المرتبطة بشكل وثيق بالمواطنة، والتي انتقلت من خمسة إلى عشرة في المائة[١١٨].

أما على المستوى البلدي، فلم يأت القرار بجديد ولم يغير الشيء الكثير بالنسبة لوضعية المدن، كما أنه لم يُصَمَّم للتخفيف من الوضع "الغريب" الذي وَجدت فيه البلديات نفسها خلال تلك الفترة كما يدعي البعض[١١٩]، بل إن الأمر يتعلق بتحصيل حاصل، فهو بمثابة اعتراف رسمي بما كان موجوداً أصلاً. وقد استمرت المدن الأجنبية بأفريقية البروقنصلية مثلا في الوجود خلال القرن الثالث للميلاد رغم القرار المذكور[١٢٠]. وخلال سنة ٢٤٥م، بموريطانيا الطنجية، لم يكن الزعيم القبلي الباكواتي سيبيمازين (Sepemazène) يتوفر على المواطنة الرومانية على الرغم من حصول السكان الأحرار للإمبراطورية على هذه المواطنة[١٢١].

خَاتِمَةٌ

شكلت إذن الوضعية القانونية للمدن لبنة أولى أرستها الإمبراطورية الرومانية بموريطانيا الطنجية وغيره من الأقاليم، في سبيل تحقيق الرومنة القانونية التي اعتبرتها روما آلية لا محيد عنها للوصول إلى الرومنة الشاملة لسكان الإقليم، وبالتالي الإدماج الكامل في منظومة الحياة البلدية بالمستوطنات والبلديات المنتشرة بربوع المجال المذكور،[١٢٢] حيث تمتع المواطنون القاطنون بهذه المدن بكامل الحقوق السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية.

لكن روما واجهت مقاومة واضحة من لدن ساكنة الإقليم لسياسة الرومنة القانونية وكذلك رومنة الحياة البلدية، يظهر ذلك بشكل جلي من خلال رفض الشعوب المحلية – التي اعتبرت أجنبية (Peregrinus) في عيون السلطات الرومانية– لهذه السياسة. وشكلت قبائل موريطانيا الطنجية أكبر رافض لهذه السياسة، وعلى رأسها قبائل الباكوات (Baquates) التي ظلت طيلة القرنين الثاني والثالث للميلاد على الأقل شوكة في قدم الإمبراطورية الرومانية[١٢٣]، هذا ما أمدتنا به نقائش معاهدات السلام المؤرخة بالقرنين المذكورين. ساهمت هجماتها بشكل كبير إلى جانب عوامل أخرى في انسحاب جحافل قواتها من أراضي هذا الإقليم الحدودي نهاية القرن الثالث للميلاد.

الملاحق

اسم المدينة	وضعيتها القانونية	تاريخ الوضعية	الإقليم
ماكتاري Mactari	مدينة ذات قانون لاتيني	عهد هادريان	أفريقيا البروقنصلية
تيكنيكا Thignica	مدينة ذات قانون لاتيني	قبل حكم السيفيريين	أفريقيا البروقنصلية
توكا Thugga	مدينة ذات قانون لاتيني	عهد مارك أوريل	أفريقيا البروقنصلية
هنشير الهوارية Henchir el Houaria	بلدية لاتينية	عهد سيبتيم سيفير	أفريقيا البروقنصلية
سولوس Sulus	بلدية لاتينية	عهد سيبتيم سيفير	أفريقيا البروقنصلية
فينا Vina	بلدية لاتينية	عهد هادريان	أفريقيا البروقنصلية
أفينيون Avignon	مستوطنة لاتينية	عهد هادريان	غاليا الناربونية
فالانس Valence	مستوطنة لاتينية	قبل حكم قيصر	غاليا الناربونية
نيم Nimes	مستوطنة لاتينية	قبل حكم قيصر	غاليا الناربونية

جدول نماذج مدن ذات قانون لاتيني
تحولت فيما بعد إلى القانون الروماني

الإحالات المرجعية:

(1) Saumagne, Ch. (1952). Volubilis, municipe latin, Revue Historique du Droit français et étranger, Vol. 29, pp. 388-401.

(2) Gascou J. (1974). Note sur l'évolution du statut juridique de Tanger entre 38 avant J.-C. et le règne de Claude, Antiquités Africaines, T. 8, pp. 67-71. ID. (1981). Tendances de la politique municipale de Claude en Maurétanie, Ktèma, N. 6, pp. 227- 238 ; ID. (1982). La politique municipale de Rome en Afrique du Nord, I- De la mort d'Auguste au début du IIIe siècle, Aufstieg und Niedergang der römischen Wel, II, 10-2, pp. 136-229 ; ID. (1982). La politique municipale de Rome en Afrique du Nord, II- après la mort de Septime Sévère, Aufstieg und Niedergang der römischen Welt, II, 10-2, pp. 230-320 ; ID. (1991). Hypothèse sur la création du municipe de Sala, Antiquités Africaines, 27, pp. 151-156

(3) Hamdoune, C. (1994). Note sur le statut colonial de Lixus et de Tanger, Antiquités Africaines, T. 30, pp. 81-87

(٤) ابورك، هشام. (٢٠٢٣). الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية، دار قرطبة للطبع والنشر، الدار البيضاء.

(5) Mc Carthy, O. (1856). Algeria Romana, sur l'occupation et la colonisation de l'Algérie par les Romains, Revue Africaine, N. 2, pp. 88-113.

(6) Toutain, J. (1895). Les cités romaines de la Tunisie. Essai sur la colonisation de l'Afrique du Nord, Paris.

(7) Mesnage, J. (1913). La romanisation de l'Afrique : Tunisie, Algérie, Maroc, Paris.

(8) De Visscher, F. (1957). L'Expansion de la cité romaine et la diffusion du Droit Romain, Museum Helveticum, Vol. 14, p. 169.

(9) Benabou, M. (1976). La résistance africaine à la romanisation, Paris, p. 29.

(10) Dondin-Payre, M. (1981). Recherches sur un aspect de la romanisation de l'Afrique du Nord : l'expansion de la citoyenneté romaine jusqu'à Hadrien, Antiquités Africaines, T. 17, p. 93.

(11) Häussler, R. (2008). Signes de la « romanisation » à travers l'épigraphie : possibilités d'interprétations et problèmes méthodologiques. In : Romanisation et épigraphie. Études interdisciplinaires sur l'acculturation et l'identité dans l'Empire romain (Archéologie et Histoire Romaine, 17), Montagnac, p. 26.

(12) Le Roux, P. (2004). La romanisation en question, Annales. Histoire, Sciences Sociales, 59e Année, N. 2, p. 310.

(13) Hamdoune, C. (2004). Témoignages épigraphiques de l'acculturation des gentes en Maurétanie Césarienne, L'Africa Romana, XV, Tozeur 2002, Sassari, p. 291.

(14) Lassère, J.-M. (2005). Les sources de l'histoire de l'Afrique à la période impériale, Pallas, N. 68, pp. 24-25.

(15) Leveau, P. (1983). La ville antique et l'organisation de l'espace rural : villa, ville, village. Annales, Economies, sociétés, civilisations, 38e année, N. 4, p. 931.

(16) Gascou, J. (1972). La politique municipale de l'Empire romain en Afrique proconsulaire de Trajan à Septime Sévère, Rome, p. 233.

(17) Benabou, M., ibid., p. 425.

(18) De Visscher, F., ibid., p. 169.

(19) Peyras, J. (1985). La Gens des Afri, Encyclopédie Berbère, Vol. 2, p. 213.

(20) Frézouls, E. (1984). La ville et le destin du monde antique, Gérion, Vol. 2, p. 20.

(21)Thébert, Y. (1978). Romanisation et déromanisation en Afrique : histoire décolonisée ou histoire inversée ?. Annales. Economies, sociétés, civilisations, 33e année, N. 1, p. 76.

(22) Feugère, M., Passelac, M., Pellecuer, C., Garmy, P., Mauné, S., Fiches, J-L., Monteil, M., Bessac, J-C., Roth-Congès, A., De Chazelles, C-A., Sabrié, M., Sabrié, R., Bel, V. (1998). Signes de la romanisation, Revue archéologique de Narbonnaise, T. 31, p. 304.

(23) Dondin-Payre, M. ibid., pp. 100-101.

(24) Thouvenot, R. (1960). L'Afrique romaine aux trois premiers siècles, Journal des Savants, N° 3, pp. 137.

(25) Häussler, R. ibid., p. 11.

(26) Le Roux, P. ibid., p. 311.

(27) Aranegui, C., Belén, M., Fernandez, M.-M., & Hernandez, E. (1992). La recherche archéologique espagnole à Lixus : bilan et perspectives, In : Lixus, Actes du colloque organisé par l'I.N.S.A.P., avec le concours de l'E.F.R., Larache 8-11 novembre 1989, (col. E.F.R., 166), p. 12.

(28) Majdoub, M. (1992). Les luttes du début de l'Ier siècle av. J.-C. au nord de la Maurétanie, In : Lixus, Actes du colloque organisé par l'I.N.S.A.P. avec le concours de l'E.F.R., Larache 8-11 novembre 1989, (col. E.F.R., 166), p. 238.

(29) Callu, J.P., Morel, J.P., Rebuffat, R., Halliet, G., & Marion, J. (1965). Thamusida I. Fouilles du service des antiquités du Maroc, Publications (E.F.R.), Paris, pp. 109-110.

(30) IAM2, 125/128/141/142/145.

(31 Boube, J. (1966). Fouilles archéologiques à Sala, Hesperis-Tamuda, Vol. 7, pp. 22-32.

(32) Rebuffat, R. (2006). L'habitat en Maurétanie tingitane, Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et et Belles-Lettre, 150e année, N. 1, p. 603 ; Hamdoune C., (1993). Ptolémée et la localisation des tribus de Tingitane, Mélanges de l'Ecole Française de Rome, (Antiquité), T. 105, p. 255 ; Coltelloni-Trannoy, M. (1997). Le royaume de Maurétanie sous Juba II et Ptolémée (25 av. J.-C. – 40 ap. J.-C.), Études d'antiquités africaines, C.N.R.S., Ed., p. 83.

(33) Rhorfi, A. (2006). Les traits majeurs de l'immigration romaine en Tingitane, L'Africa Romana, XVI, 2004, Sassari, p. 393.

(34) IAM2, 369.

(35) Sigman, M.C. (1977). The Romans and the Indigenous Tribes of Mauretania Tingitana, Historia, Vol. 26, p. 415.

(36) Hamdoune, C. (1995). Frontières théoriques et réalité administrative : le cas de la Maurétanie tingitane, In : Frontières terrestres, frontières célestres dans l'Antiquité, Paris, p. 248.

(37) Benabou, M. ibid., p. 389.

(٣٨) ابورك، هشام. (٢٠١٦). مظاهر التأثيرات الحضارية الفينيقية البونية بالمغرب القديم، بحث لنيل شهادة الماستر في الآداب، تاريخ قديم، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب عين الشق، الدار البيضاء.

(39) Lepelley, C. (2005). Deux ruptures dans l'histoire de l'Afrique romaine : les Flaviens et les Vandales, Pallas, N. 68, p. 55.

(40) Le glay, M. (1968). Les Flaviens et l'Afrique, Mélanges d'archéologie et d'histoire, T. 80, p. 202.

(41) Desanges, J. (1984-1985). L'Hellénisme dans le royaume protégé de Maurétanie (25 avant J.-C.-40 après J.-C.), Bulletin du comité des travaux historiques, Vol. 20-21, p. 55.

(42) Suétone., César, LII.

(43) Desanges, J. ibid., p. 56.

(٤٤) "تاريخ المغرب تركيب وتحيين"، إشراف وتقديم الأستاذ محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ٢٠١١، ص. ١١٥.

(٤٥) نفسه، ص. ١١٥.

(46) Mazard, J. (1955). Corpus nummorum Numidiae Maurétaniaeque, Paris, p. 101, n° 270, et p. 115, n° 345.

(47) Id., ibid., n° 297-374, pp. 108-120.

(48) Benabou, M. ibid., p. 330.

(49) Le Roux P., ibid., p. 293.

(50) Id., ibid., p. 294.

(51) Peyras, J. (1999). La potestas occupandi dans l'Afrique romaine, Dialogues d'Histoire Ancienne, Vol. 25, p. 139.

(52) Corbier, P. & Griesheimer, M. (2005). L'Afrique romaine (146 av. J.-C.- 439 ap. J.C.), Ellipses, Paris, p. 377.

(53) Gascou, J. (1981). Tendances de la politique municipale de Claude en Maurétanie, Ktèma, N. 6, p. 230.

(54) Id., ibid., p. 230.

(55) De Visscher, F. ibid., p. 169.

(56) Coltelloni-Trannoy, M. ibid., p. 88.

(57) Majdoub, M. (2000). Octavius et la Maurétanie, L'Africa Romana, XIII, Djerba, 1998, Sassari, p. 1734.

(58) Gascou, J. (1982). La politique municipale de Rome en Afrique du Nord, I- De la mort d'Auguste au début du IIIe siècle, Aufstieg und Niedergang der römischen Welt, II, 10-2, p. 158.

(59) Saumagne, C. (1965). Le droit latin et les cités romaines sous l'empire, Paris ; Chastagnol, A. (1987). A propos du droit latin provincial, Iura, 38, p. 1-24 ; id., (1990). Considérations sur les municipes latins du premier siècle apr. J.-C. In : L'Afrique dans l'Occident romain, Ier siècle av. J.-C.-IVe siècle ap. J.-C., Rome, p. 351-365 ; id., (1994). L'empereur Hadrien et la destinée du droit latin provincial au second siècle ap. J.-C., Revue Historique, 292, pp. 217-227 ; Beschaouch, A. (1999). Aspects du droit latin en Afrique romaine, Bulletin de la Société Nationale des Antiquaires de France, 1996, pp. 252-262 ; id., (1997). Thugga, une cité de droit latin sous Marc Aurèle : civitas Aurelia Thugga. In : Dougga (Thugga), Études épigraphiques, Bordeaux, pp. 61-73 ; Gascou, J. (2003). Les statuts des villes africaines, quelques apports dus à des recherches récentes in Itinéraire de Saintes à Dougga, Mélanges offerts à L. Maurin, Bordeaux, pp. 231-246 ; Christol, M. (1989). Le droit latin en Narbonnaise: l'apport de l'épigraphie (en particulier celle de la cité de Nîmes). In : Les inscriptions latines de Narbonnaise, Actes de la table-ronde de Nîmes, 25-26 mai 1987. Nîmes, pp. 87-100 ; Le Roux, P. (2001). Le droit latin provincial: un itinéraire d'historien, Ktéma, N. 26, pp. 173-178.

(60) Lamboley, J.-L. (1995). Lexique d'histoire et de civilisation romaine, Paris, Ellipses, p. 144.

(61) Id., ibid., p. 145.

(62) Hugoniot, C. (2000). Rome en Afrique de la chute de Carthage aux débuts de la conquête arabe, Champs-Flammarion, Paris, p. 125 ; Lamboley, J.-L., ibid., p. 145.

(63) Hugoniot, C. (2005). Peut-on écrire que les spectacles furent un facteur de romanisation en Afrique du Nord?, Pallas, N. 68, p. 257.

(64) Christol, M. (2016). Cités du pouvoir : l'exemple de la Gaule Narbonnaise, Revista de Historiografía, N. 25, p. 53.

(65) Benabou M., ibid., p. 397.

(66) Jacques, F. (1984). Le privilège de liberté. Politique impériale et autonomie municipale dans les cités de l'Occident romain (161- 244), (col. E.F.R. 76), Rome, p. 796.

(67) Hugoniot, C., Rome en Afrique..., op. cit., p. 65.

(68) Häussler, R., ibid., p. 25.

(69) Chastagnol, A. (1990). L'onomastique de type pérégrin dans les cités de la Gaule Narbonnaise, Mélanges de l'Ecole Française de Rome, (Antiquité), T. 102, pp. 583-584.

(70) Le Roux, P. (2001). Le droit latin provincial : un itinéraire d'historien, Ktèma, N. 26, p. 177.

(71) Chastagnol, A. (1994). L'empereur Hadrien et la destinée du droit latin provincial au second siècle après Jésus Christ, Revue Historique, T. 292, pp. 217-227, p. 224.

(72) Beschaouch, A. (1996-1999). Aspects du droit latin en Afrique romaine, Bulletin de la Société Nationale des Antiquaires de France, p. 260.

(73) Id., ibid., p. 261.

(74) CIL, VIII, 22737: «M. Seruilio P. f. Quir. | Draconi Albuciano, Huiro, flam, perp., quod super multa in rem p. | merita et amplissimum | munificentiae Studiumlelgationem urbicam gratui|tam ad **Latium maius** pe|tendum duplicem susce|perit tandemq. féliciter | renuntiauerit, ordo publi|ce ponendam censuit, et | cum is honore contentus | pecuniam reip. remisis|set, populus de suo posuit».

(٧٥) ابورك، هشام. (٢٠٢٣). الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية، دار قرطبة للطبع والنشر، الدار البيضاء، ص. ٥٤-٥٧.

(76) Chastagnol, A. L'empereur Hadrien..., op. cit., p. 225.

(٧٧) هذه الترجمة هي بمثابة اجتهاد شخصي في غياب مصطلح متعارف عليه أكاديميا.

(78) Adlectus, Aelius, Afrinus, Albinianus, Amatia, Anicelliana, Antonianus, Anullus, Apollinaris, Ausonius, Balbus, Bubulcus, Caecilianus, Caius, Caligatus, Calvus, Capito, Cassianus, Catellus, Celsinus, Celsus, Cerialis, Clemens, Cogitatus, Commuinis, Concordius, Compitarius, Cornelianus, Crispus, Dativus, Domitianus, Donatus, Euventius, Emilianus, Fabianus, Faustus, Felicissimus, Felicitas, Felicisumus, Feliclus, Felix, Festus Flaccus, Flavinus, Florinus, Fortunatus, Fronto, Fauscinus, Gaetulus, Gallus, Gellianus, Gemellus, Germanillus, Germanus, Gracilis, Honoratus, Ianuarius, Ingenvus, Italus, Julianus, Julius, Junior, Iustus, Lacaetanus, Latro, Licinianus, Lucanus, Lucianus, Lucifer, Lucius, Lucillus, Lupercillus, Macedus, Manlianus, Manlius, Marcellinus, Marcius, Marcus, Marinus, Martialis, Masculus, Maternus, Matrona, Maturus, Maurus, Maximinus, Maximus, Mircellianus, Modestus, Nerva, Nonnus, Passer, Paterculus, Paternus, Paulinus, Peregrinus, Polionillus, Pmopeianus, Porcelus, Praefectus, Primitivius, Primus, Priscus, Proculinus, Primigenius, Pudens, Quadriatianus, Restutus, Rogatianus, Rogatus, Romanius, Rufus, Rusticillus, Sabinianus, Sabinus, Sallustianus, Sassius, Saturninus, Secundus, Senatus, Seneca, Senior, Servatus, Severus, Sixtinus, Silvanus, Suavillus, Suavis, Suetus, Summus, Ttirius, Tatius, Titullus, Titianus, Tuscus, Valerius, Valerianus, Varus, Venerinus, Vicarius, Victor, Victorinus, Vitalis, Ursulicus, Urbanus.

(79) Ben Akacha, W. (2011). L'évolution juridico-urbaine de "Mactaris" sous le Haut-Empire, Latomus, T. 70, p. 428.

(80) Benabou, M. ibid., p. 519.

(٨١) ابورك، هشام. (٢٠٢٣). الوضعية القانونية..، م. ص. ١٧٣-١٧٥.

(82) Le Roux, P. Le droit latin..., op. cit., p. 176.

(83) Dion Cassius, XLVIII, 45, 3.

(84) Gascou, J. (1974). Note sur l'évolution du statut juridique de Tanger entre 38 avant J.-C. et le règne de Claude, Antiquités Africaines, T. 8, p. 70.

(85) Hamdoune, C. (1994). Note sur le statut colonial de Lixus et de Tanger, Antiquités Africaines, T. 30, p. 85.

(86) Atticus, Blanda, Calvus, Cosa, Crementius, Crispus, Duolicarius, Fabullus, Faustio, Firmus, Ianuarius, Maior, Martialis, Maximus, Naso, Natalis, Priscus, Puer, Pultarius, Quadratus, Rogatus, Sabinus, Saturninus, Seneca, Secundus, Suaula, Verecundus, Victorinus.

(87) Camps, G., Gascou, J., Raymond, A., & Golvin, L. (1994). Cité, Encyclopédie Berbère, Vol. 13, p. 1994.

(88) Teutsch, L. (1962). Das Romische Stadtwesen in Nordafrika in der Zeit Von G. Gracchus bis Zum Tode des Kaisers Augustus, Berlin, p. 67.

(89) Gascou, J. (2004). Sur le statut de quelques villes de Numidie et de Maurétanie Césarienne, Antiquités Africaines, T. 40-41, pp. 260-261.

(90) Gascou, J. (1982). La politique municipale de Rome..., op. cit., p. 198.

(91) Beschaouch, A. (1990-1992). Mactaris civitas de droit latin sous Trajan, Bulletin du comité des travaux historiques, N. 23, pp. 203-204.

(92) Mazard, J. ibid., n° 530, p. 157, n° 531 et 532, p. 158, n° 534, p. 159.

(93) Christol, M. (2009). Les cités de droit latin en Gaule méridionale. In : Rome et l'Occident: Gouverner l'Empire (IIe siècle av. J.-C. - IIe siècle ap. J.-C.). Rennes, p. 325. (http://books.openedition.org/pur/124587).

(94) Mazard, J. ibid., n° 612, p. 185; n° 618, p. 186.

(95) Ripollès, P-P. et alii. (1992-2015). Roman Province Coinage, consolidated supplement, I-III, 2015, pp. 60-61.

(96) Mazard, J. ibid., n° 619, p. 186, n° 623 et 624, p. 187.

(97) Rhorfi, A. (2002). La contribution de la numismatique à la connaissance de la date de la fondation coloniale de Tingi, L'Africa Romana, XIV, Sassari, 2000, Sassari, p. 2147.

(98) تتمثل هذه الحقوق في: حق الملكية أو التملك (ius commercii)، (ius legis actionis)، حق رفع دعوى قضائية (ius conubii) حق الزواج (ius honorum)، الحق في الترشح للانتخابات (ius suffragii) الحق في التصويت (ius provocationis)، حق الاستئناف في المحاكمات الجنائية (ius sacrorum)، وحق المشاركة في الطقوس الدينية.

(99) Lamboley, J.-L. ibid., p. 108.

(100) IAM2, 94.

(101) Lamboley, J.-L. ibid., p. 333.

(102) Albertini, E. (1955). L'Afrique romaine, mise à jour par Louis Leschi, Alger, p. 45.

(103) A.E., 1986, 333 (Rub. XXI, p. 89).

(104) Lamboley, J.-L. ibid., p. 144-145.

(105) Pavis d'Escurac, H. (1981). Affranchis et citoyenneté : les effets juridiques de l'affranchissement sous le Haut-Empire, Ktèma, N. 6, p. 184.

(106) Gaius, Inst., I, 66.

(107) IAM2, 311, 429, 375b, 427, 435, 437, 441, 444, 445, 451, 455, 457, 460, 461, 466, 478, 479.

(108) IAM2, 424, 425, 442, 473, 474, 488.

(109) IAM2, 438,448, 456, 458, 459.

(110) IAM2, 126b, 128b, 132, 141, 149.

(١١١) قرار منح بموجبه هذا الإمبراطور المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الأحرار.

(112) Cagnat, R. (1898). Cours d'Epigraphie Latines, 3ème édit., Ancienne Librairie Thorin et fils, Paris, p. 62.

(113) Sanders, G. (1988) L'onomastique des inscriptions latines métriques de l'Africa Romana : un angle d'incidence socio-culturel, L'Africa Romana, V, Sassari 1987, Sassari, p. 70.

(١١٤) أولبيان: ولد سنة ١٧٠ للميلاد، رجل سياسة ومُشَرِع روماني مشهور، ينحدر من مدينة صور اللبنانية الحالية، يعد أهم مستشاري الإمبراطور ألكسندر سيفير، توفي سنة ٢٢٣ م إثر أحداث انقلابية ضد الإمبراطور.

(115) Histoire Auguste, I, 3.

(١١٦) بين من يحدده في سنة ٢١٣م:

Seston, W. (1966). Marius Maximus et la date de la Constitutio Antoniniana. In : Mélanges Carcopino, Paris, pp. 877-888 ; Euzennat, M. (1976). Une dédicace Volubilitane à l'Apollon de Claros, Antiquités Africaines, T. 10, pp. 65-68.

وبين من يجعل سنة ٢١٤م تاريخ صدوره:

Millar, F. (1962). The Date of the Constitutio Antoniniana, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 48, pp. 124- 131.

(117) Dion Cassius, LXXVII, 9.

(118) Le Teuff, B. (2012). Census : les recensements dans l'empire romain d'Auguste à Dioclétien. Archéologie et Préhistoire. Université Michel de Montaigne-Bordeaux III, p. 156.

(119) Abbot, T.T. & Johnson, A. Ch. (1926). Municipal Administration in the Roman Empire, Princeton University Presses, Great Britain, p. 549.

(120) Toutain, J. (1896). Études sur l'organisation municipale du Haut-Empire, Mélanges d'archéologie et d'histoire, T. 16, pp. 315-329. p. 328 ; id., Les cités romaines..., op. cit., p. 342.

(121) IAM2, 359.

(١٢٢) مازال البحث في الحياة البلدية بمدن موريطانيا الطنجية بكرا، وفي هذا الإطار تأتي هذه الدراسة لإماطة اللثام عن جوانب من هذه الحياة بالمجال المذكور: ابورك، هشام. (٢٠٢٤). جوانب من الحياة البلدية بمدن موريطانيا الطنجية، دار القلم للطبع والنشر والتوزيع، الرباط.

(١٢٣) ابورك، هشام. والعسري، عبد الرزاق. (٢٠٢٢) جوانب من العلاقات الباكواتية الرومانية خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد على ضوء النقائش، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية لأكاديمية المملكة المغربية، المجلد الأول، العدد الأول، ص. ٣٩٧-٤١٥.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

حركة الدوّارين (الريفيين الأوراسيين) في نوميديا أو محاولة ثورة اجتماعية في شمال إفريقيا (٣٢٠م – ٤١١م)



أ.د. الربيع عولمي

أستاذ التاريخ والآثار القديمة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الحاج لخضر باتنة – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

كانت نوميديا، في عهد الإمبراطور "قسطانتيوس" (Constantius) وقبيل منتصف القرن الرابع الميلادي، مسرحا لأحداث عنف واضطرابات خطيرة، كما دلت على ذلك المصادر المتعلقة بالدوناتية. أثارها "الدوّارون" (Circumcelliones) الجناح العسكري للدوناتية في الأرياف النوميدية، وذلك بمهاجمة مزارع كبار الملاك والأسياد والدائنين، وعارضوا بقوة تطبيق الإجراءات التي اتخذها الامبراطور ضد الكنيسة المنشقة (الدوناتية). تهدف هذه الدراسة إلى البحث في مسألة الدوّارين وحركتهم الثورية، من خلال نصوص القديسين أوبطا الميلي وأوغسطين، ولا سيما ما تعلق بأصولها، وطبيعتها وتفسير نشاطاتها في نوميديا. إذ يبدو أن "المصارعون" (Agonistici)، كما عرفوا أنفسهم، ينحدرون من مجموعات الشهداء المتطوعون الدوناتيون الذين يقاتلون الطوائف الوثنية التي ندد بها "قسطنطين" نفسه منذ سنة ٣١٥م. كما واجه الدوّارون "الريفيون الأوراسيون" أيضًا السلطة الزمنية الرومانية وحليفتها الكنيسة الكاثوليكية. فقد ذكرت المصادر الكاثوليكية (أوبطا الميلي وأوغسطين خاصة) بأن "الدوّارين"، كانوا يشكلون في بداية القرن الرابع الميلادي رؤوس رماح الكنيسة الدوناتية وعساكرها ضد الكنيسة الكاثوليكية. وبذلك أصبح جزءًا هامًا من الجدل القائم بين الدوناتيين والكاثوليك يدور حول العنف بين الطرفين. فالكاثوليك يرون في عمل "الدوّارين" اضطهاد لكنيستهم، والدوناتيون والدوّارون يرون في تدخل السلطة الرومانية إلى جانب خصومهم اضطهادا لفريقهم. هذا ما يدفعنا لطرح العديد من التساؤلات حول هذه المواجهة: لماذا كان الدوّارون دوما توّاقون الى العدالة الاجتماعية؟ وهم الذين نصّبوا أنفسهم فرسانا محصّلون للحقوق المهضومة؟ ما علاقتهم بالكنيسة الدوناتية؟ لماذا كانوا يبحثون عن الاستشهاد الطوعي؟ كيف قاوم الدوّارون الكنيسة الكاثوليكية وحليفتها السلطة الزمنية الرومانية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين؟

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	أبريل	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الدوارون؛ نوميديا؛ السلطة الرومانية؛ الانشقاق؛ الهرطقة.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.371198

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الربيع عولـمي، "حركة الدوّارين (الريفيين الأوراسيين) في نوميديا أو محاولة ثورة اجتماعية في شمال إفريقيا (٣٢٠م – ٤١١م)".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ٣٣ – ٤٧.

Corresponding author: rabieoulmi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إن تاريخ بلاد المغرب ضارب في الأزمنة، متغلغل في أعماق التاريخ، خط على تراب هذه الأرض بعرق سكانها ودمائهم، ومن جهودهم وتضحياتهم. فقد كان هذا الميراث الحضاري الذي وسم الأرض وأهلها بالميزات الكريمة، وبالخاصيات التي عرفت لها على مر السنين. ولو ساغ لأحد أن يلخص كنه هذا التاريخ في كلمة مختصرة ودالة لقال: إنه الانكباب على العمل في الأرض، والوقوف في وجه الأجنبي الدخيل على امتداد زمني يفوق الثلاثين قرنًا.

فقد أثارت علاقة الدوناتية بحركة الدوّارين جدلاً واسعًا بين المؤرخين والباحثين، وقد انطلق معظمهم من كتاب "أوبطا الميلي"(٣٢٠-٣٨٥م أو ٣٩٢م) الثالث (الفصل الرابع) الذي يعد أقدم إشارة صريحة وأول من ذكر مصطلح "الدوّارين" في أواخر سنة ٣٦٦م أو أوائل سنة ٣٦٧م حينما رد على رسالة الهجاء التي حررها "بارمنيانوس" (Parmenianus) أسقف قرطاجة الدوناتي. إضافة الى رسائل القديس "أوغسطين" إلى الأساقفة الدوناتيين، حيث نجده يخاطب الأسقف الدوناتي "بتيليانوس" (Petilianus) في حوالي سنة ٤٠٠م.

من هذا المنطلق نتناول في هذا البحث ثورة الدوّارين "الريفيين الأوراسيين" [١] بنوميديا قبل سنة ٣٤٧م، أي قبل قدوم المبعوثين الإمبراطوريين "بولوس" (Paulus) و"مكاريوس" (Macarius) اللذان أرسلهما الإمبراطور "قسطانتيوس" (Constantius) لإحصاء الفقراء وتوزيع المساعدات بهدف تحقيق الوحدة الدينية في الكنيسة الإفريقية. ونعالج أحداث بغاي التي وقعت سنة ٣٤٧م، والتي تعتبر نقطة تحول حاسمة في العلاقات بين حركة الدوّارين والدوناتيين، ونحاول أن نبرز طبيعة هذه العلاقة قبل سنة ٣٤٧م وبعدها. إلا أنه يصعب على الباحث تحديد بداية ثورة الدوّارين "الريفيين الأوراسيين" بنوميديا بشكل دقيق لكن يبدو -حسب "أوغسطين"-أن نشاط حركة الدوّارين وأعمالها التي وصفها بـ "الإجرامية" بدأت مع ظهور الانشقاق الدوناتي في بداية القرن الرابع الميلادي. ومن أبرز الدراسات الحديثة التي اهتمت بتاريخ الدوّارين، تلك المحاولات التي قام به الباحثان الفرنسيان "سرج لانسال"[٢] (Serge Lancel) و(Odette Vannier) "أوديت فانيي".[٣]

أولاً: ظهور حركة الدوّارين

يبدو أن حركة الدوّارين كانت موجودة منذ سنة ٣٤٠م على الأقل. والأرجح أنها بدأت قبل ذلك بمدة، لأن تدخل جنود "طورينوس" Taurinus ضد الدوّارين جاء بعد عجز الأساقفة الدوناتيين عن "إرجاعهم إلى الصواب في إطار الكنيسة". ونستنتج من هذا أن الحركة استفحل أمرها، خاصة وأنها بلغت درجة لا يستهان بها من حيث التنظيم والمبادئ وطريقة العمل، [٤] حسب ما أورده جون بول بريصون.

يتعذر على الباحث تحديد تاريخ ظهور حركة الدوّارين بدقة. لكن وانطلاقًا من المصادر المتوفرة، فإن الدوّارين ظهروا قبل حادثة "محلة أكطافا" سنة ٣٤٠م، والأرجح أن حركة الدوّارين بسماتها التاريخية تكون قد ظهرت بعد سنة ٣٢٠م، لأن ذكرهم لم يرد في محضر "زينوفيلوس" (Zenophilus) والي نوميديا. ومن جهة أخرى فإن وجودهم كان شيئًا واقعًا حوالي سنة ٣٤٠م. لذا فإن ظهور الحركة كان في الفترة ما بين عامي ٣٢٠م و٣٤٠م. [٥] نستنتج مما سبق – وحسب المصادر التي توفرت لدينا-أن حركة الدوّارين قد ظهرت بهذه التسمية وبملامحها وسماتها التاريخية التي عرفت بها خلال القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين، قبل سنة ٣٤٠م وبعد سنة ٣٢٠م على وجه الترجيح.

يعتبر نص "أوبطا الميلي"[٦] والذي ورد في الفصل الرابع من الكتاب الثالث أقدم إشارة صريحة إلى الدوّارين والمصدر الوحيد الذي تطرق إليهم بشيء من التفصيل في فترة ما قبل سنة ٣٤٧م.[٧] يمكن أن نضع حركة الدوّارين تحت المهجر في ضوء النصوص القديمة والأبحاث الحديثة، وأن نتساءل: من هم "الدوّارون" أو "الثوار الريفيون"؟ هل هم مجرد عصابات متمردة هائمة تحوم حول أهراء الحبوب وتمارس عمليات النهب والسلب، كما حاول المجادلون الكاثوليك أن يصفوهم؟[٨] أم هم جماعات كانت تتنقل عبر الأرياف النوميدية

والموريطانية بحثًا عن قوتها؟ أم جماعات من قطاع الطرق تزرع الذعر في نفوس الآمنين، وتتشكل من المتشردين والصعاليك يتنقلون بين مدن نوميديا؟[٩] هل هم ثوار قاوموا النظام الروماني؟ أو مجموعة من المصارعين (Agonisticii) الذين أطلقوا هذه التسمية على أنفسهم والتي تدل على قوتهم الجسدية وفعاليتهم في مواجهة أعدائهم؟ [١٠] أم هم جنود المسيح (Milites Christi) كما سماهم الدوناتيون [١١] وقد سموا قادتهم بالزعماء (Duces Sanctorum) القديسين؟[١٢] واتخذت هذه التسميات التي أطلقت على الدوّارين طابعًا دينيًا محضًا.

ثانيًا: ماهية الدوّارين في المصادر الكاثوليكية والدراسات الحديثة

تباينت آراء الباحثين حول ماهية الدوّارين والتسميات المختلفة التي عرفوا بها في المصادر الكاثوليكية وفي الدراسات الحديثة، سنحاول من خلال هذه المقاربة استجلاء أسباب إطلاقها ومدلولاتها.

٢/١-مفهوم "الدوّارين" لغة واصطلاحًا

(٢/١) ١-مفهوم "الدوّارين" لغة:

أطلقت عدة تسميات على الدوّارين، وأمام تعددها كان على الباحث استجلاءها والبحث عن أسباب إطلاقها ومدلولاتها. ويبدو أن معظم الباحثين قد اختلفت آراؤهم وتباينت حول تسمية الدوّارين، لذلك لا زالت الحركة تشكل لغزا ومحل تساؤلات عديدة. تعترض الباحث صعوبات جمة في تحديد معنى كلمة "الدوّارين" (كيركوم كليونس) (Circumcelliones) غير أن الصعوبة لا تكمن في الاشتقاق اللغوي، فالمصطلح اللاتيني يتركب من جزأين:"Circum" و "cella".[١٣] فالجزء الأول: كيركوم "Circum" يعني "حول"، أما الجزء الثاني: كيلا "cella" فمعناه إما "هري" وجمعها "أهراء" كيلاس (cellas) أو "مخزن المؤن" (من خمور أو زيوت أو حبوب).[١٤] وهذا التعريف اللغوي هو الذي ظل متداولاً حتى الآن في المعاجم والقواميس اللاتينية.

(٢/١) ٢-مفهوم "الدوّارين" اصطلاحًا

جاءت في المصادر الكاثوليكية تعاريف عدة للدوارين، فقد ذكرهم القديس "أوغسطين" بقوله: «كانوا يسمون بالدوّارين لدورانهم حول الأهراء».[١٥] أو أنهم: «أولئك الذين يحومون حول (Cellas rusticanas) الأهراء الريفية بحثًا عن القوت، ومن ثم جاءت تسميتهم بالدوّارين....».[١٦] يتضح مما سبق أن القديس "أوغسطين" اكتفى في تعريفه بالإشارة إلى الاشتقاق اللغوي، وترك بذلك الباب مفتوحًا لعدة تساؤلات وتأويلات. ويعرف معظم المؤرخين المحدثين[١٧] "الدوّارين" اصطلاحا بأنهم: أولئك الذين يدورون ويحومون حول الأهراء.

غير أنه برز في مطلع الخمسينيات تفسيرين جديدين لمعنى"cella". فقد افترض الإنجليزي "فراند" (Frend) أن كلمة "كيلاس روستيكاناس" (cellas rusticanas) التي وردت في نص "أوغسطين" لا تعني "الأهراء الريفية" وإنما معناها "أضرحة الشهداء الريفية" التي كانت متناثرة في الأرياف النوميدية والموريطانية. ذلك أن الدوّارين كانوا يشكلون فرقة من الدوناتيين يرتادون تلك "الأضرحة الريفية" للتبرك برفات الشهداء من جهة، والبحث عن قوتهم فيها من جهة ثانية.[١٨] إذ أن هذه الأضرحة كانت تتوفر في الغالب على مخازن للمؤن ومستودعات غذائية[١٩] كشف علم الآثار عن بقاياها.[٢٠] أما التفسير الثاني فقد افترضه الباحث الايطالي "كالدرون" (Calderone) سنة ١٩٦٧م، واعتبر أن الدوّارين كانوا نوعا من النساك أو الرهبان الذين يتجولون بين الأديرة، ومن هذا المنطلق فإن المقصود بـ: "cella" هو "بيت الراهب".[٢١]

يتضح من خلال المدلولات الاسمية السابقة التي أطلقت على الدوّارين وصفين مختلفين: المدلول الأول الذي درج أصحاب الجدل الكاثوليك على إطلاقه بهدف تشويه هذه الحركة ووصفها بأنها غير أخلاقية تمارس السلب والنهب وتسعى إلى ترويع الناس. وفي نفس الوقت نلمس إقرارًا ضمنيًا من طرف هؤلاء المجادلين بقوة الحركة وانتشارها من خلال الاعتراف بوجود الدوّارين في كل مكان وكل مدينة من المدن النوميدية والموريطانية.

٢/٢-الدوّارون في المصادر الكاثوليكية

اختلفت آراء الباحثين حول تسمية الدوّارين، ويرجع هذا الاختلاف ربما إلى تباين الآراء حول نشاطات

الدوّارين، وحول طبيعة حركتهم. وتجدر الإشارة هنا أن مختلف هذه الآراء ترتكز أساسًا على نصوص الكتاب الكاثوليك المعاصرين للدوارين أو اللاحقين الذين نقلوا عنهم، وبشكل خاص على كتابات القديسين "أوبطا الميلي" و"أوغسطين" ضد الدوناتية. نستشف من هذه المصادر الكاثوليكية بعض التسميات التي عرف بها الدوّارون مثل "المصارعون" (Agonisticii) و"جنود المسيح" (Milites Christi)، و"الزعماء القدسيين" (Duces Sanctorum) أو "الطوافون حول أضرحة الشهداء"، فهذه التسميات إما أن الثوار الريفيين أطلقوها على أنفسهم، أو أطلقت عليهم من قبل الدوناتيين.[٢٢] يبدو أن هذه النعوت لها مدلول إغرائي هدفه إعطاء بعد روحي لحركة الدوّارين لاستمالة الأهالي وكسب تعاطفهم.

والحقيقة أن الكتاب الكاثوليك كانوا يعتبرون حركة الدوّارين جزء لا يتجزأ من الانشقاق الدوناتي، وأن الدوّارين كانوا يمثلون الجناح العسكري للدوناتية ورؤوس رماحها ضد الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا فإنهم لم يتحدثوا عن الدوّارين إلا في إطار جدلهم الكلامي مع خصومهم الدوناتيين.[٢٣] ومن ثم فإن اللهجة التي استعملوها للحديث عن الدوّارين كانت تحمل الكثير من الازدراء والتحقير، واعتبروهم مجموعات من قطاع الطرق والصعاليك واللصوص وهي شتيمة رومانية – دون شك–غذتها الدعاية الكاثوليكية، وقد تصل هذه اللهجة في بعض الأحيان إلى القذف والسب اللاذعين.[٢٤]

والحق أن كتابات "أوغسطين" لا تشفي الغليل فيما يساعد على تحديد مدلول الدوّارين، وهو الذي عاش جزءا مهما من تاريخ الحركة وخصص فقرات للتنديد بالدوّارين، فأثارت كتاباته العديد من التساؤلات. لذلك كان من الضروري الرجوع إلى النصوص الكاثوليكية– وكتابات "أوغسطين" على الخصوص–وبعيدا عن جو الجدل الكلامي وعبارات القدح والقذف والتجريح. يبدو أنه من الأفضل الانطلاق من وثيقة رسمية صدرت عن السلطة الإمبراطورية آنذاك، ويتعلق الأمر بقانون "هونوريوس" (Honorius) الذي صدر في ٣٠ جانفي سنة ٤١٢م، بعد تحريم الدوناتية إثر مناظرة قرطاجة سنة ٤١١م. ويحدد هذا القانون قيمة الغرامات المالية والعقوبات المزمع تطبيقها على الدوناتيين الذين لم يلتحقوا بـ "الوحدة الكاثوليكية".

وينص القانون على ما يأتي: «اعتبارًا من تاريخ صدور هذا القانون، إذا لم يلتحق كل الدوناتيين – سواء منهم الأساقفة أو القساوسة أو العامة– بالكنيسة الكاثوليكية التي انشقوا عنها، فليرغموا على أداء غرامة فردية إلى خزينتنا وذلك حسب ما يأتي: "المشاهير" Illustres: ٥٠ رطلاً من الذهب، "الأشراف" Spectabiles: ٤٠ رطلاً من الذهب، "السيناتوريون" Senatores: ٣٠ رطلا من الذهب، "اللامعون" Clarissimi: ٢٠ رطلا من الذهب، "أعيان الإقليم" Sacerdotales: ٣٠ رطلا من الذهب، "أعيان المدن" Principales: ٢٠ رطلا من الذهب، "أعيان المجالس البلدية" Decuriones: ٥ أرطال من الذهب، "التجار" Negotiatores : ٥ أرطال من الذهب، "عامة المدن" plebei: ٥ أرطال من الذهب، "الدوّارون " Circumcelliones: ١٠ أرطال[٢٥] من الفضة.»[٢٦]

وفي حالة ما إذا لم يقدم "الأكارون"[٢٧] Conductores الدوّارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "وكلاء الإمبراطور" Procuratores إلى "المكلف بتنفيذ القانون" (Executor) كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها، بحيث لا يعفى منها حتى أهل البيت ولتخضع النساء للغرامة الزوجية على انفراد. وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية – رغم الأحكام الصادرة عليه–إلى مصادرة ممتلكاته، أما العبيد (Serve) الرافضون لتنفيذ هذا القانون فيودعون السجن، وأما المزارعون (Coloni) فيتعرضون للجلد، ويمكن لأسيادهم أن يقوموا بتسديد الغرامات المفروضة عليهم.[٢٨]

تكتسي الإشارة إلى الدوّارين (Circoncellions) في نص قانوني رسمي مثل قانون "هونوريوس" في حد ذاته أهمية بالغة، إذا ما استثنينا إشارة أخرى في قانون الملك الوندالي "هونوريك" (Huneric) ضد الكاثوليك في سنة ٤٨٤م، والذي هو نسخة منقولة نقلا شبه حرفي عن "قانون هونوريوس".[٢٩]

ويرجع الفضل إلى الباحث الفرنسي "شارل صوماني" في لفت نظر الباحثين إلى هذا القانون حيث لا يعيرونه اهتمامًا دون تحليله واستنتاج ما يمكن استنتاجه من النص. تتجلى أهمية النص في أنه يحدد قيمة الغرامات المالية حسب مختلف الفئات الاجتماعية (ordines)، وبما أن الجنحة هي اعتناق الدوناتية، فإن تفاوت قيمة الغرامة المالية إنما يعود إلى تفاوت الإمكانات المالية لكل فئة من هذه الفئات وحسب المكانة الاقتصادية والاجتماعية لمختلف هذه الفئات المذكورة في القانون.[٣٠]

وتتدرج هذه العقوبات من أعلى الفئات مثل: المشاهير واللامعون والسيناتوريون، إلى الطبقة البورجوازية الحضرية مثل: أعيان الإقليم، وأعيان المدن وأعيان المجالس البلدية، وتجار وعوام المدن مثل: التجار وعامة المدن، إلى الفئات الدنيا مثل: العبيد والمزارعون. أما فئة الدوّارين التي نحن بصدد دراستها فقد صنفت في أدنى مرتبة من الفئات التي تمثل الرجال الأحرار، ومباشرة بعد عامة المدن، لكنها ذكرت قبل فئة العبيد والمزارعين.

وقد اهتم باحثان[٣١] بدراسة هذا النص فأدخلا بعض التعديلات على قراءة صوماني:

الأول، يرى "ج. ب. بريصون" (J.P.Brisson) أن الفقرة الآتية التي وردت في قانون "هونوريوس": «وهكذا سوف يتعرض كل من أصر على البقاء في الدوناتية – رغم الأحكام الصادرة عليه- إلى مصادرة ممتلكاته» ، فمصادرة الممتلكات لا تعني الدوّارين وحدهم كما كان يعتقد "صوماني".[٣٢] لكن الفقرة تهم كل الفئات التي ذكرت قبل الدوّارين، كما تهم الدوّارين أيضًا. [٣٣] المهم في ذلك أن الدوّارين كانوا معرضين لمصادرة ممتلكاتهم كبقية الفئات، مما يعطي الدليل على أن القانون اعترف لهم ضمنيا بامتلاكها. الثاني، ينما اقترح "تنغستروم" (E. Tengström) قراءة أخرى للفقرة الآتية: «وإذا لم يقدم "الأكارون" الدوّارين الموجودين تحت مسؤوليتهم، أو لم يقدمهم "الوكلاء" إلى المكلف بتنفيذ القانون كي يؤدوا الغرامة، فإنهم مطالبون شخصيا بأدائها...» .[٣٤]

يرى "تنغستروم" أن الضمير (ipsi) في الجزء الأخير من الفقرة، لا يعود على الدوّارين كما قرأه "صوماني" [٣٥] و"بريصون" [٣٦]، ولكن يعود على الأكارين والوكلاء.

وقد نالت هذه القراءة رضا بعض الباحثين [٣٧]، فبالرغم من أنها تبدو أكثر تلاؤما مع سياق النص إلا أنها لا تدخل تغييرا ملحوظا عليه، إلا من حيث مسؤولية الوكلاء ومسيرو الأعمال في الضغط على الدوّارين كي يتخلوا عن الدوناتية، فهم المكلفون بتسليم الدوّارين إلى منفذ القانون (Executor).

لقد كان الدوّارون يشكلون فئة من الرجال الأحرار، المعرضين لأداء غرامة مالية ومصادرة ممتلكاتهم، إذا لم يذعنوا لمقتضيات قانون "هونوريوس". لذلك نرى أن وضعيتهم كانت تختلف عن وضعية العبيد والمزارعين الذين كانوا معرضين للعقوبات الجسدية (السجن والجلد).

ويبدو أن مسيرو الأعمال لم يكونوا متحمسين للمهمة التي أوكلت لهم حسب قانون "هونوريوس"، لذلك صدر بعد ذلك بسنتين قانون في سنة ٤١٤م. [٣٨] وكان أقسى عليهم من قانون سنة ٤١٢م الذي نص على: « أما مستأجري ضيعاتنا، إذا هم سمحوا بممارسة الهرطقة (الدوناتية) فوق أراضينا، فليعاقبوا بأداء قدر من المال يساوي القدر الذي يسددونه عادة ككراء عن الضيعات. وأما المستأجرون الخواص، فإذا سمحوا بانعقاد تجمعات "دوناتية" في الملكيات أو أدى تساهلهم إلى تدنيس الأسرار المقدسة (Sacrum Mysterium)، فليخبر القضاة بذلك الملاك المعنيين. وعلى هؤلاء إما أن يصلحوا اعوجاج المستأجرين، وإما أن يعوضوا من تمادى منهم في غيهم بمديرين متشبعين بالمبادئ الإلهية. وأما الملاك الذين تهاونوا في إخبار السلطة، فليعاقبوا بغرامة مالية قدرها الربع الذي اعتادوا كسبه (من أراضيهم) ».[٣٩]

يبدو أن السلطة الرومانية كانت تعتبر الملاك نوعا من الوسطاء بينها وبين المستأجرين. كما كانت تعتبر هؤلاء الأخيرين وسطاء بينها وبين الدوّارين. ومع أن قانون سنة ٤١٤م لم يذكر الدوّارين صراحة، إلا أنه كان يقصدهم عبر تحميل المستأجرين مسؤولية تجمعات الدوّارين وتدنيسهم للأسرار القدسية في الأراضي

الإمبراطورية أو أراضي الخواص. ومما تجدر الإشارة إليه أن القانون لم يحدد أي عقوبة بخصوص الدوّارين، في حين نص على عقوبات خاصة بالعبيد والمزارعين: كالسجن والجلد فضلاً عن انتزاع ثلث ($\frac{1}{3}$) المكسب بالنسبة للمزارعين.[٤٠] كما أن غياب الدوّارين في قانون سنة ٤١٤م لا يدل على اختفائهم "كأوردو – Ordo" (فئة اجتماعية) لسبب أو لآخر، إذ أن القانون لم يذكر أيضًا فئات أخرى مثل: اللامعون (Clarissimi) والتجار(Negotiatores) وعوام المدن (Plebei).[٤١]

مما يلاحظ على قانون سنة ٤١٤م أنه كان أقل صرامة من قانون سنة ٤١٢م من حيث قيمة الغرامات المالية المفروضة على الفئات الاجتماعية العليا (المشاهير، الأشراف، اللامعون، السيناتوريون...) في حين كان أكثر تشددا مع الفئات الريفية (مزارعون، عبيد).

وأعتقد أن هذا التفاوت في معاملة القانون للفئتين يعود أساسًا إلى: أن الفئات الريفية كانت أكثر تأثرًا بالدوناتية من غيرها، وأكثر مقاومة لقانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م، ومن ثم جاء التشدد من طرف المشرع تجاه هذه الفئات. وأن الضغط أصبح مركزًا على المستأجرين، إذ أنهم أصبحوا مهددين بفسخ عقودهم مع ملاك الأراضي، مما يدل على أن الدولة لاحظت من تجربة سنتين (٤١٢-٤١٤م) مدى تهاونهم في تطبيق قانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م.

ويمكننا أن نتساءل عن مدى تطابق معطيات هذا النص القانوني مع المعلومات التي يمكن استخلاصها من النصوص والمصادر الأدبية عن الدوّارين؟

تشير تلك النصوص إلى أن الدوّارين كانوا يضمون في صفوفهم عددا كثيرًا من السكان الأصليين الذين رفضوا سياسة الرومنة. إذ يذكر "أوبطاتوس الميلي" أنه في حوالي سنة ٣٤٠م كانت جماعات من الدوّارين في نوميديا يترأسها زعيمان يحملان اسمي"أكسيدو" (Axido) و"فازير" (Fasir) في سياق حديثه عن المعركة التي دارت بينهم وبين فرق الكونت "طورينوس" (Taurinus).[٤٢] في حين يحدثنا "أوغسطين" عن بداية ظهور جماعات الدوّارين التي تعود إلى سنة ٣١٧م عشية الإعلان عن مرسوم "قسطنطين" الذي ينص على نزع الكنائس من المنشقين الدوناتيين.[٤٣] ونلاحظ أن اسمي "أكسيدو" و"فازير" لا ينمان عن ترومن عميق.[٤٤] كما يشير "أوغسطين" إلى أن الدوّارين في ضواحي مدينة "هيبو ريجيوس" (Hippo-Regius) "عنابة حاليًا" كانوا لا يفقهون اللغة اللاتينية.[٤٥] لذلك كانت اللغة البونية (الليبية؟) ضرورية للتفاهم معهم.[٤٦]

وتذكر نصوص كاثوليكية أخرى الدوّارين بلهجة تحمل الكثير من الاستغراب والاستهجان، حيث يتحدث عنهم "أوغسطين" قائلا: « ... تلك المخلوقات الفظة والمخبولة التي لا تفهم ولا تحتمل ما ننصحها به في سبيل خلاصها، والتي تمارس ضدنا أعمال عنف مسعور لا تكفي كلماتي لتعدادها والتذكير بها وعرضها عرضًا مناسبًا».[٤٧] يبدو من النص أن "أوغسطين" يتحامل – كعادته –على الدوناتيين ويصفهم بالمخلوقات، وهو بذلك ينزع عنهم صفة الآدمية، وأنهم جماعات تمارس العنف ضد الكاثوليك. ويشير في فقرة أخرى إلى ذلك التعاون بين الدوّارين والكهنة (Clerici) الدوناتيين لاقتراف الجرائم في حق الكنيسة الكاثوليكية.[٤٨]

ومهما يكن من أمر، فإن معظم الدوّارين كانوا ينتمون إلى أصول إفريقية، مع عدم تأثرهم بقيم سياسة الرومنة وباللغة اللاتينية، وهذا ما يتلاءم مع المستوى الاقتصادي والاجتماعي الذي ذكرهم به قانون سنة ٤١٢م. ولما كان الدوّارون يتنقلون من مكان لآخر، فإن عدم استقرارهم ساعدهم على عدم التأثر بسياسة الرومنة. وفعلا فقد كان تنقلهم وعدم ثباتهم في مكان معين من أبرز السمات التي اتصفوا بها، والتي أثارت انتباه بعض الكتاب الكاثوليك المعاصرين لهم، ومنهم من وصفهم بـ "Circuitores"[٤٩] والتي لا تفيد أكثر من معنى "دوارين" أي الذين يحومون حول الأهراء أو أضرحة الشهداء.

وتحدث عنهم "أوغسطين" في حوالي سنة ٤٢٠م إذ قدمهم على الشكل الآتي:« إنني أتحدث عن وقائع يعرفها المعاصرون حق المعرفة. فمن منا لا يعرف ذلك النوع من الناس الذين لا يكفون عن اقتراف الجرائم الشنيعة، ويستنكفون عن الأعمال النافعة، شديدي القسوة في قتل الآخرين، وبالغي الدناءة في قتل

أنفسهم، يرهبون البوادي خاصةً، لكن لا يشاركون في الأعمال الفلاحية، يحومون حول الأهراء الريفية (Cellas rusticanas) بحثًا عن القوت–ومن ثم جاءت تسميتهم بالدوّارين–ومَنْ منا لا يعرف أنهم يمثلون في العالم أجمعه أشهر وصمة عار في جبين الانشقاق الإفريقي» [٥٠] يلخص هذا النص نظرة الكاثوليك إلى الدوّارين، مشيرًا إلى أهم السمات التي اتصفوا بها – في رأيهم، ومنها أن الدوّارين كانوا يقترفون جرائم شنيعة باغتيال الكاثوليك. وأنهم لا يتوانون في قتل أنفسهم إراديًا (الانتحار الإرادي رغبة في الاستشهاد). وأنهم جنود الدوناتية ورؤوس رماحها، وبذلك فهم يمثلون – حسب "أوغسطين"–أشهر وصمة عار في جبين الدوناتية.

يبدو –حسب شهادة "أوغسطين"–أن الدوّارين كانوا يعيشون في الأرياف، برغم لهجة التحقير والازدراء التي وصفها بهم " "ذلك النوع من الناس". ونستنتج من ذلك أن الدوّارين كانوا –على الأقل في البداية–شبه منحصرين في البادية وإن كانوا لا يشاركون في الأعمال الفلاحية. ويؤكد ذلك أقدم نص يتحدث عن الدوّارين – وهو الفصل الرابع من الكتاب الثالث لـ"أوبطا الميلي"–حيث ذكر أن الأسقف الدوناتي بمدينة بغاي (Bagai) "شمال الأوراس" أرسل المنادين إلى كل ضواحي المدينة وإلى الأسواق ليستنفر الدوّارين ويحثهم على مهاجمة البعثة الإمبراطورية سنة ٣٤٧م. وهكذا يستعمل الكاثوليك نوعا من التهديد للضغط على الدوناتيين كي يوقفوا أعمال عنف الدوّارين الموجهة ضد الأساقفة والكنائس الكاثوليكية. [٥١]

وفي هذا السياق يشير "أوغسطين" في أحد النصوص: «كانت الغارات العنيفة التي يقوم بها دواروكم الذين يهجمون علينا على شكل عصابات مجنونة تحت سلطتكم وأوامركم، تؤدي بنا إلى الطرد من كل مكان في البادية، لو لم نحتجزكم كرهائن في المدن؟... »[٥٢] يتضح من النص أن مجال عمليات الدوّارين كان مركزا في الأرياف، حيث كانت جماعاتهم تغير على الكنائس والأساقفة وتمثل أكبر خطر على الوجود الكاثوليكي بها. وحسب "أوغسطين" فإن الدوّارين كانوا يتحكمون أيضًا في المدن وفي المناطق الريفية التابعة للضيعات (Fundi). ولما كان الدوّارون يقومون بعمليات في الأرياف فإنهم كانوا يتقدمون أحيانا في غاراتهم على بعض المدن، كما وقع حوالي سنة ٤٠٩م، حينما قادهم الأسقف الدوناتي "ماكروبيوس" (Macrobius) إلى دخول "هيبو–ريجيوس" (عنابة). [٥٣]

ويمكن أن نخلص إلى أن المصادر الكاثوليكية كانت تصف الدوّارين" بالريفيين" (Agresti). [٥٤] ويتفق ذلك مع ما ورد من نعوت في قانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م من كون الدوّارين كانوا يعيشون في الضيعات الإمبراطورية وفي أراضي الخواص تحت إمرة المستأجرين، ولذلك نرى أن هناك تطابقا بين معطيات ذلك القانون والمعطيات التي استقيناها من النصوص والمصادر الأدبية الكاثوليكية.

إذن، نحن أمام رجال أحرار يؤلفون فئة اجتماعية محددة حسب قانون ٤١٢م، يعيشون في البوادي، ويتنقلون من مكان إلى آخر، لكنهم يستنكفون عن العمل الفلاحي ويرهبون البوادي خاصة حسب قول "أوغسطين". [٥٥]

ويتحدث بعض الكتاب الكاثوليك في مقام آخر عن "جرائم شنيعة" اقترفها الدوّارون، من هؤلاء نجد "أوغسطين" الذي يعدد بعض تلك الجرائم في حوالي ٤٠٥– 406م قائلاً: « ...تلك القسوة التي تخترع ضدنا ألوانا من الاغتيال والنهب، والحريق وإلهاب العيون وغيرها...» [٥٦] ويذكر في نص آخر جرائم أخرى كان الدوناتيون والدوّارون يقترفونها: « ... في كل يوم نعاني من الأضرار المذهلة التي يقترفها قساوستكم ودواروكم، وهي أضرار أشر من أفعال كل اللصوص وكل النهابين مجتمعين... » [٥٧]

توحي النصوص السابقة أن النهب والحريق والتلصص كانت من بين الجرائم التي ذكرها "أوغسطين". لكن الحقيقة أن كل ما تشير إليه النصوص إنما يدخل في إطار المساجلة الكلامية مع الدوناتيين ولا تعطي أي إشارة إلى أعمال قام بها الدوّارون. وإذا كان أوغسطين قد تحدث عن مهاجمة الدوّارين للكنائس والممتلكات الكاثوليكية، فإن الهدف من ذلك – حسب النصوص نفسها – لم يكن بغرض النهب والسلب، وإنما يندرج ضمن إطار الصراع المذهبي بين الدوناتيين

والكاثوليك، وحماية الفقراء والمستضعفين من استغلال وبطش الأغنياء.

٣/٢-الدوّارون في الدراسات الحديثة

تعددت آراء الباحثين المحدثين وكتاباتهم حول الدوّارين، ويعود هذا التباين في الآراء الى طبيعة نشاطات حركة الدوّارين وتنوع أساليبها. وترتكز هذه الآراء أساسا على نصوص الكتاب المعاصرين الذين نقلوا عن المصادر الكاثوليكية، وقدموا عدة أطروحات وفرضيات مثل: والباحث الفرنسي "بول مونصو" [٥٨] (P. Monceaux) والباحثة الفرنسية "أوديت فانيي" [٥٩] (O. Vannier) والباحث الفرنسي "ج. ب. بريصون" [٦٠] (J.P.Brisson) الفرنسي "شارل صوماني" [٦١] (Ch.Saumagne) والباحث السويدي "تنغستروم" (1913–1996) [٦٢] (E.Tengström) [٦٣] والباحث الايطالي "كالدرون" (1876–1929) (S. Calderone). [٦٤]

يعتبر "مونصو" أن الدوّارين: « كانوا مغامرين رُحّل لا بيت لهم ولا مقرّ، يعيشون من التلصصُّص، ويجوبون الطواف حول الضيعات (Circumcellas) ومخازن الحبوب والمؤن، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم "المصارعين" (Agonisticii) أو جنود المسيح (Milites Christi). [٦٥] ويدعون أنهم يدافعون عن الكنيسة الحقة، كنيسة دوناتوس والمسيح، ضد الشيطان أي ضد الكاثوليك. وكانت عصاباتهم تتشكل من رعاع الشعب وأوباشه، ومن المستاءين من مختلف الأجناس والجهات، فكان من بينهم الأهالي الذين لا يتكلمون سوى اللغة البونية، والعبيد الآبقون، والمزارعون Coloni المفلسون، والكاثوليك المفصولون عن المجتمع، والمفلسون، والمجرمون ذوي السوابق، فضلاً عن السذج المتعصبين. وكان زعماؤهم إما من الأهالي، أو من الكهنة الدوناتيين» [٦٦] يوحي النص أن "مونصو" حذا حذو مصادره الكاثوليكية، وتبنى وجهة نظر خصوم الدوناتيين والدوّارين، بحكم احتكاكه المباشر والطويل بعمله الموسوعي "التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية."

ويمكننا أن نتساءل عن السبب الذي دفع بـ "مغامرين" و"لصوص" يعيشون من النهب والسلب إلى اتخاذ موقف من الصراع المذهبي بين الكاثوليك والدوناتيين، واختيار الاستشهاد الإرادي ولو عن طريق الانتحار، وحمل ألقاب دينية كالمصارعين وجنود المسيح والقديسين. هذا فضلا عن أن أهدافهم كانت ترتقي إلى الذود عن الضعفاء والفقراء ضد تعسف وظلم الأغنياء. والحقيقة أنه لو كان الدوّارون مجرد عصابات من المغامرين واللصوص، وخليطا –حسب مونصو–من العبيد الآبقين والمزارعين المفلسين والمجرمين، لما نظر إليهم قانون "هونوريوس" سنة ٤١٢م على أنهم فئة اجتماعية متجانسة نوعا ما. إذ لا يعقل –كما ذكر "صوماني" Saumagne– [٦٧]، أن يعترف المشرع بالوجود الشرعي لعصابات من قطاع الطرق والخارجين عن القانون. ولو كان ذلك صحيحًا لكان من السهل على ذلك المشرع أن يأمر بسجنهم وأن يخضعوا للعقوبات المنصوص عليها في قانون ٤١٢م.

وترى "أوديت فانيي" (O. Vannier) [٦٨] أن الدوّارين في بغاي كانوا يشبهون جماعات من المتسولين والمساكين (Meskines) التي شوهدت قبل سنوات (من سنة ١٩٢٦م) وهي تجوب مناطق مختلفة من الجزائر، نتيجة الصعوبات الاقتصادية التي انجرت عن حالة البلاد آنذاك. [٦٩] يبدو أنه من غير المنطقي تأييد وقبول هذا الرأي، لأن قانون ٤١٢م لم يكن ليرفع جماعات من المتسولين إلى مرتبة "أوردو" (Ordo)، أي فئة اجتماعية لها عضويتها في المجتمع الإفريقي آنذاك، وأن يفرض عليها دفع غرامة مالية قدرها عشرة أرطال من الفضة!

وإذا كان "صوماني" قد اعتبر الدوّارين مجرد رحل لا يملكون الأراضي و"عمال فلاحيين"، [٧٠] يتنقلون من ضيعة لأخرى بحثا عن العمل وعن القوت في الضيعات أثناء مواسم جني الزيتون وقطف العنب والحصاد. فإن "فراند" (Frend) حاول تحديد نوع الأشغال الفلاحية التي كانوا يمارسونها، ورأى أنهم كانوا يشتغلون في الزياتين المنتشرة في نوميديا الجنوبية شمال الأوراس، [٧١] أي في المنطقة التي تحدثت المصادر عن تركز عمليات الدوّارين فيها. بينما يرى "مونصو" [٧٢] (Monceaux) أن الهراوات (Fustes) التي كانوا يستعملونها كسلاح في هجماتهم –حسبما جاء في

نصوص أوغسطين- [٧٣] كانت عبارة عن مخابط كانوا يستخدمونها في قطف الزيتون (Perticae). [٧٤] وعلى هذا الأساس فإن "الأهراء الريفية" (Cellas rusticanas) التي كانوا "يحومون" حولها حسب تعريف "أوغسطين"، [٧٥] كانت بالأحرى "مخازن للزيت" (Cellae oleariae). [٧٦]

يبدو من الغريب أن يكون القديس "أوغسطين" قد أهمل الإشارة إلى أن هراوات الدوّارين التي كانوا يعطونها الاسم الديني "إسرائيلات" (-Israëls Israeles) [٧٧] عبارة عن مخابط الزيتون. ذلك أنه كان يهدف من وراء ذلك تدعيم مساجلاته الكلامية مع الدوناتيين، بتضخيم الأسلحة التي كانوا يهاجمون بها الكاثوليك.

ثالثًا: المجال الجغرافي لثورة الدوّارين

يظهر أن مجال عمليات الدوّارين قد توسع مع مرور الزمن حيث شملت عملياتهم معظم مناطق نوميديا في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس للميلاد، ولم تبق مركزة في نوميديا الجنوبية شمالي الأوراس فقط. كما لا يمكن إنكار وجودهم في شمال نوميديا في منطقتي هيبو- ريجيوس (عنابة) وكالاما (قالمة) على وجه الخصوص، كما امتدت شرقًا إلى مدن البروقنصلية مثل موستي وتبورسيكوم بوري (تبرسق) وأسوراس.

وهكذا نرى أن المهتمين بثورة الدوّارين وبالحركة الدوناتية من الكتاب الأفارقة المعاصرين لهم ("أوبطاتوس" و"أوغسطين") ومن الباحثين المحدثين، قد انقسموا إلى تيارين: التيار الأول: يركز على ظروف الدوّارين الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي، مع إمكانية الاختلاف حول ما إذا كانت للحركة أهداف ثورية [٧٨] أم لا؟ [٧٩] والتيار الثاني: يرى أن حركة الدوّارين حركة دينية في الأساس، فهم إما نوع من الرهبان، [٨٠] أو فرق متنقلة بين أضرحة الشهداء المتناثرة في الأرياف الإفريقية. [٨١]

وإذا كان "صوماني" قد دافع عن رأيه — السابق الذكر-باعتبار الدوّارين "عمالا فلاحيين"، فإن الإيطالي "كالدرون" دافع هو الآخر عن أطروحته التي تعتبر الدوّارين "رهبانا"، ويرفض رفضا تاما أن يكون الدوّارون عمالاً فلاحيين.

ويعتمد "كالدرون" في تبرير أطروحته على برهانين أساسيين هما:

البرهان الأول: يذكر "كالدرون" في أحد النصوص يشير فيه إلى: « أن الدوّارين كانوا على صفة الرهبان يتجولون في كل مكان، متنقلين عبر الأقاليم، لم يبعث بهم إلى أي مكان، ولم يستقروا في مكان واحد، بل كانوا دائمي التنقل». [٨٢] البرهان الثاني: ويرى "كالدرون" في مقام آخر أن الأمر يتعلق بتأويل كلمة "Cotopita" [٨٣] التي ورد ذكرها عند "إيزيدور الإشبيلي" وهي مرادفة في المعنى لكلمة Circumcelliones: يطلق على الدوّارين اسم Circumcelliones، فهم "ريفيون" (Agrestes)، ويسمون أيضًا Cotopitas التي هي كلمة إغريقية مرادفة للكلمة اللاتينية Circelliones». [٨٤]

ويعتقد "كالدرون" أن Cotopita كلمة قبطية مكونة من شقين: Ket (من فعل Kôet المرادف للاتيني Circumuire: بمعنى دار حول) وaouvèt بمعنى: "تجمع للنساء" أو "صومعة الرهبان"، والكلمة المركبة Két-aouvèt كانت تنطق Kétaubit وبالتالي أعطت Cotopita باللاتينية. وهكذا أصبحت كلمة Cotopita تعني: " الذي يدور حول بيع الرهبان" وبما أنها مرادفة للكلمة اللاتينية Circumcellio، فإن كلمة Cella ينبغي أن تُفهم بمعنى "بيت الراهب". لذلك وانطلاقًا من هذه المقاربات فإن الدوّارين كانوا رهبانا متنقلين بين "تجمعات الرهبان" في البوادي الإفريقية. [٨٥] يبدو أنّه من غير المكن الاعتماد على الإشارات التي أوردها "كالدرون" (Calderone) لتدعيم أطروحة الدوّارين الرهبان. إضافة إلى أن الكتاب اللاحقين لأوغسطين وقعوا —دون شك-في خلط بين الرهبان المتنقلين الكاثوليكيين (Moines gyrovagues) وبين الدوّارين. هؤلاء الرهبان الذين انحرفوا عن قواعد الرهبنة بسرعة وبدأوا يغادرون بيعهم للتسكع بين القرى. أما البراهين التي قدمها "كالدورن" فلا تعدو أن تكون مجرد افتراضات.

رابعًا: علاقة الدوّارين بالدوناتيين

وعن علاقة الدوّارين بالدوناتيين يذكر "أوغسطين" أنّ عددا من الأساقفة الدوناتيين تزعّموا بعض عصابات الدوّارين.[٨٦] وربّما كان يقصد "أوبطاتوس الجيلدوني"[٨٧] على وجه الخصوص وأساقفة آخرين « ... كان بودهم أن يفعلوا مثله ولكن الإمكانات أعوزتهم».[٨٨] ونشير هنا أنّ أوغسطين وصف الدوّارين بالعصابات. ومعلوم أنّ الكاثوليك – في إطار الجدل الفقهي–كانوا يردُّون على ادعاءات الدوناتيين بكون كنيستهم كانت "كنيسة القديسين" و"كنيسة الشهداء"، وأن هؤلاء القديسين هم وحدهم يملكون القدرة على التعميد أو إعادته، إذ أن صحّة التعميد مرتبطة بقداسة خادم السر أو المعمد (Minister).[٨٩] فكان ردُّ الكاثوليك أنه إذا كان "أوبطاتوس الجيلدوني" (الشكل ٤) والدوّارون وأمثالهم يملكون قدرة التعميد، فأين "قداستهم" وهم يرتكبون أشنع الجرائم؟[٩٠] لذا كان معظم الأساقفة الدوناتيون يستنكفون عن تصرفات الدوارين، حتى لا يحرجوا في مجادلاتهم الفقهية مع الكاثوليك من جهة، وحفاظا على مصالح الحركة الدوناتية تفاديا لانتقام السلطة الرومانية منهم من جهة ثانية.

أما عن سبب تسمية "أوبطاتوس" بـ"الجيلدوني" (Gildonianus) فقد كان يقدّم الدعم والمساندة للثائر "جيلدون"(Gildon) في ثورته على السلطة الرومانية خلال الفترة (397–٣٩٨م) فكان من أبرز الأساقفة الدوناتيين الذين دعموا هذه الثورة Optatus de Thamugadi أسقف كنيسة "تاموقادي" (تيمقاد حاليا شرق الجزائر) الذي كان مستشارًا له، ولعب دورًا بارزًا في قيادة الرجال وتجنيد فرق من الدوّارين لتدعيم "جيلدون"، Gildonianus). وبعد هزيمة "جيلدون" تم القبض على "أوبطاتوس" وتوفي في السجن سنة ٣٩٨م.[٩١] أما عن طبيعة الدوّارين وحركتهم الثورية، فإننا نتساءل هل شكّل الدوّارون فعلا تلك العصابات المسلّحة؟ التي قال عنها "أوغسطين" أنّها عصابات كانت تعمل تحت قيادة الأسقف "أوبطاتوس الجيلدوني"[٩٢] أسقف تيمقاد الدوناتي–الخارج عن القانون–على حد قول "أوغسطين"؟[٩٣] ولنا في الشواهد الإبيغرافية (الشكلين ١–٢) التي عُثر عليها في كنيسة تيمقاد (الشكل رقم ٣) ما يدلُّ على النشاط الذي قام به "أوبطاتوس الجيلدوني" في مدينة "تاموقادي".[٩٤]

خاتِمَةٌ

توصلتُ من خلال هذه الدراسة التي بين أيدينا إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يأتي:

- يتّضح مما سبق عرضه من مختلف الأطروحات التي حاولت تفسير ماهية الدوّارين وطبيعة حركتهم وعلاقتهم بالحركة الدوناتية، أنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية (أوردو- Ordo) تتألف من رجال أحرار يعيشون في الأرياف الإفريقية، وينتمون–في معظمهم – إلى أصل إفريقي غير مترومن.
- احتلّ الدوّارون مكانة اجتماعية وضيعة، رغم أن نصوص الكتاب الكاثوليك (نصوص القديسين أوبطا الميلي وأوغسطين خاصة) تشير إليهم على أنهم كانوا خليطا من اللصوص وقطاع الطرق والخارجون عن القانون.
- لا يمكننا قبول هذه النظرة الأحادية لأن الكاثوليك هم خصوم الدوّارين فكان من الطبيعي أن يصفوهم بتلك الأوصاف.
- إنّ الاشتقاق اللغوي لكلمة "دوارين" Circumcelliones بأنّهم: أولئك الذين يدورون ويحومون حول مخازن المؤن ومستودعات الحبوب (Horea) الموجودة في الضيعات النوميدية، وكما أن Cellas rusticanas لا تعني بيوت الرهبان ولا أضرحة الشهداء بقدر ما تشير إلى الأهراء الريفية.
- كان الدوّارون –على الأرجح–جماعات من الرحّل تبحث عن العمل في الضيعات خلال المواسم الفلاحية (حصاد، قطف العنب والزيتون) وهي تجوب مختلف الأرياف والبوادي الإفريقية، وقد تحصل على مبتغاها باستعمال القوة. وما دفعها إلى ذلك الضيم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي الذي مارسه كبار الملاك بمباركة السلطة الرومانية.
- كان من الطبيعي، أن واقع الدوّارين الاقتصادي كعمال فلاحيين متنقلين لا ينفي أن يكون لهم واقعا دينيا،

لتطلق عليهم عدة تسميات ونعوت "كجنود الله" و"عساكر الدوناتية" و"المصارعين" و"جنود المسيح" وغيرها، وكانوا خلال ثورتهم تلك التي استهدفت الكنائس والأساقفة الكاثوليك، والسلطة الزمنية الرومانية حليفتهم، كانوا يزورون أضرحة الشهداء. فلا يجوز إذن تجريد الدوّارين من كل السمات التاريخية التي ظهروا بها خلال الصراع الطويل بين الكاثوليكية والدوناتية على مدى قرن من الزمن (٣١١م-٤١١م).

- تشكل حركة الدوّارين —رغم انتمائها إلى الكنيسة الدوناتية-حركة مستقلة لها أهدافها ومبادئها وتنظيمها وغاياتها الخاصة، عكس ما ذهبت إليه الكتابات الكاثوليكية التي تعتبر الدوارين دائما عساكر الدوناتية ورؤوس رماحها. وعلى هذا، يمكن القول إن العلاقات بين حركة الدوارين والحركة الدوناتية كانت — قبل سنة ٣٤٧م-تتسم بنوع من الاستقلالية وبعيدة عما يمكن أن نصفه بالتحالف. إلا أن أحداث بغاي سنة ٣٤٧م كانت منعرجا حاسما دفعت بالحركتين إلى التحالف لمواجهة الكنيسة الكاثوليكية والسلطة الرومانية.
- كانت نوميديا وبغاي تحديداً مهد ومعقل الدوناتية وقلعتها الحصينة منذ نشأة الحركة حتى نهايتها. وقد ظلت الأرياف الحصن الحصين للكنيسة المنشقة. فلا غرابة إذن أن تكون مقاومة البعثات الإمبراطورية عنيفة في هذا الإقليم من المغرب القديم دون غيره. لذلك كانت نوميديا نقطة التقاء بين التمرد الاجتماعي الذي يمثله الدوارون والتمرد الديني الذي تمثله الدوناتية.
- تظافرت عدة عوامل دفعت الدوّارين إلى مناهضة السلطة الزمنية الرومانية، والذين كانوا يرون في مقاومتهم تلك حربا مقدسة ضد الكاثوليك من جانب، وحرباً اجتماعية ضد الأسياد والملاك الذين يشخصون الوجود الروماني من جانب آخر. وكأن الدوارون بتدخلهم في الصراع الديني بين الدوناتية والكاثوليكية لم يكن دفاعاً عن كنيسة "دوناتوس" ولا ضد الكنيسة الكاثوليكية بقدر ما كان مناهضاً للسلطة الرومانية التي كانت تمثل بالنسبة لهم جهازا قمعيا يسعى للحفاظ على الأوضاع القائمة.

الملاحق



fig 1. Photo Rabie



fig 2. Photo Rabie

الشكل رقم (١)

نقيشتي "أوبطاتوس الجيلدوني" بكنيسة تيمقاد

١-فسيفساء هندسية تحمل نقيشتي "أوبطاتوس الجيلدوني" بكنيسة تيمقاد، وجدت النقيشة الأولى عند مدخل البهو وتحمل الكتابة الآتية:

HAEC LUBENTE / SACERDOTE
D (EI) OP/TATO PERFECTE

وترجمتها كالآتي: "أنهيت هذه الأعمال حسب رغبة أوبطاتوس تماماً"

٢-النقيشة الثانية (مشوهة) وجدت في وسط الباحة المعمدة وتحمل الكتابة الآتية:

QUANTA [LAUS] NOMINI [ILLIUS]**?** …

وقد تشير إلى اسم كاتب النقيشة: "كوانتالوس نومينيليوس"

المصدر: عولمي الربيع، المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس الميلاديين، أطروحة دكتوراه في التاريخ القديم، إشراف: الطاهر ذراع، جامعة باتنة-١، الجزائر ٢٠١٥-٢٠١٦، ص ٦٧٠.





الشكل رقم (٢)

فسيفساء لكتابة لاتينية تحمل اسم "أوبطاتوس الجيلدوني"

عثر عليها بالبازيليكا الكبرى بالحي الغربي لمدينة تيمقاد

المصدر:

Eugene Albertini, Un témoignage épigraphique sur l’évêque donatiste Optât de Timgad, dans: C.R.A.I, 1, 1939, p. 100-103.



الشكل رقم (٣)

المجمعين المسيحيين الكاثوليكي والدوناتي بمدينة تيمقاد

المصدر:

Geo Report, Archaeology and satellite imagery, Pleiades Archaeology Collection, Airbus Defence and Space 2014.



الشكل رقم (٤)
ملحقات البازيليكا منها منزل الأسقف أوبطاتوس بمدينة تيمقاد

مصدر الصورة: موكاح فازية، العمارة الدينية المسيحية في مدينة تيمقاد، دراسة أثرية، مذكرة ماجستير في الآثار القديمة، جامعة الجزائر ٢، ٢٠١١-٢٠١٢، ص ١٢٤.

الإحالات المرجعية:

(١) **الريفيون الأوراسيون**، أطلقت هذه التسمية على الدوّارين، **الريفيون:** (the rural) لأنّهم كانوا يشكّلون فئة اجتماعية (أوردو- Ordo) تتألف من رجال أحرار يعيشون في الأرياف النوميدية، وينتمون-في معظمهم-إلى أصل إفريقي غير مترومن. أمّا **الأوراسيون:** (Auresians) فلأنّ حركتهم الثورية انطلقت من نوميديا (الجزائر القديمة) وتحديدا من مدينة بغاي (بولاية خنشلة حاليًا) مهد ومعقل الحركة الدوناتية وقلعتها الحصينة منذ نشأة الحركة حتى نهايتها سنة ٤١١م، وهي التي تقع في قلب جبال الأوراس (شرق الجزائر) هذه المنطقة التي صدّت كل الغزاة عبر العصور. كما كانت بغاي قلعة الكاهنة ملكة البربر التي قاومت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي. وقد ظلّت الأرياف الحصن الحصين للكنيسة المنشقة. فلا غرابة إذن أن تكون مقاومة البعثات الإمبراطورية عنيفة في هذا الإقليم من المغرب القديم دون غيره. لذلك كانت نوميديا نقطة التقاء بين التمرد الاجتماعي الذي يمثله الدوّارون والتمرد الديني الذي تمثله الدوناتية.

(2) Lancel (S.), Aux origines du Donatisme et du mouvement des Circoncellions, (C.T. ,57-60), 1967, pp 183-188.

(3) Vannier (O.), les Circoncellions et leurs rapports avec l'église Donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n° 67, 1932, pp.13-28.

(4) Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme en Afrique Romaine, Paris, , 1958, p.328.

(5) Brisson (J.P.), .), Autonomisme et Christianisme., pp.350-353.

(٦) وردت أول إشارة إلى الدوّارين في كتاب أوبطا الميلي "ضد الانشقاق الدوناتي" (De Schismate Donatistarum) والذي يعود تأليفه إلى حوالي ٣٦٦-٣٦٧م. - Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne depuis les origines Jusqu'a l'invasion arabe, Ernest Leroux, Paris, 1901-1923, t. V, pp. 241-263.

(7) Optat (St.), III, 4.

(8) Monceaux (P.), .H. L. A. C., IV, p.180.

(9) Optat (St.), III, 4.

(10) Augustin (St.) Epist., CVIII, 6, 18.

(11) Optat (St.), III, 4.

(12) Vannier (O.), Op.cit., p.1.

(١٣) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., , Paris, 1936. p. 103-111 : Cella, Circum.

(14) Ibid., p.103: « cella : 1° endroit où l'on serre qq. ch., grenier, magasin, cellier : cella Vinaria, Olearia, Penaria.

(15) Augustin (St.), Enarr. in Psalm., CXXXII, 3.

(16) Id., Cont. Gauden., I, XXVII, 32.

(١٧) **نذكر منهم:**

-Monceaux (P.), Histoire Littéraire de l'Afrique Chrétienne depuis les origines Jusqu'a l'invasion arabe, Ernest Leroux, Paris, 1901-1923, IV, p.180.

-Courtois (Ch.), les vandales et l'Afrique, Paris, 1955, p. 144.

-Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, 1958, p.332

(18) Frend (W.H.C.), The Cellae of the African Circumcelliones, J.T.S, 1952, pp.89-90.

(19) Berthier (A.), les vestiges du christianisme antique dans la Numidie centrale, Alger, 1942, pp. 139,147.

(20) Frend (W.H.C.), Circumcelliones and monks, J.T.S, vol. II, new series, pp.546-548

(21) Calderone (S.), Circumcelliones, Parola del Passato, vol. II, Fasc. CXIII, 1967, p.102.

(22) Optat (St.), III, 4 ; Vannier (O.), Op.cit., p.17.

(23) Augustin (St.), Cont. Cres., IV, L, 60; Cont. Epist. Parmen., I, XI, 17, II II, 6

(24) Optat (St.), III, 4.

(25) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers, les Circoncellions d'Afrique, A.H.E.S., T.VI, n° 28, 1934, (pp.351-364), p. 357.

(26) Cod.Theod., XVI, 5, 52.

(27) Kolendo (J.), « Sur la législation relative aux grands domaines de l'Afrique romaine », R.E.A., LXV, 1963, p.83.

(28) Martroye (F.), « la répression du Donatisme », M.S.N.A.F., t. 78, Paris, 1914, p.134..

(29) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, p.353.

(30) Gagé (J.), les classes sociales dans l'empire romain, p.39 ; Fredouille (J.C.), Dictionnaire de la civilisation romaine, Paris, Larousse, 1968, p. 66 ; Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français, p.438, (col. 3 : ordo, ordines : ordre, classe sociale, (Sénateurs, Chevaliers, Plébéiens à Rome).

(٣١) الباحثان هما : -Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme… pp. 335-336.

-Tengström (E.), Donatisten und Katoliken… ., Göteborg, 1964, pp.27-31.

(32) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, p.356.

(33) Brisson (J.P.), Op.cit., p.355-356.

(34) Tengström (E.), Donatisten und Katoliken Göteborg, 1964, pp. 27-31 ; d'après Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965, P. 638.

(35) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, pp. 355,358.

(36) Brisson (J.P.), Op.cit., p. 3336

(٣٧) أذكر منهم: سارج لانسال وكالدرون.

- Lancel (S.), Idem

- Calderone (S.), Op.cit., p.89.

(38) Cod. Theod., XVI, 5-54.

(39) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles ou rôdeurs de celliers…, pp.356-357.

(40) Saumagne (Ch.), Ibid., p.357.

(41) Frend (W.H.C.), Circumcelliones and Monks, Op.cit., p.549.

(42) Optat (St.), III, 4.

(43) Augustin (St.), Contra Epistulam Parmeniani, I, 11, 18; Optat (St.), I, 26.

(44) Brisson (J.P.), Autonomisme et christianisme…, p.338.

(45) Augustin (St.), Epist., CVIII, 5,14.

(46) Hamman (A.G.), la vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint- Augustin, Paris, 1979, p.60.

(47) Augustin (St.), Cont. Cresc., VI, L, 60.

(48) Augustin (St.), Cont. Cresc., VI, L, 61.

(49) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., p.111, (circuitus=action de faire le tour, circuitors= ceux qui rôdent autour).

(50) Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXVII, 31- XXIX, 33.

(51) Optat (St), III, 4.

(52) Augustin (St.), Cont. Litter. Petil., II, 83,184.

(53) Augustin (St.), Epist., CVIII, 5, 14.

(54) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., p.40. Agreste, paysan, grossier, inculte, brut : Agreste=Agrestis

(55) Monceaux (P.), R.H.R., t. 64, 1911, p.42.

(56) Augustin (St.), Cont. Cresc. , III, XLIII, 47.

(57) Ibid., III, XLII, 46.

(58) Monceaux (P.), H.L.A.C., le Donatisme, IV, 1912.

(59) Vannier (O.), les circoncellions et leurs rapports avec l'église donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n° 67, 1932, pp.13-28.

(60) Brisson (J.P.), Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique Romaine, Paris, 1958.

(61) Saumagne, Ouvriers agricoles, pp. 351-364.

(62) Tengström (E.), Donatisten und Katoliken… ., Göteborg, 1964, pp. 27-31 ; d'après Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965.

(٦٣) إريك تنغستروم (Erik Tengström) (١٩١٣–١٩٩٦م)، عالم فلكي وجيوديزي (علم مساحة الأرض) سويدي.

(64) Calderone (S.), Circumcelliones, Parola del Passato, vol. II, Fasc. CXIII, 1967, p.102.

(65) Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, pp. 180.

(66) Ibid., IV, p. 181.

(67) Saumagne (Ch.), Ouvriers Agricoles…, pp. 353-354.

(68) Vannier (O.), les Circoncellions et leurs rapports avec L'église Donatiste d'Après le Texte d'Optat, Rev. Afri., n°.67, 1926, pp.13-28.

(69) Vannier (O.), Ibid., pp. 26-27.

(70) Saumagne (Ch.), Ouvriers agricoles…, p. 359.

(71) Frend (W.H.C.), Circumcellions and monks, J.T.S., pp. 542-549.

(72) Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, P.181.

(73) Augustin (St.), Psalmus Contra Partem Donati, 144-163.

(74) Frend (W.H.C.), Circumcellions and monks, Op.cit., p. 543

(75) Augustin (St.), Cont. Gauden., I, XXVII, 31-XXIX, 33.

(76) Frend (W.H.C) Circumcellions and monks, Op.cit., p. 543.

(77) Simon (M.), le Judaïsme Berbère dans l'Afrique Ancienne, Revue d'Histoire et de philosophie religieuse (R.H.Ph.R), XXVI, Strasbourg, 1946, p. 21 ; (repris dans ; Recherches d'histoire Judéo- Chrétienne, Paris –la Haye, 1962, p.46 ; Monceaux (P.), H. L. A.C., IV, p. 181 ; Moliner- Violle, Timgad, ses fouilles et ses découvertes, F.Soldati, Batna, 1891, p.12.

(78) Brisson (J.P), Autonomisme et christianisme…, Op .cit, p.341.

(79) Lancel (S.), C.R. de Tengström, R.E.L., 1965, p. 639.

(80) Calderone (S.), Circumcelliones…., Op.cit., p.108.

(81) Frend (W.H.C.), J.T.S., 1952, pp. 87-90.

(82) Calderone (S.), Op.cit., pp. 100-101.

(83) Ibid., pp. 102-105.

(84) Félix Gaffiot, Dictionnaire Abrégé Latin Français., pp. 308-310.

(85) Calderone (S.), Op.cit., pp. 103.107.

(86) Augustin (St.), Ennar. In Psalm., 10, 5; Epist., 44, 9.

(87) Id., Cont. Litter. Petil., I, XXIV, 26.

(88) Id., Cont. Epist. Parmen., III, III, 18.

(89) Augustin (St.), Brevic. Collat., III, VIII, 13. Contra. Gauden., I, XXVII, 31. XXIX.33.

(90) Id., Cont. Litter. Petil., II, XXXIX, 93.

(91) Monceaux (P.), H.L.A.C., IV, p.65 ; Eugène Albertini, Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939, (pp.100-103), p. 100.

(٩٢) **أوبطاتوس الجيلدوني**، هو أسقف تيمقاد الدوناتي من سنة ٣٨٨م إلى سنة ٣٩٨م، يلقب بـ" الجيلدوني" نظرًا لتلك العلاقة المتينة التي كانت تربطه بالزعيم الموريطاني الثائر على روما "جيلدون"، وحسب أوغسطين فإنه كان يترأس "عصابات" مسلحة لكنه لا يشير إلى أنها من الدّوارين. لعب دورًا هامًا في إرجاع بعض الأساقفة الماكسيميانيين إلى حظيرة الدوناتية باستعمال العنف، مات في السجن سنة ٣٩٨م. -Augustin (St.), Cont .Litter. Petil., II, XXIII, 53 ; XCII, 109 ; Frend (W.H.C.), The Donatist Church…, pp.208-266; Albertini (E.), Un témoignage épigraphique sur l'évêque donatiste Optat de Thamugadi, In: C.R.A.I., 83e année, N. 1, 1939. pp. 100-103.

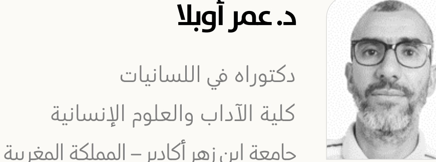
(93) Augustin (St.), Cont.Epist. Parmen., II, II, 4 .

(94) Marrou (Henri -Irénée), Sur une inscription concernant Optat de Timgad, in Christiana tempora. Mélanges d'histoire, d'archéologie, d'épigraphie et de patristique. Rome: École Française de Rome, 1978. (Pp. 145-148).

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أعلام من حصون طاطا
خلّدتهم الطوبونيميا



د. عمر أوبلا

دكتوراه في اللسانيات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر أكادير – المملكة المغربية

مُلَخّص

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على جانب من جوانب تاريخ منطقة طاطا جنوب المغرب، إذ أن مجال التعريف بالأعلام البشرية والشخصيات العلمية والدينية والتاريخية التي مرّت بالمنطقة خلال فترات تاريخية متفرقة، يكاد يكون غائبًا، خصوصًا إذا كانت طريقة التعريف بهم من نوع آخر أو من مجال علمي آخر غير التاريخ، ألا وهو الطوبونيميا، الذي يعتبر من العلوم الحديثة النشأة رغم الاهتمام الكبير الذي كان يوليه المؤرخون والرحالة ودارسو اللسانيات للأعلام المكانية خلال القرون الماضية، إلا أن الاهتمام بهذا التخصص لم يظهر إلا خلال أواخر القرن التاسع عشر. وتبرز أهمية هذا المجال العلمي في دراستنا هاته في حفظ والتأريخ لشخصيات بارزة بمنطقة طاطا احتفظت بأسمائهم وسيرهم مجموعة من أسماء الأماكن تداولتها الساكن جيلاً عن جيل، ما ساهم في تداول سيرهم وبطولاتهم ومكانتهم في مجتمع طاطا. وسنحاول خلالها التعريف بهم معتمدين على مجموعة من المصادر والمراجع التاريخية والدينية التي احتفظت بتراجمهم، مبرزين في ذات الآن أهمية علم الطوبونيميا في الحفاظ على الخصوصيات الثقافية والبشرية والطبيعية للمكان.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣٠ مارس ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٦ أبريل ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التراجم والأنساب؛ الطوبونيميا التاريخية؛ الأعلام البشرية؛ الطوبونيميا؛ طاطا

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.280357.1117

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عمر أوبلا. "أعلام من حصون طاطا خلّدتهم الطوبونيميا".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص٤٨ – ٦٠.

Corresponding author: massin05@yahoo.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تعتبر منطقة باني جنوب المغرب من أقدم المناطق التي استوطنها الإنسان في شمال أفريقيا، إذ أن سكان المنطقة دأبوا على التعريف ونشر الحضارات المتعاقبة على المنطقة منذ عهد ما قبل التاريخ. غير أن أهم حقبة تجلت فيها مظاهر النبوغ والثقافة والعلم كانت تلك التي جاءت مباشرة بعد دخول الإسلام للمنطقة، لتصبح بعد ذلك من أهم المراكز العلمية التي توافد عليها طلاب العلم من جميع الأصقاع، وتحظى مدارسها وشيوخها بمكانة مرموقة ساهمت في نشر تعاليم الإسلام ونبذ العنف والكراهية ونشر قيم التسامح والتعايش السلمي.

وكان العلماء من أكبر دعامات الصرح الثقافي والعلمي بالمنطقة، حيث ذاع صيتهم في المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وأثثوا لحقبة تاريخية ما كانت لتتسى ونحن نجد معاصرهم قد أطلقوا أسمائهم على مجموعة من الأماكن، كالمنازل والمزارات مثلا... لتتناقل بعدها جيلا عن جيلا إلى أن وصلتنا عبر الرواية المكتوبة منها والشفوية، لنأخذ على عاتقنا مهمة ليست بالهينة ألا وهي التعريف بهؤلاء من خلال ما خلفته الطوبونيميا من إرث حضاري وثقافي وكذا التعريف بإنجازاتهم العلمية والتاريخية.

من هذا المنطلق إذن يتبين أن دراستنا هذه سوف يكون موضوعها حول أعلام من منطقة باني (تحديدًا منطقة طاطا) ذاع صيتهم واشتهروا من خلال أسماء أماكن أخذت تسمياتهم، ساهموا بنبوغهم في التأسيس لتاريخ وحضارة المنطقة منهم من ذكرته الكتب والمصادر ومنهم من تغافلت عنه، ما يجعل نقل سيرتهم من الصعوبة في مكان، غير أن اسم المكان ظل هو الضامن لاستمرارية خلودهم وجعلهم في ذاكرة أهالي دواوير وقرى المنطقة.

أولاً: منطقة طاطا (مهد الحضارات والعلوم)

يظهر من خلال العينة التي سيتناولها عرضنا هذا أن أغلب الأماكن التي حافظت على أسماء أعلام المنطقة تتمثل في المزارات والمساجد والمنازل، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن هذه الأماكن كانت فيما مضى (منذ دخول الإسلام إلى المنطقة) قبلة للطلبة والشيوخ ومنارة للعلم والمعرفة، إذ أن علماءها تخصصوا في العلوم الدينية وتقلدوا مناصب المسؤولية ليشهدوا على حقبة مشرقة من تاريخ المنطقة. فكل المصادر التاريخية المغربية أجمعت على أن مدينة "تامدُولت" كانت تشكل فيما مضى نقطة التقاء بين الطرق التي تربط شمال المغرب بجنوبه وبالبلدان جنوب الصحراء وشرقه (مدينة سجلماسة) بغربه (مدينتي نول ولمطة)، حيث يشاع في المنطقة أن أغلب سكان دواوير طاطا والجبال المحيطة بها نزحوا من هذه المدينة بعد خرابها، ورغم اختلاف الروايات عن بنائها وخرابها إلا أن هذه الروايات تخفي وراءها حقائق تاريخية وأعلام كان له دور كبير في إرساء دعائم أكبر التجمعات السكنية بمنطقة باني. كما أن هناك من المظاهر ما يؤكد الدور الحضاري والتاريخي لساكنة المنطقة. وقد كانت منطقة طاطا، من جهة مهدا لدول تعاقبت على حكم المغرب (دولة المرابطين والسعديين مثلاً)؛ ومن جهة ثانية فهي مازالت قبلة للزوار والتجار من خلال العديد من المواسم والأسواق في عدة مناطق من أهمها: موسم بن يعقوب بإيمي نتاتلت الذي يقام في شهر أبريل من كل سنة وموسم سيدي محند بن إبراهيم التامانارتي الذي يقام خلال شهر شتنبر... يضاف إلى ذلك أن العديد من المؤسسات الدينية والزوايا مازالت تستقبل مئات الطلاب والمريدين ومنها مثلا: زاوية أيت حساين ومدرستها العتيقة بدوار أكادير الهناء بجماعة طاطا، مدرسة وزاوية مغيميمة وبنموسى التابعة لجماعة تسينت، مدرسة سيدي والكناس العتيقة بجماعة إسافّن.

ثانيًا: أهميـة الطوبونيميـا في الحفـاظ على التراث الإنساني

يظهر جليا أن الأعلام الجغرافية تكون ثروة وطنية ضخمة ينبغي الاعتناء بها كما يجب، لأنها تعتبر وثيقة تاريخية ثمينة لا تقل قيمة عن الوثيقة التي تتمثل في القطع النقدية أو الأختام السجلوغرافية أو حتى بعض النصوص المكتوبة. وهكذا فإن العلم الجغرافي بحر زاخر بكل المعطيات التي يمكن أن يتصورها المرء، ومن ثمّ اكتسبت الأعلام قوتها وفرضت علينا احترامها، بل

وتصدت هي لذاتها أمام كل محاولة لطمس معالمها، إلا فيما يقتصر على شرحها وتفسيرها وتأويلها[١]. كما يمكن القول إن الأعلام المكانية تسهم بدور كبير في التعريف بالبيئات القديمة والمنقرضة أو المتحولة وكذا بالأعلام البشرية، وذلك بإعطاء شهادات عن تواجدها وامتداد معالمها. وبالتالي يمكن الوصول إلى تصور تاريخ لأي مجال يراعي كل الظواهر القديمة، بيئية كانت أم بشرية[٢].

وتظهر أهمية الطوبونميا، من الناحية الاستراتيجية، على المستويين الوطني والدولي في الاهتمام المتزايد في مجالات الاتصال، الإعلام، إعداد الخرائط والسياحة. فعلى المستوى الوطني، نجد أن الأماكنية تشرك بشكل مباشر التمثلات الإجتماعية، الثقافية واللسانية للذاكرة والهوية المحلية، كما يمكن أن تكون جزءا ضمنيا ضمن التراث الثقافي والتاريخي الهوياتي. فاللغة تعتبر معبرا وممرا لكلّ المكونات الثقافية والتاريخية واللّسنية الخاصة بالحقائق المحلية والوطنية[٣].

أما الباحث الطوبونمي «Albert Dauzat» فقسّم أهمية اسم المكان إلى مستويين اثنين: فبأهميتها النفسية، التاريخية والاجتماعية، تكون للطوبونميا بصمات حول الحضارات الماضية. فالإنسان كان محتما عليه دائما عبر التاريخ أن يمنح للأماكن أسامي تعبر عن انتمائه الهوياتي عن طريق لغته وحضارته. فهي بذلك تعبر عن تحركاته التاريخية، عن هجراته، الفترات الاستعمارية التي تعرضت لها الدول، وايضا عن المناطق التي ترك فيها أثاره. كما أن الظواهر الروحانية والصوفية يمكن تجسيدها في أسماء الأماكن، وذلك عبر منحها أسماء أولياء أو ملوك تعاقبوا على حكم هذه المناطق. أما المستوى الثاني فيتعلق الأمر بالأهمية اللسانية للطوبونميا، التي أدرجها في الدرجة الأولى من حيث الأهمية. حيث أبرز أن اسم المكان يمنح لنا العناصر الأساسية للمعارف السابقة عن الأماكن. كما تساعدنا في إيجاد الحدود اللغوية بمنطقة معينة وكذا إعادة الترتيب الكرونولوجي للتطورات الصرفية والتركيبية. فأسماء الأماكن، من وجهة نظر الباحث، تشكل أحفورات نحوية ومعجمية، كما أنها تساعدنا في التوصل إلى العديد من القواعد الصوتية[٤].

ويمكن القول على أن التسمية المواقعية شكل من أشكال ترك بصمات ذاتية في المجال تشهد على الحدث والتمثل والممارسة لتقوية الذاكرة بالنسبة للإنسان، ولمحيطه، وبالنسبة لحاضره، ومستقبله. فالأعلام لا يمكن حصرها في التوطين والتدليل فقط، بل إنها تعبّر أساسا على الإحساس والتفكير والتعبير والسلوك في الزمن والمكان في نفس الوقت[٥].

ثالثًا: الطوبونيميا المغربية (النشأة والتطور)

دراسة أسماء الأماكن المغربية لم تكن وليدة اليوم فقد اهتم بها الجغرافيون القدماء دون أي يولوا عناية كبيرة لضبط الاسم الجغرافي، فقد اهتموا بتحديد المسافات بين المدن. ومن بين الجغرافيين العرب الذين اعتنوا بدراسة لأعلام الجغرافية المغربية خلال السنوات الأولى لدخول الإسلام، نجد ياقوت بن عبد الله الحموي في كتابه "معجم البلدان"، وحاول من خلاله تقديم تفسيرات حول بعض الأعلام الجغرافية، وألح على الاهتمام بالبحث فيها لكونها تعتبر نبراسا لأهل السير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار"[٦]. لنجد أنفسنا في نهاية القرن السادس الهجري (سنة ١٢٧٤م) مع أثر جليل لأحد المغاربة هو ابن سعيد في كتابه "الجغرافيا" الذي اعتمده الملاح الشهير ابن ماجد، وقد حققه وعلق عليه ووضع مقدمته الأستاذ إسماعيل العربي[٧]. وإذا تحدثنا عن الجغرافية وأسماء الأماكن والأمصار فلا بد من ذكر الرحالة ابن بطوطة الطنجي الذي اقتنع العالم كله بأهمية رحلاته الواسعة التي استغرقت نحوًا من ثلاثين سنة، والتي كانت فيها أكبر الفوائد لعلماء الجغرافية وخصوصا للبلدان التي زارها والتي تمثل ثلثي المجموعة الدولية[٨].

كما نشير إلى رسالة مخطوطة بعنوان "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة" للمقريزي، تناول فيها بعض القضايا التي تتصل بجمهورية جنوة والمملكة المغربية، ومما جاء في هذا المؤلف أن السلطان أبا عنان المريني تاقت نفسه إلى امتلاك بعض الجزر في المحيط فجهّز قائد الأسطول بناحية أزمور في غراب مشحون

بالأزودة والرجال فغاب في البحر شهرين وعاد من غير أن يعرف لتلك الجزر خبرًا[٩].

ومن الباحثين المحدثين الذين أولوا عناية بالغة للحديث عن أسماء الأماكن المغربية بصفة عامة والسوسية بصفة خاصة العلامة محمد المختار السوسي في كتابيه المعسول وخلال جزولة، فهما خير مخبر عن العديد من أسامي الأماكن بالجنوب المغربي، لكنها كغيرها من دراسات المتقدمين لا تندرج ضمن الدراسات الطوبونميا الحقيقية التي يمكن اعتبارها مرجعا لهذا العلم. فعلم الطوبونميا المستقل بذاته، لم يظهر في شمال أفريقيا إلا بعد دخول الاستعمار، ومن الطبيعي أن يكون جل الباحثين والمهتمين بهذا الصنف من الدراسات أجانب، وكان المغرب من بين الدول المغاربية التي ركز عليها الباحثون اهتماماتهم. إذ أن إدارة المستعمر سهلت على الباحثين الحصول على الامتيازات والضمانات التي تساعدهم في التنقيب والبحث. غير أن أغلب البحوث كانت ذات منحى اثنوجرافي عرقي وأنثروبولوجي، كما كانت تهدف إلى مساعدة السلطات الاستعمارية على تطويق المناطق التي تعرف شرارة المقاومة قصد تسهيل عمليات التوغل والسيطرة.

وقد ظهرت في الطوبونميا أول دراسة حول شمال أفريقيا سنة ١٨٩٧ للباحث «Mercier Gustave» حول جبال "الأوراس"[١٠]. إلا أنّ أهم الدراسات هو ما قام به «Emile Laoust» أحد أساتذة اللغة الأمازيغية بالمعهد العالي للغة العربية واللهجات بالرباط، الذي ألف كتابه الأول المعنون «Mots et choses berbères»، سنة ١٩٢٠، ويحمل بين طيّاته إشارات وإيماءات جمعها الكاتب أثناء فترة الحماية يهدف من خلالها إلى البحث عن الأصل الاشتقاقي للأسماء قصد تفكيك آلياتها الدلالية ثم الأخذ بعين الاعتبار الاستعمالات اليومية للسكان والعمل على مقارنتها بمثيلتها في مناطق أخرى[١١]. ثم أتى بعده الإصدار الثاني تحت عنوان: «contribution à une étude de la toponymie du Haut Atlas»، المنشور في مجلة الدراسات الإسلامية سنة ١٩٣٩. وسعى من خلاله الباحث "إميل لاووست" إلى القيام بدراسة طوبونمات الأطلس الكبير انطلاقا من الخرائط التي أعدها الجغرافي «Jean Drech». وببحثه هذا يكون "لاووست" قد مهد لدراسة العديد من الحقول الدلالية التي تندرج ضمنها الأماكنية الأمازيغية، فبداية بدراسة الأرض، من خلال العديد من الأمثلة المتعلقة بها (akal, ifni, açuda...)، إلى دراسة أسماء مرتبطة بالماء كثروة يحيى بها الإنسان والحيوان (asif, azmu, avbalu...)، إلى السكن باعتباره أساس العيش والاستمرار (tamazirt, tigmmi, asarag...)، مرورا بأسماء النباتات المعتمدة في تسمية الأماكن (aäil, alili, anfalku...)، وأسماء الأشياء (agdur, azrzu...)، لينهي دراسته بالعديد من الطوبونمات التي توحي إلى عدة معاني في جبل درن أو في مناطق أمازيغية أخرى (adrus, aduz...).

ليأتي بعد ذلك العديد من الباحثين المغاربة الذين ساهموا في دراسة الطوبونميا المغربية، غداة الوعي بأهمية هذا العلم في المحافظة على الهوية، فظهر منذ نهاية السبعينات دراسات علمية نذكر منها: مقال بعنوان "أسماء الأماكن جلها أمازيغية" لمحمد شفيق ركز فيه على بيان البعد الأمازيغي للطوبونميا المغربية، ودراسة للأستاذ "أحمد صابر" تحت عنوان:

«vers un répertoire de la toponymie marocaine dans les cartes et les textes portugais, espagnols et français»

وتبقى أطروحة الأستاذ "أحمد الهاشمي" سنة ٢٠٠٢ حول: "الأماكنية المغربية: المشهد الطبيعي والبشري في أماكنية سوس" أول أطروحة دكتوراه في الطوبونما المغربية على المستوى الوطني، وقد قام فيها بدراسة وتحليل نماذج من أسماء الأماكن بمنطقة سوس.

وتعدُّ الندوة الوطنية حول الأعلام الجغرافية التي أقيمت بمدينة المحمدية أيام ١٥-١٦-١٧ أبريل ١٩٩٢ تحت عنوان "الاسم الجغرافي: تراث وتواصل"، من تنظيم المعهد الجامعي للبحث العلمي ومديرية المحافظة العقارية والأشغال الجغرافية، من أهم الإنجازات العلمية والأكاديمية التي أنجزت حول علم الأماكنية بالمغرب والتي أثمرت عن مجموعة من التوصيات كان مآلها الإهمال واللامبالاة من طرف المسؤولين وكذا الأكاديميين.

رابعًا: نماذج من أعلام طاطا عرّفتهم الطوبونميا

تبقى دراسة الأعلام في منطقة باني بشكل عام وإقليم طاطا بشكل خاص من الدراسات القليلة التي لم ترق بعد إلى ما يجب أن يتم فعليا، غير أن دراسة اسم المكان من حيث دلالاته وامتداده التاريخي والجغرافي تعتبر من الدراسات النادرة والمحدودة في بعض البحوث الجامعية التي سعى من خلالها الطلبة والأساتذة الباحثين إلى نفض الغبار عن رقعة ضيقة تشمل مكان تواجدهم وترددهم. ما يجعلنا أمام تحديات مستقبلية في هذا المجال الخصب الذي يستمد مشروعيته من المكان ككيان طبيعي والإنسان ككيان بشري وجب ايلاءهم أهمية كبرى في المستقبل، إن أردنا فعلاً أن نعرف من نحن وكيف تكيفنا مع هذه البيئة وكيف اهتدينا إلى تمسية محيطنا.

ويعتبر حقل الأعلام من الحقول التي فرضت ذاتها في مجال الطوبونيميا، حيث إن الساكنة تعمد إلى تخليد أسماء علماء وفقهاء وقضاة وشخصيات معروفة... إلخ، من حقب تاريخية معينة بواسطة إطلاق أسامهم سواء على بعض الأماكن التي كانوا يرتادونها أو منازل يسكنونها أو مقابرهم. ومن الأسماء التي وقفنا عليها من خلال بحوثنا حول الطوبونميا بمنطقة باني نجد:

٤/١-عائلة أيت حسـاين وأبناؤها

تعتبر عائلة أيت حساين من العائلات العلمية العظيمة والمعروفة في تاريخ طاطا حيث إن فيها رجالاً نفعوا هذه المنطقة بعلمهم وإرشادهم وفيهم خلف صالح سار على درب سلفهم. كانوا مجدين في إصلاح ذات البين طالبين للحق معينين عليه ولو بالقتال، ساعين في استفادة معايشهم بالحرث والغرس وحفر العيون وإصلاحها وبالتجارة واقتحام الأسفار مستغنين بذلك عن مد ذات اليد، كل منهم يسعى فيما يصلح له ولإخوانه المسلمين غير ملهي بذلك عن الاشتغال بما يحتاج إليه من علوم الشريعة مع حفظ القرآن العظيم حفظا جيدا، فترى عوامهم يحفظون الشريعة باللغة الأمازيغية المحلية (تاشلحيت) وحتى نسائهم مولعين بالدين بإقام الصلاة في أوقاتها على أكمل وصف بإتمام ركوعها وسجودها بشرائطها وآدابها المقررة. وقليل منهم من غلبت عليه شهوته. وهذه هي الحالة التي كان عليها أوائل عائلة أيت حساين وأدركها المتأخرون عن أبنائهم وأحفادهم[١٢].

وكانت المدرسة الهنائية التي أسسها علماء عائلة أيت حساين من أكبر المدارس بالمنطقة وأشهرها، كان يدرس بها العلم منذ أواخر القرن الثاني، حيث كانت أكباد الإبل لطلبة العلم تضرب إليها من كل نواحي سوس، لتغرب شمس العلم بهذه المعلمة العلمية عقودا عدة بوفاة سيدي أحمد بن عبد الرحمان الذي تولى القضاء نيابة عن آخر أحفاد العائلة العالمة. غير أنه تم تجديد دماء التدريس والعلم بالمدرسة خلال العقدين الأخيرين، إلى أن صارت ضمن المدارس التي أدرج بها النظام الجديد في التدريس العتيق بالمغرب، وهي الآن تضم أزيد من ٨٠ طالبا من مختلف المستويات التعليمية من الابتدائي إلى سلك البكالوريا.

ومن أبرز الأماكن التي سميت تيمنًا بهذه العائلة العلمية في تاريخ المنطقة نجد:

لبرج ن أيت حساين:

عَلَم على برج قديم ما زال قائما إلى يومنا هذا بمنزل عائلة إزوتارن (أصلها من دوار تيورضيوين بإداومارتيني بقبيلة إساڤن) بمنطقة أكسار، كان قد بناه سيدي عمر ؤ لحاناف عندما تولّى مشيخة القبيلة، وذلك قصد مراقبة بلدة أكادير الهناء من جهة الشمال. والعلم اسم مركب من: "لبرج" وتعني البرج بالعربية و"تاضافت" بالأمازيغية[١٣]. "ن" حرف إضافة. "أيت حساين" اسم العائلة المذكورة سلفا. وقد نسب هذا البرج لهذه العائلة، لسببين، أما الأول فكون بناته هم من عائلة ايت حساين، والسبب الثاني أن هذه المنطقة من دوار أكادير، التي توجد عند مدخل أكادير، تسكنها أسر من عائلة أيت حساين.

دّرب ن أيت حساين:

عَلَم على أقدم وأطول سقيفة توجد بحصن أكادير الهناء، لها عدة أبواب كانت فيما مضى تغلق مساء وتفتح في الصباح الباكر (من أجل أمن وأمان الحصن)، تسكنه عائلات من أيت حساين، بنيت فيه المنازل الأولى بدوار أكادير الهناء من طرف أجداد العائلة (أحمد الأعرج

وابنيه محند ومحمد)، ولهذا الممر أربعة أبوب كبيرة، تعتبر المداخل الرئيسية للحصن.

العلم اسم مركب من: "دّرب" ويعني السقيفة الطويلة والسرداب. "ن" حرف إضافة. "أيت حساين" علم على أول عائلة سكنت دوار أكادير الهناء بأمر من أبيهم سيدي أحمد الأعرج، وإليها ينسب هذا الممر الطويل. غير أن أغلبية منازل هذه السقيفة أصبحت مهجورة من طرف ذويها سواء بسبب الهجرة نحو المدن أو الهجرة والبناء في منبسط تاكنيت وتاوريرت أو بسبب تقادمها، مما يستدعي تظافر الجهود من أجل إحياء هذا التراث الإنساني من الاندثار. وقد كان هذا الدرب مرفقًا مهمًا في حياة سكان حصن الهناء، فقد كان مكان للاجتماعات التي تعقدها جماعة الدوار، كما مسرحا لإحياء سهرات فن أحواش خلال السنوات التي تلت بناءه سواء في المناسبات العائلية الخاصة بعائلة أيت حساين أو المناسبات الدينية والوطنية التي يحييها أهل الدوار.

لقّوبت ن سيدي محمد ن ايت حساين:

عَلم على قبة بيضاء توجد فوق جبل تازّمكّا وُري فيها جثمان الشيخ العالم سيدي محمد بن أحمد ن أيت حساين. وقد بنيت هذه القبة بعد وفاة الفقيه بسنوات فوق قبره، كما دفن قربه أبناء عمومته وأبناؤه وأحفاده من علماء أيت حساين.

العلم اسم مركب من: "لقّوبت" وهو اسم مؤنث مفرد يجمع على "لقّوبّات" وتعني القبة باللغة العربية، وهي القبّة الموجود فوق جبل تازّمكّا، التي بنيت من طرف بنائي عائلة أيت بوحيا من منطقة أكينان، الذين ذاع صيتهم سابقا في مجال البناء التقليدي خصوصا في بناء منازل القياد والشيوخ والأعيان. "ن" حرف إضافة. "سيدي" اسم تبجيل. "محمد" اسم علم ذكر. "ن" حرف إضافة. "أيت" أداة نسبة. "حساين" أو حسين وهو من رجالات أوائل القرن الثاني عشر[١٤]، وهو جد عائلة أيت حساين.

والفقيه سيدي محمد هو من أشهر علماء زاوية أيت حساين، وهو محمد بن أحمد، وكان من أكابر أولياء الله الصالحين خاتمة الصوفيين المحققين في جزولة، وآخر من أحي به الله مجالس الذكر في البلاد السوسية، كان في ابتداء أمره يحب الخلوات والاعتكاف في المساجد لقراءة القرآن والصلاة والتباعد عن الخلق. كان يتعاهد ضيعته لكسب الحلال ويفوضها للخمّاسين.

وقد كثرت كراماته وانتشرت بركاته، وما وصلنا من عنه أن أهل بيته لا تفوتهم صلاة مع الإمام، الرجال في المسجد والنساء في المسمع في قعر بيوتهن. كما كان رضي الله عنه يكتب إلى القبائل البعيدة والقريبة وكانوا ينفذون ما أمرهم، وإلا فإنه تصيبهم بلية، ومنها أن جيرانه في وولّت (طاطا الحالية)، وتاكموت والويدان (إساقّن) وأقّا كانوا أهل فتن قرنا بعد قرن لا تخمد نار فتنتهم، حتى أظهره الله فأخمدها شيئا فشيئا حتى لا أثر لها وصاروا ببركته إخوانا يتشاورون على أمرهم[١٥].

ومن أشياخه سيدي يوسف بن محمد الناصري، أخذ عنه في حياته ثم لزم زيارته بعد مماته زيارة أسلافه أشياخ تامكروت. وهو من أساتذة الشيخ أبي العباس التيمكيدشتي، فقد أقام الشيخ في الزاوية والمدرسة الهنائية مجدا في إقامة الدين وإحياء السنة وظهرت ولايته وصلاحه وإصلاحه عند الخاصة والعامة فيأتيه الناس من كل ناحية ويعينونه على ما هو بصدده من إطعام الأضياف والقيام باليتامى والأيامى. وروي أن السلطان الشريف مولاي عبد الرحمان قد زاره في بيته واصطحبه معه إلى المسجد ولم يعرفه الناس حتى ذهب، وأخبرهم سيدي محمد بأن من صلوا به قبل ثلاثة أيام هو إمام المسلمين ففرحوا بذلك غاية الفرح. توفي رحمه الله في الجمعة الثاني عشر من ربيع الثاني عام ١٢٥١ هـ. ورثاه الفقيه سيدي الحسن بن الطيفور بأبيات قائلاً[١٦]:

سلام على القبر الذي ضم أعظما
تجول المعالي حولـه وتسلـم
ســـلام عليك كلمـــا ذر شارق
فلم يبق جزء من دجا الليل مظلما

كتب عنه العديد من الفقهاء والشيوخ الذين تتلمذوا على يديه، ومنهم الفقيه سيدي الحسن بن الطيفور الساموكني، العالم أبو زيد التاغاغرتي. ومن أشياخه سيدي يوسف بن محمد الناصري أخذ عنه في حياته ثم لزم زيارته بعد وفاته وزيارة أسلافه أشياخ "تامكروت".

تيكمّي ن سيدي محند ؤحماد:

علم على منزل يقع بدوار أكادير الهناء القديم، بسقيفة دّرب ن أيت حساين، بناها الشيخ العلامة سيدي محند بن أحمد الأعرج، وهو من أقدم وأكبر المنازل، إذ ينقسم إلى عدة أجنحة كلها الآن في ملكية أحفاده من عائلة أيت حساين، قبالة منزل أخيه سيدي محمد بن أحمد.

العلم مركب من: تيكمّي وتحيل على البيت أو المنزل. "ن" حرف إضافة. "سيدي" اسم تبجيل. "محند" اسم علم ذكر. "ؤ" حرف نسبة. "أحمد" اسم علم مذكر. وسيدي محند بن أحمد هو الابن الثاني لمؤسس بلدة أكادير الهناء سيدي أحمد الأعرج. ويعد أول من رفع آية التدريس بالمدرسة العتيقة وهو ما يزال ببلدة مركوس المندثرة، وقد كان قبل ذلك مشارطا بمدرسة مّوشدّير (مدرسة قديمة مندثرة حاليا، وتوجد بدوار أيت سرحان بإساقّن)، غير أن أهل قبيلة جزولة التاسوسختية بطاطا ذهبوا وراودوه لينزل للشرط في بلدته بعدما تكفلت القبيلة من شمالها (أفرا) إلى جنوبها (تيكّان) على جمع ثلث العشر لمؤونة الطلبة المتعلمين، واستمر ذلك مدة من الزمن ثم انقطع بسبب فتنة اشتعلت بين الفقيه سيدي امحمد بن محمد بن أحمد الأعرج وبين الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبلّا من أبناء عبد الرزاق الكجكالي الإفراني[١٧]، والتي كانت تعرف بفتنة السبع عشرة سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام. توفي بعد وفاة أبيه بقليل.

كما يوجد مكان آخر ينسب لهذا الشيخ العلامة وهو: مقبرة سيدي محند أوحماد، وهي مقبرة كبيرة توجد في الجزء الشمالي للواحة، بين شّاريج ن إيمّغي وفدان ؤرّتانّ، كانت فيما مضى مقبرة سكان أفرا حينما كانوا يقيمون في دوار مركوس، وبعد خرابه وإنشاء ثلاث دواوير قسمت المقبرة إلى جزأين، الجزء الجنوبي خصص لأهل حي إمّغي ودوار أكُجكال والجزء الشمالي لأهل أكادير الهناء خصوصا لعرب أولاد جلال وأولاد علي.

تادّواريت ن سيدي حماد ؤمحند:

عَلم على منزل قديم يوجد وسط مدشر أكادير الهناء، يقع بزقاق تاسوكّت ن طّلبا، بناها الشيخ سيدي أحمد بن محند بن محمد بن أحمد الأعرج. كانت تتخذه عائلة أيت حساين مقرّا للضيافة ومستقرّا للعلماء والفقهاء، وكذا مقرا لمقدم الزاوية. العلم اسم مركب من: "تادّوارييّت" وتعني المنزل وهي من أنواع البناء المشهورة في المناطق الواحية لتوفره على ظروف التكيف مع المناخ الحار في فصل الصيف، ويتكون هذا المنزل من طابقين؛ الطابق الأرضي، غالبا ما يكون مشتملا على زريبة للحيوانات والمطبخ وخزين العائلة؛ أما الطابق الأول فيتكون من عدة غرف، تتخذ إحداها غرفة للضيوف؛ وهي على شكل ما يعرف في المدن المغربية الكبيرة بالرياض، ولكن صغير في شكله. وهذا النوع من المنازل تشتهر به منطقة أفرا وخصوصا دوار أكادير الهناء. "ن" حرف إضافة. "سيدي" اسم تبجيل واحترام. "أحمد" اسم علم ذكر. "محند" اسم علم مذكر. وسيدي أحمد بن محند بن محمد بن أحمد الأعرج علامة جليل قليل النظير في معاصريه بناحية طاطا، كان قد سافر إلى فاس على رجليه قصد التزود بالعلوم الشرعية، إلى أن أرسل إليه أبوه عدة رسائل للرجوع إلى البلدة لينتفع أهلها بعلومه بعد أن جاءته رسالة من والده يعجل له فيها بالإياب فنام فرأى في منامه الشريف الولي الصالح إدريس بن مولانا إدريس فأعطاه شرابًا صافيًا فشرب حتى شبع ولم يجد له مساغا فانتبه من منامه. فعجل الرجوع فتزوج أربع زوجات فأكثر لأن واحدة منهن ماتت. وكلفه والده بتعليم الصبيان بعد تضلعه في العربية والفقه وعلى يده تتلمذ العديد من الشيوخ وجل طلبة البلدة وأحوازها وحفظوا القرآن والآداب الشرعية. توفي رحمه الله سنة ١٣٤٨ هـ[١٨].

تادّواريت ن سيدي حماد أوموس:

علم على منزل يوجد بالتجمع السكني "اسقّول ن أيت يدير بدوار أكادير الهناء، كان في ملكية شيخ يسمى سيدي أحمد بن موسى. والعلم اسم مركب من: "تادّوارييّت" تعني المنزل أو البيت الفسيح. "ن" حرف اضافة. "سيدي" اسم تبجيل. "أحمد أو موس" هو أحمد بن موسى، وهو شيخ كبير من حفدة عائلة أيت همّو مبارك، وأصله من أسرة إحرضانّ بدوار تيیّكّان (آخر دواوير أسيف ن ولت تقع جنوب طاطا)، وقد وفد الجد الأكبر لهذه العائلة من إسافن، وبالضبط دوار زّاويت ن ايت هارون، على غرار مجموعة من العائلات المنسوبة

لقبيلة تاسوسخت بينما عرج أخوه إلى منطقة تامزرارت بأيت وابلي (قرب تاداكوست)، وهناك في إسافّن تلة تنسب لإحرضانّ ويقال لها تاوريرت ن ؤحرضانّ، فأصلهم هناك وربما كانوا في أقّا (تامدولت) قبل مجيئهم إلى طاطا، توفي سنة ١٣٣٦ هـ[١٩]، وكان رحمه الله عالما كبيرا درّس الفقيه الشيخ سيدي أحمد بن عبد الرحمان (الذي أخذ عنه المختار السوسي تاريخ علماء مدرسة «أكادير الهناء») بمنطقة "تلات ن تلغمين" قرب "تيريت" بتارودانت.

٤/٢-عائلة أيت عبد الرزاق

تعتبر عائلة أيت عبد الرزاق من أكبر العائلات بدوار أكجكال، الذي يشكل إلى جانب دوار أكادير الهناء ما يسمى بأفرا. وهي من العائلات العريقة التي نالت حظ القيادة في فترة تاريخية من تاريخ المنطقة، كما تشكل أسرها حاليا نسبة مهمة من ساكنة الدوار السابق الذكر، ويستقرون حاليا في شرق واحة أفرا بدوار أكجكال، وكذلك في حي تاوريرت بدوار أكادير الهناء. وتعتبر عائلة أيت عبد الرزاق كغيرهم من العائلات بالمنطقة من عائلات فخدة تاسوسخت من قبيلة إسافن، نزحت خلال فترة معينة إلى المنطقة، وأصلها من دوار أيتب ومحمد الذي يقع حاليا قرب خميس إسافن. ومن أهم الأماكن التي خلدت اسم العائلة نجد:

تاكاديرت ن أيت عبد الرزاق:

علم على آثار مباني مخربة تقع غرب دوار أكادير الهناء فوق حقول أقدّام ببلدة كانت قديمة مخربة كانت تسمى "تيژيرت"، كان قد بناها المسمّى أمغار محمد بن ابراهيم بن عبلاّ من عائلة أيت عبد الرزاق "الكجكالي الإيفراني" من دوار أكُجكال، أيام الفتنة التي اشتعلت بينه وبن الشيخ سيدي محند بن محمد بن أحمد الأعرج من عائلة أيت حساين، وكان سبب هذه الفتنة هو مقتل طالبين من طلاب مدرسة أكادير الهناء وهما: سيدي الطيب من عائلة أيت بنيوس وسيدي محمد من عائلة أيت لحاج (قتلا بمنطقة كر أونا وسط الواحة) وانقطع بسبب هذه الفتنة ثلث عشر المؤونة التي كانت قبيلة جزولة التاسوسختية بطاطا تعطيها للزاوية والمدرسة الهنائية، وهي المؤونة التي تم إقرارها منذ عهد سيدي محمد بن أحمد ناي حساين. ويحكى أن هذه الحرب التي نشبت بين أكادير ن لهنا المدعمين من حلف جزولة وأكُجكال المدعمين من حلف سكتانة، دامت رحاها ١٧ سنة و٧ أشهر و٧ أيام. وقد بنيت هذه القلعة بسواعد أهل أكادير الهناء بعد استقواء أهل أكجكال عليهم، حيث إن الشيخ محمد بن إبراهيم أمر كل فرد من ساكنة أكادير الهناء بأن يحضر له جدع نخلة لتغطيتها إلا الشيخ سيدي محند بن محمد بن أحمد ن أيت حساين فأمره بإحضار جدع شجرة الجوز، التي لم تكن متوفرة في المنطقة، غير أن الشيخ أحضرها في يوم واحد بمنطقة تالوين والتي مازالت ماثلة للعيان كإحدى دعائم زقاق تاسوكّت ن لمدرست. غير أن هذه القلعة سرعان ما خربت من طرف الشيوخ: بركة، علي، محمد، وهم إخوة من إيكيزولن من قبيلة أيت أمريبط بأقّا، بعدما استنجد بهم الشيخ سيدي محند بن محمد، ودخلوا دوار أكُجكال بعد حرب ضروس وبعد تجاوز جدران من الحجر كان سكان الدوار ومناصريهم قد نصبوها لأيت أمريبط. ليوضع بعد ذلك الحد للفتنة المشتعلة بين أهل أفرا بعد أن عاد أهل أكُجكال لجادة الصواب[٢٠].

العلم اسم مركب من: "تاكاديرت" اسم مؤنث يذكر على "أكادير" وهي الحصن الصغير أو القلعة الصغيرة. "ن" حرف اضافة. "أيت عبد الرزاق" اسم العائلة السابقة الذكر.

تيكمّي ن لقايد يوسف:

علم على منزل كبير يقع بدوار "أكُجكال" قرب المسجد القديم، بناها المسمى القايد يوسف من أسرة أيت عبد الرزاق. والعلم اسم مركب من: "تيكمّي" وتعني المنزل. "ن" حرف إضافة. "لقايد" صفة تدل على الرياسة والقيادة. "يوسف" اسم علم مذكر. وكان القائد يوسف قد عيّن بظهير ملكي من السلطان الحسن الأول بوادي نون سنة ١٣٠٣ هـ بعدما توجه إليه أهل طاطا للبيعة والولاء، فكان قائدا على "تاكوزولت" من طاطا وهي قرى تالدنونت، أيت ياسين، إينضفيان، أكُجكال، أكادير الهناء، تيكيسلت، أكرزاكن وأنغريف. وهو من دوار أكُجكال من أيت عبد الرزاق وكان لينا حسنا في عهوده ومواثيقه، لا يغدر ولا يخيس ولا يبخل بماله

على شيعته، يثني الناس عليه كثيرا، وقد كانت ما شاء الله حروب بينه وبين جيرانه من غير أهله، توفي رحمه الله نحو ١٣٢٥ هـ[٢١].

٣/٤-مزارات ومراكز سكنية

سيدي لحاجّ لغازي:

علم على مقبرة توجد بمنطقة إغير ن ايكيدي شمال أفرا علي يسار الطريق الرابطة بين طاطا وتكموت (في الكيلومتر ٨)، دفن به شخص يسمى سيدي الغازي اولحاجّ، كما تتضمن إلى جانبه مجموعة من القبور، ويحكى أنها لأصحابه أو أنها لأفراد من قبيلة أولاد جلال الذين كانوا يجوبون المنطقة فيما مضى. أما الأسطورة أو الحكاية الشفوية فتقول إن غزاة وصلوا إلى منطقة كر إيساقّن فتعرض لهم هذا الولي ومعه جيش من الجنّ، فسألهم عن مقصدهم فقالوا إنهم ماضون لتدمير قرية أكادير ن لهنا، فأشار عليهم بالرجوع حيث أتوا وإلا فإن مصيرهم الهلاك، كما توعدهم بنفس المصير إن هم عاودوا الكرّة من جديد. بعد ذلك بأيام قام هذا الولي بزيارة للفقيه سيدي محمد بن أحمد ن أيت حساين بأكادير الهناء وحكى له ما جرى، فأكرمه الفقيه، وأمر بنته فاضم بعد وفاة سيدي الغازي اولحاجّ، بأن تذهب إلى تلك المزارة ومعها النساء والأطفال وإعداد وجبة العصيدة وأكلها فوق الحجارة وترك ما بقي منها لتأكلها الحيوانات والطيور. فأصبح بذلك موسما سنويا يقام في بداية فصل الخريف، فيذهب إليه الفقهاء والطلبة ويقرأون ما تيسر من القرآن والأذكار طلبا للغيث، كما تذهب إليه ساكنة أفرا ويجلسون هناك حتى هطول المطر، وكانوا يحملون المؤن مما تم جمعه من قبل النساء المكلفات بدواري أكادير ن لهنا وأكُجكال. غير أن الموسم توقف سنة ١٩٩٧ بعدما رأت المكلفة بالإعداد له، وهي للاّ عائشة محند ن أيت ودرحمان، ما استفحل من المناكر والفتن يوم انعقاده. وتم تجديده بعد ذلك بسنوات من طرف بعض النسوة بعد أن أخذن المشورة من حفيدة سيدي محمد ن أيت حساين[٢٢]. كما روي لنا أنه أثناء انعقاد الموسم تجتمع النساء ومعهن الدفوف فيتغنون بأغنية كلماتها:

ⵙⵉⴷⵉ ⵍⵃⴰⵊⵊ ⵍⵖⴰⵣⵉ ⵓⵙⵉⵖ ⴰⴽ ⴷ ⴰⵅⵓⵍⵍⵓⵙ
ⵉⴳⴰⵏ ⴰⴱⵊⴰⵡ ⴰⴷ ⴷ ⵉⴳ ⵉ ⵜⵀⵢⵢⴰⵍⵉⵏ ⵍⵎⵓⵜ
ⵉⴳⴰⵏ ⴰⴱⵊⴰⵡ ⴰⴷ ⴷ ⵉⴳ ⵉ ⵉⵀⵢⵢⴰⵍⵍ ⵇⵉⵄⴰⵎ

وينهون الموسم بأغنية مفادها:

ⴰⵎⴰⵏ ⴰⵎⴰⵏ ⵏ ⵓⵏⵥⴰⵔ
ⴰⴷ ⵜⵏ ⴷ ⴰⵡⵉⵏ ⵜ ⵜⵉⴳⵏⵉⵡ
ⵖ ⵡⴰⵙⵉⵅ ⵏ ⵍⵉⵊⴱⴰⵔ
ⴰⵎⵉⵏ ⴰⵎⵉⵏ ⵢⴰ ⴰⵍⵍⴰⵟ

العلم اسم مركب من: "سيدي" اسم تبجيل واحترام. "لحاجّ" لقب على كل من زار بيت الله الحرام أو كل من حاجّ، و"لغازي" اسم عربي يدل على اسم الفاعل من فعل غزا، يغزو، غازٍ. وهذا الاسم، أي الحاج الغازي، كثير الانتشار في منطقة سوس، وربما يدل على شخصية مجهولة أو شخص أدى فريضة الحج وتوفي في طريق عودته إلى بلدته.

سيدنا دانيال:

علم على مزارة توجد بمنطقة تكموت شمال طاطا، بها ضريح يقال إنه لنبي من أنبياء الله يدعى دانيال، كما تتوفر على مسجد تابع لقبيلة أيت تكموت ن يعقوب، إذ يشتهر بموسم خاتمة البخاري الذي يقام سنويا بحيث تجتمع فيه الأسرة العلمية بالمنطقة ونواحيها.

العلم مركب من "سيدنا" وهي لفظة للتبجيل والاحترام و"دانيال" ذكر في سير العلماء على أن دانيال " عليه السلام، كان نبيا من أنبياء بني إسرائيل، وكان في زمن بخدنصر الذي خرب بيت المقدس، وقتل من قتل من بني إسرائيل، وأحرق التوراة. وتعرض للتعذيب بمعية بعض الأحبار من بني إسرائيل، وفرّ مع رفيقيه حزقيل (دفين منطقة والكنّاس بقبيلة إساقّن) وشنّاويل (دفين بمدينة تمدولت الأثرية القديمة بأقّا) إلى منطقة المغرب وبالضبط إلى سفوح جبال السوس الأقصى وهناك استقر إلى أن وافته المنية ودفن بين ثنايا جبال المنطقة. كما أن هناك رواية شفوية أخرى تنقصها الدقة التاريخية تقول إن أهل «تكموت»، حين اشتد بهم الجوع والقحط، استنجدوا بأهل العراق قصد منحهم تابوت

نبي الله دانيال لجلب المطر، حيث تزعم الرواية أن السماء إذا رأت وجهه تمطر، مقابل سبعين فارسا من فرسان المنطقة. فكان لهم ما أرادوا فاحتفظوا بالتابوت بالمنطقة.

سيدي والكنّاس:

عَلم على مزارة ومقبرة ما لبثت أن تحولت إلى تجمع سكني. يحده شرقا وشمالا وادي أسيف ن أيت فييّد، وغربا وجنوبا جبل أدرار ن شّيّغْ. تابع قبليا لفخذة أيت فييد، وإداريا لجماعة إسافّن القروية، به مسجد ومدرسة علمية عتيقة تضم أزيد من ٩٠ طالب علم، ويقام بها موسم سنوي في الخميس والجمعة من الأسبوع الثالث من شهر غشت، وتقبل عليه كل فخذات وعشائر قبيلة إسافّن والقبائل المجاورة كإبْركاكْ وإداوْكنسوسْ.

العلم اسم مركب من: "سيدي" وهي أداة تبجيل واحترام؛ "والكنّاس" وهو اسم ولي صالح دفن بهذه المقبرة، ويقال أنه كان فقيه مشارط بقبيلة أيت فييد خلال حقبة تاريخية سابقة، وأصله من تافراوْت نْ واملّن، وقد استقدمه أهل المنطقة إلى هذه المدرسة العتيقة لما لها من مكانة في نفوس الأهالي، حيث أن اسمها الأصلي واسم مدرستها العتيقة الحالي هو سيدي حيزْقيلْ، ويقال أنه نبي من أنبياء الله، كما يحكى أنه حبر من أحبار اليهود الذين فروا من بطش بخدنصر إبان حكمه لبلاد بابل، ليهرب بمعية إثنين من أصحابه إلى منطقة السوس الأقصى، وهما دانيالْ (السابق ذكره) المدفون بقبيلة تاكموتْ، وشنّاويلْ المدفون بمدينة تامْدولْت بمنطقة أقّا. وقد ذكره الشريف الكتاني في كتابه قائلاً: "سيدي وَلْكنّاس مدفنه على رأس جبل بين تيزغت ووادي إسافن؛ قبره معروف عند أهل تلك البلاد، معظم محترم يقصدونه بالزيارة، ويستشفون بترابه كذلك، و لا يسكن أحد بالقرب منه الا بعيدا"[٢٣]. ومن الروايات التي أفادنا بها الأستاذ إبراهيم أوبلا، أن هناك وثيقة لدى السيد محمد بن العربي نْ أيت زكري بدوار إكيوزْ (فخذة إد ؤ مارتيني) وهي منقولة عن كتاب ألفه أحد الحضيكيين تتحدث عن شخص اسمه كُنّاسْ ذكر فيما بعد بالوالي كُنّاسْ، وذكرت تلك الوثيقة أنّ هذا الشخص هو قاتل المولى إدريس وقد هرب واختبأ في هذه المنطقة فأجَلّه السكان ولمّا مات بنوا عليه ضريحا بجوار قبر حيزقيل (الحبر اليهودي). كما أن هناك احتمال أن يكون أصل التسمية هو: ؤكانوس (أي من أهالي كانوس)، وبالتالي يكون أصله من دوار كانوسْ المندثر في حقبة زمنية غير معروفة، والذي توجد آثاره غرب دوار تيژكي ن إد ؤ بالول، ويروى أنه من أقدم التجمعات السكنية بالمنطقة.

ومن الأسباب التي جعلت من هذا المكان تجمعا سكنيا، منذ عقدين من الزمن تقريبا، هو رغبة أهل القبيلة في إحياء هذه المدرسة العلمية العتيقة، حيث أصبح الان يسكنه فقيه المدرسة والأساتذة المدرسون والاداريون والطلبة، بعد أن تم تطبيق نظام التعليم الأصيل العصري، وأصبحت تدرس بها مجموعة من المواد الأساسية كاللغات والعلوم الدينية بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم.

ويعتبر هذا الاسم من أسماء الأماكن التي تعددت مسمياتها في أماكنية المنطقة، فبالإضافة إلى هذا التجمع السكني، فقد أطلق نفس الاسم على المزارة التي توجد به، كما سمي به سدّ صغير تم إنشاؤه على وادي أيت فييد قرب هذا المكان إبان فترة الاستعمار.

سيدي محند ؤبراهيم:

علم على مزارة تقع ترابيا في نفوذ جماعة تامانارت القروية بين دواري أكرض ولقصبت، جنوب شرق إقليم طاطا. إذ أن بالمنطقة ينظم موسم من أكبر المواسم بإقليم طاطا كل سنة أواسط شهر شتنبر.

العلم مركب من "شيخ" أو "شيغ" بلغة أهل المنطقة وهو الشيخ أو الولي الصالح والفقيه، "سيدي" اسم تبجيل واحترام و "محند ؤبراهيم" هو امحمد بن إبراهيم بن عمر بن طلحة بن محمد بن سليمان بن عبد الجبار اللكوسي الجزولي، الجامع بين علمي الشريعة والحقيقة، التقي الصالح الزاهد الورع، وحيد دهره، المقيم على السنة أحسن قيام. طارت شهرته في عصره وما بعد عصره، شارط سنوات وتولى القضاء أعواما، أمضي عمرا غير قليل في التدريس مع شغله ذلك كله بتربية المريدين وارشاد المسترشدين وصقل النفوس وتهذيب الأخلاق. وإلى جانب هذه المصالح الخاصة كان رحمه الله يقوم بمصالح عامة، فيسوى الطرق الصعبة

ويبني الجسور على الأنهار التي لا تعبر في الفصول ويحفر نطفيات في معاطش بين القفار. كان مولده في بلدة ايمي ن وّكادير ن ترصواطّ بقبيلة أمانوز من بلاد تهالة ونشأ فيها بين أبويه وإخوته، ثم جال في بلاد جزولة للتعلم ودار على من بها من الطلبة للاستفادة والقراءة عليهم. فأخذ العلوم الشرعية على يد شيخه الفقيه الحجة أبي على الحسن بن عثمان التملي الجزولي. انتقل بأولاده، بعدما عاد من رحلته في طلب العلم بدرعه، إلى وادي تامانارت وتولى الامامة في مسجد من مساجدها. توفي رحمه الله في صفر سنة ٩٧١ ه،[٢٤] وقيل بعد وفاة سيدي أحمد بن موسى بشهرين. أوصى بنيه لا يأووا ثلاثة: قاتل النفس، والعبد الآبق، والهارب من السلطان، قائلا إن إيواءهم من الفساد في الأرض.

بن يعقوب:

عَلم على مزارة توجد بجماعة سميت بنفس الاسم ألا وهو بن يعقوب تضم ثماني دواوير أو تجمعات سكنية وهي: إمي نتاتلت (وهي التي توجد فيها هذه المزارة)، رّكن، أفوزار، إليغ، تيسناسامين، تيصفريوين، أكني وإمي نتالات. تقع هذه الجماعة في الشمال الشرقي لمدينة طاطا، ويقام بها موسم يعد أكبر موسم بمنطقة الأطلس الصغير، إن لم نقل بالجنوب. بها مدفن الولي الصالح سيدي مَحمد بن يعقوب. العلم اسم مركب من "بن" بمعنى ابن و "يعقوب" وهو والد الولي الصالح مَحمد بن يعقوب الصنهاجي السكتاني من أولياء الله العارفين، وأرباب المجاهدات، وأصحاب المقامات، له تربية نافعة في عصره، وبركته فائضة، وأحوال صافية صادقة. نزيل فم تاتلت (وهي إمي ن تاتّلت). ومن عظيم بركاته وفائض كرامته أنه سكن بناحية لا مزروع فيها بعلا ولا سيحا ولا ماء إلا بؤيرة صغيرة، فكانت ترده المؤن والأعداد الكثيرة من الناس فيطعمهم بين الليل والنهار أربع مرات، وكان ذلك دأبه طول عمره[٢٥]. ومما حكي عنه أن لم يتزوج حتى بلغ السبعين من عمره، فلم يمت حتى شاهد من صلبه أربعين نفسا بين ولد صلب وولد ابن، وعاش مئة وعشرين عاما. وتوفي رحمه الله سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٥م). وقد عاش في عهد الدولة السعدية أي في عهد السلطان أبا محمد عبد الله العادل.

لقصبت ن سيدي عبد الله بن مبارك:

علم على تجمع سكاني يعد من أكبر التجمعات السكانية بمنطقة أقّا جنوب طاطا، إذ أن الاسم في أصله سميت به المنطقة التي دفن بها الشيخ سيدي عبد الله بن مبارك، غير أنّ هذا الاسم تم اطلاقه على الجماعة الترابية التي تضم عدة دواوير (أكادير أوزرو، لقصبة، تاوريرت، الزاوية، إرحّالن...).

العلم اسم مركب من لقصبت وترادفها القصبة بالعربية ويراد بها في المغرب بناية محصنة بأسوار متينة، وهي التي تقابلها كلمة القلعة الشائعة في الشرق. وتستعمل القصبة باللسان الدارج المغربي في صيغ مختلفة: لقصيبة للتصغير ولقصابي للجمع. وهناك تجمعات حضارية وأخرى قروية تحمل اسم القصبة، ولعل أهمها قصبة تادلا، لقصيبة، لقصابي (طاطا)... ومازالت الكلمة مستعملة في شبة الجزيرة الإيبيرية للدلالة على بقايا حضرية وسيطة: alcazaba بالإسبانية وalcazova بالبرتغالية. وتتميز القصبة بكونها أهم بناء في المدينة وبتحصينها ومناعتها إذ توفر مكانا صالحا للمقاومة مدة زمنية طويلة. وغالبا ما يكون موقعها استراتيجيا يمكن من الدفاع عنها[٢٦]."ن" حرف إضافة، "سيدي" اسم تبجيل واحترام، "عبد الله بن مبارك" هو عبد الله بن مبارك الأقاوي بن علي بن الولي الكبير، الشهير بالبركة أبي عبد الله محمد بن مبارك السوسي الأقاوي ولد في شهر ذو القعدة سنة ٩٣٦ هـ، كان من أعلام الدولة المنصورية ببلاد المغرب. انتهت إليه الرياسة فيها في سياسة الآدب، معظما عند ملوكها وعظمائها، مرجوعا إليه في حوادث الأمور عند نزولها، ماضي العزم في تأن وتؤدة، منتج التدبير سديد الرأي ومتين العلم والدين... له فطنة صادقة ومرؤة فائقة مآثر حسنة... كان جوادًا كريمًا لا تفارقه أهبة الضيافة أينما توجهت به مطيته يجيز الوفود بمثل جوائز الملوك، وينزل الناس منازلهم، ويسعى بماله ونفسه في قضاء حوائجهم... كان مطلعا على كتب العلوم والفقه. أخذ العلم عن العالم الشهير فقيه جزولة أبي عبد الله سيدي امحمد بن إبراهيم بن عمرو بن طلحة التامانارتي، وعن الحسن بن عثمان الجزولي التملي وعن الامام ابن غازي وأبي العباس الونشريسي، كما أخذ عن الصالح أحمد بن

سليمان الرسموكي وعن الفقيه العامل علم العلماء أبي العباس أحمد ابن عبد الرحمان المسكدادي... كان يسكن في دوار الزاوية حيث أمضى جده سيدي امحمد حياته، فكان أعظم شيخ علامة في جزولة معنيا بالتدريس، وقد تزوج بنتا من بنات شيخه التامانارتي فولدت له أحمدا ومحمدا وعدة بنات، كما تزوج بنت الشريف سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن موسى فولدت له مباركا وعكيدة. وكان ذا مال وافر، لكن الله أكرمه بعدم الافتتان به. توفي رحمه الله عن عمر يناهز ٧٩ سن إلا شهرًا، ليلة الإثنين لتسع بقين من رمضان سنة ١٠١٥ هـ.[٢٧] وهنا العديد من الأماكن الأخرى بالإقليم سميت تيمنا بهذا العالم الكبير ومنها: زاويت ن سيدي عبد الله بن مبارك، تاركانت ن سيدي عبد الله بن مبارك، تيمزكيدا ن سيدي عبد الله بن مبارك، سوق ن سيدي عبد الله بن مبارك (سوق خميس إسافن الحالي).

خَاتِمَةٌ

لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة الموجزة أن نسلط الضوء على جزء مهم ومنسي من ثقافة وتاريخ وجغرافية قبائل طاطا، وذلك من خلال المزاوجة والربط بين الطوبونميا أو الأماكنية كعلم يهتم بدراسة أسماء الأماكن وبين التاريخ والتراجم عبر أسماء أعلام مروا من هذه الربوع وأسسوا بها حقبًا مضيئة من العلوم الشرعية والفقه والإشعاع الروحي. غير أن الدراسات الدقيقة من هذا الجنس ستساهم لا محال في نفض الغبار على جوانب أخرى لم يتم التطرق إليها بعد، وذلك من خلال إعداد قاعد بيانات تضم كل أسماء الأماكن بمنطقة باني علّها تجد إجابات شافية لأسئلة تاريخية، لسنية، علمية وجغرافية مازالت تؤرق بال الباحثين في هذا المجال الواحي الصحراوي، الذي كان في مجموعة من الحقب التاريخية مسرحًا لمجموعة من الأحداث ساهمت في تشكل الحضارة المغربية، بدء بفترة ما قبل التاريخ من خلال النقوش الصخرية المترامية على طول جبل باني وبالجبال الشمالية المجاورة، مرورًا بفترة دخول الإسلام ونشأة الدول المتعاقبة، وانتهاء بالفترة المعاصرة التي اتسمت بالاستعمار الفرنسي في بدايتها إلى فترة بناء الدولة المغربية المعاصرة.

الإحالات المرجعية:

(١) عبد الهادي التازي، ١٩٩٢، **"الفكر الجغرافي عند المغاربة"**، ضمن: الاسم الجغرافي: تراث وتواصل، أعمال الندوة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية، مديرية المحافظة العقارية والأشغال الطوبوغرافية والمعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٥-١٦-١٧ أبريل، المحمدية، ص:٢٧.

(٢) عبد الله العوينة وشاكر ميلود، ١٩٩٢، أهمية الأعلام الجغرافية في تصور البيئات القديمة: حالة منطقة بوخوالي وبني يزناسن (المغرب الشمالي الشرقي)، أعمال الندوة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية: الاسم الجغرافي تراث وتواصل، مديرية المحافظة العقارية والأشغال الطوبوغرافية والمعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٥-١٦-١٧ أبريل، المحمدية، ص: ٥٩

(٣) Mahand Tilmatine, Aspects de la standardisation de la langue amazighe : la toponymie, université Cadix, P : 4

(٤) Albert Dauzat, 1932, les noms des lieux : origine et évolution, librairie Delagrave, Paris, P : 6-7-8

(٥) مصطفى عياد، ١٩٩٢، العام والخاص في التسمية المواقعية، أعمال المناظرة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية: الاسم الجغرافي تراث وتواصل، مديرية المحافظة العقارية والأشغال الطوبوغرافية والمعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٥-١٦-١٧ أبريل، المحمدية، ص: ١٥٤

(٦) عمر نوحي، ١٩٩٨، **الطوبونميا المغربية: نماذج من منطقة طاطا**، بحث لنيل الإجازة في الآداب، تحت إشراف الأستاذ: أحمد الهاشمي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر أكادير.

(٧) عبد الهادي التازي، ١٩٩٢، "الفكر الجغرافي عند المغاربة"، ضمن: الاسم الجغرافي: تراث وتواصل، أعمال الندوة الوطنية الأولى حول الأعلام الجغرافية، مديرية المحافظة العقارية والأشغال الطوبوغرافية والمعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٥-١٦-١٧ أبريل، المحمدية، ص: ٣١

(٨) عبد الهادي التازي، م.ن، ص: ٣١

(٩) عبد الهادي التازي، م.ن، ص: ٣٢

(١٠) محمد حنداين، ١٩٩٣، مساهمة في دراسة أولية للأعلام الجغرافية بتارودانت، ضمن تارودانت حاضرة سوس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ص: ٢٥٥

(١١) الحسين أزغار، بحث لنيل الإجازة في الجغرافيا، دراسة جغرافية لـ أماكنية الأطلس الصغير الأوسط: أماكنية منطقة طاطا وتگموت، تحت إشراف الأستاذ: المصطفى أيت تيري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، ١٩٨٩، ص: ٩ و ١٠

(١٢) محمد المختار السوسي، **المعسول**، ج ٥، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، ١٩٦٠، ص: ٢٠٧

(١٣) محمد شفيق، ١٩٩١، **المعجم العربي الأمازيغي**، الجزء الأول، ص: ١٦٤، منشورات أكاديمية المملكة المغربية: سلسلة معاجم، الرباط.

(١٤) محمد المختار السوسي، م.س، ص: ٢٠٧

(١٥) محمد المختار السوسي، م.ن، ص: ٢١٨

(١٦) محمد المختار السوسي، م.س، ص: ٢٠٨-٢٠٩

(١٧) محمد المختار السوسي، م.ن، ص: ٢٠٨

(١٨) محمد المختار السوسي، م.س، ص: ٢٢٢-٢٢٣

(١٩) محمد المختار السوسي، خلال جزولة، ج٣، المطبعة المهدية، تطوان، ١٩٥٩، ص: ٩٦

(٢٠) معلومات استقيناها من السيدة الفاضلة فاضم بنت محند الحنفي، يوم ٢/٥/٢٠١٥، بدوار أگادير الهناء

(٢١) محمد المختار السوسي، م.س، ص: ٩٦

(٢٢) معلومات استقيناها من السيدة الفاضلة للا عائشة محند ودرحمان، يوم ٢/٢/٢٠١٥، بدوار أكادير الهناء

(٢٣) الشريف أبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني (١٢٧٤-١٣٤٥)، **سلوه الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بـ**فاس، تحقيق: عبد الكامل الكتاني وآخرون، الجزء الثالث، دار الثقافة، ٢٠٠٤، الدار البيضاء.

(٢٤) محمد المختار السوسي، المعسول، ج ٧، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء، ١٩٦٠، ص: ١٠-١٣

(٢٥) عبد الرحمان التمنارتي، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ص: ١٦٢-١٦٣

(٢٦) الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٩، **معلمة المغرب**، الجزء ١٩، مادة "القصبة"، ص: ٦٦٣٣، نشر مطابع سلا، المغرب.

(٢٧) محمد المختار السوسي، ١٩٦٣، **المعسول**، الجزء ١٨، ص: ١٧٣-١٧٥، مطبعة النجاح، الدار البيضاء.


ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

صورة أثينا في المصادر العربية الإسلامية
من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)
إلى الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)

يوسف المساتي

باحث دكتوراه في التاريخ وعلوم الآثار والتراث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق

جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

يهدف هذا المقال إلى رصد حضور أثينا في المصادر العربية الإسلامية، منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، وذلك باعتبارهم شكلوا "النقيض التاريخي وحتى الديني بل والمعرفي" للعالم الإسلامي آنذاك، ومن ثَّم الوقوف على تمثل أثينا في هذه المصادر، وتحديد تمثلها لها، كمجال جغرافي أولا، ومجال بشري، ومجال ثقافي، وذلك عبر تجميع المادة المصدرية المتعلقة ب"أثينا" بمختلف صيغ ورودها في المصادر العربية الإسلامية (أثينا، أثنية، أثينية، أثيناس ...الخ)، وترتيبها كرونولوجيا حسب ورودها، ثم استخراج ما تتضمنه هذه النصوص من معطيات، وذلك للإجابة على سؤال أساسي، كيف حضرت أثينا في هذه المصادر؟ وهل كانت هذه الصورة ثابتة عبر التاريخ أم متغيرة، وهل نحن إزاء سردية جغرافية ثابتة أم متحولة؟ وهل كانت هذه السردية منسجمة ومتوافقا عليها منذ بدايتها؟ وهل أثينا الحالية هي أثينا التاريخية بكل رمزياتها وحمولاتها؟ هل كانت أثينا واحدة أم متعددة ومتنوعة؟ ويتقاطع المقال منهجيًا بشكل جزئي مع منهج ما يعرف بالمراجعين الجدد.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٩	أبريل	٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٥	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

أثينا؛ المصادر العربية الإسلامية؛ التاريخ الإسلامي؛ الفلسفة؛ اليونان

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.283878.1126 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يوسف المساتي، "صورة أثينا في المصادر العربية الإسلامية من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص٦١ – ٦٩.

Corresponding author: elmoussatiyoussef@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةٌ

أثينا، عاصمة اليونان، أرض الحضارة ومهد الفلسفة، تلك المدينة التي انبعثت من رمادها مرارًا لتصنع معجزة العقل الغربي بتعبير عدد كبير من الباحثين الغربيين، عاصمة اليونان الحالية شمال المتوسط والمجاورة لتركيا؛ هذه العبارات هي بعض مما قيل ويقال وسيقال حول بلاد اليونان عموما وأثينا خصوصًا، إذ مما لا شك فيه أن السردية المتعلقة ببلاد اليونان، من أقوى السرديات، وأكثرها تأثيرا وهيمنة في العقل الغربي خصوصًا، والإنساني عمومًا. لكن هل كانت هذه السردية منسجمة ومتوافقا عليها منذ بدايتها؟ هل أثينا الحالية هي أثينا التاريخية بكل رمزياتها وحمولاتها؟ هل كانت أثينا واحدة أم متعددة ومتنوعة؟

وسيرًا على المنهج الذي تتخذه هذه الدراسة، والذي يتقاطع في جزء منه مع منهج المراجعين الجدد، عبر البحث عن أثينا في الكتابات الإسلامية، باعتبارهم كانوا "النقيض التاريخي وحتى الديني، بل والمعرفي"، واستخراج الثابت والمتحول، لمحاولة فهم التاريخ بنظرة أخرى. بناءً على هذا، تجميع المادة المصدرية المتعلقة بـ "أثينا" بمختلف صيغ ورودها في المصادر العربية الإسلامية (أثينا، أثينة، أثينية، أثيناس ...الخ)، وترتيبها كرونولوجيا حسب ورودها، ثم استخراج ما تتضمنه هذه النصوص من معطيات، مع الإشارة إلى أن هذا البحث تأطر بأسئلة أساسية:

- كيف حضرت أثينا في المصادر العربية الإسلامية؟
- ما هي التحديدات الجغرافية التي يمكن استخراجها من هذه النصوص؟
- ما علاقة أثينا باليونان في النصوص العربية الإسلامية؟

اعترضت هذا البحث صعوبات عدة، أهمها تشتت المادة المصدرية وتنوعها، إضافة إلى اختلاف أسماء أثينا في النصوص المتعددة، بل وداخل النص الواحد، وهو ما يطرح عددًا من الأسئلة، وقد تم تسجيل وجود عدد من التناقضات بخصوص أثينا سواء كاسم أو كمجال جغرافي أو كمجال "معرفي" في المصادر العربية الإسلامية.

أولاً: أثينا في نصوص القرن الرابع الهجري

وردت أثينا في عدة نصوص خلال القرن الرابع الهجري، وتطرح هذه النصوص عدة ملاحظات وتساؤلات، فمن الملاحظ أن الإشارات إلى أثينا وردت في الأغلب بأثيناس"، وأن لفظة أثنيا لم تظهر إلا في مرحلة لاحقة. من الملاحظ أيضًا أن أغلب الإشارات لأثينا ارتبطت بكتب الجغرافيا والرحلات، ولم ترتبط بكتب التاريخ، والحادثة التاريخية الوحيدة التي وردت فيها أثينا كانت مرتبطة بالإسكندر المقدوني أو اليوناني؛ أما المصادر الجغرافية فلم تقدم أي تحديدات يمكن أن تسهم في تحديد موقع أثينا، بل كان الحديث عنها يأتي عرضيًا، عند الحديث عن بحر الروم.

وقد وردت أثينا عند البتاني باسم "أثينس" التي يحكمها "أفسودس"، وقد انفرد البتاني بهذه الإشارة، والتي جاء فيها: ""فصار زمان السنة المأخوذ بهذين الرصدين ثلثمائة وستين جزءا، وذكر أنه أيضًا أخذ الأرصاد الصيفية القديمة التي كانت قبل أبرخس وهو الرصد الذي كان على عهد افسودس ملك أثينس الذي كان مجاز الشمس فيه على نقطة المنقلب الصيفي قبل ممات الإسكندر بمائة وثماني سنين مصرية صبيحة اليوم الحادي والعشرين من فارموث من شهور القبط من تلك السنة وأنه رصد الشمس فوجدها جازت على نقطة المنقلب الصيفي في سنة أربعمائة وثلث وستين من ممات الإسكندر"[(١)]. ولعل ما يلفت الانتباه في هذه الإشارة، اعتماد المؤلف على التقويم القبطي، فشهر "فارمونت" كما يستشف من بعض البرديات، يوافق شهر أبريل أو مايو، وفي نصوص أخرى يوافق شهر تموز/ يوليوز[(٢)]، ومهما كان الأمر فإن الحديث في هذا النص عن منطقة تعرف الانقلاب الصيفي خلال هذه الفترة، أي شمال خط الاستواء، بيد أن البتاني لا يقدم معطيات تمكن من معرفة المنطقة بالتحديد، باستثناء ارتباطها بالقبط.

وردت أثينا في نص عند ابن قدامة خلال الحديث عن نشأة الإسكندر المقدوني، جاء فيه: "وكان أول أمر الإسكندر، أن أباه فيليب كان ملكا من ملوك اليونانيين... وأشاروا عليه بالاستكثار من النساء للطروقة، وكان متجنبا لذلك فيما خلا من عمره، على مذهب الفلاسفة،

طلبًا لولد ينشئوا نشوءا صالحًا ويعهد إليه في طلب ما رام فعله فولد له الإسكندر، فلما ترعرع أنفذه إلى أثينا مدينة الحكماء، وكان صاحب التعليم بها في ذلك الوقت أرسطاطاليس بعد أفلاطون، فأقام عنده حتى شد من الفلسفة طرفا، وتقبل أخلاق أهلها"[٣].

من الملاحظ ارتباط أثينا في هذه الإشارة بكونها مدينة الحكماء، وهو الوصف الذي سيلازمها في أغلب المصادر، وتكاد تجمع أغلب الإشارات على أن أثينا مدينة تعرف تدريس الحكمة، ويقوم بأمرها أرسطاطاليس، وهي منفصلة عن أي كيان سياسي. وقد وردت الإشارة إلى مدينة الحكماء مقترنة بالكند[٤] وأسماء أخرى، ولا تقدم الإشارات المصدرية ما يعين على توضيح هل يتعلق الأمر بمدينة حكماء واحدة حملت أسماء عديدة، أم أنها مدن عديدة، كانت بمثابة مراكز علمية، وهو ما يبدو الأرجح.

يتضمن أحد نصوص المسعودي إشارة مهمة، إذ جاء فيه: "ولأية علة ابتدئ بالفلسفة المدنية من سقراط ثم أفلاطون ثم أرسطاطاليس ثم ابن خالته ثاوفرسطس ثم أوذيمس، ومن تلاه منهم واحدا بعد آخر، وكيف انتقل مجلس التعليم من أثينة الى الإسكندرية من بلاد مصر، وجعل أوغسطس الملك لما قتل قلوبطرة الملكة التعليم بمكانين الإسكندرية ورومية".[٥] يشير هذا النص إلى انتقال مجلس التعليم من "أثينة" إلى الإسكندرية من بلاد مصر، ووجود مكانين للتعليم هما الإسكندرية ورومية، ويؤكد هذا المعطى ما سبقت الإشارة إليه من تعدد مراكز تعليم الحكمة التي كانت أثينا إحداها؛ وعلى غرار باقي النصوص لم تتم الإشارة إلى أي معطى جغرافي يتعلق بأثينا.

لكن الاصطخري يقدم بعض الإشارات الجغرافية، إذ ورد في كتابه المسالك والممالك: "ويأخذ من البحر المحيط خليج حتى ينتهي في ظهر بلد الصقالبة ويقطع أرض الروم على القسطنطينية حتى يقع في بحر الروم، وأرض الروم حدها من البحر المحيط على بلاد الجلالقة وأفرنجة ورومية وأثيناس الى القسطنطينية"[٦]، وبحسب هذا التحديد فأثيناس تقع ضمن بلاد الروم، ويمر بها خليج متفرع عن المحيط، وهي مجاورة لرومية والقسطنطينية وبلاد الجلالقة، كما يمر بها البحر الرومي.

وجاءت في نص آخر باسم أثيناس، ويقدم هذا النص أيضًا —على غرار سابقه- بعض الإشارات الجغرافية المتعلقة بأثينا، حيث جاء في سياق الحديث عن بحر الروم: "ثم يصير غربي البحر الى خليج القسطنطينية ويعبره ثم يمتد على سواحل أثيناس ثم على سواحل رومية ثم يمتد على قرب افرنجة فيصير البحر حينئذ جنوبيا ويكون على ساحله افرنجة إلى أن يتصل بطرطوشة من بلاد الأندلس"[٧]، وبحسب هذا التحديد، فأثيناس تلي خليج القسطنطينية غربًا حيث يمتد على سواحلها بحر الروم، كما أن أثيناس قبل سواحل رومية فهي إذا بين القسطنطينية ورومية.

بينما وردت أثينا في نص أخر عند الاصطخري[٨] باسم أثيناس، ولا يخرج هذا النص على سابقيه، حيث يقدم عددًا من المعطيات المهمة سواء جغرافية طبيعية أو بشرية، فعلى المستوى البشري يشير الاصطخري إلى أن أثينا هي إحدى المدن الكبرى للنصارى والتي عرفت بحكمتها وبأنها دار الحكماء؛ وعلى المستوى الجغرافي فهي خلف بلاد الروم وأمام رومية.

وعلى نفس المنوال يسير ابن حوقل[٩]، حيث وردت باسم أثيناس، ويقدم ابن حوقل في هذا النص، تحديدا جغرافيا لا يختلف عن التحديدات التي قدمها الاصطخري، إذ يربط بين رومية وأثيناس وأنها في الطريق إلى القسطنطينية، ثم أرض الصقالبة، قبل أن يضيف في نص آخر[١٠] سواحل قلوريه والانكبردة في اتجاه بلاد الأندلس، أما في النص الثالث عند نفس المؤلف[١١] فقد وردت أثينا بنفس الاسم "أثيناس"، ولا يضيف أي جديد فهي مدينة من مدن مجمع النصارى على بحر الروم، كما أنها مدينة الحكماء.

وردت أثينا في كتاب "حدود العالم من المشرق إلى المغرب" باسم أثيناس، ويقدم هذا النص إشارة جديدة، إذ ورد فيه "أما الحد الواقع بين الخليج حتى الأندلس على ساحل بحر الروم فيدعى ساحل أثيناس. ويونان: كانت مدينة من أثيناس هذه قديمًا، وقد نبغ جميع الحكماء والفلاسفة من أثيناس هذه"[١٢]، أي أنه جعل الساحل الممتد من خليج القسطنطينية إلى بلاد الأندلس

يعرف باسم ساحل أثيناس، وهو الأمر الذي لم تتم الإشارة إليه في المصادر السابقة، إذ كانت الإشارة إليها على أنها مدينة ساحلية فقط.

ثانيًا: أثينا في نصوص القرن الخامس الهجري

وردت أثينا في عدة نصوص، ويبدو من الملاحظ خلال هذه الفترة ارتباط أثينا بالنقاشات الفلسفية واللاهوتية، إذ أشار إليها البيروني، "وأقول: إن اليونانيين أيام الجاهلية قبل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصهم في النظر قريب من خاصهم وعامهم في عبادة الأصنام كعامهم، ولهذا أستشهد من كلام بعضهم على بعض بسبب الاتفاق وتقارب الأمرين لا التصحيح فإن ما عدا الحق زائغ والكفر ملة واحدة من أجل الانحراف عنه، ولكن اليونانيين فازوا بالفلاسفة الذين كانوا في ناحيتهم حتى نقحوا لهم الأصول الخاصة دون العامة لأن قصارى الخواص اتباع البحث والنظر وقصارى العوام التهور واللجاج إذا خلوا عن الخوف والرهبة يدل على ذلك سقراط لما خالف في عبادة الأوثان عامة قومه وانحرف عن تسمية الكواكب "آلهة" في لفظه كيف أطبق قضاة أهل اثينية الأحد عشر على الفتيا بقتله دون الثاني عشر حتى قضى نحبه غير راجع عن الحق".[١٣]

وردت أثينا باسم أثينية، ويشير المؤلف إلى تشابه عقدي بين الهند واليونان، مع تطور الفلسفة في اليونان، ثم يحيل على الحكم على سقراط بسبب مخالفته للآلهة، من طرف قضاة أثينية، وإذا كان النص لا يقدم معطيات جغرافية، لكنه غني بالمعطيات التاريخية والفلسفية.

وعلى نفس المنوال، سيسر البيروني، إذ سيشير في نص آخر إلى أنه "في زمان «دارا» الأول الذي كان بعد «كورش» أنفذ الروم إلى أهل «أثينية» رسلا وأخذوا منهم النواميس في اثني عشر كتابا إلى أن ملكهم «فنفيلوس» وتولى وضع السنن لهم وصير شهور السنة اثني عشر بعد أن كانت لهم عشرة ويدل على إكراهه إياهم أنه وضع معاملاتهم بالخزف والجلود بدل الفضة فإن ذلك يكون من الحنق على من لا يطيع؛ وفي المقالة الأولى من «كتاب النواميس» لأفلاطن قال الغريب من أهل أثينية: من تراه كان السبب في وضع النواميس لكم أهو بعض الملائكة أو بعض الناس؟"[١٤]

يبدو ارتباط أثينيا واضحًا بالصراعات والنقاشات المعرفية واللاهوتية عند اليونان، ويشير الى علاقتهم مع الروم وكورش، والتقويم الذي حولوه من عشرة أشهر إلى اثني عشر شهرًا. ثم يضيف البيروني في نص آخر، أنه قد: "ذكر بعضهم أن حروفهم كانت أقل ثم تزايدت ... فتمت عند أهل «أثينية» حينئذ أربعة وعشرين وذلك في زمان «اردشير بن دارا بن اردشير بن كورش» على رأي مؤرخي اهل المغرب"[١٥]ويتضمن النص إشارة الى الحروف في زمن أهل أثينية وأنها وصلت لأربعة وعشرين حرفا، حيث كانت في البداية ستة عشر حرفا ثم أصبحت عشرين، قبل أن تصبح أربعة وعشرين حرفا، مع الإشارة لجذورها المصرية، وربطا بما ورد سبقا عن التقويم القبطي فإن الأمر يصبح مثار ملاحظات عديدة.

ثم يضيف البيروني في نص آخر: "وهو المسمى في الشطرنج رخا؛ وكانت اليونانيون يسمونها «مراكب القتال»، وأول من أحدثها عندهم «منقالوس» بمدينة «اثينية» وأهلها يزعمون انهم أول من ركبوها، وكان قبل ذلك ابدعها «افروذيسي» الهندي بمصر لما ملكها وذلك بعد الطوفان بقريب من تسع مائة سنة، وعملها بفرسين يجريانها، ومن اساطير اليونانيين: ان «ايفسطس» عشق «اثينا» وراودها فدافعته حفظا للعذرة، واختفى لها في بلاد «اثينية» وأراد القبض عليها فطعنته بحربة حتى تركها، وأرسل النطفة على الأرض فكان منها «ارقتونيوس»، وإنه جاء على عجلة مثل رخ الشمس ومعه ممسك الأعنة راكب، وما في الميدان في زماننا من رسوم الركض والجري في الرخاخ فهو تشبيه به".[١٦] يبدو أن هذا النص قد ميز بين "أثينا" و"أثينية"، إذ أن المؤلف جعل من أثينا اسم "علم مؤنث" بينما جعل من أثينية اسم المجال الجغرافي الذي دارت فيه القصة، وقد أحال على أسطورة أثينا، وأسبقية اختراع الشطرنج، والملاحظ أن مصر تحضر بشكل أساسي في هذه النصوص كمجال للمقارنة.

ويقدم ابن النديم نصًا مهمًا، ورد فيه: "أول من تكلم في الفلسفة ... ثم تكلم بعد ذلك على الفلسفة سقراط بن سقراطيس من أهل مدينة أثينة مدينة العلماء والحكماء بكلام لم يدروا منه كثير شيء"[١٧]، ولعل الملاحظ في هذا النص على غرار أغلب نصوص القرن الخامس الهجري أنها ترتبط بالنقاشات اللاهوتية والفلسفية، حول أصول الفلسفة أو اللغة، إضافة لهذا فالملاحظ أن ابن النديم يجعل من مصدر الخبر مؤرخًا سريانيًا.

ثالثًا: أثينا في نصوص القرن السادس الهجري

يمكن القول على العموم أن نصوص القرن السادس الهجري، لم تقدم معطيات غزيرة حول المادة، ولعل أهم ما ورد جاء عند الإدريسي، إذ أشار في أحد نصوصه [١٨] إلى أن مصب خارست على أثينية، وحدد موضع المدينة بأنها قرب مضيق جزيرة بلبونس، وتقع على البحر؛ بينما أشار في نص آخر[١٩] إلى أن أثينية مدينة عامرة ومأهولة، وأنها تبعد عن مدينة خارست التي تقع على البحر ستون ميلا، وتبعد هذه الأخيرة عن مدينة أرميرون ثمانية وأربعون ميلاً. ولا يقتصر حضور أثينا على المجال الجغرافي أو التاريخي أو اللاهوتي، بل ارتبطت أيضًا بفنون الخطابة، إذ جاء في نص لابن رشد الحفيد أن: "قال: وينبغي للمتشكك في المقدمات المأخوذة من السنة أن يفعل فيها ما كان يفعله سقراط مع الخطباء من أهل أثينية، فإنه كان يذم لهم تلك المقدمات ذما يسيرا، يريد، فيما أحسب، بالتأويل لها. فإن التأويل ذم ما للقول"[٢٠]، كما وردت في نص آخر عند نفس المؤلف، جاء فيه: "فإنه كما قال سقراط: ليس يعسر أن يمدح أهل أثينا عند أهل أثينا، وإنما يعسر أن يمدح عند أهل لوقيا، يعني أعداءهم»".[٢١]

بينما ترتبط أثينا بالفلسفة في عدة نصوص إذ أورد الشهرستاني، عن "سقراط بن سفر نيسقوس الحكيم، الفاضل، الزاهد من أهل أثينية"[٢٢]، ثم أضاف في نص آخر، ما نصه: "أفلاطون بن أرسطن بن أرسطوقليس من أثينية، وهو آخر المتقدمين الأوائل الأساطين، معروف بالتوحيد والحكمة ... وطيماوس والغريبين: غريب أثينية، وغريب الناطس، وضم إليه العلوم الطبيعية والرياضية."[٢٣] ويبدو أن حضور سقراط وإعدامه في أثينا كان له حضور في المصادر العربية، حيث حضر في عدة نصوص وإشارات، منها ما أورده ابن بسام: "ووقف سقراط على كساح وقد خرج من الحش بكساحة فقال: يا أهل أثينا، هذا الذي كنتم تغلقون عليه الأبواب، وتقيمون لحفظه الخزان، وكانت شهواتكم تستخدم عقولكم في إعداده؛ واليوم نفوسكم آنفة منه وطباعكم نافرة عنه".[٢٤]

ويقدم الزمخشري نصًا مهمًا، إذ أورد فيه"جالينوس: سن أهل أثينة: إن مَنْ لم يعلم ولده لم يجب له على ولده حق الأبوة"[٢٥]، ولا يمكن فهم هذا النص دون ربطه بانتماء الزمخشري، وطبيعة الصراعات التي كانت آنذاك بين المدارس المختلفة، ما يؤشر على أن الحضور "الأثيني" خلال هذه المرحلة لم يكن مجرد حضور لمجال جغرافي، بل لمجال معرفي وذهني.

رابعًا: أثينا في نصوص القرن السابع الهجري

رغم أن القرن السابع الهجري شهد إشارات متعددة لأثينا، إلى أنها تسجل في الآن نفسه غيابا للمحددات الجغرافية التي تكاد تنعدم، إلا بعض الإشارات الغامضة، بينما كان التركيز الأعظم على البعدي الفكري والفلسفي، وهكذا فقد وردت عند سبط ابن الجوزي باسم "أقثينة" أنها سميت باسم مقدونية، أثناء حديثه عن يونان ابن يافث الذي انتهى "إلى مدينة بالمغرب يقال لها: أقثينة، وهي مدينة الحكماء، وقيل: اسمها مقدونية، فأقام بها وكثر نسله، وبنى بها قصورا وأبنية شاهقة".[٢٦] يشير ابن سعيد المغربي إلى أن أثينة توجد على خط الطول أربعون درجة وخمس عشرة دقيقة، وهي تقع شمال خليج بحر الروم تقع في الجنوب الغربي لمدينة برشان، وهي مدينة انقرضت على يد "الألمان"، "ومن هذه المدينة إلى القسطنطينية، من البلاد التي يسكنها الخرايطة وهم بقايا الإغريقيين، عدد كبير، وهي معجمة خاملة عند المسلمين"[٢٧].

بينما وردت أثينا عند القفطي في عدة مواضع وارتبطت في أغلبها بالفلاسفة والفلسفة والقضاء[٢٨]، فقد جاءت باسم "أثينس" واقترنت بأصول الفيلسوف أفلاطون وأصوله[٢٩]، ثم بقصة ولادته ونشأته بأثينا[٣٠]،

ثم بعض قصصه[٣١]، وفي موضع آخر ببعض من آرائه السياسية، ومواقفه تجاه الحكم[٣٢]. كما وردت في نص آخر في رواية عن مقتل سقراط[٣٣]، وجاءت في نص آخر باسم "أثينية"، مرتبطة بالفلاسفة والفرق السبعة[٣٤].

وأشار ابن أبي أُصَيْبِعَة في كتابه "عيون الأنباء" عند حديثه عن إعدام سقراط، حيث ركزت على البعد التوحيدي لفلسفة سقراط الذي يعتبر معلم أفلاطون، إذ جاء في النص: "فلما علم الرؤساء في وقته من الكهنة والأراكنة ما رامه من دعوته وأن رأيه نفي الأصنام ورد الناس عن عبادتها شهدوا عليه بوجوب القتل، وكان الموجبون عليه القتل قضاة أثينس الأحد عشر"[٣٥].

يبدو واضحًا سعي عدد من المؤلفين دفع تهمة الكفر أو الوثنية عن معتنقي الفلسفة، والانتصار لآرائهم، سواء باستعراض سيرة سقراط أو أفلاطون أو غيرهما، يؤكد هذا ما جاء في نص آخر، "وجدت في كتاب أفلاطون المسمى احتجاج سقراط على أهل أثينية"[٣٦]، والذي وردت الإشارة إليه في أكثر من نص[٣٧]. ويؤكد هذا المناخ الجدلي الذي يمزج بين البعد الفلسفي واللاهوتي، والذي حضرت فيه أثينا "وهي التي تعرف بمدينة الحكماء"[٣٨]، ومن هنا السعي المستمر لنفي الوثنية عن معتنقي حكمتها، وتصوير ما لحقهم من ضرر بسبب معتقداتهم التوحيدية، كما وقع عندما أراد رجل من الكهنة "الذين يسمون الكمريين يقال له أوروماذن أراد السعاية بأرسطوطاليس ونسبه إلى الكفر وإنه لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد في ذلك الوقت بسب ضغن كان في نفسه عليه وقد قص أرسطوطاليس هذه القصة في كتابه إلى أنطيطوس فلما أحس أرسطوطاليس بذلك شخص عن أثينا إلى بلاده وهي خلقيديق لأنه كره أن يبتلي أهل أثنية من أمره بمثل الذي ابتلو في أمر سقراطيس معلم أفلاطن حتى قتلوه"[٣٩].

ويتخذ ابن أبي أُصَيْبِعَة من قصص الفلاسفة نموذجًا لما يجب أن يكون عليه قدر الفلاسفة من التعظيم، والتبجيل، والاستماع لآرائهم، ولما تبلغه المدن التي تقتدي حذوهم وتتبع آرائهم، كما حدث لأفلاطون عندما "رجع أفلاطن من مصر إلى أثينية ونصب فيها بيتي حكمة وعلم الناس فيها، ثم سار إلى سيقليا فجرت له قصة مع ديونوسيوس المتغلب الذي كان بها وبلي منه بأشياء صعبة ثم تخلص منه وعاد إلى أثينية فسار فيهم أحسن سيرة وأرضى الجميع وأعان الضعفاء".[٤٠] ويؤكد هذا ما أورده عن مكانة أرسطو طاليس الذي سكان أثينا، إذ "لكثرة ما عقد من المنن والإحسان في هذا الباب صار أهل أثينية إلى أن اجتمعوا وتعاقدوا على أن كتبوا كتابا نقشوه في عمود من الحجارة وصيروه على البرج العالي الذي في المدينة، وذكروا فيما كتبوا على ذلك العمود أن أرسطوطاليس بن نيقوخامس الذي من أهل أسطاغيرا قد استحق بما كان عليه من اصطناع المعروف وكثرة الأيادي والمنن وما يخص به أهل أثينية من ذلك".[٤١]

ومن الواضح أن الطريقة التي يورد بها ابن أبي أُصَيْبِعَة سيرة فلاسفة إثينا فيها انتصار واضح لهم ولأخلاقهم، فأفلاطون "كان حسن الأخلاق كريم الأفعال كثير الإحسان إلى كل ذي قرابة منه وإلى الغرباء متئدا حليمًا صبورًا، وكان له تلاميذ كثيرة وتولى التدريس بعده رجلان أحدهما بأثينية في الموضع المعروف بأقاديميا"[٤٢]، وجالينوس سافر "إلى أثينية ورومية والإسكندرية وغيرها من البلاد في طلب العلم وتعلم من أرمنيس الطب وتعلم أولا من أبيه ومن جماعة مهندسين ونحاة الهندسة واللغة والنحو وغير ذلك"[٤٣]. ويحق التساؤل، هل اندرجت كل هذه النصوص في سعي مكثف لرسم صورة للفيلسوف ومعتقداته وأخلاقه، توازي صورة الفقهاء والمشايخ؟ وهل كانت أثينا تمثلاً للمدينة التي يعيش فيها المسلمون، وما يجب أن تكون عليه، وما يجب أن تتفاداه، بصيغة أخرى هل كان هنالك نوع من الإسقاط على عالم المسلم المعاصر –آنذاك-.

ولم يقتصر حضور على الفلاسفة والأدباء، بل كانت حاضرة في قلب سجالات اللاهوتيين والفقهاء أيضًا، وفي سياق التاريخ الديني للمعتقدات السابقة على الإسلام، فقد أشار إليها القرطبي في معرض حديثه عن بعض المعتقدات الدينية لسكان أثينا قبل اعتناق النصرانية. "وبحيلة طريفة هرب بولس إلى مدينة بيرية ثم إلى مدينة أثينا وإذ وجدهم يعبدون تمثالاً لإله مجهول وقف في وسطهم وقال أيها الرجال الأثينيون أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيرًا لأنني بينما كنت أجتاز وأنظر إلى معبوداتكم وجدت أيضًا مذبحا مكتوبا عليه

لإله مجهول فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به وقال النصارى أنه أراد بالإله المجهول الذي نادى لهم به الله عز وجل الذي هو قد تجسد وتأنس في شخص عيسى ابن مريم كما يزعمون"(٤٤).

ويسجل في هذه الفترة ارتباط أثينا بالتاريخ المسيحي، إذ حضرت أثينا مرتبطة بعدد من الأحداث التاريخية أو الدينية، كما في تاريخ مختصر الدول للمؤرخ السرياني ابن العبري، الي أفرد لها عدة نصوص، حيث جاءت "أثيناس" في معرض الحديث عن أحداث حكم "أهور" وتشييد "محكمة اريوس فاغوس بمدينة اثيناس"(٤٥)، وتطرق في نص آخر لأحداث فترة حكم الملك "احشيرش بن داريوش"، الذي ملك مصر ثم فتح مدينة اثيناس وأحرقها"(٤٦)، ويستوقفنا هنا الربط من جديد بين مصر وأثينا. ووردت أثينا في موضع آخر عند نفس المؤرخ خلال الحديث عن المعتقدات الدينية لرومة وأثينا، ويبدو من خلال محاولة الانتصار لتوحيدية وإيمان أثينا ومسيحيتها، حيث "قال فطروفيلس المحصل لارسنيوس الحكيم معلمه ما الذي الجأ ديونوسيوس رئيس حكماء اثيناس وافريقيانوس الإسكندري ومرطيانوس الباذوي إلى أن يسجدوا لرجل مصلوب. فأجابه قائلاً: إن آلهة السماء اقتضوا هذا، فاستنار واختار اتباع النصارى بالسيرة الحسنة وترك الدنيا.(٤٧)

خامسًا: أثينا في نصوص القرن الثامن الهجري

لا تقدم نصوص القرن الثامن الهجري أي معطيات مهمة، إذ لا تعدو أن تكون في أغلبها غير اجترار لما سبق، باستثناء ارتباطها بالطب في نص لفضل الله ابن العمري، ورد فيه:... قال ابن جلجل: "هو من [أهل] مدينة أثينا، رومي فلسفي، يوناني، طبي، عالم بالهندسة وطبائع الأعداد، وله في الطب كتاب بعثه إلى طيماوس".(٤٨) بينما يحضر ارتباط أثينا بالمسيحية عند ابن تيمية، بشكل واضح وفي أكثر من موضع، ويحق التساؤل، هل الأمر يدخل في سياق جداله مع الفلاسفة والمناطقة، حيث يحاول أن يؤكد وثنية الفلاسفة ومن سار نحوهم، حيث ورد في نصه: "... وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسدة التي لها ظل، وهذا كان دين الروم واليونان، وهو دين الفلاسفة أهل مقدونية وأثينة".(٤٩)

ثم يربط في نص آخر بين المسيحية وأثينا وتدوين الأناجيل حيث: "كتب "يوحنا" إنجيله بالرومية في جزيرة يقال لها: "تيمرا" من أرض الروم من أرض "أثينة" في عصر رجل من عظماء الروم فيلسوف يقال له: "مومودس"(٥٠). تطرح محاولات ابن تيمية ربط أثينا باعتبارها مدينة الفلاسفة والفلسفة، عددا من الأسئلة، ولا يمكن فهمها دون ربطها بالجدال المحتدم آنذاك بينه من جهة وبين المناطقة والفلاسفة من جهة أخرى.

سادسًا: أثينا في نصوص القرن التاسع الهجري

يبدو من الواضح تراجع الإشارات إلى أثينا، باستثناء بعض الإشارات التي أوردها ابن خلدون والتي تتضمن بعض الإشارات المهمة، من قبيل ما قدمه، حول وجود اليهود في أثينا، وهو ما لم يسبق أن أشارت إليه المصادر سابقا، حيث أورد: "فأرسل إليه هرقانوس ملك اليهود بهدية وفيها تاج من الذهب مرصع بالجواهر وسأل تجديد العهد لهم، وأن يطلق السبي الذي سبي منهم أيام كيساوس، وأن يرد اليهود إلى بلاد يونان وأثينة، وأن يجري لهم ما كان رسم به عمه قيصر، فأجابه إلى ذلك كله"(٥١). أما باقي الإشارات عند ابن خلدون فقد ارتبطت بفلاسفة أثينا في علاقتهم بالملوك والساسة، فخلال فترة "أرشيش بن أرطحشاشت، وقيل اسمه فارس، أربع سنين وقيل إحدى عشرة، وكان لعهده من حكماء يونان بقراط وأفلاطون ودمقراطس، ولعهده قتل بقراط على القول بالتناسخ وقيل لم يكن مذهبه وإنما ألزمه بعض تلامذته ثم شهدوا عليه وقتل مسمومًا قتله القضاة بمدينة أثينا"(٥٢). قبل أن يشير لمدرسة المشائين وأفلاطون وأرسطو في معرض حديثه عن الإسكندر المقدوني الذي كان "معلمه أرسطو هذا من اليونانيين وكان مسكنه أثينا وكان كبير حكماء الخليقة غير منازع، أخذ الحكمة عن أفلاطون اليوناني، كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس فسمى تلاميذه بالمشائين"(٥٣).

سابعًا: أثينا في نصوص القرن الحادي عشر الهجري

وعلى غرار القرن التاسع الهجري، فإن نصوص القرن الحادي عشر الهجري المتعلقة بأثينا ترتبط بالفلسفة والإسكندر، دون أي تحديدات أو إضافات

جغرافية أو بشرية، فأفلاطون بعد أن مضى إلى مصر "رجع إلى أثينا وبنى فيها دار الحكمة وعلم الناس، وكان له تلاميذ كثيرة وكان يعلمهم وهو ماش بين البساتين التي وقفها عليه فسمى المشائين ورئيسهم أرسطو"(٥٤). وحسب نفس المؤلف، فإن أرسطو "لما توفي أفلاطون سار إلى أرمنيس الوالي باورليس ولبث عنده إلى أن مات فرجع إلى أثينا مدينة الحكماء، فأرسل إليه فيلقس يدعوه إلى ماقدونيا فلبث بها يعلم إلى أن تجاوز الإسكندر بلاد آسيا فرجع إلى أثينا وأقام في لوقيون عشر سنين"(٥٥).

خَاتِمَةٌ

يعود أقدم ذكر لأثينا في المصادر العربية الإسلامية إلى القرن الرابع الهجري، وقد تعددت مستويات الإشارة إليها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

المستوى التاريخي: ارتبط حضور أثينا فيها بقصة الإسكندر المقدوني أو مقتل الفيلسوف سقراط أو بترجمات بعض من الفلاسفة اليونان، ومن الملاحظ أن الجانب الثاني كان الأكثر حضوراً وطغيانا في النصوص المطلع عليها، إذ أقترن أغلبها منذ القرن الرابع الهجري إلى القرن الحادي عشر الهجري بترجمة بعض من أعلام الفلسفة، دون أن يتم تحديد أي إشارات جغرافية مهمة. كما اقترنت أثينا في هذا المستوى بكونها مدينة الحكماء والفلاسفة، ويمكن أن نستشف من خلال الإشارات أن الأمر يتعلق بمدينة تعرف تدريس الحكمة فيها، وهي منفصلة عن أي كيان سياسي. انطلاقًا من القرن الخامس الهجري، أصبح التركيز كبيراً على تاريخ الفلسفة اليونانية وتراجم فلاسفتها، ومعتقداتهم، سواء إيجابًا أو سلبًا، وكانت تحضر أثينا في هذا السياق بشكل واضح وجلي، وهو الأمر الذي يمكن تفسيره بطبيعة الصراعات الفكرية التي كانت محتدمة آنذاك في المجتمعات الإسلامية بين أنصار المعرفة العقلية والفلسفية، وأنصار المذاهب الفقهية، ويمكن القول إن أثينا كانت نموذجًا تم إسقاط صراعات الحاضر الإسلامي عليه.

المستوى الجغرافي: ارتبطت أولى الإشارات إلى أثينا بكتب الجغرافيا والرحلات، بيد أنها في الوقت نفسه لم تقدم أي تحديدات يمكن أن تسهم في تحديد موقع أثينا، بل كان الحديث عنها يأتي عرضيًا، عند الحديث عن بحر الروم، ومع ذلك نعثر على بعض الإشارات الجغرافية المهمة، نفهم منها أنها إحدى المدن الكبرى للنصارى تقع ضمن بلاد الروم، يمر بها خليج متفرع عن المحيط، وهي مجاورة لرومية والقسطنطينية وبلاد الجلالقة، كما يمر بها البحر الرومي، وهي مما يلي خليج القسطنطينية غربًا حيث يمتد على سواحله بحر الروم، كما أن أثينا قبل سواحل رومية فهي إذا بين القسطنطينية ورومية. سيشير الإدريسي إلى أن مصب "خارست" على أثينية، التي توجد قرب مضيق جزيرة بلبونس، على البحر، وهي مدينة عامرة ومأهولة، وقد وردت إشارة أخرى في القرن السادس الهجري، تشير إلى أن أثينا توجد على خط الطول أربعون درجة وخمس عشرة دقيقة، وهي تقع شمال خليج بحر الروم تقع في الجنوب الغربي لمدينة برشان، وهي مدينة انقرضت على يد "الألمان".

الارتباط بمصر: من الملاحظ ارتباط أثينة بمصر على عدة مستويات، إذ ربطتها إشارة البتاني خلال القرن الرابع الهجري بالتقويم القبطي، مع ما يحمله الأمر من دلالات، إضافة إلى الإشارة لانتقال مجلس التعليم من أثينا إلى الإسكندرية المصرية. إضافة إلى هذا وردت خلال القرن الخامس الهجري إشارة الى الحروف في زمن أهل أثينية، وأنها وصلت لأربعة وعشرين حرفًا، مع الإشارة لجذورها المصرية، كما حضرت مصر كمجال أساسي للمقارنة مع بلاد أثينا.

وصفوة القول، أن ارتباط أثينا بالفلسفة والحكمة حاضر بقوة في المصادر العربية الإسلامية، بل يكاد يكون المستوى الأكثر طغيانًا وحضورًا، وهو أمر له ما يبرره في السياقات المعرفية والتاريخية للحضارة العربية الإسلامية، وكان هذا الحضور في جانب منه إسقاطًا لصراعات الحاضر على الماضي. في المقابل لا يبدو ارتباط أثينا باليونان قويًا جدًا، كما لا تقدم الإشارات الجغرافية ما يعين على تحديد أثينا وفق السردية الجغرافية الحالية، وفي مقابل الحضور الفكري لأثينا يجوز التساؤل عن سبب الغياب الجغرافي في المصادر الإسلامية. والأمر نفسه ينطبق على الحضور التاريخي، إذ تكاد تنحصر تاريخيًا فيما يرتبط بالإسكندر المقدوني، دون أي أحداث أخرى.

الإحالات المرجعية:

(١) أبو عبد الله البتاني، "**زيج الصابئ**"، ص٣٨ (بترقيم الشاملة آليا).
(2) PORTEN Bezalel, The Elephantine Papyri in English, Three millennia of cross-cultural continuity and change, EJ. BRILL, Leiden 1996, P.223.
(٣) أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة، "**الخراج وصناعة الكتابة**"، دار الرشيد للنشر، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص٤٤٨.
(٤) أبو الحسن المسعودي، "**أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت، ١٩٩٦، ص ٢٥٦.
(٥) أبو الحسن المسعودي، "**التنبيه والإشراف**"، تصحيح عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، الجزء الأول، ص ١٠٥.
(٦) أبو إسحاق الاصطخري الكرخي، "**المسالك والممالك**"، دار صادر بيروت، ٢٠٠٤، ص ٨.
(٧) نفسه، ص٦٨.
(٨) نفسه، ص ٦٩ و ٧٠.
(٩) أبو القاسم ابن حوقل، "**صورة الأرض**"، دار صادر، أفست، ليدن، بيروت، ١٩٣٨، المجلد الأول، ص ١٣.
(١٠) ابن حوقل، ص ١٩٠.
(١١) نفسه، ص ٢٠٢.
(١٢) مجهول، "**حدود العالم من المشرق الى المغرب**"، تحقيق السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة ٢٠٠٣، ص١٨٦.
(١٣) أبو الريحان البيروني، "**تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**"، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص٢١.
(١٤) نفسه، ص٧٤.
(١٥) نفسه، ص ١٢٠.
(١٦) نفسه، ص ٣١٠.
(١٧) أبو الفرج ابن النديم، "**الفهرست**"، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٧، ص ٣٠٤.
(١٨) الشريف الإدريسي، "**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**"، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، المجلد الثاني، ص ٧٩٧.
(١٩) نفسه، ص ٧٩٩.
(٢٠) أبو الوليد محمد ابن رشد الحفيد، "**تلخيص الخطابة**"، ص١٣٢ بترقيم الشاملة آليا.
(٢١) ابن رشد الحفيد، "م.س"، ص١٢٨ بترقيم الشاملة آليا.
(٢٢) أبو الفتح الشهرستاني، "**الملل والنحل**"، مؤسسة الحلبي، المجلد الثاني، ص ١٤١.
(٢٣) نفسه، ص١٤٦.
(٢٤) ابن بسام الشنتريني، "**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**"، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٨٩، المجلد السابع، ص ١٨٨.
(٢٥) جار الله الزمخشري، "**ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**"، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، المجلد الرابع، ص ٢٤.
(٢٦) سبط ابن الجوزي، "**مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**"، تحقيق وتعليق محمد بركات وكامل الخراط وعمار ريحاوي، دار الرسالة العالمية، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، المجلد الثاني، ص ٤٠٧.
(٢٧) ابن سعيد المغربي، "**الجغرافيا**"، ص٥٩ بترقيم الشاملة آليا.
(٢٨) نفسه، ص ٢٣٢.
(٢٩) جمال الدين القفطي، "**إخبار العلماء بأخبار الحكماء**"، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص٢١.
(٣٠) نفسه، ص ٢٤.
(٣١) نفسه، ص ٢٢.
(٣٢) نفسه، ص ٢٥
(٣٣) نفسه، ص ١٥٥.
(٣٤) نفسه، ص ٢٠١.
(٣٥) أبو العباس ابن أبي أُصَيْبِعَة، "**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**"، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٧٣.
(٣٦) نفسه، ص٧٦.
(٣٧) نفسه، ص٨٥.
(٣٨) نفسه، ص٨٧.
(٣٩) نفسه، ص ٨٧.
(٤٠) نفسه، ص ٨٠.
(٤١) نفسه، ص ٨٨.
(٤٢) نفسه، ص٨١.
(٤٣) نفسه، ص١٢٣.
(٤٤) شمس الدين القرطبي، "**الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام**"، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ص ٤٨٨.
(٤٥) أبو الفرج ابن العبري، "**تاريخ مختصر الدول**"، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢، المجلد الأول، ص ٢٣.
(٤٦) نفسه، ص٥١.
(٤٧) نفسه، ص ٧٠.
(٤٨) ابن فضل الله العمري، "**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**"، المجمع الثقافي أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، المجلد التاسع، ص ٢٨.
(٤٩) تقي الدين ابن تيمية، "**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**"، تحقيق علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، المجلد الأول، ص ٣٤٤
(٥٠) ابن تيمية، المجلد الرابع، ص ١٩٢.
(٥١) عبد الرحمان ابن خلدون، "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**"، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١، المجلد الثاني، ص ١٥٠.
(٥٢) نفسه، ص ١٩٧.
(٥٣) نفسه، ص ٢٢٢.
(٥٤) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، "**سلم الوصول إلى طبقات الفحول**"، تحقيق محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسكيا، تركيا، ٢٠١٠، المجلد الأول، ص ٣٣٧.
(٥٥) نفسه، ص ٢٨٠.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أسرة بني عمروس في الأندلس دراسة في تاريخهم السياسي (١٨٨–٢٧٣هـ/ ٨٠٣–٨٨٦م)



أ.د. قاسم عبد سعدون الحسيني
أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم التاريخ
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة ذي قار – جمهورية العراق

مُلَخّص

تُعَدّ دراسة البيوتات والأسر في الأندلس من الأمور التي تحتاج إلى مزيدًا من التقصي والبحث، وذلك لما تتمتع به هذه الشريحة من أهمية كبرى في تاريخ الأندلس، إذ ثمة ارتباط وثيق بين الأحداث والوقائع التأريخية التي شهدها تاريخ المسلمين في الأندلس وبين هذه البيوتات والأسر، لا سيما أن هذه البيوتات والأسر كانت طرفًا فاعلاً في الميدان السياسي إذ كثيرًا ما أُسندت بعض الوظائف العسكرية لأبناء هذه الأسر، وتبوؤوا مكانة مهمة في هذا الجانب حتى أصبحت هذه الوظائف تنتقل جيل بعد جيل فتوارثها الأبناء عن الآباء وكذا الأحفاد عن الأجداد لقمع الفتن والاضطرابات السياسية التي عصفت بحكم المسلمين في الأندلس، وقد جاءت هذه الدراسة لتكشف النقاب عن أسرة أندلسية، مهمة كان لها دور كبير في صنع الأحداث والوقائع التاريخية التي حدثت في بلاد الأندلس لا سيما حقبة الدراسة (١٨٨ – ٢٧٣هـ/ ٨٠٣ –٨٨٦م) إلا وهي أسرة بني عمروس. وقد تناولت الدراسة مجموعة من النقاط الرئيسة أبرزها: نسب بني عمروس، ودور عمروس بن يوسف الوشقي في مؤامرة الحفرة، ناهيك عن وضعهم السياسي في ظل حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨–٢٧٣هـ/ ٨٥٢–٨٨٦م)، وخاتمة تجسدت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وقد اتبع الباحث المنهج التاريخي القائم على ربط الأحداث والوقائع التاريخية، وتحليلها بغية الوصول إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها .

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٤	أبريل	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٨	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الأندلس؛ بنو عمروس؛ الأمير الحكم الربضي؛ مؤامرة الحفرة؛ طليطلة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.371449 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

قاسم عبد سعدون الحسيني. "أسرة بني عمروس في الأندلس: دراسة في تاريخهم السياسي (١٨٨ – ٢٧٣هـ/ ٨٠٣ – ٨٨٦م)".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ٧٠ – ٨٢.

Corresponding author: Ukm_2012@yahoo.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ أسرة بنو عمروس في الأندلس واحدة من الأسر المهمة التي نالت حظوة ومكانة عالية خلال عصر الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦هـ/ ٧٥٥-٩٢٨م)، إذ برز الدور السياسي لهذهِ الأسرة، على إثر الأحداث والمتغيرات السياسية التي رافقت هذهِ الحقبة، ونال عمروس بن يوسف الوشقي مكانة عالية عند الأمير الحكم بن هشام (الربضي) (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م)، فمنحه ثقة كبيرة ودعاه لخدمته وأختاره لتولي مناصب سياسية وعسكرية أستطاع فيها عمروس أنَّ يُثبت ولاءه وإخلاصه للأمير الحكم، فبعد أنَّ ثار سكان الثغر الأعلى بغية الإطاحة بالأمير الحكم الربضي أنتدبَ إليهم عمروس بن يوسف وأخمد ثورتهم وأطاح بزعمائهم، فسيطر على مدن الثغر وأخضعها لطاعة الأمير الحكم فارتفعت مكانة هذهِ الأسرة وعلا شأنها لا سيما بعد الدور الكبير الذي قام به عمروس بن يوسف في مؤامرة الحفرة سنة (١٨١هـ/٧٩٧م). لكن هذا الإخلاص والوفاء لم يستمر إلى حتى النهاية، فبعد موت عمروس بن يوسف تغيرت الأوضاع السياسية، وثار بنو عمروس سنة (٢٥٦هـ/٨٦٩م)، على حكومة الأمير محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)، وقاموا بتشجيع الثوار وقدموا كل ما من شأنه أنّ ينهض بثورتهم من دعمٍ مادي أو معنوي يؤدي بالمحصلة النهائية لإضعاف حكومة قرطبة والإطاحة بالأمير محمد، لذلك قام الأمير بأسر أفراد من بنو عمروس وإعدامهم الأمر الذي أجبر بنو عمروس الاستعانة بالملك غرسية بن ونقة للوقوف بوجه الأمير محمد. أنتهى الدور السياسي لأسرة بنو عمروس سنة (٢٧٣هـ/٨٨٦م)، إذ لم يكن لهذهِ الأسرة أي دور في رسم المعالم والمتغيرات السياسية التي مُنيت بها بلاد الأندلس.

أولاً: النسب

ينتسب بنو عمروس إلى أسرة من المولدين في الأندلس وجدهم الأعلى هو عمروس بن يوسف الوشقي، وردَ أسمه في الروايات الإسبانية ب Amorroz، كانَ ذا وجاهة وبأس برز في منطقة الثغر الأعلى[١]، وأظهر طاعة للأمير الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م)[٢]. تمتعت أسرة بني عمروس بشهرة واسعة إذ كانَ لهذهِ الأسرة دور كبير في الأحداث السياسية التي رافقت حقبة الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦هـ/ ٧٥٥-٩٢٨م)، لاسيما الأحداث التي رافقت حكم الأمير الحكم الربضي، ونال عمروس ثقة الحكم ودعاه إلى خدمته وأختاره للقيادة فعينه واليًا على طلبيرة[٣]، ثم نقله إلى ولاية طليطلة[٤]، لإخماد ثورات المولدين التي اندلعت سنة (١٨٨هـ/٨٠٣م) في هذهِ المدينة[٥]، ثم نقله إلى مدينة سرقسطة[٦]، فأقام بها وكانت ولايته عشر سنين إلا أربعين يومًا غزا فيها مدينة بنبلونه[٧]، وأوقع بأهلها فاجتمعت حشود النصارى عليه وتحارب الطرفان فهُزم عمروس وتحصن بحصن تطيلة[٨].

يُعَدّ عمروس بن يوسف هو المؤسس الحقيقي لهذهِ الأسرة، وقد تفرعت منها أسرة بني الطويل التي تعود في نسبها إلى محمد بن عبد الملك الطويل[٩]، وهو ابن عم عمروس بن يوسف، وكان معه في خدمة عيشون الإعرابي ومن هنا يتبين أنَّ أسرة بني الطويل ورثت أسرة بني عمروس في حكم مدينة وشقة[١٠]، بسبب نزاع عائلي حدث بين أبناء العم[١١]، الأمر الذي مكن أسرة بني الطويل بأنّ يكون لها دور كبير في توجيه الأحداث السياسية في بلاد الأندلس بعد انتهاء الدور السياسي لأسرة بني عمروس[١٢].

كان عمروس بن يوسف غُلامًا لعيشون بن سليمان الاعرابي[١٣]، يعمل في خدمته وكان عيشون محاربًا عنيدًا لقوات الإفرنج أشتبك معهم في معارك عنيفة في جرندة أو جيرونة[١٤]، تم أسره في إحدى المعارك وجيءَ بهِ إلى الملك قارله فحبسه حبسًا شديدًا، وكان عمروس يأتي لزيارته بين حين وآخر، فرمدَ عيشون وعمل سترًا لرمدهِ وأُسدل ثوبًا على وجههِ، وفي كل يوم يأتيهِ السجان فينظر إليهِ وهو على تلك الحالة. وبغية الخروج من سجنه لـجأ عيشون إلى الحيلة وتقدم بعرضًا إلى عمروس قـال فيه: ((أنَّ هذا الستر الذي أُغطي وجهي بهِ فرصة فهل لك أنّ تُساعدني وتبيعني نفسك وتجلس مجلسي وتُسدل الثوب على وجهك وتلبس بثيابي وألبس ثيابك وأخرج كأني أنت))، فوافق عمروس على هذا العرض وأجابه لذلك، ولما سنحت لهم الفرصة تبادلوا الثياب وجلس عمروس بدلاً عن عيشون دون أنّ

ينتبه الحرس لهم، وأُسدل عمروس عمامة عيشون وستره وخرج عيشون دون أنَّ يُكشف أمره، وأنتهى الأمر بهِ إلى مدينة جرندة، وكان السجان يدخل إلى السجن فينظر الى الجالس المُدل الستر عليه فيظنهُ عيشونًا، ولم يستمر الأمر طويلاً حتى كُشف أمر عمروس وبلغ خبره قارله فبعث على السجان وكشف عن عمروس وأمر بأحضارهِ والمثول بين يديه، فسأله قارله عن سبب القيام بهذا الأمر وأنَّ العذاب والقتل سيكون مصيرك، فأجابه لقد آثرته على نفسي فأعجب به قارله وقال: ((أنَّ هذا الوفاء وما مثله يُقتل)) فأمر بإطلاق سراحه وإخلاء سبيله، ولم يكتفِ بذلك بل كساه وحملهُ فأنطلق صوب عيشون، فأحسنَ استقباله وأكرمه وولاه على برشلونة[١٥] وجرندة[١٦].

تضاربت الروايات التاريخية بتحديد سنة وفاة عمروس بن يوسف فيذكر أن وفاته كانت في مدينة تطيلة سنة (١٩٣هـ/٨٠٨م)، الأمر الذي يستبعده الباحث، وقيل إنه مات في سرقسطة سنة (١٩٨هـ/٨١٣م)[١٧]، ويبدو أنَّ هذا التاريخ هو أقرب الروايات التاريخية وأوثقها لتحديد سنة وفاة عمروس بن يوسف، ذلك لأن بعد سنة (١٩٨هـ/٨١٣م)، لم نجد لعمروس أي دور في الأحداث التاريخية التي عصفت بالأمارة الأموية في الأندلس، لكن ظل بنو عمروس مصدر تهديدًا وقلقًا وعنصرًا فاعلاً في صنع الأحداث والوقائع التأريخية التي ألمت بالإمارة الأموية في الأندلس.

ثانيًا: ثورات المولدين في طليطلة (قراءة في الأسباب والدوافع)

أتسم عصر الإمارة الأموية في الأندلس، بكثرة النزاعات وقيام الثورات والصراع بين المسلمين ونصارى إسبانيا (المولدين والمستعربين)، وكانَ دور المولدين في هذا الصراع هو الأبرز حيث كانت حركاتهم السياسية مستمرة، الأمر الذي كبد الإمارة الأموية الجهد الكبير لإنهاء حركاتهم السياسية والقضاء على ثوراتهم كلها. ثار المولدون في الثغور الأندلسية[١٨]، لاسيما في منطقة الثغر الأعلى موضع الدراسة وميدانها البحثي، إذ لم تأتِ هذهِ الثورات من فراغٍ وإنما ثمة عوامل ساعدت على قيامها أبرزها:

١- إجماع سكان هذهِ الثغور على كرههم للعرب، ولعلَّ ذلك يعود لانفراد العرب بالسكن بالمناطق السهلية الخصبة والقريبة من الأنهار، وتخصيص المناطق الشمالية الوعرة والباردة لبقية فئات المجتمع الأندلسي[١٩]، ولعلَّ هذا التقسيم المجحف كانَ عاملاً في ازدياد الشقاق وتفاقمه بين العرب والبربر.

وقد عارض بعض الباحثين المحدثين هذا الرأي ونفى أنَّ يكون العرب غير عادلين في قسمتهم للأرض، وأنهم أعطوا البربر المناطق الجبلية القاحلة، وخصوا أنفسهم بالسهول الخصبة، ولا يمكن العثور في المصادر على ما يؤيد هذا الاتهام الذي لا أساس له من الصحة. فقد كان البربر هم الأغلبية الساحقة في جيش الفتح، فضلاً أن الكثير منهم عبروا إلى الأندلس بعد سماعهم بنبأ انتصار المسلمين على القوط[٢٠].

٢- ملائمة الأوضاع الجغرافية في الثغور للقيام بثورات وتمردات، وذلك لبعد الثغور عن قرطبة عاصمة الحكم الإسلامي في الأندلس، فضلاً عن قربها من حدود الممالك النصرانية الأمر الذي ساعد الثوار على الهرب واللجوء الى تلك الممالك.

٣- مناعة الثغور وقوة تحصيناتها العسكرية أعطى الطمأنينة لدى الثوار لا سيما المولدين وشجعهم للقيام بثورات متعددة ضد الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس[٢١].

هذهِ العوامل مكنت المولدين للقيام بثورات وتمردات كثيرة تعود بداياتها منذ زمن الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨- ١٧١هـ/٧٥٥-٧٨٧م)[٢٢]، حيث كانَت منطقة الثغر الأعلى مأوى للثائرين عليه وظل هذا الحال حتى نهاية عصر الأمارة الأموية (٣١٦هـ/٩٢٨م)[٢٣].

ما أنَّ تسلم الأمير الحكم الربضي مقاليد السلطة والحُكم في الأندلس إذ سرعان ما اندلعت ثورات وتمردات تزامنت مع مطلع ولايته، إذ واجه الأمير الحكم عداءً ورفضًا من مولدي طليطلة الذين يأنفون سلطة الحكم ويبغضونه، لذلك سعوا للإطاحة به، والتخلص من حكمه. فاندلعت ثورات المولدين متوقدة بعداءٍ بينهم وبين

العرب وأنهم لم ينسوا مجد آباءهم وأجدادهم، وأنَّ طليطلة كانت مدينتهم وهي دار ملك القوط ومستقر الحكم فيها، لذا فلا غرابة أن يذكرهم ابن القوطية[٢٤] بالقول: ((... أنهم كانوا من الإثارة والطغيان والاستخفاف بالعمال مالم تبلغه قط رعية من ولاتها)). لذلك كثُرت الثورات فيها وكانت سببًا في عدم استقرارها، وبسبب هذهِ الثورات والتمردات نالت المدينة شهرتها الواسعة فُوصفَ سكانها بأنهم أهل شقاق ونفاق[٢٥].

ثالثًا: عمروس بن يوسف ودوره في أحداث واقعة الحفرة سنة (١٨١ه/٧٩٧م)

ثار سكان طليطلة سنة (١٨١ه/٧٩٧م)، على الأمير الحكم الربضي وبايعوا عبيدة بن حميد[٢٦]، فتزعم الثورة ودعا أهل طليطلة من مولدين ومستعربين وبربر لتأييده والوقوف معه[٢٧]، وكان في المدينة آنذاك شاعرًا مولدي الأصل يُدعى غربيب بن عبد الله الطليطلي[٢٨]، أستعان عبيدة بن حميد بهِ للوقوف معه ومساندته، وبالفعل استطاع من استلهام قلوب أهل طليطلة، وكسب ودهم حيث مكنته بلاغته وشهرته من استلهام مشاعر الثوار وتأجيج الحماسة عندهم فأستجاب له، أهل طليطلة وساندوا ثورة عبيدة بن حميد، الأمر الذي يدل على مكانة غربيب في المجتمع الطليطلي وثقة الناس ومدى تأثرهم بهِ. وقد وصف المستشرق سيمونيت[٢٩] هذا الشاعر بالقول: ((كانَ على رأس الوطنيين الطليطليين كمرشد وزعيم شاعر من أصل أسباني يُدعى غربيب عُرف برجولته وعلمه، أحترمه أصحابه كما أخصامه [خصومه] لفضائله ومكارمه، وكانَ لما له من شعبية بين أهل المدينة يثير فيهم دومًا بقصائد وأغانيه الروح الوطنية)). لذلك حريٌ بنا القول أنَّ المستشرق سيمونيت لم يستطع مغادرة النزعة القومية الإسبانية فهو دائمًا يلجأ إلى تمجيد كل ما يمت بصلة لإسبانيا، محاولاً الانتقاص من حكم المسلمين في بلاد الأندلس.

تحمس أهل طليطلة لدعوة غربيب فارتفعت الهمم عندهم وأعلنوا ثورتهم في طليطلة سنة (١٨١هـ/٧٩٧م)، معتمدين على حصانة مدينتهم وارتفاع أسوارها[٣٠]، الأمر الذي زاد مخاوف الأمير الحكم وأراد أنَّ يقضي على هذهِ الثورة قبل أنَّ يستفحل أمرها فيصعب القضاء عليها، فأوكل هذهِ المهمة إلى عمروس بن يوسف[٣١]، وبعث له كتابًا قال فيه: ((أنَّهُ لم يقم لي أمل في الانتصاف منهم إلا على يدك إذ رجا ميل أهل طليطلة إليهِ للدعوة التي هو منها فوافقه على ذلك))، وكتب إلى أهلها كتابًا يخدعهم فيه حيث قال: ((أني اخترت لكم رجلاً من أهلكم، وأعفيتكم من موالينا، ومن يتصرف في عمالتنا، وحدَ لعمروس حدودًا رجا بها بلوغ أمله فيهم، فكانَ مما حدَّ له أنَّهُ قال: إذا أنسَ أهل طليطلة إليك من بني أُمية ومن كل من عرفتهم، وأنك على كراهة لجميعهم...))[٣٢]، وفي رواية النويري[٣٣] ذكـــر فيها ((... وأعفيتكم ممن تكرهون ومن عمالنا ومَوالينا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم)). من البديهي أنَّ هذا الاختيار لم يأتِ اعتباطًا، بل كانَ محسوبًا إذ مما لا شك فيه أنَّ عمروس مولدي الأصل ينحدر من أصل إسباني ومن سكنة مناطق الثغور الأمر الذي جعل أهل طليطلة يستحسنونه فيأنسون إليهِ ويتعاونون معهُ.

أطلق الأمير الحكم يد عمروس بن يوسف وسمح له بالقضاء على الثورة، واستئصال نزعة التمرد عند أهل طليطلة فأشتبك عمروس مع الثوار بمعاركٍ طاحنة عجزَ فيها عمروس من تحقيق انتصارًا يُذكر لذلك لجأ إلى الحيلة والمكر فأستمال إليهِ بعض وجهاء المدينة لاسيما بني مخشي[٣٤]، وقد وعدهم بالهدايا والمِنَح والهبات من قبل الأمير الحكم الربضي[٣٥]، لذلك عملوا على اغتيال الثائر عبيدة بن حميد وقطعوا رأسه وجاءوا به إلى عمروس بن يوسف المُعسكر مع رجاله في طلبيرة، فأستقبلهم عمروس ورحب بهم وفرح بذلك فبعث عمروس رأس عبيدة بن حميد، وبعض رؤوس أتباعه إلى الأمير الحكم، الأمر الذي أدخل الفرح والسرور عند الأمير الحكم[٣٦]. وبمقتل عبيدة وأتباعه خمدت الثورة وأذعنت طليطلة لسلطان الحكم الربضي، وأصبحت المدينة تنعم بهدوءٍ وسكينة لم يطل أمده[٣٧].

تبعًا لما تقدم يبقى التساؤل المطروح، هل انتهت مهمة عمروس بن يوسف عند هذا الحد، وهل أستمر هدوء طليطلة واستقرارها السياسي إلى أمدٍ غير محدود. للإجابة عن ذلك نقول إن الروايات التاريخية أكدت أنَّ

مهمة عمروس بن يوسف لم تنتهِ عند هذا الحد، بل واصل إخلاصه ووفاءه للأمير الحكم الربضي، وأخذ يُعينه على تدبير المكائد فعملَ على خداع أهل طليطلة للإطاحة بهم، لذلك عمدَ للتقرب، وإظهار الود لهم عن طريق الفتك بحلفائهِ بني مخشي فألبَ عليهم البربر وحرضهم للنيل منهم، فحملوا عليهم وفتكوا بهم وكسرَ شوكتهم فأنهى دورهم، وبذلك يكون قد تخلص من بني مخشي فأستتب الأمر له في طليطلة[٣٨].

بطبيعة الحال وبعد هذهِ التطورات السياسية في طليطلة دخل عمروس المدينة بموافقة أهلها كواليًا عليهم يُدير أمورها بحكمة وكياسة حتى أطمأن إليهِ أهل طليطلة، وتعاملوا معه واحسنواً إليه، وما كان هذا يتُم إلا بعد أنَّ عمل عمروس بكتاب الأمير الحكم الذي أوصاه فيهِ بالتعامل مع أهل طليطلة بمنتهى الحذر والعمل على خداعهم ولأجل استلهام قلوبهم أختار عمروس السكن خارج أسوار المدينة فبنى لأقامته هو وجنده قصرًا عند مدخل المدينة[٣٩]، وقد بعث الأمير الحكم كتابًا لعمروس مشددًا عليه أنَّ يأخذ به ويعمل على تنفيذه حيث قال فيهِ: ((إذا أنسَ أهل طليطلة إليك، وأحلوك محل واحد منهم بإظهارك لهم في الباطن أنهم أحب إليك من بني أمية ومن كل من عرفتهم، وأنك على كراهة لجميعهم أن تقول لهم أني رأيت هذا الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان، إنما هو بمداخلة الحشم لكم ولبنيكم ونسائكم فكنت أرى أنَّ أبني قصبة في جانب المدينة يسكنها الحشم فيكونون بمعزلٍ عنكم، وتسلمون من شرهم، فأجابوا إلى أنْ تكون القصبة في وسط المدينة، ولا تكون في جانب، فاختاروا الجبل المعروف بجبل عمروس))[٤٠].

لم تتوقف مكائد الأمير الحكم الربضي عند هذا الأمر، بل لجأ إلى مكيدة أخرى هدفَ من وراءها الخلاص من المناوئين لحكمه فطلب من احد قواد الثغر الأعلى أرسال استغاثة إلى قرطبة بينَّ فيها مهاجمة النصارى للمنطقة[٤١]، فلما تم له ذلك سيرَّ الأمير الحكم حملة عسكرية بزعامة أبنه عبد الرحمن مع ثلاثة من وزرائهِ، ودفع معهم رسالة أرسلها إلى عمروس بن يوسف، فلما وصلَ الجيش إلى مدينة طليطلة وأستقر في موضع يُعرف بالجيارين[٤٢]، ووفـــــقًا للـــخـــطة المُـــعدة جاء الخبر بـــأنَّ العدو انسحب[٤٣]، وهنا جاء دور عمروس في تكملة المؤامرة فأشار على أعيان طليطلة بأنهُ من غير اللائق أنَّ يعود الأمير (عبد الرحمن)، دون أنَّ يستقبله أهل طليطلة وأعيانها ويُسلموا عليه، ويعملوا له وليمة تُقام في مدينتهم وأن يحسنوا إليه لتكون علاقتهم وثيقة بهِ[٤٤]، وعرضوا على الأمير هذهِ الدعوة فتظاهر برفضها وبعد الإلحاح الشديد قبلها، وللرد على دعوتهم إقام وليمة لهم، وأُشيع أيضًا أنهُ سيخلع عليهم ويُصلهم فدعا جميع وجهاء طليطلة، وقد رتبَ عمروس الأمور كُلها ومنها طريقة دخولهم ، حيث أدخلهم من بابٍ يقع في طرف القصبة وكانت دوابهم تُرسل إلى باب يقع في الطرف الآخر على أساس يكون الخروج منه منعًا للزحام[٤٥]، وكان كلما دخل واحدًا منهم ضربت عُنقه، إذ أنَّ جنودًا اصطفوا على جانب حفرة يستقبلون جماعات الداخلين بضرب أعناقهم وإلقاء جثثهم في الحفرة الأمر الذي لم ينتبه إليهِ أحد، وذلك لأنَّ صوت قرع الطبول والمزامير الصاخبة يحول دون سماع استغاثتهم، إذ حال هذا الأمر كشف المؤامرة إلى أنَّ تعالئ النهار[٤٦]. وفي رواية أنَّ حكيمًا من أهل طليطلة لما أتئ الباب الذي خُصصَ للدخول، ولم يلق في أقباله أحد خارجًا، وقد مضى الوقت وتعالى النهار فقال: ((لَمَنْ حول الباب يا أصحابنا، وأين أصحابنا الذين دخلوا من غدوة؟ فقيل له على الباب الثاني يخرجون قال لهم: لم ألق أحد منهم منقلبًا، ثم رفع بصره فنظر إلى بخار الدم فقال: يا أهل طليطلة السيف والله يعمل فيكم هذا بخار الدم لا دخان المطبخة))[٤٧]، فكانَ قوله سبب افتراق الناس وبقاء من بقيَّ منهم.

لقد أجرى عمروس ين يوسف مذبحة كبيرة قُتلَ فيها عدد كبير من وجهاء طليطلة، وماتزال هذهِ المذبحة معروفة في مصادر تاريخ الأندلس باسم مذبحة حفرة عمروس وتؤرخ بسنة (١٨١هـ/٧٩٧م)، وقد اختلفت المصادر التاريخية بتحديد أعداد من قتلوا في هذهِ المذبحة المروعة حيث ذكر ابن القوطية[٤٨] أنَّ عدد من قُتل في مذبحة الحفرة هو خمسة آلاف وثلاثمائة ونيف، يُناغمه ابن الخطيب[٤٩] ويُصدقه القول ذاكرًا أنَّ عدد من قُتل في هذهِ المذبحة هو خمسة آلاف رجل، أما ابن الأثير فذكر أنَّ عدد القتلى في هذهِ المذبحة بلغ سبعمائة

رجل الأمر الذي يتطابق مع الرقم الذي ذكره ابن عذاري[٥٠]. أما مؤلف مجهول[٥١] فيختلف معهم ذاكرًا هذهِ المذبحة بالقول: ((... وفي سنة ١٩١هـ، أوقع الحكم بأهل طليطلة، وصنع لهم وليمة وأدخلهم قصره، عشرة بعد عشرة وضرب رقابهم حتى ملأ بهم حفرة عظيمة كانت في رحبة القصر، قُتل منهم سبعمائة رجل وقيل ثلاثة آلاف، هذا والله بخار الدم لا بخار الطعام، يا أهل طليطلة قُتل والله أشرافكم وخياركم وفقهاؤكم)).

تماشيًا مع ما ذُكر أن مؤلف مجهول أرخَ تاريخ هذهِ المذبحة في سنة (١٩١هـ/٨٠٦م)، الأمر الذي لا يُجانب الحقيقة لأنَّ أغلب الروايات التاريخية تتفق أنْ تاريخ هذهِ المذبحة كان في سنة (١٨١هـ/٧٩٧م). كذلك لا مناص من القول أنَّ هذهِ الأرقام مبالغ فيها، وأنَّ هذهِ المبالغة منشأها هول المذبحة وعظمة أحداثها. كانت هذهِ المذبحة ضربة موجعة لمدينة طليطلة، وأهوالها أشد على سكانها، إذ جردتهم من زعاماتها وأعيانها وأضعفت شأنها[٥٢]، لذلك فمن الطبيعي أن تنعكس هذهِ الأحداث سلبًا على الحكم الأموي في الأندلس، وأن تُسيء لسلطة البلاد، وتُحدث فجوة عميقة بين الحاكم والمحكوم الأمر الذي كان له انعكاسات سيئة على الوضع السياسي في بلاد الأندلس.

رابعًا: المتغيرات السياسية في الثغر الأعلى الأندلسي (١٨١- ٢٠٢هـ/ ٧٩٧-٨١٧م)

أنَّ الهدوء والاستقرار السياسي الذي تمتعت به مدينة طليطلة أثر مؤامرة الحفرة، وما ترتب عليها من متغيرات سياسية، لم يكن هدوءًا طويلاً إذ سرعان ما عادَ سكان طليطلة للثورة والعصيان ورفضوا سياسة الأمير الحكم الربضي حيث كانت مدن الثغر الأعلى وفي مقدمته مدينة سرقسطة تموج بعوامل الفتنة وعدم الاستقرار، حيث ثار شخص يدعى بهلول بن مرزوق المعروف بابي الحجاج[٥٣] وملكَ سرقسطة سنة (١٨١هـ/٧٩٧م)[٥٤]، ساندهُ الثائر عبد الله البلنسي[٥٥]، في تأليب أهل سرقسطة على الأمير الحكم الربضي وشحذ همم الناس للوقوف بوجه سلطة الأمير للتخلص من حكمه، لذلك ازدادت مخاوف الأمير الحكم وسارع بتكليف عمروس بن يوسف وأسند إليه مهمة القضاء على هذهِ الثورة معتبرها تمردًا على الحكومة وخروجًا على سلطة الأمير، وحاثًا إياه على استتباب الأمن والاستقرار في سرقسطة، وقد نجح عمروس في مهمتهِ بعد أن أستمالَ أهل سرقسطة وذلك في سنة (١٨٣ه/٧٩٩م)، فانهزم بهلول بن مرزوق وهرب إلى موضع يعرف بالغار قرب بليارش[٥٦] حيث قُتلَ على يد شخص يُدعى خلف بن راشد[٥٧] سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م، وبذلك نجح عمروس في إنهاء هذا الخطر ودخل مدينة سرقسطة واتصلت ولايته بها (١٨٨-١٩٨هـ/٨٠٤-٨١٤م)، وعمل على تنظيم أمورها وإعادة الأمن والاستقرار إليها بعد أنَّ تمكن من القضاء على الفتن والتمردات الداخلية التي طال أمدها.[٥٨]

لم تتوقف جهود عمروس بن يوسف أبان ولايته على مدينة سرقسطة عند هذا الحد، بل قاد حملات عسكرية متكررة على إمارة بنبلونة المتاخمة لمنطقة الثغر الأعلى، فقد غزاها وأوقع باهلها، ثم غزاها مرة ثانية غير أنَّ جيوش النصارى احتشدت ضده وخرجت عليهِ فخرج منهزمًا ولجأ إلى حصن تطيلة فأمتنع بهِ وقام بتعمير تطيلة وتحصينها، وأسند حكمها إلى ولده يوسف[٥٩].

لم تكن الأحداث سابقة الذكر كفيلة في استتباب الأمن والاستقرار في منطقة الثغر الأعلى، إذ سرعان ما قام بنو قسي[٦٠] بتحريض نصارى بنبلونة فدعموهم ووقفوا معهم لغزو تطيلة يساعدهم حلفائهم الفرنجة على ذلك سنة (١٨٧هـ/٨٠٣م)، وبهذهِ المعونة تمكن نصارى بنبلونة من دخول المدينة عنوة وأسر الوالي يوسف بن عمروس، الذي سُجنَ بموضع يُعرف بصخرة قيس[٦١]، بإراضي بنبلونة وعندما بلغ عمروس ذلك بادر بإرسال حملة عسكرية كبرى بقيادة ابن عمه شبريط والي مدينة وشقة فتمكن من هزيمة نصارى بنبلونة وحلفائهم لا سيما بني قسي وأستولى على صخرة قيس وحرر يوسف بن عمروس من الأسرِ[٦٢].

لم تقتصر خدمات عمروس بن يوسف المقدمة للأمير الحكم الربضي على ما ذُكر، بل أنَّهُ شارك أيضًا في الحملات العسكرية التي سيرها الحكم الربضي ضد بلاد الفرنج بعد أنّ قام الفرنج بقيادة لويس التقي (١٩٨-٢٢٦ه/٨١٣-٨٤٠م)[٦٣]، بمهاجمة منطقة الثغر

الأعلى الأندلسي وحاصرَ مدينة طرطوشة[٦٤]، سنة (١٩٣هـ/٨٠٩م)، فبعث الأمير الحكم جيشًا بقيادة ابنه عبد الرحمن، وأنظمت إليه قوات عمروس بن يوسف والي سرقسطة، وعبدون والي طرطوشة فنشبت بين المسلمين والفرنج معارك عنيفة انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ مدينة طرطوشة من براثن الفرنج سنة (١٩٣هـ/٨٠٩م)[٦٥].

تناولت أقلام الباحثين شذرات من شخصية عمروس بن يوسف، وقد قدحَ أحد الباحثين[٦٦] بعمروس بن يوسف وذكر أنَّهُ لم يكن مخلصًا لحكومة الأمير الحكم الربضي، وأنَّهُ قام بمثل هذهِ الأعمال ساعيًا كسب ود الأمير فقط ليتسنى له تقوية مركزه وجمع أنصاره وإعلان العصيان على حكومة قرطبة شأنهُ شأن بقية الأسر المتنفذة لا سيما أنهُ ينحدر من أسرة تعود أصولها إلى المولدين، وأنَّ هذهِ الأسر كانت تميل دائمًا إلى الانفصال والاستقلال عن حكم المسلمين في الأندلس. على خلاف ذلك لا يتفق الباحث مع هذا الرأي، لأنَّ عمروس بن يوسف كان مخلصًا فعلاً للأمير الحكم الربضي، وسعى لكسب ودهِ لترتفع منزلته عند الأمير لينال ثقته، لذلك قويَّ سلطان عمروس وظهر على الساحة السياسية لا سيما أنَّ الأمير منحه صلاحيات استثنائية مكنته من إنهاء الخصوم، غير أنَّ عمروس يبدو أنَّهُ أستغل مكانته عند الأمير الحكم، مستفيدًا من الأوضاع السياسية لاسيما التحديات الداخلية والخارجية التي عصفت بالإمارة الأموية فأراد الانفصال عن حكومة قرطبة والاستقلال بمنطقة الثغر الأعلى.

أستغلَ عمروس بن يوسف انشغال الأمير الحكم الربضي بالقضاء على تهديد الممالك النصرانية في إلبة والقلاع[٦٧]، وإنهاء خطرها على الأراضي الإسلامية إذ قام الأمير بحملة عسكرية قادها بنفسه، وتوغل في إراضي هذهِ المناطق سنة (١٩٤هـ/٨١٠م)، وأشتبك مع النصارى بمعارك عسكرية هُزم بها النصارى هزائم كبرى بعد أن قُتلوا وسُبيَّ منهم جموعًا كبيرة[٦٨]. وبما لا يدع مجالاً للشك أنَّ عمروس أستغل الظروف السياسية التي تمر بها حكومة الأمير الحكم الربضي، فأعلنَّ تمرده على سلطة الأمير سنة (١٩٤هـ/٨١٠م)، شاقًا عصا الطاعة مُعلنًا انفصاله عنه وقيادته للثغر الأعلى، يُسانده ابن عمه شبريط والي وشقة وشاركه في هذا التمرد وأعلن رفضه لحكومة الأمير الحكم الربضي[٦٩].

إزاء تطور الأحداث السياسية وضعف الجبهة الداخلية، وتزايد خطر عمروس وشبريط وانفصال الثغر الأعلى عن حكومة قرطبة، جهز الأمير الحكم الربضي حملة عسكرية كبرى مهمتها القضاء على تمرد عمروس وشبريط وإنهاء خطرهما وأسندت قيادة الحملة الى الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث[٧٠]، الذي تمكن من استمالة عمروس وإقناعهِ بالتخلي عن فكرته وإنهاء التمرد والمجيء معه إلى قرطبة ومصالحة الأمير الحكم الربضي وبالفعل تمكن الحاجب عبد الكريم من إقناع عمروس، والمجيء معه إلى قرطبة ولقاء الأمير الحكم الربضي الذي منح عمروس ولاية مدن: سرقسطة، تطيلة ووشقة، ورجع عمروس إلى الثغر الأعلى واستقر به مُعلنًا طاعته للأمير إلى أنْ مات سنة (١٩٨هـ/٨١٤م)[٧١].

أما شبريط فأنهُ واصل تمرده وعصيانه على حكومة قرطبة رافعًا راية العصيان ضد الأمير الحكم الربضي رافضًا إجراءاته وأساليبه في قمع ثورة الربض[٧٢]، وبطشهِ بالثوار إذ هاله ما سمعه من قمعٍ وقتل وصلب لأهالي حي الربض من قبل الأمير الحكم الربضي، حيث عبرَ شبريط عن رأيهِ وقال: ((أهي غنمٌ؟ لو كانَ لها راعٍ كأني بهم قد مزقوا))[٧٣]، فأمر الحكم بتعقبه وملاحقته فأنتهى الأمر به بإلقاء القبض عليهِ وسجنه ثم قتله في سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م[٧٤].

بعد انشقاق عمروس بن يوسف وتمرده على حكومة الأمير الحكم الربضي، أخذ الحكم يشك في نوايا هذهِ الأسرة، وأنزل السيف على زعمائها لأدنى ريبة وشبهة تُهدد حكمه، فأستكان زعماء هذهِ الأسرة وأعلنوا الابتعاد عن السياسة مؤقتًا ولم يتدخلوا في شؤون الإمارة. لذلك لم يكن لهذهِ الأسرة أي دور في أحداث الأندلس إلا بعد مجيء الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)[٧٥]، الذي تميز عصره بكثرة الثورات والتمردات في منطقة الثغر الأعلى.

خامسًا: بنو عمروس في ظل حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م).

ثار بني عمروس سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م، على حكومة الأمير محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)[٧٦]، فقاموا بتشجيع الثوار وقدموا كل ما من شأنه أنّ ينهض بثورتهم من دعمٍ مادي أو معنوي يؤدي بالمحصلة النهائية لإضعاف حكومة قرطبة، فبعد أن قام الأمير محمد بأسر بعض أفراد أسرة بنو عمروس وإعدامهم ومنهم فرتون بن عمروس الذي بقيَّ أسيرًا في قرطبة عشرين سنة[٧٧]، أستنجدَ عمروس بن عمر بقوات الملك غرسية بن ونقة[٧٨]، لكي يساعده للوقوف بوجه قوات الأمير محمد ويسترد حكمهُ على مدينة وشقه، التي كانت قد ضاعت منه[٧٩].

سادسًا: ثورة عمروس بن عمر بن عمروس في الثغر الأعلى

يُعَدّ عمروس بن عمر أحد زعماء الثغر الأعلى، غدر بموسى بن غلند عامل وشقة فقتله وانتزعها منه سنة (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م). وعمروس هذا هو حفيد عمروس بن يوسف، ونتيجة لاضطراب منطقة الثغر الأعلى وما شهدته من متغيرات سياسية متمثلة بكثرة الفتن والتمردات والثورات، سيرَّ عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث الجند لمقاتلة الثائر عمروس بن عمر، فلما انتهت إلى وشقة فر عنها عمروس، وأسر بها حفيده لب بن زكريا بن عمروس[٨٠]، وقُتل وعُلق رأسه على سور المدينة[٨١]. أرسل الأمير محمد حملة عسكرية كبرى سنة (٢٥٧هـ/٨٧٠م)، قصد بها منطقة الثغر الأعلى لمطاردة فلول عمروس، وقبض على ولده زكريا وأبنائه وجماعة من أهله، وقتلهم في مدينة سرقسطة، وقفل إلى قرطبة ورؤسهم مرفوعة بين يديه[٨٢].

جهز الأمير محمد حملة عسكرية كبرى سنة (٢٥٩هـ/٨٧٢م)، قصد بها منطقة الثغر الأعلى، وزحف على تطيلة واستولى عليها وقبض فيها على مطرف ابن موسى وأبنائه. وفي رواية أخرى أن مطرفًا كان قد ملك وشقة إلى جانب تطيلة واستقر بها، وأن عمروسًا صاحب وشقه السابق استطاع أنَّ يؤلب أهلها على مطرف، وكانت المحصلة انتزاعها منه، وقبض عليه وعلى ولده وزوجته النافارية. فلما قدم الأمير محمد في جيشه سارع عمروس بإعلان طاعته والتمس الأمان، فأجابه الأمير إلى ما طلب، وأقره على ولاية وشقة وأعمالها، وتسلم منه مطرِّفًا وأولاده[٨٣].

عمل عمروس بن عمر على تعمير مدينة وشقة، بعد أنّ وردَ إليه كتاب الأمير محمد سنة (٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، يأمره ببناء سور كبير حول المدينة، وبناء بابًا للمدينة عُرف بباب لُبون كُتبَ عليهِ: ((هذا مما بنا خفيف البناء على يديَّ عمروس بن عمر عامل الإمام محمد بن عبد الرحمن أصلحهُ الله على ما عِهدَ به))[٨٤]، باب المدينة. أســتمر عمروس بن عمر على ولاية وشـــقة إلى أنَّ توفيَّ فيها سنة (٢٦٢هـ/٨٧٥م).[٨٥]

سابعًا: مسعود بن عمروس ونهاية أسرة بني عمروس في الأندلس

تزعم مسعود بن عمروس أسرة بني عمروس في الثغر الأعلى بعد وفاة والده عمروس سنة (٢٦٢هـ/٨٧٥م)، فأقر له الأمير محمد ما كان بيد والده، فاستقامت لهُ الأمور وبقيَّ حاكمًا على مدينة وشقة إلى أن ثار عليهِ محمد بن عبد الملك الطويل[٨٦] فقتله سنة (٢٧٣هـ/٨٨٦م)[٨٧].

وقد ذكرت هذهِ الحادثة برواية الرازي بشكل أكثر تفصيلاً حيث قال: ((رأيت في تواريخ الثغر أنَّهُ لما توفي عمروس بن عمر ولىَ مكانه ابن عمه عمر بن زكريا بن عمروس، وكان أخوه زكريا بن عمر محبوسًا بحصن منت شون[٨٨]، حين كونه فيهِ وكان قد قدِمَ عليهِ ممدًا له فغدر بهِ وحبسه، فلما استقر الأمر لعمر بن زكريا بوشقة، وأيقنَ عبد الله بن أبي حديدة[٨٩]، أنَّ لا نفع له في حبس زكريا بن عمر أطلقه، فلحق بحصن القصر المعروف بقصر بني خلف بسرطانية[٩٠]، فدخله ولما كانت سنة اربع وستين ومائتين هاجم زكريا بن عمر أهل وشقة ليلاً فدخلها، وكانَ قد غاب عنها عمر بن زكريا، فملكها زكريا بن عمر إلى أنَّ مات في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين ومائتين، فلما حضرته الوفاة استخلف مكانه على وشقه ابن أخيه مسعود بن عمروس فبقى ستة اشهر واليًا، ثم قتله محمد بن عبد الملك بن عبد الله بن

شبريط المعروف بالطويل يوم الأربعاء لثمان خلونَ من شوال سنة ثلاث وسبعين ومائتين))[٩١].

بموت مسعود بن عمروس سنة (٢٧٣هـ/٨٨٦م)، انتهت أسرة بني عمروس في الأندلس، وأُسدلَ الستار عليها إذ لم يكن لها أي دور في رسم المعالم والمتغيرات السياسية التي مُنيت بها بلاد الأندلس بعد التاريخ المذكور (سنة ٢٧٣هـ/٨٨٦م).

خَاتِمَةٌ

توصلت الدراسة الى النتائج الآتية:

- يعُتبر عمروس بن يوسف الوشقي هو المؤسس الحقيقي لأسرة بني عمروس في الأندلس، أرتبط بعلاقات وثيقة مع الأمير الحكم الربضي وقدمَ خدمات جليلة لصالح حكومة قرطبة الإسلامية.
- تُعَدّ أسرة بني عمروس واحدة من أسر المولدين، التي كانَ لها دورًا كبيرًا في توجيه الأحداث السياسية التي عصفت ببلاد الأندلس، وتوظيف هذهِ الأحداث لصالح الإمارة الأموية في الأندلس الأمر الذي يتجسد بالدور الذي قامَ به عمروس بن يوسف بتسخير الإمكانيات كلها لصالح الأمير الحكم الربضي من خلال الجهد الكبير الذي بذله في أنهاء الثورات والتمردات التي اندلعت ضد الأمير الحكم والقضاء عليها، لا سيما الوشاية بأهل طليطلة وتنفيذه مؤامرة الحفرة.
- انحصر الدور السياسي لأسرة بني عمروس في منطقة الثغر الأعلى وتحديدًا في مدينة طليطلة ووشقة، إذ كان لرجالات هذهِ الأسرة دورًا كبيرًا في توجيه الأحداث السياسية ورسم العلاقة السياسية بينهم وبين السلطة الحاكمة في حكومة قرطبة الإسلامية.
- كانَ المولدون عنصر تهديد وعدم استقرار في بلاد الأندلس، إذ كثيرًا ما قاموا بثورات هزت كيان السلطة الأموية الحاكمة في حكومة قرطبة الإسلامية لا سيما في عهد الأمير الحكم الربضي، وحفيده الأمير محمد بن عبد الرحمن.
- بعد موت عمروس بن يوسف سنة (١٩٨هـ/٨١٤م)، لم يكن لأسرة بني عمروس أي دور في الأحداث والمتغيرات السياسية التي مُنيت بها الأندلس، حتى مجيء الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة (٢٣٨هـ/٨٥٢م)، لذا لم نجد لهذهِ الأسرة أي ذكر في حوادث الأندلس السياسية.
- تفرع من أسرة بني عمروس، أسرة مولدية تُدعى أسرة بني الطويل التي تعود لمؤسسها محمد بن عبد الملك الطويل وهو ابن عم عمروس بن يوسف، حيث تُعد هذهِ الأسرة هي الوريث الشرعي لأسرة بني عمروس، وكانَ لهذهِ الأسرة دورًا كبيرًا لا يقل أهمية عن دور أسرة بني عمروس في توجيه الأحداث السياسية في الأندلس.

الإحالات المرجعية:

(١) **الثغر الأعلى**: الثغر كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغرا، كأنه مأخوذ عن الثغرة، وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل أربونة وما حولها، باعتبارها أقصى ولاية في الأندلس، مما يلي أرض الفرنج، فلما سقطت أربونة في يد النصارى ارتد ثغر الأندلس إلى ما رواء جبال البرنيه، فأصبح الثغر يطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقًا، وهذا هو الثغر الأعلى، ويشمل عدا سرقسطة: لاردة، تطيلة، وشقة، طرطوشة وطركونة وغيرها، ويقابل مملكة أراغون. يُنظر: **عنان، محمد عبد الله**، دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح إلى بداية عهد الناصر العصر الأول، القسم الأول، ط٤، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧، هامش رقم (١)، ص٢٣١.

(٢) **الحكم الربضي**: الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان يكنى أبا العاص أمه أم ولد اسمها زخرف وكان طاغيًا مسرفًا ولهُ آثار سوءٍ قبيحة وهو الذي أوقع بأهل الربض الواقعة المشهورة بواقعة الربض فقتلهم وهدم دورهم ومساجدهم توفي سنة ٢٠٦هـ. يُنظر: **الحميدي، أبي محمد عبدالله بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الازدي، (ت. ٤٨٨هـ /١٠٩٥م)**،جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص١٠؛ **ابن الأبار، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي، (ت. ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)**، الحلة السيراء، حققه وضبط حواشيه، حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ١/٤٣-٤٤.

(٣) طلبيرة: مدينة بالأندلس تقع في أقصى ثغور المسلمين، وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين، وهي قديمة أزلية على نهر تاجه، وهي في الجزء الثالث من قسمة قسطنطين، مبنية على جبل عظيمٍ وهي مدينة كبيرة وقلعتها أرفع القلاع حصنًا، ومدينتها أشرف البلاد حسنًا. **الحميري، محمد بن عبد المنعم، (ت. حوالي ٧١١هـ/ ١٣١٠م)**، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٩٥.

(٤) **طليطلة**: مدينة بالأندلس بينها وبين البرج المعروف بوادي الحجارة خمسة وستون ميلاً، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، ومنها إلى بلنسية تسع مراحل أيضًا ومنها إلى المرية في البحر الشامي تسع مراحل أيضًا. يُنظر الحميري، الروض المعطار، ص٣٩٣.

(٥) **ابن حزم، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت. ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)**، جمهرة أنساب العرب، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، د.ت ، ١/ ٥٠٠ ؛ عنان، دولة الإسلام، القسم الأول، العصر الأول، ص٢٣٩.

(٦) **سرقسطة**: مدينة في شرق الأندلس وهي قاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر آهلة ممتدة الأطناب واسعة الشوارع، حسنة الديار والمساكن متصلة الجنات والبساتين، وهي على ضفة نهر كبير يأتي بعضه من بلاد الروم من جبل قلعة أيوب ومن غير ذلك، فتجتمع هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيلة. يُنظر: **الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)**، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، ٥/ ٧١؛ الحميري، الروض المعطار ص٣١٧.

(٧) **بنبلونة**: مدينة بالأندلس بينها وبين سرقسطة مائة وخمسة وعشرون ميلاً بها كانت مملكة غرسية بن شانجة سنة ثلاثين وثلثمائة، وهي بين جبال شامخة وشعاب غامضة قليلة الخيرات أهلها فقراء لصوص، وأكثرهم متكلمون بالبشقية لا يفهمون، وخيلهم أصلب الدواب حافرًا لخشونة بلادهم ويسكنون على البحر المحيط في الجوف. يُنظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوربا**، ص٦٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص١٠٤.

(٨) **تطيلة**: مدينة بالأندلس في جوفي وشقة، وبين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة، ويطيف بجنات تطيلة نهر كالش، وهي من أكرم الثغور تربة يجود زرعها ويدر ضرعها وتطيب ثمرتها وتكثر بركتها، وأهلها لا يغلقون أبواب مدينتهم ليلاً ولا نهارًا قد انفردوا بذلك من بين سائر البلاد. ابن غالب، **فرحة الأنفس**، ص١٨؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص١٣٣

(٩) محمد بن عبد الملك بن شبريط المعروف بالطويل، وسُميَّ بذلك لطوله الفائق. ينتمي لأسرة بنو شبريط أو شبراط من أكبر أسر المولدين بالثغر الأعلى وكان منزلهم بوشقة وبربشتر وكان عميدهم شبريط قد ظهر في أواخر المائة الثانية في عصر الأمير الحكم بن هشام، وتغلب حينًا على وشقة. ولكن بني قسي غلبوا على تلك الأنحاء دهرًا، وحجبوا بني شبريط وغيرهم من أعيان المولدين عن الظهور. للمزيد من المعلومات يُنظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول العصر الاول، ص٣٤٢.

(١٠) وشقة: مدينة حصينة بالأندلس لها سوران من حجر، بينهما وبين سرقسطة خمسون ميلاً، ووشقة مدينة حسنة متحضرة ذات متاجر وأسواق عامرة وصنائع قائمة...، يُنظر الحميري، الروض المعطار، ص٦١٢.

(١١) **العذري، احمد بن عمر بن أنس، (ت. ٤٧٨هـ /١٠٨٥م)**، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الاهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د.ت، ص٦٤؛ **السامرائي، إبراهيم خليل** الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحوالهِ السياسية ٩٥-٣١٦هـ/ ٧١٤-٩٢٨م) مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦، ص٢٩١.

(١٢) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ١/٤٦٤؛ عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، القسم الأول، العصر الأول، ص٤٦٤.

(١٣) عيشون بن سليمان الأعرابي: لم أجد تعريفًا له في كتب التراجم.

(١٤) **جرندة أو جيرونة**: إحدى مدن الشمال الأندلسي وتقع شمال برشلونة، وتسمى جرندة البيضاء، خرجت من أيدي المسلمين نهائيًا سنة ٢٨٤هـ / ٨٠٠م، يُنظر: **ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت. ٣٠٠هـ/٩١٢م)**، المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص٩٠؛ **البكري، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز، (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م)**، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق، عبد الرحمن علي الحجي، ط١، بيروت، ١٩٦٨، ص٩٦.

(١٥) **برشلونة**: مدينة للروم تقع في القسم الثالث من الأندلس، بينها وبين طركونة خمسون ميلاً، وبرشلونة على البحر ومرساها صعب لا تدخله المراكب إلا عن معرفة، ولها ربض وعليها سور منيع، والدخول إليها والخروج عنها إلى الأندلس على باب الجبل المسمى بهيكل الزهرة ويسكنها ملك الأفرنج وهي دار ملكهم وله مراكب تسافر

وتغزو، وهي كثيرة الحنطة والحبوب والعسل، وهي مسورة كبيرة. الحميري، الروض المعطار، ص٨٦-٨٧.

(١٦) العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص٢٨-٢٩.

(١٧) العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص٢٧-٢٨.

(١٨) ستقتصر الدراسة على ثورات المولدين في الثغر الأعلى فقط.

(١٩) عنان، دولة الإسلام، القسم الأول، العصر الأول، ص٧١؛ **بدر، أحمد**، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة، د مط، دمشق، ١٩٧٢، ١٣٠/١.

(٢٠) **السامرائي وآخرون**، **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، ط١، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي بيروت، ٢٠١٤، ص٧٧.

(٢١) عنان، **دولة الإسلام**، القسم الأول، **العصر الأول**، ص٧١.

(٢٢) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أول من دخل الأندلس من بني أمية بعد أن هرب من جيوش بن العباس إلى المغرب وتردد بنواحي أفريقية وأقام دهرًا في أخواله بني نفزة، ثم عبر إلى الأندلس في ربيع الأول سنة ١٣٨هـ، وهزم أميرها يوسف الفهري، وأقام الإمارة الأموية في الأندلس، لقب بألقاب منها: الداخل، صقر قريش، أبو زيد وقيل أبو سليمان وكنيته الأشهر أبو المطرف، توفي سنة ١٧١هـ. يُنظر، ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ٣٥/١-٤٢ ؛ **المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني، (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م)**، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ٢٨٢/١.

(٢٣) عنان، دولة الإسلام، القسم الأول، العصر الأول، ص٢٣٩؛ بدر، دراسات في تاريخ الأندلس، ١٣٣/١.

(٢٤) **ابن القوطية، أبي بكر محمد بن عمر القرطبي، (ت ٣٦٧هـ /٩٧٧م)**، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق، إبراهيم الإبياري، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت،١٩٨٩م، ص٦٤-٦٥.

(٢٥) السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٩٣.

(٢٦) **عبيدة بن حميد**: ثائر مولديَّ الأصل تزعم ثورة المولدين في طليطلة سنة ١٨١هـ، عجز عمروس بن يوسف من إنهاء ثورته إلا بعد أنّ نجح بإغراء بعض وجهاء المدينة لاغتيال عبيدة بن حميد، وبهذا خمدت الثورة إلى حين. يُنظر. ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٩/٢.

(٢٧) **ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، (ت.٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)** الكامل في التاريخ، راجعه وحققه محمد يوسف الدقاق، درا الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧،٥/٣١٤-٣١٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٩/٢ ؛ **ابن عذاري، أبي العباس أحمد بن محمد المراكشي ، (ت بعد سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م)**، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢وج٣، تحقيق ج.س كولان وإ ليفي بروفنسال، ط٢. بيروت، دار الثقافة. ١٩٨٠م، ٦٩/٢.

(٢٨) **غربيب بن عبد الله الطليطلي**: شَاعِر قديم مشهور الطريقة فِي الْفضل وَالخير، وكان أهل بلده يشاورنه في أمورهم. يُنظر: **الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت٥٩٩هـ /١٢٠٢م)**، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ترجمة رقم (١٢٨١)، ص٤٤٢؛ **ابن سعيد، أبي الحسن على بن موسى، (ت. ٦٨٥هـ /١٢٨٦م)**، المغرب في حُلى المغرب، حققه وعلق عليهِ شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ٢٣/٢..

(٢٩) نقلاً عن **نعنعي، عبد المجيد**، الإسلام في طليطلة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص٣١.

(٣٠) ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٩/٢؛ عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، القسم الأول، العصر الأول، ص٣١٤.

(٣١) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٥؛ **العبادي، أحمد مختار**، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص١٢١.

(٣٢) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٥.

(٣٣) **النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، (٧٣٣هـ/١٣٣٢م)**، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الكتب والوثائق، القاهرة، د.ت، ٣٦١/٢٣؛ ويُنظر أيضًا عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، العصر الأول، ص٢٣٩؛ بدر دراسات في تاريخ الأندلس، ١٣٤/١.

(٣٤) **بني مخشي**: لم أجد تعريفًا لهم في كتب التراجم، لكن يبدو انهم أسرة متنفذة في طليطلة فتك بها الأمير الحكم الربضي بمساعدة عمروس بن يوسف عن طريق استمالة بربر طليطلة لجانبه ومساعدتهم على القيام بهذهِ المهمة.

(٣٥) النويري، **نهاية الأرب**، ٣٦١/٢٣.

(٣٦) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣١٤/٥- ٣١٥؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ٦٩/٢.

(٣٧) عنان، **دولة الإسلام**، القسم الأول، العصر الأول، ص٢٣٩؛ نعنعي، **الإسلام في طليطلة**، ص٣٢؛ بدر، **دراسات في تاريخ الأندلس**، ١٣٤/١.

(٣٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣١٥/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٩/٢؛ **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (٨٠٨هـ/١٤٠٦م)**، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، راجعهُ سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠٠٠، ١٦١/٤.

(٣٩) العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص١٢١؛ نعنعي، **الإسلام في طليطلة**، ص٣٢.

(٤٠) ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص٦٩.

(٤١) النويري، **نهاية الأرب**، ٣٣/٢٢؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ١٦٢/٤.

(٤٢) **الجيارين**: تسمية تُطلق على من يعمل بالجير (القير).

(٤٣) **ابن حيان القرطبي، أبي مروان حيان بن خلف، (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)**، المقتبس من أنباء أهل الأندلس (الحقبة ١٨٠-٢٣٢هـ/ ٧٩٦-٨٤٦م)، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣، ص١١؛ ابن خلدون، تاريخ، ١٦٢/٤؛ عنان، دولة الإسلام، القسم الأول، العصر الأول، ص٢٤.

(٤٤) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٦؛ **الشعراوي، احمد إبراهيم**، الأمويون أمراء الأندلس، د.مط، القاهرة، ١٩٦٩، ص٢٣٦ ؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٩٧.

(٤٥) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٦-٦٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣١٥/٥؛ ابن عذاري، البيان المغررب، ٧٠/٢؛ ابن خلدون، تاريخ، ١٦٢/٤.

(٤٦) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٦-٦٧؛ النويري، نهاية الأرب، ٣٦٦/٢٣؛ **وات، مونتغمري**، في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، ط٢،شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،١٩٩٨، ص٤٨

(٤٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٧؛ **ابن الخطيب، لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب السلماني، (ت. ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)**، تاريخ إسبانيا النصرانية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٦؛ **سالم، السيد عبد العزيز**، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، ط٢، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦، ص٢٢٢.

(٤٨) تاريخ أفتتاح الأندلس، ص٦٧.

(٤٩) أعمال الاعلام، ص١٦.

(٥٠) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٣١٥/٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٠/٢.

(٥١) **مجهول، مؤلف أندلسي، (ت بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م)**، تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩، ص١٨١.

(٥٢) مؤنس، حسين، **موسوعة تاريخ الأندلس**، تاريخ وفكر وحضارة وتراث، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٩، ٧٢/١؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص١١٩؛ **البيضاني، زيدون خلف كلش،** المعارضة والسلطة في بلاط الدولة الإسلامية في الأندلس (١٣٨-٣٦٦هـ/ ٧٥٥-٩٧٦م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ٢٠٢١، ص٨٦.

(٥٣) اختلفت المصادر التاريخية في تسمية هذا الثائر حيث ذكره ابن سعيد باسم بهلول بن أبي الحجاج. يُنظر المغرب في حلي المغرب ٤٠/١؛ أما ابن عذاري وابن خلدون فيذكرونه باسم بهلول بن مرزوق يُنظر: **البيان المغرب**، ٦٩/٢؛ **تاريخ ابن خلدون**، ١٦١/٤.

(٥٤) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ٤٠/١؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ٦٩/٢

(٥٥) **عبد الله البلنسي**: عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالبلنسي لتملكه بلنسية وتدمير وبرشلونة ووشقة، كان قد ثار على أخيه هشام بن عبد الرحمن، ووقف إلى جانب أخيه سليمان في صراعه على السلطة مع أخيهما إلا أن هشام أستطاع التغلب عليهما ونفيهما إلى المغرب، وبعد وفاة هشام وتولي الحكم عاد إلى الأندلس وأعلنا العصيان على الحكم والمطالبة بالسلطة من جديد في بلنسية على أن يؤدي الطاعة فأقام فيها حتى وفاة الحكم ثم أنه عاد وأعلن عصيانه على عبد الرحمن بن الحكم وجمع حوله أنصاره ومؤيديهِ يريد هذهِ المرة قرطبة، وقد خطب بأصحابه فدعا في خطبتهِ أنَّ ينصر الله صاحب الحق فيهما فضربه الفالج ومات سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م. يُنظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٩٤ ؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ٣٦٣/٢-٣٦٤.

(٥٦) بليارش: منطقة تقع بين أراغون وقطلونيا جنوب جبال البرتات وإلى الشرق من إلبه في أقصى شمال إسبانيا. البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، ص٦٢.

(٥٧) خلف بن راشد: لم أجد تعريفًا له في كتب التراجم.

(٥٨) العذري، نصوص عن الأندلس، ص٢٧؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، العصر الأول، ص٢٣١؛ السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٠٩؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص٢٢٥.

(٥٩) العذري، نصوص عن الأندلس، ص٢٨؛ **أبو مصطفى، كمال السيد**، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مركز إسكندر للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص٥١.

(٦٠) بني قسي: أسرة قوطية الأصل تنتسب الى جدها الأعلى قسي كونت الثغر الأعلى في أواخر عصر القوط الغربيين قبل الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، وكانوا يسكنون في إقليم أراغون، فلما تم الفتح لحق قسي بالشام وأسلم على يد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لكي يحتفظ في ظل الفاتحين بإملاكه وسلطانه في منطقة ولايته، وقد تعاقب بنو قسي على رئاسة الثغر الأعلى طوال عصر الإمارة الأموية في الأندلس. ينظر. ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص٥٠٢ ؛ ابن حيان، المقتبس (الحقبة ١٨٠-٢٣٢هـ/٧٩٦-٨٤٦م)، ص١٤٣.

(٦١) ابن خلدون، تاريخ، ٤ / هامش رقم (١)، ص١٦١.

(٦٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٦١/٤.

(٦٣) **لويس التقي**: لويس بن شارلمان الملقب بالتقي اعتلى عرش الإمبراطورية سنة ١٩٨هـ/٨١٣م، وبالأخص أمارة أقطانية، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، إذ كان واسع الثقافة، وشديد التدين، إلا أنه أفتقر إلى ما عرف عن والده من مهارة في الشؤون السياسية والعسكرية والإدارية، توفى سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م، مخلفًا من الأولاد، لويس ولوثر وشارل، حتى تم الاتفاق بينهم فيما عرف باتفاقية فردان الشهيرة سنة ٢٩٩هـ/٨٤٣م، التي جرى بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بين الأخوة الثلاثة. يُنظر: الشيخ، **دولة الفرنجة**، ص٢٣؛ أبو مصطفى، **دراسات في تاريخ وحضارة المغرب**، ص٦٢.

(٦٤) **طرطوشة**: مدينة تقع على سفح جبل، ومن بلنسية إلى طرطوشة مائة وعشرة أميال، ومسيرة أربعة أيام، ولها سور حصين، وبها أسواق وعمارات وضياع وفعلة، وإنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها وبجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ. يُنظر: الحموي، **معجم البلدان**، ٣٠١/٥؛ الحميري، الروض المعطار، ص٣٩١

(٦٥) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٤٠/١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٢/٢-٧٣ ؛ سالم، تاريخ المسلمين، ٢٢٦ ؛ أبو مصطفى، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس، ص٥١.

(٦٦) السامرائي، الثغر الأعلى، ص٢٩٩.

(٦٧) **ألبة والقلاع**: علمان جغرافيان يستعملان عادة معًا في النصوص العربية، أما ألبة فهي Alava، وهي الإقليم الواقع عند منابع نهر أبره على الضفة اليمنى (الشمالية)، للنهر وأصل الاسم غير معروف، فذهب بعضهم إلى أنه اشتق من Uraba و Alba بل ذهب بعضهم إلى أن أصله عربه Araba، لأن الاسم لم يظهر إلا بعد دخول العرب. أما القلاع فيراد به المنطقة التي تعرف بقشتالة القديمة Castilla ia vieja، سماها العرب كذلك لكثرة قلاعها وقد يكون العرب ترجموا بذلك اسمها القديم Castellae، وألبة اليوم إحدى المديريات الثلاث التي يتكون منها إقليم Vascongadas، وهو الذي كان العرب يسمونه بلاد البشكنس. يُنظر: ابن الابار، الحلة السيراء، هامش رقم (٢)، ١٣٥/١-١٣٦.

(٦٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣٦٩/٥ ويخطأ ابن الأثير ويجعل تاريخ هذهِ الحملة سنة ١٩٦ه؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٧٣/٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، العصر الأول، ص٢٤١.

(٦٩) أرسلان، شكيب، **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا** وجزائر البحر المتوسط، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٥، ص١٧٧-١٧٨؛ **الشيخ، محمد محمد مرسي**، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ١٣٨-٣٦٦ه/٧٥٥-٩٧٦م، مؤسسة الثقافة الجامعية، القاهرة، ١٩٨١، ص١٧٢.

(٧٠) **عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الرومي**: من أكابر رجال الدولة الأموية في الأندلس أيام الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن الثاني، وهو الغالب من أولاد مغيث الرومي، وقد كان عبد الكريم قائدًا من قواد الحكم ثم استوزرهُ وولاهُ الحجابة فأقام بهذهِ الوظيفة حتى وفاة الحكم، واستحجبهُ أيضًا عبد الرحمن الثاني مع بقائهِ على القيادة حتى وفاتهِ في محرم من سنة (٢٠٩هـ/٨٢٤م). يُنظر ابن عذاري، البيان المغرب، ٨١/٢-٨٢؛ أبن الأبار، الحلة السيراء، ١٣٥/١.

(٧١) ابن الابار، الحلة السيراء، ١٣٦/١.

(٧٢) **ثورة الربض**: هي ثورة قامت يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان سنة ٢٠٢ه/٨١٧م، في أواخر خلافة الحكم بن هشام فقضيَّ عليها، وأمر بهدم حي الربض الذي منه اندلعت الثورة فأعيد بطحاء مزرعة، بعد أنّ قتل من أهله مقتلة عظيمة وأسر خلقًا جمًا، وصلب منهم نحو ٣٠٠ شخص يُنظر: مجهول، **أخبار مجموعة**، ص١١٨-١١٩؛ ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ١/ ٤٤ المقري، **نفح الطيب**، ١/ ٣٣٩.

(٧٣) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٤٢/١.

(٧٤) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ٤٢/١.

(٧٥) الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام كنيته: أبو عبد الله. أمه: بهير. مولده: في شهر ذي القعدة سنة ٢٠٧. وزراؤه وقواده: اثنا عشر. حجابه: اثنان، ابن شهيد وابن أبي عبدة، بويع يوم الخميس لأربع خلون لربيع الآخر سنة ٢٣٨، وهو ابن ثلاثين سنة وخمسة أشهر. وتوفي يوم الخميس لليلة بقيت من شهر صفر سنة ٢٧٣. عمره: خمس وستون سنة وأربعة أشهر. وكانت خلافته أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوما. يُنظر. ابن الابار، الحلة السيراء، ١/ ١١٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٣/٢-٩٤.

(٧٦) مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن الحكم أَبُو عبد الله بُويِعَ بعد وفاة أبيه فِي يَوْم الْخَمِيس غرَّة شهر ربيع الأول سنة ٢٣٨ه، وَهُوَ ابْن ثَلَاثِينَ سنة وَكَانَ أَيمن الحكام بالأندلس ملكا وأسراهم نفسا وَأكْرمهمْ تثبتًا وأناة عُرف بالبلاغة وَالْأَدب وَتُوفيِّ سنة ٢٧٣ه، وَهُوَ ابْن خمس وَستِّينَ سنة فَكَانَت مدة حكمه أَرْبعا وَثَلَاثِينَ سنة وَأحد عشر شهرًا. ابن الآبار، الحلة السيراء،١١٩/١.

(٧٧) المقري، **نفح الطيب**، ١/ ٣٥١؛ نعنعي، **تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي**، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص٢٦.

(٧٨) غرسية بن ونقة: ملك مملكة نافار أسره النورمان بعد أن هاجموا مدينة بنبلونة سنة ٢٤٥هـ، فأضطر أنَّ يفتدي نفسه بمبلغ سبعين ألف دينار، وارتهنوا بعض أولاده، وخلوا سبيله. يُنظر ابن حيان، المقتبس، (الحقبة ١٨٠-٢٣٢ه/٧٩٦-٨٤٦م) /٢٩٠؛ العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص١١٩.

(٧٩) العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص٦٢؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ١٦١/٤؛ المقري، نفح الطيب، ٣٥١/١؛ نعنعي، تاريخ الدولة الأموية، ص٢٦٩؛ أبو مصطفى، **تاريخ وحضارة الأندلس**، ص٥٠-٥١.

(٨٠) لم أجد تعريفًا له في كتب التراجم.

(٨١) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ٢/١٠٠.

(٨٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ٢/١٠١؛ **عنان، دولة الإسلام في الأندلس**، القسم الأول، العصر الأول، ص٣٠١.

(٨٣) العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص٦٤؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، العصر الأول، ص٣٠١.

(٨٤) العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص٦٣.

(٨٥) العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص٦٤.

(٨٦) لم أجد تعريفًا له في كتب التراجم.

(٨٧) العذري، **نصوص عن الأندلس**، ص٦٤.

(٨٨) حصن منت شون: حصن من حصون لاردة بالأندلس قديم، بينه وبين لاردة عشرة فراسخ، وهو حصين جدّا، تملّكه الأفرنج سنة ٤٨٢ه. الحموي، معجم البلدان، ٢٠٧/٥.

(٨٩) لم أجد تعريفًا له في كتب التراجم.

(٩٠) **سرطانية**: هي بلاد البرجان قالوا: فيها جزيرة فيها عين ماء تجري، من شرب منه من الخلق وكان به وجع في عينيه أو غشاوة في بصره أو بياض أو أي ضرر كان فيهما ذهب عنه. الحميري، الروض المعطار، ص٣١٥.

(٩١) العذري نقلاً عن الرازي، **نصوص عن الأندلس**، ص٦٤.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

شَعيرةُ الحَجّ عند اللّيبيين خلال العُصُور الإسلامية
دراسة تاريخية



د. رمضان محمد رمضان الأحمر
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة بنغازي – دولة ليبيا

مُلَخّص

اعْتَنَى اللّيبيون بشَعيرة الحَجّ منذ أنْ استقر الإسلام بأرضهم، وظَهَرت ملامح ذلك الاهتمام منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلاد، برحلة بعض العلماء لأداء فريضة الحَجّ وفي الوقت نفسه لطَلب العلم وتحصيله. ومنذ ذلك الوقت تزايدت أعداد الحُجَّاج اللّيبيين على مَرّ العُصُور وأصبحت أركاب حَجّهم أكثر وضوحًا وتنظيمًا ولا سيّما خلال الحُكم القَرمانْلّي. وقد هدف هذا البحث إلى معرفة تاريخ الحَجّ الليبيّ خلال العُصُور الإسلامية وهيئته، من خلال طرح موضوعات تُوضّح كيفية استعدادات الليبيين لاستقبال مَوسم الحَجّ، وطُرُق مَسير قوافلهم إلى الحجاز، وانعكاسات رحلات الحَجّ على المجتمع الليبي. وباستخدام المنهج التاريخي الاستردادي، المَبْني على استقراء النُّصُوص ومقارنتها، واستنباط مَعانيها وتحليلها، تَوَصَّلت الدراسة إلى أنَّ الليبيين عامة كانوا قد اعْتَنوا اعتناءً كبيرًا بشَعيرة الحَجّ، وقد تَجلَّى ذلك في طريقة معاملتهم لحُجَّاج بيت الله الحرام من الليبيين خاصةً والمغاربة عامة، حتى أنهم أضفوا عليهم هالة من الروحانية والتقديس، جعلتهم يَرغبون في دُعَائهم وَيستجلبون بركتهم من خلال حُسن ضيافتهم وإكرامهم. الأمر الذي أصَّلَ عند الليبيين الصّفات الإسلامية الحميدة، المتمثلة في الطيبة والكرم والجود والعطاء وغيرها من مَكارم الأخلاق، وهذه كانت إحدى انعكاسات رحلات الحَجّ على المجتمع الليبي، إلى جانب آثارها الدينية والعلمية المفيدة، وفوائدها الاقتصادية على البلاد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١١	يوليو	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	١٥	أغسطس	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الحجُ، الحُجّاج الليبيون، قافلة، رَكْب، الحرمان الشريفان.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.372954 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رمضان محمد رمضان الأحمر، "شَعيرةُ الحَجّ عند اللّيبيين خلال العُصُور الإسلامية: دراسة تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ٨٣ – ١٠٥.

Corresponding author: r.alahmer gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١]. من هذا الأساس والمنطلق، تُعَدُّ فريضة الحَجّ في الإسلام من أهم الأسباب والدوافع التي جعلت مئات الآلاف من المسلمين على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وألوانهم للقدوم كل سنة إلى الأراضي المقدسة وزيارة الحرمين الشريفين؛ تجسيدًا للآية الكريمة لأداء فريضة الحَجّ، مُتَحَدّين في ذلك كل المصاعب والأخطار جَرّاء السَّفر المتعب، الذي يكون في الغالب على البَرّ خلال القرون الإسلامية الأولى والوسطى، ويأخذ من الحُجَّاج من سنة إلى عدة سنوات من التَّرَحُّل حسب الجهة التي وفد منها الحاج. وفي هذه الرحلات يجتمع الحُجَّاج -على عادتهم- في جماعات ضمن رَكْب وحيد أو في قافلة من عدة أركاب، تَعبر الأراضي المختلفة من حواضر وقرى وصَحارَى، وما فيها من طرق ومَسالكَ صَعبة، ونَقص في المياه والطعام، إلى جانب انعدام خاصية الأمن والأمان في زمن انعدم فيه سُلطان الدولة الحديثة[٢].

وليبيا منذ أنْ دخلها الإسلام وانتشر بين سكانها خلال القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، أصبح لزامًا على المسلمين فيها -دأبهم دأب جميع مُسْلمي العالم- الحَجُّ إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهم في ذلك مثلهم مثل غيرهم من الحَجيج المغربي أصبحوا يَتنادون للرحلة إلى الحجاز فُرَادَى أو جماعات، في ركب صغير أو صُحبة قوافل مغربية كبيرة، لأداء هذه الشّعيرة يُناديهم الشَّوق إلى بيت الله الحرام، والحنين لزيارة قبر رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد جَسَّدت رحلات الحَجّ الليبية هذه حالة الحاج المغاربي وهو يرتحل إلى الأماكن المقدسة، لأداء فريضة واجبة عليه، وتلبية لنداء الرحمن وتَوبة وتطهيرًا للنفس من الذنوب. وهي في الوقت نفسه تُعَدُّ لأهل العلم -من الطلبة والمشايخ والفقهاء- فرصة للزيادة في العلم، والاستفادة والاستماع والأخذ عن رجالات العلم والفقه والحديث، الذين يلتقون بهم في محطات طريقهم إلى الحجاز أو الآخرين الذين يجدونهم هناك.

وعلى ما يكون، وعلى ضوء ما سبق، فإنَّ بحثنا هذا الذي عنوناه بـ: "شَعيرة الحَجّ عند اللّيبيين خلال العصور الإسلامية": (دراسة تاريخية) يهدف إلى استرجاع الذاكرة التاريخية -من خلال استقراء النصوص التاريخية وفهمها وتحليلها ثم صياغتها وسردها - للتوضيح والإجابة على بعض التساؤلات عن عدة موضوعات على النحو الآتي:

١. كيف كانت استعدادات الليبيين لأداء فريضة الحج؟
٢. ما الوسائل والطّرق التي استخدمها الحُجَّاج الليبيون في مَسيرهم إلى الحَج؟
٣. كيف كانت انعكاسات رحلات الحَجّ وآثارها على المجتمع الليبي؟

ولكَي تصل هذه الدراسة إلى الأهداف المطلوبة منها، استخدمنا في كتابتها المنهج التاريخي الاستردادي، الذي يعتمد على السَّرد من ناحية وعلى القياس والتحليل والاستنباط من نواح أخرى. إلى جانب المنهج الاستقرائي والمنهج المقارن، وكل ذلك استنادًا إلى ما حَصلنا عليه من مادة تاريخية مستقاة من المصادر الأصيلة. وبفضل استخدام هذه المناهج انتهى البحث -بإذن الله تعالى- بخاتمة فيها حوصلة لَما في الدراسة من خُلَاصة، ونتائج.

مدخل

لم يَستقر الفتح الإسلامي في بلاد المغرب عامةً -بما فيها ليبيا- إلا في أواخر القرن (الأول الهجري/ السابع الميلادي)، بعد سنين طويلة وغزوات كثيرة قَدَّمَت فيها الجيوش العربية آلاف الآلاف من الشهداء، وشهدت ملاحم عظمى، كما عاينت صَولات وجَولات من الكَرّ والفَرّ مع الروم من جهة وسكان المغرب من البربر من جهة أخرى. وبطبيعة الحال بعد استقرار الإسلام وانتشاره بين سكان ليبيا خصوصًا وبلاد المغرب عمومًا، أنْ ظهر فيها جيل من المسلمين لم يكتفوا بما لديهم من علوم إسلامية جاءتهم مع الفاتحين، بل رغبوا في الاستزادة والنهل من مَعينها الأصلي، لذلك شَدُّوا الرحال شرقًا وصولاً إلى الحجاز في رحلات حَجّ لتحقيق الغايتين: الحَجّ وطلب العلم.

ومنذ القرن (الثاني الهجري/ الثامن الميلادي) أخذ ثُلَّة من طلبة العلم الليبيين في الحَجّ إلى بيت الله الحرام

لبُلُوغ المَقصدَين، كان من أوائلهم علي بن زياد العبسي الطرابلسي (ت: ١٨٣هـ/٧٩٩م)، الذي كان تلميذًا للإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ/٧٩٥م)، ويُعَدُّ أول من أدخل مُوَطَّأه إلى إفريقية، ومحمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي (مجهول الوفاة)، وكان -هو الآخر- تلميذًا لمالك وقد سَمِعَ منه مُوَطَّأه[٣]، وغيرهم الكثير. وهؤلاء قد يكون منهم من سافر وحيدًا للحَجّ، ومنهم من كان في جماعة. على أنَّ الكثيرين منهم كانوا يذهبون رفقة أركاب الحَجّ المغربية (من فاس أو مراكش أو تونس أو بلاد الجريد)، وينضمون إليها عند نزولها في البلاد الليبية، للراحة والتزود بالمؤن المختلفة وهي في طريقها إلى الحجاز، ولاسيما عند نزولها في طرابلس حاضرة البلاد، كونها محطة رئيسة للحجاج المغاربة، لا يستطيعون إتمام طريقهم إلى مصر ومنها للحجاز دون النزول فيها وأخذ مَؤُونتهم منها واستبدال دوابهم فيها، وذلك قبل عبورهم صحراء برقة وفيافيها المجدبة، التي كانت مَضرب مَثَل الحُجَّاج المغاربة في مَشاق السَّفر ومراراته[٤].

وعلى ما يكون فإن الحُجَّاج الليبيين في القرون الإسلامية الأولى كان يذهبون للحَجّ رفقة الأركاب المغربية المختلفة التي كانت تنزل بطرابلس، فكانوا يمتطون رواحلهم برفقتها، مستأنسين بها ومن الحماية الموجودة معها، مستفيدين من وجود العلماء والفقهاء والمشايخ من الحُجَّاج فيها، ولا سيما الركب القادم من فاس، بلد العلم والعلماء[٥]. وبمرور السنين والعقود ومع تزايد عدد الحُجَّاج الليبيين أصبحت أركاب الحج الليبية المرافقة لأركاب الحَجّ المغربية في تزايد، مما استلزم الأمر تجهيز أركاب حَجّ وقوافلَ ليبية مخصوصة بحجاجها، وقد تزامن ذلك مع ظهور هُويَّة الدولة الليبية زمن العثمانيين، متمثلة في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا)، وازدياد تلك الهُوية تبلورًا وارتساخًا أيام القَرمانلّيين، الذين اشتهروا بتقديسهم لشَعيرة الحَجّ واهتمامهم بها، واحترامهم لحُجَّاج بيت الله الحرام سواء من الليبيين، أو المغاربة الذين يَطَؤُون أرض ليبيا في طريق ذهابهم أو عودتهم من الحَجّ[٦].

لذلك فَمُنذُ أواخر العهد العثماني الأول (١٥٥١-١٧١١م)، مرورًا بالعهد القَرمانلّي (١٧١١-١٨٣٥م) أخذنا نقرأ في كتب الرحلات الحجازية المغربية عن أركاب الحَجّ الليبية الذاهبة إلى الأراضي المقدسة، منها الركب الطرابلسي الذي أشار إليه ابن عبد القادر الفاسي (ت: ١٢١٣هـ/١٧٩٨م)، وصَرَّحَ بأنه انطلق في رحلته إلى الحَجّ من مدينة طرابلس المحروسة، يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر شعبان المبارك، سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٨م[٧]. وركب حُجَّاج ابن غازي (بنغازي)، الذين ترافقوا مع الركب الشنقيطي (الموريتاني) -الذي كان به الرحالة البشير البرتلي (ت: ١٢١٤هـ/١٧٩٩م)- في ذهابهم وإيَّابهم إلى الحرمين ما بين سنتي ١٢٠٤-١٢٠٥هـ/١٧٨٩-١٧٩٠م، وقد قال عنهم البرتلي: "إنهم قوم كرام يحبوننا غاية، ولَنِعْمَ الركب هو"[٨]. وأيضًا الركب الفَزَّاني الذي أُعْجِبَ به الرحالة الورثيلاني (ت: ١١٩٣هـ/١٧٧٩م)، وجعله يترك ركبه الجزائري وينضم إليه في مصر، عند التقائه به في طريق ذهابهم للحجاز سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م[٩].

وأركاب الحَجّ الليبية هذه سواء انطلقت لوحدها إلى الحجاز أو انضمت مع غيرها من الأركاب المغربية في مَسيرها، فإنها كانت تحتاج إلى عناية لإعدادها وترتيبات لتنظيمها وهذا ما سيكون محور حديثنا فيما يلي:

أولًا: استعدادات الليبيين لأداء فريضة الحَجّ

١/١-استعدادات دينية

فَقُبَيل حلول موسم الحج وفي أثنائه يأخذ خُطَباء المساجد في المدن الليبية التركيز في خُطَب الجمعة على موضوع الحَجّ؛ لتوعية عامة الناس بأهميته وفضله للمسلمين، وتبيان مكانة الحاج عند الله. مُذَكّرين الناس بالأماكن الشريفة التي سيزورها الحُجَّاج في حَجَّتهم. وقد أورد لنا بعض أصحاب الرحلات الحجازية في كتبهم الخبر عن مثل هذه الخطب، التي عَمُرَت بها المساجد الليبية في موسم الحَجّ لتذكير الأهالي وتوعيتهم. فها هو ذا ابن الطيب الشرقي الفاسي (ت: ١١٧١هـ/١٧٥٧م)، في رحلته الحجازية عندما نزل في طريقه بطرابلس سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، صَلَّى جمعته الثانية فيها بجامع التُّرك الأعظم، وكان الخطيب من أبناء طرابلس وهو الشيخ أبو العباس أحمد، الذي "أَبْدَى

خُطبة بالغ فيها في أمر الحاج وعَظَّمَ، مع فصاحة المنطق وانطلاق اللّسان، والإتقان في تحكيم الألفاظ والإحسان"[١٠]. وكذلك ابن عبد القادر -في رحلته الحجازية- عند نزوله بطرابلس سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٨م، نقل لنا نَصّ خطبة جمعة كان قد ألقاها الشيخ محمود بن باكر أفندي، في المسجد الذي بَنَاهُ يوسف باشا القَرمَانلّي (١٢١٠-١٢٤٦هـ/١٧٩٥-١٨٣٠م)، حيث خَطَبَ خُطبةً بَديعةً ضَمّنَهَا فضل الذهاب للحَجّ والإيّاب منه، وذكر فيها الأماكن الشريفة، وذلك بمناسبة عودة الركب المغربي من الحَجّ ونزوله على البلد، وأيضًا لعَزم سَفَر الركب الطَّرابلسيّ للحَجّ[١١].

كما شارك بعض الحُجَّاج المغاربة ولا سيّما العلماء منهم في هذه التوعية الدينية، وذلك عند مرورهم بالمدن الليبية سواء في طريقهم ذهابهم للحَجّ أو عند العودة منه. فَيُخبرنا ابن الطيب الشرقي الفاسي، أنه أَلْقَى خُطبة جمعة في قرية الدفنة من أرض البطنان، وكانت خُطبة حَافلة جَامعة مع قلَّة الألفاظ وجَزالة المعاني السَّهلة للحُفَّاظ، ضَمَّنها الكثير من المواعظ واللّوم والإيقاظ من الغفلة، وتذكير الناس بمخاطر الغَيبة والنَّميمة وغير ذلك، كما بسط القول فيها على الانتداب للحَجّ وذكر فضائله، والأحاديث التي وردت عن النبي (ﷺ) في فروضه ونوافله[١٢].

وإلى جانب هذه الخُطَب كانت هناك محاضرات توعوية تفصيلية لمن يريد الحَجَّ من الناس، وكانت غالبًا ما تَردف الصلوات، وفيها تُلْقَى على أسماع الحاضرين دُرُوس عن أركان الحَجّ وموجباته وسُنَنه ومستحباته[١٣]. كما كان للعلماء والفقهاء والمشايخ الليبيين المرافقين لأركاب الحَجّ الليبية دورهم في توعية المقبلين على الحَجّ، فَيَستغلون طُول الرحلة ورتابتها في تعليم الحُجَّاج مناسك الحَجّ وأركانه وواجباته وسُنَنه، ويجيبون على أسئلة المسافرين بما يساعدهم في تأدية شعيرتهم[١٤]. وفي زمن المملكة الليبية (١٩٥١-١٩٦٩م)، أصبح هناك ما يُعرف ببعثة الوعظ والإرشاد، تكون مَهَمَّتها مرافقة الحُجَّاج الليبيين سواء كان السفر بَرًّا أو بحرًا (بالباخرة)، ويُلْقي أعضاؤها دُرُوس الوعظ والتوجيه للحُجَّاج في أثناء الرحلة وكذلك في الحرم النَّبَوي الشريف[١٥].

١/٢-استعدادات السُّلطة الحاكمة

كان على السُّلطة الحاكمة في ليبيا تجهيز ركب الحَجّ الذي سَيَنْضَمُّ له الحُجَّاج الليبيون من مختلف المدن والقرى والواحات الليبية. وكان من أهم ترتيبات السُّلطة الحاكمة هو اختيار شيخ الركب الذي سيقود قافلة الحُجَّاج. وفي آخر سنيّ العثمانيين في ليبيا كان تنصيب شيخ الركب الليبي يَتُمُّ عبر رسوم معروفة (بروتوكول). ففي عيد الفطر من كل سنة بعدما يُصَلّي الوالي ومعه كبار موظفيه -يتقدمهم رجال الدين والقُضَاة والْمُفْتي- صلاة العيد في الجامع، ينتقل بعدها إلى منزله ليَتَقبَّل التهاني بحلول هذا العيد. وفي هذا اليوم يُنَصَّب شيخ الركب لقيادة قافلة الحُجَّاج التي تتجه إلى الأراضي المقدسة، فَيَتَقَدَّم شيخ الركب المختار صباح أول يوم عيد الفطر من الوالي مباركًا بحلول العيد، فَيَمْنَحَهُ الوالي سَيفًا وفَرسًا وبَرنوسًا أحمر وصرَّة من المال[١٦].

وكان من الضّروري أنْ يَتَّصفَ شَيخُ الركب بعدة صفات تؤهله لتقلّد هذا المنصب والتشريف، فيجب أن يكون من علية القوم[١٧]، شجاعًا مقدامًا، متدينًا، ذا رأي حصيف وإيمان قوي، فكل تلك الصّفات تجعله يتمتع باحترام رفاقه وثقته في القافلة[١٨]. وكان من المعتاد أن يطلق على شيخ الركب اسم أمير الركب[١٩]، ولفظة أمير لها دلالة واضحة على عمق سلطانه على أفراد قافلته، فالأمير من الإمارة وهي الولاية، فهو بمثابة رئيس جمهورية على مواطنيه من الحُجَّاج، فهو الممثل الشرعي المكلف من أعلى سلطة في البلاد، له صلاحيات تامة على رعيته من الحُجَّاج، يحق له معاقبتهم أو توبيخهم إذا انحرف أحدهم أو بعضهم عن جادة الصواب، دون أن يكون على الأمير حرج أو محاسبة من أحد، فلذلك كان الحُجَّاج يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه.

وإلى جانب شيخ الركب كان هناك العديد من المعاونين والمساندين الذين لا يتم تَسيرُ قافلة الحُجَّاج بدونهم. أولهم الدَّال أو الدَّليل، وهو خبير الطريق، ومنفعته هداية الطريق، والدلالة على موارد الماء ومعاطنها، وتجنيب القافلة التَّيه في الصَّحَاري والبَراري[٢٠]. وكذلك العلامون[٢١]، ويكون لهم رايات عالية (أعلام)، ينشرونها وقت الحاجة؛ لتوجيه الحُجَّاج المتأخرين عن الركب -ولاسيما في القوافل الكبيرة التي

تمتد لمسافات طويلة- بحيث يتمكن من كان في آخر القافلة من مشاهدتها، ومن ثَمَّ يَهتدي للوجهة الصحيحة[٢٢]. وكان هناك ضاربو الطُّبُول، فالركب بحاجة إلى وسيلة لمخاطبة أفراده وإشعارهم بأوقات الراحة والنزول، وإعلامهم بمواقيت الصلاة، وموعد الاستيقاظ والرحيل[٢٣]، ولهذا فإن الطُّبُول الكبيرة كانت تُستعمل أداةً لتجميع أهل الركب وإبلاغهم ما هم في حاجة إلى الاستماع إليه[٢٤]، كونه علامة مُتَّفَقًا عليها في ذلك. هذا إلى جانب البَرَّاحين، ومفردها بَرَّاح؛ وهو المكلف بالمناداة وإخبار أهل الركب بما هو مطلوب منهم أو ما يُستجد من أخبار[٢٥].

ولا نَنسى خَدَمَة الركب، وهم المكلفون بأعمال الركب المختلفة، وتشمل طُهَاة الطعام، والورَّادين الموكلين بجلب الماء وسَقّي الركب[٢٦]، وكذلك الجَمَّالون[٢٧] وهم سائسو الجمال، بالإضافة إلى السَّرَّاجين والحَدَّادين والحَمَّالين، وغيرهم[٢٨].

وآخر ما نختتم به حديثنا عن تجهيزات السّلطة الحاكمة لركب الحُجَّاج، هو توفير الحماية اللازمة له من قُطَّاع الطُّرُق والنَّهَّابة واللُّصُوص، الذين قد يترصدون لهم في الطريق، ولا سيما أنَّ طريق الحج في ليبيا في وقت من الأوقات كانت قد كَثُرَت بها ظاهرة تَعَدّي الأعراب على قوافل الحُجَّاج، الأمر الذي كان مَحَلَّ شكوى وتَذَمُّر الحُجَّاج المغاربة المارين بليبيا وغيرهم، مما جعلهم يُدَوّنُونَ ذلك في كتب رحلاتهم، ويَسْدُون النُّصْحَ لمن يرغب في الحَجّ بعدهم، لاجتناب بعض المناطق التي تكثر بها الاعتداءات على الحُجَّاج[٢٩].

فَعَن اللُّصُوصية والسَّرقة كان من ضمن تجهيزات قافلة الحج تنصيب عدد من الخُفَراء (الغُفَراء) عليها، يحافظون على الركب ويُجيرونه من اللُّصُوص[٣٠]. أما فيما يخص قُطَّاع الطُّرق والنَّهَّابة فكان على السُّلطة الحاكمة في ليبيا توفير قوة من الفرسان لحماية ركب الحُجَّاج وتأمين سلامته إلى وصوله للحجاز ثم العودة منها. وإذا كان في ركب الحُجَّاج شخصيات مهمة من الأسرة الحاكمة أو من كبار رجال الدولة فإنَّ قوة حماية الركب تكون أكثر عددًا وأشد قوة بما يُلائم مكانة المرافقين لركب الحُجَّاج وأهميتهم[٣١]. وفي هذا الخصوص يخبرنا الرحالة الورثيلاني عن ركب الحَج الفَزَّاني، الذي كان يحج فيه تلك السنة (١١٧٩هـ/١٧٦٥م) سلطان إقليم فَزَّان، فكان معه "عسكر عظيم لا يصل إليه الضَّعيف إلا بعد شدة كبيرة وانتظار قَوِيّ"[٣٢].

ولغَرض الحُصُول على الحماية نجد الكثير من الحُجَّاج المغاربة عندما ينزلون في طرابلس للراحة والتزود بالمؤن، يتركون أركابهم وينضمون إلى الركب الطرابلسي إذا رأوا فيه أنه سَيُوَفّر لهم حماية وأمانًا أفضل من أركاب بلدهم التي انطلقوا منها. ومن ذلك ركب الحج الطرابلسي الذي كان حاجًّا فيه آنذاك عبد الرحمن آغا البَديري (١١٣٣-١٢٠٧هـ/١٧٢٠-١٧٩٢م)، تقريبًا سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٨م[٣٣]، صُحبة زَوجه وحاشيته، وكان وقتها سفيرًا لوالي طرابلس (ليبيا) علي باشا القَرمانْلّي (١١٦٨-١٢٠٨هـ/١٧٥١-١٧٩٣م)، فقد انضَمَّ إلى ركبه عدد من الأغنياء والفقراء التابعين لقافلة مراكش عند نزولها في طرابلس، وذلك للاستفادة من حمايته[٣٤]. وكذلك الرحالة الورثيلاني الذي انضم إلى الركب الفَزَّاني؛ لأنه أكثر قوة وحماية من الركب الذي كان فيه وهو الركب الجزائري، وفي الوقت نفسه فإنه رأى السَّفَر مع سُلطان فَزَّان لما ظهر فيه "من الحكم والعدل"[٣٥]. حسب قوله.

١/٣-استعدادات شخصية

لما كانت رحلة الحج بواسطة الأركاب البَرّيَّة والقوافل تستغرق من الحُجَّاج الليبيين حوالي عام كامل ذَهابًا وإيَّابًا قد تزيد أو تنقص، لذلك كان على كل حاج توفير مستلزماته الأساسية بما يكفيه طول مدة الرحلة وفترة الإقامة في الحجاز. كان أولها الملابس واختيار المناسب منها بما يتوافق مع الطقس شتاءً أم صيفًا، وكذلك الملابس المخصصة في أثناء سير القافلة والأخرى عند الوصول للأماكن المقدسة ولا سيما ملابس الإحرام. ولا يعاني الحاج الليبي صعوبة في توفير تلك الملابس، فالذي لا يستطيع نسجه في البيت، يجده متوفرًا في سوق مدينته أو في أسواق أغلب المدن الليبية الساحلية الكبيرة في طريق سَفَره، من أمثال أجدابيا وبرقة اللاتين اشتهرتا ببَيع ثياب الصوف والحرير والأكسية الثمينة، وكذلك طرابلس التي كان يصدر منها الصوف المرتفع والطيقان النفوسية الفاخرة من صناعة اليهوديات[٣٦]. لذلك نجد الكثير من الحُجَّاج المغاربة يشترون ملابسهم

من المدن الليبية ولا سيما طرابلس مَحطّ راحة الأركاب المغربية وتَزودها، فليس من الغريب أن نجد العالم والرحالة الشهير أبا سالم العَيَّاشي (ت: ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م)، يُوَصّي تلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي وهو في بدء طريقه للحَجّ سنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، أنْ يشتري ملابسه من جربة أو طرابلس، وإنْ لم يشترها من هناك فَعَلَيه شراؤها من بلدة سيدي أحمد زروق بمصراتة، وذلك قبل الدخول في أرض برقة الوعرة[٣٧].

وبعد الملابس يأخذ الحاج الليبي في تجهيز زاد الطريق ومَؤونته من الأكل، الذي يغلب عليه مكونان: الشعير والقمح. فمن أشهر أطعمة الحُجَّاج الليبيين التي يُجهزونها للحج منذ القدم حتى أصبحت إرثًا تتوارثه الأجيال إلى يومنا هذا وكأنه ركن من أركان الحج لا يصح بدونها. هي السَّويق الذي يُعرف بـ(الزّمّيتَة أو الزّمّيطة)[٣٨]، التي تُعَدُّ من دقيق الشعير المحمص بالنار المختلط بالملح والبَهَارات المختلفة (الكَمَامين)، وتجهز الوجبة بعد خلط الدقيق بالماء والزيت أو الزبد. كما يجلب الحاج الليبي معه (الرُّوّين أو الرُّوّينة)، وهي شبيهة بالزميتة في أصلها، وإنْ كان في دقيقها المزيد من البَهَار، بالإضافة إلى أنه عند إعدادها للأكل يضاف إليها أحيانًا قطع من البلح، ويخفف قوامها عن الزّمّيتَة بزيادة المياه إليها. ويخبرنا الرحالة الألماني فريدريك هورنمان في رحلته مع الحُجَّاج الليبيين سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م في طريق عودتهم من مصر إلى أوجلة ومُرزق وفَزَّان، أنّ الرُّوّين شَكَّلَت طعامًا دائمًا لهم لعدَّة أيام، وتتضح أهميتها حين ينذر الوقود -الذي تُشْعلُ به النيران- أو الماء أو يعز الوقت[٣٩].

وإلى جانب دقيق الشعير والقمح يجلب الحُجَّاج معهم (البشماط) المصنوع من الدقيق، وكذلك الخل والحوامض، والرّز والشّعيرية إذا كانا متوافرين في أسواق طرابلس[٤٠]، وأيضًا الكُسْكُسي والبَصل وشَحم الضَّأن والزيت والزبد، ويُضيف الغَنيُّ منهم إلى هذه القائمة الكعك واللَّحم الجاف (الْمُقَدَّد)[٤١]، إلى جانب البقوليات اليابسة من العدس والحمص والفول وغيره[٤٢]. وفيما يخص السّمن والزُّبد والعَسل والشّحم والودك، فالذي لم يأخذ حاجته من الحُجَّاج منها من طرابلس، فلا يأكل همًا فإنها متوافرة دائمًا في برقة وتحديدًا في منطقة الجبل الأخضر ودرنة، وبأرخص الأثمان، الأمر الذي أثار استغراب الكثير من الحُجَّاج المغاربة ودهشتهم[٤٣]، بل نجد أبا سالم العَيَّاشي يوصي تلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي أنْ يَشتريَ من طرابلس من السّمن واللّحم ما يوصله إلى الجبل الأخضر وهي مسافة شهر تقريبًا، وهناك يشتري الكمية التي تكفيه في باقي رحلته، إذ لا يوجد في البلد أرخص من الجبل الأخضر في زمن الخصب[٤٤].

والحال نفسه فيما يخص اللَّحم المجفَّف وهو المعروف بـ(الْقديّد)، فهو متوافر بكثرة في برقة، وقد أخبرنا الْعَبْدَري (ت: بعد ٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، بأن عرب برقة يُسَمّونه (الصّفيفُ)، وأنهم قد عرضوا على ركب الحُجَّاج -الذي هو فيه- شراء لحم ظَبْي مُقَدّد[٤٥]. هذا إلى جانب ما يُعمل منه من اللّحوم المعروفة من الضّأن، والماعز، والأبقار، والجمَال[٤٦]. وعلى ما يكون، بعد أن يُجهّز الحاج اللّيبي مَلبسه ومَأكله يأخذ في تجهيز الدَّواب التي سيمتطيها في رحلته، والمعتاد أن تكون من الإبل، لأنها تتحمل وتصبر على مَشاق السَّفر ولا سيما سَفر الصحراء. وقد اشتهرت إبل طرابلس -في أدب الرحلات الحجازية المغربية- كونها أفضل الإبل لأنها أصلب وأصبر وأصح من غيرها[٤٧]، حتى قيل في أمثال الحُجَّاج: "جَمَل طرابلسي وقرْبَة مصرية"، لأنَّ قرَب طرابلس رَديئة الدّباغ[٤٨]. وكان على كل حاج توفير أكثر من دابة للركوب ونقل المتاع وللاستبدال في الطريق، وإلى جانب الإبل كانت البغال تُستخدم أيضًا في طريق الحج كونها أسرع من الجمال، وأفضل امتطاءً في أرض برقة للحُجَّاج القادمين من طرابلس، وتكون لها فائدة عندما يلزم الأمر أن يكون الحاج في عجلة من أمره، مثلاً عند ذهابه لسُقْيَا الماء والمكان بعيد، ويريد أنْ يَسبق إليه، فتكون عونًا له على ذلك دون الإبل[٤٩].

ومن كان ترافقه النساء في حَجَّته فيلزمه الأمر توفير هوادج مُغَطَّاة بمظلات توضع على ظهور الإبل، ولا سيما إذا كانت النساء من علية القوم من الأغنياء أو أصحاب السلطة في الدولة أو من المقربين منهم. ففي تلك الحالة عندما تتوقف قافلة الحَجّ للراحة، تُنقل نساؤهم عادةً إل الخيام، حيث ينتظرهن السجاد وكل وسائل الراحة، وإن كان في معظم أنحاء الصحراء لم يكن بالإمكان استخدام

وسائل الراحة تلك؛ لأنَّ إعدادها يتطلب الكثير من الوقت وظروف رحلة الحَجّ قد لا تسمح بذلك(٥٠). وفي المقابل قد يحدث أحيانًا أنْ تجدَ من الناس من يَحُجُّ دون أنْ يكون معه أقل قدر من الاستعدادات والمؤونة، معتمدًا على مساعدة الحُجَّاج الآخرين المرافقين له في الركب(٥١).

ثانيًا: الرحلة إلى الحَج

٢/١-الوسائل والطُّرق المستخدمة للذهاب إلى الحَجّ

قد كانت هناك وسيلتان لسَفر الحُجَّاج الليبيين إلى الحجاز، إما عن طريق البَرّ أو البَحر. وفي حقيقة الأمر أنّ أغلب الحُجَّاج الليبيين والمغاربة بصفة عامة كانوا خلال العصور الإسلامية الأولى والوسطى يُفضلون الطريق البرية، على الرغم من طول الرحلة ومشقتها وكثرة الأخطار فيها؛ وذلك لأن عواقب ركوب البحر لم تكن آمنةً في ذلك الوقت، فَمن ناحية نشاط غارات القراصنة ولُصُوص البحر المسيحيين التي راح ضحيتها الكثير من السُّفُن التي تنقل الحُجَّاج، الذين انتهى أمرهم ما بين غريق أو أسير، ومن ناحية أخرى عدم وفاء بعض أصحاب السُّفُن بتعهداتهم في نقل الحُجَّاج، وهو أمر شائع شُيُوع القَرصنة(٥٢). هذا إلى جانب بدائيّة تقنية المراكب المستخدمة في السَّفر وعدم أمانها في ذلك الوقت، فكم من مركب ابتلعه الْيَمُّ وهو في الطريق، ومن قرأ رحلة ابن جبير أو رحلة ابن بطوطة اطَّلَعَ على جانب من خطر الأسفار وركوب البحار في تلك العصور(٥٣). ولنا مثال في رحلة القاضي أبي بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ/١١٤٨م)، إلى الحجاز سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، حيث تَحطَّم بهم المركب وهم في البحر، ووجد ابن العربي نفسه بالقرب من سواحل برقة، فخرج من البحر خروج الميت من القبر، ونزل على بيوتات بني كعب بن سليم على السّاحل الليبي(٥٤).

لذلك كله رغب معظم الحُجَّاج المغاربة خلال العصور الإسلامية الأولى والوسطى في السّفر عبر البَرّ متحملين مشاقه.

(٢/١) ١-السَّفَرُ بَرًّا:

كان من أهم الطُّرُق البَريَّة التي استخدمها الحُجَّاج المغاربة عامةً والليبيون خاصة للذهاب إلى الحَجّ ما يأتي:

الطريق السّاحليّ الشَّماليّ: انطلاقًا من فاس عبر تلمسَان والجزائر، ثم تونس، إلى أنْ يَتَّصلَ بالطريق السّاحلية من بداية التراب الليبي غربًا، نزولاً إلى طرابلس(٥٥)، وفيها تجتمع أركاب الحَجّ المغربية للتزود بالمؤن. ومن طرابلس يخرج رَكبُ الحَجّ الطرابلسي سواء كان لوحده أو رفقة رَكب مَغربيّ آخر، فَيُواصل طريقه ويمر ببعض المدن والمناطق الساحلية الليبية، أهمها: تاجوراء، ولبدة، وساحل حامد (الأحامد)، وزليتن، ومصراتة، والهايشة (الهيشة)، وقصور حَسَّان، وسرت، والأحمر (وادي الحمر)، والشقة، واليهودية، وأم الغرانق، والمنعم، وأجدابيا، وسلوق(٥٦). ومن سُلُوق تنقسم الطريق إلى طريقين، كل منهما تستخدمها أركاب الحَجّ، وهي كالآتي:

الطريق الأولى: من سُلُوق تُكْملُ مَسيرها عبر السّاحل الليبي بمحاذاة البحر مرورًا بأرض برنيق (ابن غازي = بنغازي)، وبرقة (المرج)، وطلميثة، وسُوسة، ثم عبر البطنان(٥٧)، وصولاً إلى التّميمي، ومنها إلى الغزالة، ودفنة، ثم العقبة الكبيرة، من بعدها العقبة الصغيرة، امتدادًا إلى الإسكندرية(٥٨)، ومنها إلى أرض الحجاز عبر سيناء. وهذه الطريق هي أيسر الطرق وأقلها مَشَقَّة، وأكثرها عُمرانًا واستخدامًا، وكانت معروفة في أساسها من قبل مَجئ المسلمين إلى ليبيا، غير أنّ ظهورها بشكل معين في موسم دائم من كل سنة لغَرض ديني مستمر قد صبغها بصبغة الْجدَّة وأكسبها طابعًا جديدًا(٥٩)، حتى صار فيما بعد يُعرف بطريق "الحَاج"، أو "الحَاجية"، كما يُسَمّيها أهل ليبيا(٦٠)، نسبة إلى الحاج أو الحَج، متناسين اسمه الذي عرفته به المصادر العربية للجغرافية الإسلامية، وهو "الجادة"(٦١).

والثانية: هي الطريق التي يعرفها الحُجَّاج المغاربة بالسّروال، فَلمَّا تخرج من سُلُوق تبتعد عن الساحل وتنحدر عن يمين الجبل الأخضر، أي إلى جنوبه، مرورًا ببعض المناطق الداخلية مثل الخروبة، ووادي سمالوس، وقصر المخيلف (لَعَلَّهُ المخيلي)، والغزيات. بعدها يعود

الطريق إلى الساحل عند التّميمي[٦٢]، مرورًا بالمناطق التي ذكرناها أعلاه إلى الإسكندرية. وهذه الطريق أكثر مَشَقَّة من الأولى، حيث إنه لما تخرج من سُلُوق لا تجد الماء فيها إلا بعد سبعة أيام إلا ما غادرته الأمطار في قيعان الأرض، وكانت أركاب الحَجّ تلجأ إليه مضطرة أحيانًا، مخافة قطاع الطُّرَق إذا كثروا بالسّاحل عند المرور بحذا الجبل الأخضر[٦٣].

الطريق الصَّحْراوي: منطلقها درعة من أرض المغرب، مرورًا بالتّوات وتديكلت عابرًا الصحراء المغربية، إلى أنْ يصل إلى أرض ليبيا من عند إقليم فَزَّان جنوبًا، فَيَمُرُّ عَبره نُزولاً عند بعض مُدُنه وواحاته من أهمها: جرمة، مُرزق، تراغن، زويلة، تمسة، الفقهاء، زَلَّة، ومنها إلى واحة أوجلة جنوب إقليم برقة، امتدادًا إلى واحة سيوة بمصر، وصولاً إلى النيل، ومنه إلى القاهرة عبر الأراضي المصرية، إلى عقبة أيلا -من أرض الأردن- مَحَطّ التقاء الركبان التي بأرض الشام وغزة وغيرها، ثم إلى يَنْبُوع أول الأراضي الحجازية، استمرارًا إلى رابغ - وهو مَحَلُّ إحرام أهل مصر والمغرب الإسلامي- إلى أنْ يَصلَ إلى مَكَّة المكرمة[٦٤]. وهذا الطريق كان يستخدمه أهل مُدُن الجنوب الليبي وواحاته وقُرَاه سواء من جهة فَزَّان أو جنوب إقليم برقة، فهو مُلتقى لأركاب الحَجّ الليبية الخارجة من تلك المناطق مع أركاب المغرب، والسودان، وبلاد شنقيط (موريتانيا) القادمة من بُلدانها[٦٥].

(١/٢) ٢-السَّفَرُ بحرًا:

أسلفنا الذكر أنّ أغلب الحُجَّاج الليبيين والمغاربة بصفة عامة كانوا خلال العصور الإسلامية الأولى والوسطى يُفَضّلون طريق البَرّ للسفر إلى الحجاز، وذلك لأنَّ عواقب ركوب البحر لم تكن آمنة في ذلك الوقت. غير أنَّ هذا لا يعني أنه لا يوجد من الحُجَّاج من كان يَقبل المغامرة مُوَكّلاً أمره إلى الله، ويسافر عبر البحر، اختصارًا للوقت وتَجَنُّبًا لطُول الطريق البَرّيَّة ومَشَقَّتها. ولا سيما أنه كانت هناك خطوط بحرية مُتعَدّدة ومُنْتَظمَة ما بين بلاد المغرب ومصر، منها الخط الذي ذكره أبو عبيد الله البكري (ت: ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، خلال القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، الذي تنطلق فيه السُّفُن من الْمَهْدِيّة بتونس إلى ميناء الإسكندرية بمصر، مرورًا بعدَّة مَوانئ ومَراس ليبية، منها ميناء طرابلس، ودرنة، ومَرْسَى تينى، ومَرْسَى الزيتونة، ومَرْسَى عمارة، وصولاً إلى الإسكندرية[٦٦]. وقد يكون هذا الخَطُّ البَحريّ هو نفسه الذي استخدمه ابن العربي في رحلته سالفة الذكر، التي تحطم فيها مركبه في البحر قَبَالة أرض برقة، حيث انطلقت رحلته من المهدية في طريقها إلى الحجاز[٦٧].

كما كان هذا الخَطُّ يُبْحرُ عكسيًا، فقد أخبرتنا وثائق الْجنيزَا عن نشاط الحركة البَحْريّة التي كانت ما بين مصر وطرابلس خلال العصور الإسلامية الوسطى، فَممَّا ذكرته خَبَرَ إبحار أربع سُفُن من الإسكندرية إلى طرابلس في يوم واحد، مرورًا ببعض الموانئ الليبية خلال رحلتها[٦٨]. ومن المؤكد أنَّ الحُجَّاج الليبيين والمغاربة - ممن كانوا يرغبون في السفر بحرًا آنذاك- كانوا يستخدمونه عند عودتهم من الحجاز عن طريق مصر، على أنّه من المرجح أنَّ نُزُول السُّفُن في بعض الموانئ والْمَرَاسي اللّيبية قبل وصولها لطرابلس، يكون عند الطّلب والحاجة، وتختلف من سفينة إلى أخرى حسب ظروفها وخط سَيرها المتفق عليه ما بين صاحب السفينة (الرُّبَّان)، والراكبين.

ومهما يكن من الأمر، فإنَّه مع تقدم تقنية صناعة السُّفُن عبر العصور، وهيمنة الأسطول الإسلامي العثماني على البحر المتوسط خلال العصور الحديثة، وحمايته للسفن الإسلامية من بطش القراصنة المسيحيين، كل ذلك ساعد على ازدياد حركة سفر الحُجَّاج الليبيين إلى الحجاز عبر البحر، فيخبرنا الورثيلاني -في رحلته الحجازية- عند نزوله بطرابلس، أنَّ جزءًا من ركبه الجزائري كان قد انفصل عن الركب البَرّيّ، وفَضَّلَ ركوب البحر إلى الحجاز، وكانوا أكثر من ثلاثمائة حاج أغلبهم من الفقراء والصَّعاليك، وكان في صُحبتهم عدد من الحُجَّاج الليبيين، وذلك تحت الرعاية المباشرة لوالي طرابلس آنذاك علي باشا القرمانلي، الذي أركبهم من غير أنْ تُؤْخَذَ منهم أُجْرَة لوَجْه الله تعالى، وقد انطلقت الرحلة من طرابلس ووصلت إلى الإسكندرية خلال اثني عشر يومًا من الإبحار[٦٩].

وكذلك حسن الفقيه حسن (١١٩٥هـ-ما بعد ١٢٨٣هـ/١٧٨٠-ما بعد ١٨٦٦م)، يُخبرنا في يومياته -في

أواخر العهد القرمانلي وأوائل العهد العثماني الثاني- عن رحلات بَحرية كثيرة ومتعددة كانت تنطلق سنويًا من ميناء طرابلس إلى الإسكندرية وعلى متنها الكثير من الحُجَّاج الليبيين، وما يقابلها من رحلات عكسية عند عودتهم من الأراضي المقدسة، ركوبًا لسُفُن من الإسكندرية إلى طرابلس[٧٠]. وفي هذه الرحلات كانت تُستخدم -إلى جانب السُّفُن (البواخر) التركية- سُفُن من جنسيات أوروبية مختلفة مخصصة للرحلات الحجازية، ففي حَوالي سنة ١٩٠١م، كانت هناك سُفُن إنجليزية مُؤَجَّرة لنقل الحُجَّاج الليبيين بالمئات من طرابلس إلى مكة[٧١].

وفي سنة ١٩١١م وهي آخر سنة من الحكم العثماني لليبيا، يحدثنا محمد الأُسْطَى (١٣١٧-١٤١٠هـ/١٨٩٩-١٩٨٩م)، عن رحلته الحجازية لما كان صغيرًا صُحبة والديه وإخوته، وهي كانت شبه هروب من المعارك الجارية آنذاك بين الإيطاليين من جهة والأتراك والمجاهدين الليبيين من جهة أخرى. وعلى ما يكون، فإنَّ رحلته كانت على ظهر باخرة انطلقت بهم من ميناء طرابلس، مرورًا بعدة مَوانئ ليبية في طريقها لتُنْزِلَ رُكَّابًا ويصعد آخرون وهكذا. وكان خَطُّ سَيرها: الخمس، مصراتة، بنغازي، درنة، طبرق، إلى أنْ تصل الإسكندرية، ومنها إلى حيفا بواسطة باخرة أخرى، ومن حيفا بالقطار إلى المدينة المنورة مرورًا بدَرعة، ثم عَمَّان بالأردن، ومعان، وتبوك، ومدائن صالح، وغيرها من المحطات التي تَوَقَّف بها القطار العُثماني[٧٢].

وعلى ما يكون، فلا يَعني نشاط رحلات الحَجّ الليبية بواسطة السُّفُن خلال العهد العثماني الثاني (١٨٣٥-١٩١١م)، أنه قد قَضَى على طريقة الحج بواسطة القوافل البرية، بل على العكس، فإنَّ الحَجَّ برًّا ظَلَّ هو الغالب على هيئة الحَجّ الليبي، واستمر على ذلك إلى حوالي منتصف القرن العشرين، وإن كان قد اسْتُبْدِلَت الجمال والدَّواب فيه بالسيارات الحديثة[٧٣]، ولله الحمد والمنة على نعمة التطور العلمي وما يوفره من راحة وتوفير للوقت والجهد.

٢/٢ـ مَسير الحُجَّاج إلى الأراضي المقدسة والعودة منها

لما يحل موسم الحَج، وبعد أنْ تُجَهّز السُّلطة الحاكمة في ليبيا قافلة الحُجَّاج بما يلزمها، ويُنَصَّبُ شيخ الركب أو الأمير لقيادتها، عند ذلك يَتَنَادَى الحُجَّاج الليبيون من مناطقهم وقُرَاهم المختلفة -التي بجوار طرابلس أو جنوبها كجبل نفوسة وغدامس[٧٤] وغيرها- للالتحاق بالقافلة والاجتماع بها، التي تكون معسكرة في وقتها -بقيادة شيخ الركب- في السّهل الرملي لطرابلس خارج أسوار المدينة[٧٥]، غير بعيد عن أماكن نزول الأركاب المغربية الأخرى القاصدة للحَج[٧٦]، التي كانت تَنزل عادةً في الْمَنْشِيَّة[٧٧]، وفي حَيّ الزَّرارية وهو المعروف اليوم بحَيّ الظَّهرة[٧٨]. وهناك يُنَظّمُ الحُجَّاج التابعون لهذه القافلة أنفسهم تحت خيام من كل الأحجام والألوان انتظارًا لموعد السَّفر، ولا شيء يُضَاهي منظر الخيام التي تبدو -في مسافة قليلة- مثل مدينة صغيرة من الألوان[٧٩].

وبعد عدة أيام من انتظار وفود الحُجَّاج القادمين من مناطقهم تتأهب القافلة للمَسير، وسواء خرج الركب الطرابلسي (الليبي) لوحده[٨٠]، أو صُحبة غيره من الأركاب المغربية مكونين قافلة[٨١]، وسواء كانت قيادة هذه القافلة عند أمير الركب الطرابلسي، أو عند أحد أمراء الأركاب المغربية الأخرى المترافقة مع بعضها، فإنّ يوم انطلاق قافلة الحُجَّاج وخروجها من طرابلس يكون يومًا مَشهودًا[٨٢]، مَليئًا بالاحتفالات والأهازيج، وازدحام الْمُشَيّعينَ من أقارب الحُجَّاج وأصدقائهم، الذين يمشون مع القافلة في بعض الأحيان لمسافة أكثر من يوم، من طرابلس إلى منطقة تاجوراء لتوديعهم الوداع الأخير متمنين لهم الحفظ والسّلامة في سفرهم[٨٣].

وتستمر قافلة الحُجَّاج في سَيرها سواء كانت عبر الطريق السّاحليّة الشّماليّة إذا كان رَكْبُ الحُجَّاج من طرابلس، أو على الطريق الصَّحْراوية إذا كان ركب الحُجَّاج من فَزَّان ومن جنوب إقليم برقة. وفي أثناء السير يصدر أمير الحج أمرًا لمن يرغب في الحَجّ من أهالي المناطق التي تمر بها القافلة للالتحاق بها، فَيَستقبل أهالي المدن التي تتوقف عندها القافلة أمير الحَجّ ببهجة بالغة لمكانته الدينية، فَسَعيد الحظ هو من يستطيع تقبيل يده، وإن لم يستطع فَعَبَاءَته. ويَمضي أمير الحَجّ في مَوكب فاخر تصحبه الأعلام والطبول، فيتزاحم الناس لرؤيته، وتتزاحم النّسْوَة فوق أسطح المنازل التي يمر أمامها موكب أمير الحج لرؤية المنظر

المهيب، مُطلقةً الزغاريد الكثيرة التي تَدُلُّ على البهجة والفرح[٨٤].

وبخُصوص أمير الحَجّ فعندما تَنْضَمُّ لقافلة الحَجّ عدة أركاب من مُدُن ومناطق مختلفة، فَيُصْبِحُ فيها عندئذ أكثر من أمير؛ كل واحد مُكَلَّف على جماعته بطبيعة الحال، وهنا يكون الأمر شورى بينهم -إذا اتفقوا- لاتخاذ القرارات بما يفيد مصلحة الجماعة وسلامة مَسير القافلة. وفي بعض الأحيان تُسَلَّم قيادة القافلة لأحد الأمراء بتنازل وطواعية من أمراء الأركاب الأخرى، وهو مثلما حصل عند الركب الفَزَّاني الذي انضم إلى الركب الموريتاني -الذي كان بصُحبته الرحالة البرتلي- فَعَلَى الرغم من أنَّ حُجَّاجَ الركب الفَزَّانيّ كان أكثر عددًا من الركب الموريتاني، إلا أنهم سَلَّمُوا القيادة لأميره بكل تَواضع ومَحَبَّة، مما كانوا محلَّ احترام البرتلي ومَدحه، مُشيدًا بطيبتهم وأدبهم وتواضعهم[٨٥].

وهكذا يقطع رَكْبُ الحُجَّاج الليبيين -مع غيره من الأركاب المغربية- السَّاحل الليبي كُلَّه من غربه إلى شرقه، مُنضَمًّا إليه كل من رَغبَ في الحَجّ من أهالي المدن والقرى الليبية التي في طريق القافلة، حتى تصل إلى مصر، فيكون حجمها قد تزايد مع طول الطريق وانضمام الحُجَّاج إليها تباعًا، ولا سيما إذا كان مُبتدأ القافلة من فاس أو مراكش، مثل القافلة التي كان بها الركب الطرابلسي الذي حَجَّ فيه عبد الرحمن آغا البديري وأسرته، حيث لَمَّا وصلت إلى مصر كان قد بلغ عدد الإبل التي فيها حوالي الألف، وعدد الحُجَّاج ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف حاج.[٨٦]

وهناك في مصر كان عليهم تَدَبُّر أمرهم في كيفية الوصول إلى الحجاز، فَبَعض حُجَّاج الأركاب -وهم قلَّة- يُفَضلّون طريق البحر من السّويس إلى الحجاز نُزُولاً في ميناء جدَّة[٨٧]، أما بقيتهم فَيُسَافرون مع أركابهم بَرًّا رفقة الركب المصري، الذي ينطلق ومعه كسْوَة الكعبة المشرفة. وهو أفضل الأركاب وأكثرها تسليحًا ونظامًا، فليس ثمة عراك أو مشاكل أَلْبَتَّه في أثناء الطريق لمحاولة فَرد أو جماعة إحراز السَّبق أو التَّقدم[٨٨]. لهذا نجد الركب المغربي كثيرًا ما يَلْتَحقُ بالرَّكْب المصريّ في مَسيره إلى الحجاز، وأحيانًا كان أمير الركب المغربي يُسَلِّمُ قيادة ركبه لأمير الركب المصري، مثلما حدث مع ركب الحجّ المغربي سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م، الذي كان به الرحالة ابن مليح السراج (مجهول الوفاة)، وكان معهم ركب الحج الليبي من أهل فَزَّان وأوجلة، ففيه سَلَّمَ أمير الركب المغربي القيادة لأمير الركب المصري، لما رَأَى فيه "من العلم والعمل، وكبَر السّن وفَصَاحة اللّسان، وقوة الحزم والضَّبط، والتَّيقظ للأمور"[٨٩].

وفي مَحَلّ التقاء الأركاب المغربية مع الركب المصري في منطقة البركة بالقرب من النيل، تنطلق قافلة الحُجَّاج الكبرى بانطلاق الركب المصري مع من رافقه من الأركاب المغربية على مدة أربعة أيام متواليات، كل يوم مخصص لركَب، ابتداءً بالركب المصري وانتهاءً بركب المغاربة والتكرور[٩٠]. فَيَعبرون الأراضي المصرية إلى عقبة أيلا -من أرض الأردن- وهي محطٌّ الالتقاء مع الركبان التي بأرض الشام وغزة وغيرها، ثم إلى يَنْبُوع أول الأراضي الحجازية، فيكون دخول قافلة الحُجَّاج إليها بقيادة أمير الركب المصري، في "هيئة عظيمة الفخامة، دالة على عُلُوّ القَدر وسعَة الفَخَامة، ونَشر من الرايات والأعلام ما لا تحيط بوصفه ألسنة الأقلام"[٩١]. وبعدها تستمر قافلة الحج في المسير على أرض الحجاز، مرورًا برابغ -وهو مَحَلّ إحرام أهل مصر وليبيا والمغرب الإسلامي- إلى أنْ تَصلَ إلى مَكَّة المكرمة[٩٢].

وعندها يَنشغل الحُجَّاج بأداء أركان الحَجّ وواجباته بدايةً من طواف القُدوم وانتهاءً بطواف الوداع. وفي العصور الحديثة وتحديدًا زمن العثمانيين، أصبح هناك ما يُعرف بالمطوّفين والمزوّرين، وهم مخصصون لخدمة الحُجَّاج بالأجر. فلا بُدَّ لقاصد الحجاز أن يكون له علاقة معهما ولا يكاد يستغني عنهما، المطوفون بمكة والمزورون بالمدينة. ولا سيما المطوفين ومفردها مُطَوّف، فهو يكاد يكون كالجمل في الحَجّ لا يُستطاع الحَجُّ بدونه، فهو الذي يكفل جميع حاجيات الحاج وأغراضه منذ أنْ يطأ أرض ميناء جدَّة إذا كان السَّفر من البحر، فيحمله إلى مكة ثم إلى عرفة، ثم إلى المزدلفة، ثم إلى منى، ثم يعود به إلى مكة، وإذا أراد الزيادة هَيَّأَ له جميع أسباب السَّفر إلى المدينة وهناك يُسَلّمُهُ إلى المزوّر الذي هو صاحب هذه المصلحة في المدينة لا يتجاوز عليه غيره فيها. وخلال ذلك كله يتحمل المطوف مسؤولية الحاج كاملة، مُوفّرًا له كل ما يَلزمه أو يَطلبه من مَلبس ومَآكل

ومَسكن ووسائل نَقل وعلاج وغيرها من الحوائج التي يحتاجها المسافر الحاج، بما فيها تعليمه جميع أُصُول الحَجّ، وتلقينه جميع الأدعية والكلمات والألفاظ التي ينبغي أنْ تُقَال في تلك الأمكنة المقدسة.[٩٣]

وعلى ما يكون، فقد كان للحُجَّاج اللّيبيين مُطَوفُوهم إسوة بغيرهم، ومع الوقت ومع ازدياد عدد الحُجَّاج الليبيين الوافدين سنويًا للأراضي المقدسة، استلزم الأمر أنْ يكون لهم أكثر من مُطوّف، فكان لطرابلس مُطَوَّفُوها، ومصراتة مُطَوّفُوها[٩٤]، وكذلك بنغازي، وهكذا. ويحدثنا محمد الأُسْطَى في رحلته الحجازية التي كانت ما بين سَنَتَي ١٣٣٠-١٣٣١ه/١٩١١-١٩١٢م، عن استقبال المطوّف لهم من أول وصولهم لأرض الحجاز بالمدينة المنورة، وهو مُطَوّف ليبيٌّ من عائلة الذَّهبي، نَزَحَ إلى الحجاز وأقام بها وعمل مُطَوّفًا للحُجَّاج اللّيبيين، وقد استقدم لهم عربة، وقَدَّمّ لهم العديد من التسهيلات، إلى جانب ضيافتهم. وكذلك لما دخلوا جدَّة كان في استقبالهم وكيل مُطَوّف الليبيين في مكة، وعندما حلوا بمكة نفسها استقبلهم المطوف وهو الحاج عبد العال سحبان، ليبي الجد والأب، استضافهم وعمل الواجب معهم -سواء هو أو وكلاؤه أو غلمانه- من إعداد السّكن، وتوفير المأكل والمشرب، وتأجير الجمال للمواصلات، وترشيدهم لأركان الحَجّ وفروضه من طَواف، وسَعْي، وعَرفة، ومِنَى...الخ[٩٥].

كما يخبرنا الشيخ محمد عبد الرحمن بن نصر في رحلته الحجازية، عن دور المطوفين مع الحُجَّاج الليبيين والخدمات والتسهيلات الكثيرة التي يقدمونها، فَمن أول ما نزلت بهم الباخرة في ميناء جدَّة كان في استقبالهم وكيل المطوف وهم عائلة الغراب، وعندما وصلوا لمكة كان في استقبالهم المطوف نفسه المخصص لعمل طرابلس، وهو من أبناء الدرويش من آل عابد، لهم قرنان في هذه المهنة، ويُقال إنَّ أُصُولهم من فَزَّان أو من المغرب[٩٦]. وقد أثنى ابن نصر عليهم خير الثناء في طريقة أدائهم لعملهم، فممَّا قاله فيهم: "كان لهم نظام وقيافة ومركز كالملوك، ويخدمون الحُجَّاج بكل ما في وسعهم، ويُقيمون بضيافتهم ومائهم ونورهم وسُكناهم وفراشهم وطَوافهم، ويُعدّون لهم الخيام الحَسَنة بعَرفات ومِنًى، فيقيمون فيها خمسة أيام كأنهم بمدينة ولا يفقدون شيئًا مما يلزمهم..."[٩٧]. ولا يكتفي ابن نصر بذلك بل جزاهم وخَلَّدهم ببَيت في قصيدته الدالية عن رحلته الحجازية، بقوله:

مُطَوّفُنَا الدّرويش من آل عابد
وقد بَسَطُوا بالفَضل عَنَّا لهم يَدًا[٩٨]

وهكذا، بعد أنْ يُكْمِلَ الحُجَّاج الليبيون فروض حَجّهم وهم في أحسن حال بمساعدة المطوفين، ينشغلون بعدها بالتَّسوق من أسواق مكة الحافلة بالبضائع المختلفة، ولا سيما تلك القادمة مع قافلة حُجّاج الهند، ففيها بضائع قيمة ومختارة يشتري منها الحُجَّاج من مختلف الأجناس في مكة[٩٩]. فإلى جانب ما يشتريه الحُجَّاج من هدايا لأسرهم ومحبيهم، ولتجارتهم أيضًا، فإنهم يسعون لشراء ما يَلزمهم في طريق عودتهم الطّويلة والشّاقة، وكان من العادة -أيضًا- أنْ يَشتريَ الحاج كَفَنًا له، وهو قطعة كَتَّان رقيقة بيضاء، يَغمسُهَا في ماء زمزم، ويحرص على حملها معه أينما ذهب بحرًا أو بَرًّا، فإذا حان أجله كُفّن فيها[١٠٠].

وبعد استيفاء متطلبات طريق العودة من مَلبس ومَأكل ودَواب وحوائج مختلفة، تنطلق قافلة حُجَّاج المغرب ومصر عائدة إلى مصر، بعد أنْ طاف حُجَّاجهما في اليوم السابق للانطلاق طواف الوداع وعيونهم تفيض دمعًا لمفارقة بيت الله الحرام، متمنين عدم فراقه. وتستغرق الرحلة عادةً أربعين يومًا، تكون قافلة الحَجّ فيها منظمة تنظيمًا دقيقًا لكيلا يتعثر مَسيرها، لاحتوائها على أركاب كثيرة وأجناس مختلفة وحُجَّاج بعَشرات الآلاف إلى جانب الدَّواب. فتكون القافلة مقسمة إلى قُطُر أو قطارات (أركاب)، كل ركب واسمه وعلى رأسه قائد مَسؤول، وأمامه جمل عليه جرسان كبيران: جرس على كل جانب من جانبيه، وثمة جمال أخرى عليها أجراس بعضها حول رقبتها وبعضها الآخر معلقة في أرجلها، فتظل هذه الأجراس تَدُقُّ طوال الليل حيث يكون السَّفَرُ ليلاً معظم الوقت تجنبًا لأشعة الشمس الحارة نهارًا، فيكون لرنين الأجراس صَوت مُحَبَّب بهيج، وفي الوقت نفسه تجعل الجمال نشطة. كما أنهم يُشعلون باللّيل شُعَلاً مرفوعةً على قضبان لهداية القافلة إلى الطريق، وكان لكل رَكب مشْعَل خَاصّ به

يميزه عن الأركاب الأخرى، حتى يُستدل كل حاج على ركبه من شكل المشعل، حيث يكون حامل المشاعل في مقدمة الركب، وكذلك في النهار تحمل تلك المشاعل من غير نار، لضَمان عدم حدوث ضياع وفوضى مع أعداد الحُجَّاج الغفيرة(١٠١).

وبهذا النظام تصل القافلة إلى مصر (القاهرة)، وعندها تنفصل الأركاب المصرية الكبيرة عن قافلة الحُجَّاج، وتستمر الأركاب المغربية في طريقها عبر الأراضي المصرية إلى أنْ تَصلَ إلى الأرض الليبية، وتَشُقَّ طريقها عبرها، وهنا تأخذ الأركاب الليبية تنفصل تباعًا عن القافلة، كُلٌّ يَتَّجه إلى وجهته التي يبتغيها. فمثلاً رَكَبُ حُجَّاج أهل فَزَّان انفصل عن الركب الفاسي الذي كان به ابن الطيب الشرقي الفاسي، وذلك في منطقة المنعم - من أرض سرت- حيث توجهوا جنوبًا وأكمل الركب الفاسي طريقه عبر الساحل الليبي(١٠٢). وكذلك ركب ابن غازي الذي ترافق مع الركب الموريتاني في عودتهم من الحَجّ من عند مصر، وبعد شهر كامل من الصحبة في الطريق، انفصل ركب ابن غازي إلى جهة بلاده، في حين توجه الركب الموريتاني جنوبًا إلى أوجلة، ومنها إلى فَزَّان، وبعدها صَوب بلاده(١٠٣).

والحال نفسه مع الأركاب الليبية في مواصلتها لطريقها عبر ليبيا، فَكُلَّمَا مَرَّ رَكْب بجوار مدينة أو منطقة وكان في الركب حُجَّاج منها، انفصل هؤلاء الحُجَّاج عن الركب في حُضُور غَفير من المستقبلين والمرحبين رجالاً ونساءً، وكانوا عادة ما يستضيفون أهل الركب ويُكرمونهم، ولا سيما إذا وافق حُجّاج الركب على المبيت فيها، متخذينها محطة للنزول والراحة(١٠٤). وكان ركب الحُجَّاج كلما وصل إلى مَدينة ليبية يدخلها في الغالب باستعراض وأُبَّهة، حيث يكون شيخ الركب في المقدمة يَسبقه عَلم أخضر، والحُجَّاج من خلفه بالأعلام الخضراء، مع دَقّ الطُّبُول، وإنشاد الحُجَّاج للقصائد الدينية، ورَقص الخيل، في أجواء رائعة، تزيدها بَهجةً وفي الوقت نفسه هَيبةً، الطريقة المؤثرة التي يستقبل بها الأهالي والأصدقاء حُجَّاجهم بعد فراق مدة طويلة، عَدّوهم -خلالها- في حُكْم الموتى إلى أنْ رجعوا(١٠٥).

وتنتهي رحلة الحَجّ بوُصُول ركب الحُجَّاج إلى نقطة انطلاقه سواء كانت من طرابلس أو فَزَّان، أو برقة، فهو بالتالي يعني انتهاء رحلته الحجازية، فَيُستَقبَلُ عند ذلك استقبالاً كبيرًا مفرحًا من أهالي الحُجَّاج وجيرانهم وأصدقائهم، الذين من المعتاد أن ينتظرونهم على الطريق جماعات ووفودًا بمسافات كبيرة من قبل أنْ يصلوا إلى المدينة(١٠٦). كما أنَّ السُّلطة الحاكمة في المنطقة كانت تُحَيي هذا الاستقبال، وتُضْفي عليه صفة الرَّسميَّة وما يُصاحبها من بروتكولات لها هَيبة ووقار بحُضُور الوالي نفسه. وفي هذا الخصوص يحدثنا فريديريك هورنمان عن هيأة استقبال والي مُرزق- التي كانت عاصمة إقليم فَزَّان في ذلك الوقت- لرَكْب حُجَّاج فَزَّان عند عودته من الحَجّ صُحبة القافلة التي كان بها، حيث وجدوا السُّلطان في انتظارهم على الطّريق خارج المدينة، وحَوله حاشيته وأتباعه، جالسًا على أريكة مُغَطَّاة برداء مخطط بالأحمر والأخضر، وكان يرتدي الزَّيَّ الطرابلسي وفوقه قميص مُحَلَّى بالفضة على الطريقة السودانية، ويقف بالقرب منه بعض المماليك البيض والعبيد السود تلمع سيوفهم في أيديهم، وخلفهم ستة عبيد يحملون رايات قديمة. وحسب التقاليد المعتادة يدخل مرافقو قافلة الحُجَّاج وخدمها لمقابلة السلطان بعد أن يخلعوا نعالهم ويمشوا حُفاة إلى أنْ يصلوا إلى حُجرته فَيُقَبِّلُوا يَدَيه متمتمين بآيات الشكر والامتنان، ويمروا واحدًا إثر آخر ليجلسوا خلفه، وبعدها يدخل التجار منتظمين في مجموعتين، ثم يدخل شيخ الحُجَّاج تسبقه الطُّبُول وحملة السُّيُوف والرّايات الخضراء، وفي إثره الحُجَّاج مُنشدين يشكرون الله على سلامتهم، ويستمرون في إنشادهم حتى يأذن السُّلطان للشيخ بالانصراف واعدًا إياه بالهَدية السُّلطانيّة من اللَّحم والبَلح لكل خَيمة. وينتهي الاحتفال ويقفل السلطان عائدًا إلى مُرزق تسبقه الطُّبُول ويتقدمه رجاله المسلحون، وترقص الخيول وتثب مغتبطة على جَانبَي الموكب(١٠٧).

أمَّا عن طرابلس عاصمة البلاد، فلم نقع على معلومات تُفيد كيفية احتفاء السُّلطة الحاكمة بعودة ركب الحُجَّاج سالمًا، وإنْ كان لدينا معلومات عن كيفية استقبالهم لأركاب الحَجّ المغربية عند نزولها في طرابلس في طريق ذهابها، وذلك زمن يوسف باشا القَرمانلّي، ونترك لابن عبد القادر الفاسي وصف الاستقبال لنا قائلاً: "ولما قاربنا البلد [أي طرابلس] بعث الباشا

يوسف بن علي بن أحمد... ولده لملاقاة الركب في نحو خمسمائة من الخَيل والرُّمَاة، وجعلوا يلعبون بالبارود حتى دخلنا بمهرجان عظيم، فَلَمّا وَصَلنَا لأقواس الزَّرارية، جعلت المدافع تخرج من أبراج البلد، ونزل الركب بالزَّرارية"(١٠٨). فإذا كان هذا استقبال دولة يوسف باشا للركب الفاسي وهو ذاهب للحَجّ؛ بمهرجان عظيم من الفُرسان والخُيُول والرُّمَاة والبارود والمدافع، فكيف بالله يكون استقبالهم للركب الطرابلسي عند عودته من الحَجّ، وحُجَّاجُهُ هم أبناء البلد والأولى بالاحتفاء، فَمِنَ المؤكد أنه سيكون استقبالاً كبيرًا، أكثر احتفالاً وبهجة واستعراضًا بالخيل والرماة والفرسان، إلى جانب الطبول والمزامير والغناء والإنشاد، والبارود، تصحبه طلقات المدافع من أبراج القلعة مكان إقامة القرمانليين، الذين اشتهروا بحبهم للحُجَّاج واحترامهم وتقديسهم لشَعيرة الحَجّ كما أسلفنا الذكر.

ثالثًا: انعكاسات رحلات الحَجّ وآثارها على المجتمع الليبي

٣/١-فوائد دينية وعلمية

إلى جانب الهدف الرئيس والسّامي من رحلات الحَجّ، وهو أداء فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة قادر عليها، فقد كان لها فوائد أخرى علمية وثقافية كبيرة على المجتمع الليبي. فقد كان لعُبُور قوافل الحَجّ المغربية للأراضي الليبية في طريقها إلى الأراضي المقدسة، وإقامتها ببعض المدن الليبية -للراحة والتزود بالمؤن- لفترات زمنية تمتد من أسبوع إلى عدة أشهر، أثره الكبير على الحياة العلمية والثقافية فيها، وذلك بما يحصل من التقاء بين العلماء والمشايخ المصاحبين لتلك القوافل مع علماء وطلبة العلم في تلك المدن، فتكون لهم مجالس علمية وأدبية مشتركة، فكم من دروس أُعْطِيَت ومراجعات حَصلت وإجازات حُرِّرَت وكُتُب نُسِخَتْ من وراء تلك اللّقاءات. وقد تجلت فوائد الرحلات الحجازية العابرة للأراضي الليبية ومنافعها، في قول أعلم أهل زمانه في ليبيا، اللُّغَوي المعروف الذي فاقت شهرته الآفاق، صاحب كتاب كفاية المتحفظ في اللغة وغيره من المؤلفات، إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد الأجدابي اللّواتي الطرابلسي (ت: أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)، عندما سُئِلَ: "أنَّى لك هذا العلم ولم ترتحل؟ فقال: اكتسبته من بَابَيّ هوّارة وزناتة، وهما بابان من أبواب البلد". وهو بهذا يُشير إلى أنه إنما استفاد ما استفاد من العلم بلقَاء من يَفِدُ على طرابلس، فَيَدخُلُ من هَذَين البابين من المشرّقين والمغرّبين، حيث لم تكن له رحلة إلى خارج طرابلس، ولَكنَّهُ كان له اعتناء بلقَاء الوفود والقيام بضيافتهم(١٠٩).

وهكذا، ولَمّا كانت تزخر به قوافل الحَجّ المغربية من أعداد غفيرة من الفقهاء والمشايخ والعلماء -لا سيما تلك القادمة من فاس بلد العلم والعلماء- نجد الكثير من طلبة العلم من مُدُن طرابلس ومصراتة وأجدابيا وبنغازي وغيرها التي تقع على طريق الحَجّ، يغتنمون فرصة مرور تلك القوافل، فَيَسْعُون للالتقاء بها والأخذ من علمائها. وبعضهم كان يرافقها إلى الحجاز لأداء فريضة الحَجّ أولاً، ومصاحبة هؤلاء العلماء والأخذ منهم ثانيًا، إلى جانب الاستفادة من المكتبة العلمية المتنقلة التي ترافق المشايخ والعلماء طيلة الرحلة المقدسة(١١٠).

كما كانت قافلة الحَجّ عند مرورها بمصر ذهابًا وإيَّابًا تُوَفِّرُ للطلبة والعلماء فرصة الالتقاء بالمشايخ وأعيان المصريين ممن ذاع صيتهم في المشرق، فَيَحْدُثَ بينهم التبادل الثقافي والعلمي. وفي الحَجّ بعد قضاء المناسك يتجدد لقاء العلماء والاختلاط بهم في مكة والمدينة، وتبادل المعارف معهم والأخذ عنهم والاستفادة من علومهم. وعند عودة المشايخ وطلبة العلم من الحَجّ، كانوا يُحَدّثون عَمَّا رأوه من علماء مكة وينشرون أخبارهم، مما كان يُرَغِّبُ غيرهم من طلبة العلم في مدنهم وبُلدانهم أكثر وأكثر في الارتحال إليها. ومن هنا نجد أنَّ رحلة الحج كانت طريقًا لتسهيل عملية الاتصال والأخذ والعطاء العلمي والثقافي، إضافةً إلى معرفة أهم الأحداث والمستجدات العلمية الحاصلة في بقاع العالم. كما أنها تساعد على معرفة العلماء شخصيًا بعدما كانوا يتعارفون عن طريق المراسلات والمؤلفات، إضافةً إلى التحصيل العلمي بمعرفة أفكار علماء مكة وآرائهم، ومن هنا تكمن انعكاسات رحلات الحَجّ على مجتمعات حُجَّاجهَا في المجال الديني والعلمي والثقافي(١١١).

وقد جَنَتْ ليبيا ثمار رحلات الحَجّ وفوائدها العلمية في عودة الكثير من أبنائها من الحجاز مُحَمَّلين بالعلوم

الشرعية وغيرها، وأصبحت مدنها -ولا سيما طرابلس- دار علم بوجود ثُلّة من العلماء الثقة ممن يؤخذ عنهم. فها هو أول من أدخل مُوَطَّأ الإمام مالك إلى إفريقية وعَرَّفَ به وشَرَحَهُ وبَيَّنَ قواعده هو من أبناء ليبيا، علي بن زياد العبسي، الطرابلسي مَولدًا التونسي مَقامًا. وكانت له رحلة حجازية وهناك سمع من الإمام مالك، وسفيان الثوري (ت: ١٦١هـ/٧٧٧م)، واللَّيث بن سعد (ت: ١٧٤هـ/٧٩٠م) وغيرهم. فابن زياد هو أول من فَسَّرَ قول مالك في بلاد المغرب ولم يكن يعرفونه قبل ذلك، وكان أستاذًا للإمام سحنون (ت: ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، وهو الذي عَلَّمَهُ الفقه. كما سَمِعَ منه البهلول بن راشد (ت: ١٨٣هـ/٧٩٩م)، وأسد بن الفُرَات (ت: ٢١٣هـ/٨٢٨م)، وغيرهم[١١٢].

وإلى جانب ابن زياد كان هناك أيضًا محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي، تلميذ مالك والليث بن سعد، وقد أخذ عنه في طرابلس الإمام أبو عبد الله محمد بن وَضَّاح القرطبي الأندلسي (ت: ٢٨٧هـ/٩٠٠م)، والإمام أبو سهل فرات بن محمد العبدي القيرواني (ت: ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، والإمام بكر بن حماد التيهرتي (ت: ٢٩٦هـ/٩٠٨م)[١١٣]. ومن علماء ليبيا أيضًا علي بن أحمد بن زكريّا بن الخطيب المعروف بابن زكرون الطّرابلسي (ت: ٣٧٠هـ/٩٨٠م). صاحب المؤلفات الكثيرة في الفقه والفرائض والشّروط والرّقائق، إلى جانب مؤلفاته في الرجال والحديث، وقد رَوَى عنه أبو الحسن القابسي (ت: ٤٠٢هـ/١٠١١م)، وعبدوس بن محمد الطليطلي الأندلسي (ت: ٣٩٠هـ/٩٩٩م)[١١٤]، كما سمع منه بطرابلس الوليد بن بكر بن مخلد الغَمريّ (ت: ٣٩٢هـ/١٠٠١م)، وهو من أهل سرقسطة بالأندلس[١١٥]. وكذلك أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبيد، الذي لم يكن له رحلة عن بلده طرابلس إلا إلى الحجّ، وقد سمع منه وأخذ الرحالة التّجاني إبان إقامته بطرابلس (حوالي سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، وكان يحضر دروسه بانتظام إلى أنْ أجازه أبو فارس إجازة بخَطّه. وقد قال عنه التّجاني: "رجل قد نَالَ من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى، حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فَرَأَيتُ رجلاً متضلعًا من العلم، ذاكرًا بالمذهب ذكرًا لا يجاريه فيه أحد ولا تكاد مسألة تَشُذُّ عنه، حَسَنُ العبارة مُشَارِكًا في علوم جَمَّة"[١١٦].

وهذه عَيّنة فقط من العلماء الليبيين الذين كانت لهم رحلة للحَجّ -وفي الوقت نفسه لطلب العلم- ألقت بظلالها على المجتمع الليبي، بما تَزوَّدوا به هناك من علوم شرعية، كان لها حضور في الوسط العلمي الليبي، وفائدة على الليبيين وغيرهم من الذين وَفَدوا للأخذ عنهم. وفي الختام، فقد حَقَّقَت الرحلات الحجازية الليبية لَدَى الحاج الليبي وحدة العقيدة، وزيارة بيت الله الحرام، والتعارف واللّقاء، وحَقَّقَت الكثير من المكاسب العلمية والأدبية، والكثير من المحاورة والاطلاع، والاستفادة والاستماع، والأخذ عن الفقهاء والعلماء، وتثبيت السَّنَد والرواية. فَمَا من شَكّ في أنَّ الرحلات الحجازية وتلك السَّفريات الجامعة التي تحفل بالعلم والمعرفة -كانت ولا زالت- تَشْحَذُ العُقُول والوجدان، وتزيد في الفهم والإدراك، وقوة الرواية والسَّماع والأخذ، والاستفادة والإفادة[١١٧].

٢/٣-حركة اقتصادية

إنَّ ليبيا بمُدنها وقُراها وواحاتها تتحول في موسم الحَجّ -بطبيعة الحال- إلى سوق تجارية كبيرة، تظل رائجة لشُهُور عديدة من السنة، تستقبل فيها آلاف الحُجَّاج سنويًا، سواء القادمون من أقاليم المغرب الإسلامي وبلدانه المختلفة في طريقهم إلى الحَجّ، أو الآيبون من الحَجّ وهم في طريق عودتهم إلى بلدانهم وبيوتهم. فطرابلس لوحدها كان يجتمع فيها في موسم الحَجّ "من الركبان الذاهبين والآيبين خمسة أو ستة"[١١٨]. وكان من عادة الأركاب الذاهبة أنْ تُقيمَ بطرابلس قرابة الشهر وبعضها يمكث فيها أكثر من شهرين، وذلك للاستعداد -من خلالها- لدُخُول المفازة التي قَلَّ نظيرها وهي مَفَازة برقة. وبالتالي تنشط حركة التجارة بالمدينة، حيث يَشتري الحُجَّاج منها ما يحتاجون إليه من الإبل وقرَب الماء، ويتخذون زادًا نحوًا من ثلاثة أشهر إلى مصر إنْ كان وقت السَّفر شتاءً، وإن كان صيفًا فنحو من شهرين، وكل ذلك من أسواق طرابلس.[١١٩]

كذلك المدن الليبية الأخرى كانت تستفيد اقتصاديًا من مرور الحُجَّاج بها سواء في إقليم برقة أو فَزَّان، فَكانت قَوافل الحُجَّاج كلما نزلت مدينة أو قرية أو واحة

يستقبلها أهلها بإقامة سوق كبيرة لها؛ لأنهم يعرفون أنَّ الحُجَّاج تلزمهم متطلبات ضرورية عليهم استيفاؤها، من مَلبس ومَأكل ودَواب للرحلة وغيرها من اللَّوازم. ونجد أنّ بعض قوافل الحُجَّاج قبل أنْ تصل إلى بعض المدن الليبية وقُرَاها كانت تُرْسِلُ إلى أهلها من الليلة السابقة لوصولهم؛ لكي يستعدوا ويجهزوا بضائعهم وأسواقهم لقافلة الحُجَّاج القادمة إليهم، كما أنه يحدث أحيانًا أنْ تصلَ قافلة الحُجَّاج إلى منطقة ما وأهلها لم يُجَهّزُوا سوقهم بعد، فعند ذلك يطلب الأهالي من الحُجَّاج المبيت عندهم لحين تجهيز سوقهم، وفي اليوم التالي تحدث حركة البيع والشراء فيما بينهم[١٢٠].

وبغَضّ النَّظر عن النشاط الاقتصادي الذي كان يَعُمُّ البلاد جَرَّاء حركة قوافل الحُجَّاج الذاهبة والآيبة فيها، فإنَّ نشاطًا تجاريًّا آخر كان يُستجد عليها بممارسة الحُجَّاج أنفسهم للتجارة إلى جانب قيامهم بفريضة الحَجّ. وذلك بما يحملونه معهم من سلَع محلية لبيعها في مصر وغيرها من بلدان المشرق التي في طريقهم وصولاً إلى مكة، وفي المقابل جَلبهم لسلَع مُشتراة من مكة أو مصر وبيعها في ليبيا. ومن غير شك أنَّ كثيرًا من الحُجَّاج كان يستعين بهذه التجارة لسَدّ نفقات الحَجّ، بل والحُصُول على أرباح مُبَاحَة فوقها[١٢١]. وعلى ما يكون، فإنَّه مما شَجَّعَ الحُجَّاج الليبيين على ممارسة تجارتهم الحجازية وساعدهم على ذلك، هو عدم فرض السُّلطة الحاكمة في البلاد لمُكُوس (ضرائب) على قوافل الحُجَّاج بما تحمله من متاع، وذلك احترامًا وتوقيرًا لهم. ونتيجةً لهذه الحَظوة التي اخْتُصَّ بها الحُجَّاج دون غيرهم نجد أنَّ بعض التُّجَّار الليبيين الذاهبين ببضائعهم لمصر وغيرها من بلدان المشرق، يستغلون هذا الترخيص ويقومون بمرافقة قوافل الحُجَّاج عَسَى أنْ تَمُرَّ بضائعهم من غير دفع الضرائب عليها، مما يكون في ذلك مَحَلُّ استياء من السُّلطة الحاكمة في البلاد[١٢٢].

ومن السّلَع التي ذكرتها المصادر، التي كان الحُجَّاج الليبيون ينقلونها معهم في رحلاتهم الحجازية لبَيعها في مصر، الدَّواب التي منها الإبل الطرابلسية[١٢٣]، التي قَلَّ أنْ يوجد لها نظير مما جعلها مَضْربَ مَثل للمغاربة كما سبق أن ذكرنا. وكذلك أغنام الجبل الأخضر[١٢٤]، المشهورة بجَودة سلالتها، حتى إنّ "أكثر ذبائح أهل مصر (القاهرة)، والإسكندرية، كان من غَنَم بَرقة، لعظَم خلقها، وكثرة شَحْمهَا ولَذَّة لَحْمهَا"[١٢٥]. وأيضًا معدن الكبريت الذي كان يُستخرج من سبخة مقطع الكبريت – من أرض سرت– ويُحْمَلُ منها إلى الإسكندرية والقاهرة، ويذهب منه مع ركب الحُجَّاج إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة[١٢٦]. وبالإضافة إلى هذا التُّراب الذَّهبي، كانوا يحملون معهم السّكوين البُندقي، والبياستر الفضية، والذُّرَة، والقمح، والفُول، والحَديد، والرَّصَاص، والقُرمز، إلى مكة وغيرها من المدن والأماكن[١٢٧].

وفي المقابل كان الحُجَّاج الليبيون يجلبون معهم من مكة وهم عائدون من الحَجّ الكثير من السّلَع، ولا سيما أنَّ الحُجَّاج بصفة عامة، كانوا لما يتموا حَجَّتهم يمكثون في مكة زهاء عشرة أيام أو أكثر، حيث تُعقد هناك سوق كبيرة تُباع فيها كل بضائع الهند، وبضائع الصّين وغيرها من البلاد، وتُعْرَضُ فيها أحجار كريمة تُرَصَّعُ بها الخواتم والأساور...إلخ المجلوبة من اليمن، وكذلك المسك وغيرها من الأشياء الغريبة[١٢٨]. ومن تلك السّوق كان الحُجَّاج الليبيون يجلبون الحرير، وريش النَّعَام، والشَّال، والقهوة العربية، والموسلين والقطن، والأصماغ والمعجنات المصنوعة من الزهر، والمشمش والخوخ المجففان ذو الجودة العالية، واللؤلؤ والألماس بكميات كبيرة في شكل عقود وحُلي مختلفة من جولكندا –إحدى مقاطعات الهند تُدْعَى حاليًا حيدر آباد[١٢٩]. هذا إلى جانب حُليّ النّساء البَسيطة، وخواتمَ من الرَّصَاص والزجاج[١٣٠]. وبتلك البضائع التي جلبها الحُجَّاج من الحجاز نَشطَتْ حركة السُّوق الليبية، بدخول سلَع جديدة مرغوبة لا تعرفها السّوق المحلية، وبالتالي فإنَّ الإقبال عليها كان عاليًا في وقتها وربحها مَضمون، وبذلك يكون الحاج الليبي قد حَقَّقَ هدفًا مزدوجًا من رحلته الحجازية، مَهَمَّة دينية بأدائه فريضة الحَجّ، ومَهَمَّة اقتصادية حَصل من ورائها ربحًا يُغَطّي به نفقات سَفره ويَفيض منه لو أمكن، ولَعَلَّ الدُّعَاء الشَّهير: "حَجّ مَبْرُور، وذَنْب مغفور، وتجارَة لَنْ تَبُور"، يعكس ذلك[١٣١].

٣/٣-زَخَم اجتماعيّ

إنَّ موسمًا عظيمًا كَموسم الحَجّ، وحَدَثًا جَليلاً كانطلاق قافلة الحُجَّاج الليبية في رحلتها إلى بيت الله الحرام، في سَفَر طويل ومُتعب محفوف بالأخطار،

يَستغرق قديمًا عند الحُجّاج الليبيين حوالي سنة من الزمان، فإنّه من الطبيعي أنْ يكون لهذا الحدث آثاره الاجتماعية على اللّيبيين، سواء على المستوى الفردي للحُجَّاج المرتبط بالوسط الأُسَري لكل منهم، أو على المستوى الْمُجْتَمَعي المتعلق بالدولة كلها. فالحَجُّ بصفة عامة فيه تهذيب للنفس وكَبح لجماحها، ويساعد على نَبذ الخلاف والفُرقة بين الناس، وفي العصور الإسلامية الأولى كان من يرغب في الذهاب إلى الحَجّ يَعرف أنَّه مُقْبل على طريق طويلة شاقة قد لا يعود منها حَيًّا، لذلك تجد المتأهبين للحَجّ –دائمًا– أكثر تسامحًا مع ذويهم وجيرانهم وأصدقائهم، طالبين منهم السَّماح والغُفران قبل سَفَرهم، والآخرين يطلبون منهم الدُّعَاء في الأماكن المقدسة. وبعد العودة من الحَجّ نجد الحاج أكثر حرصًا على عدم ارتكاب ما يُغْضبُ الله، مُتَوصّيًا بأهله، وَاصلاً رحم أقاربه، مُحبًّا متسامحًا مع جيرانه، وكيف لا، وهو قد غسل ذنوبه ورجع كما ولدته أُمُّهُ نَقيًّا طاهرًا من الذُّنوب والخَطايا.

ومن حيث المقام والوجاهة الاجتماعية في المجتمع، فإنَّ لَقَبَ الحَاج كان ولا يزال عند معظم المسلمين أشرف الألقاب التي يَتَحَلَّى بها صدر أسماء عامة الناس التي تمثل سواد الحُجَّاج، وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشَّهامة في الشُّبَّان، فإذا أُطْلق لفظ الحَاج على الشاب، فإنها تعني الشَّهم الشُّجَاع، أما إذا لُقّبَ به الشُّيُوخ والكُهُول وكبار السّنّ، فإنما يكون ذلك إشارة على كمال يقينهم ومتانة دينهم، الذي تحملوا في طريقه الأهوال التي تَشيبُ منها الأطفال[١٣٢].

أما عن أُسَر الحُجَّاج وذَويهم فيكونون أكثر فرحًا وبهجةً من الحُجَّاج أنفسهم بهذه المناسبة الدينية السّعيدة، وعندما تحين لحظة انطلاق ركب الحَجّ تجدهم يخرجون أفرادًا وجماعات لتوديع حُجَّاجهم، ويَعزُّ عليهم تركهم في لحظتها، فَتَجدَ الكثيرين منهم يُشَيّعُون قافلة الحَجّ لمسافات بعيدة تَصلُ لأكثر من يَوم في مَسيرها[١٣٣]، ومنهم من يَبيتُ مع حُجَّاجه في أول ليلة عند أول نزول للركب في الطريق، على أنْ يعودوا أدراجهم صباحًا مختتمين عاطفة التوديع[١٣٤]. وبعد انطلاق ركب الحُجَّاج إلى رحلته الحجازية، كان من عادة الأهل تَزيين بَيت الحاج بأقمشة وزينة خاصة تكشف لناظره أنَّ صاحبه –أو أحد أفراد أسرته– يوجد الآن في الأراضي المقدسة[١٣٥]. وقد استمرت هذه العادة إلى وقتنا الحالي، حيث نجد الكثيرين من أهالي الحُجَّاج في ليبيا يضعون رايةً بيضاء في أعلى نقطة في بيت الحاج، أو في شُرفة شُقَّته التي يَقْطُنُ بها إذا كان مقيمًا في عمارة سَكنية مشتركة، وكذلك على واجهة بيته، دلالة على أنَّ لديهم حَاجًا إلى الأراضي المقدسة، وكل ذلك مَدعَاة للفخر والاحترام، لما تمثله شعيرة الحَجّ من أهمية في حياة الليبيين الاجتماعية، وما تشغله من سلطان روحي كبير في حياتهم الدينية.

وعندما يعود الحُجَّاج من رحلتهم، وبعد علم أهاليهم ومحبيهم بموعد وصول قافلتهم، فإنهم كانوا يخرجون إلى استقبالهم خارج المدينة[١٣٦] كما في التوديع، فمثلاً حُجَّاجُ طرابلس يستقبلهم أهاليهم وإخوانهم خارج المدينة ما بعد تاجوراء شرقًا، حيث تجدهم جماعات وأفواجًا على الطريق[١٣٧]، يتحرقون شَوقًا للقائهم بعد طول غَيبة وانعدام اتِّصَال. فَيَستقبلونهم بالطُّبُول والمزامير، ويُقيمون لهم الأفراح والليالي الملاح، بعد أنْ أَعَدُّوا لهم كل ما فيه راحتهم من نَقش الدور وتبييض الجدران، وتجديد ما قدم عهده فيها من بسط أو فرش وغيره[١٣٨]، ولا سيما أنهم سيستقبلون في بيوتهم الضُّيُوف القادمين للتهنئة، حيث أنَّ أغلب الحُجَّاج العائدين –ولا سيما المقتدرين منهم– كانوا يعملون وليمة لهذه المناسبة يدعون لها جيرانهم وأقاربهم ومن أَحَبُّوا من الناس[١٣٩].

وكما كانت لعَودة الحُجَّاج –سالمين غانمين– فرحة عند أهاليهم وبهجة في بُيُوت كثيرة، فإنَّ هناك بعض البيوت كان يَعُمُّهَا الحُزن والأَسَى عند عودة ركب الحُجَّاج، وذلك عندما لا يجدون حُجَّاجهم من ضمن العائدين، فلا تخلو رحلة حجازية –في المعتاد– من حدوث وفيات من الحُجَّاج، فَمن جَرَّاء طول المسافة ومَشَقَّة السَّفر فإنَّ بعض الحُجَّاج –ولا سيما كبار السّنّ والمرضى– لا تحتمل أجسامهم وعثاء السفر البَرّي الطّويل، المشبع بالتعب والإرهاق وندرة الغذاء وقلة الراحة[١٤٠]، وشُحّ المياه في الطريق ولا سيما إذا كان السفر صيفًا. وبقراءة كتب الرحلات الحجازية والبحث في مضامينها، نجد أنَّ طريق الحَجّ مرصعة جميعها، وعلى طول المدى، بالشهداء الذين أدركتهم الوفاة[١٤١]،

سواء من علية القوم أو من العامة البسطاء، ويحدثنا البرتلي في طريق عودته من الحَجّ أنه نزل بأوجلة وزار بها قبورًا للصالحين، منها قبر سُلطان فَزَّان الشريف السُّلطان أحمد، وهو جَدُّ السُّلطان القائم فيها زمن رحلة البرتلي[١٤٢]. وفي الوقت نفسه حدثنا عن وفاة امرأة من أهل فَزَّان في طريق الذهاب ما بين مصر ومكة، كما تُوُفّيَ عليهم في مكة الشيخ الصالح الورع سيدي محمد الكانم من أهل فَزَّان، وقد صلُّوا عليه ودَفَنُوه في البقيع رحمة الله عليه[١٤٣]. وأيضًا حسن الفقيه حسن نجده يذكر من ضمن يومياته "خَبَر مسعود بن عامر ونسيبته مسعودة شرتع تَوَفُّوا في بَرّ الحجاز"[١٤٤]. نسأل الله أنْ يتقبل منهم نيَّاتهم ومَقصدهم.

ورغم صَدمة الفُرَاق ومَرارته، فإنَّ أهل المتوفي كان يقل حزنهم عندما يعلمون أنَّ فقيدهم تُوُفّيَ في طريق عودته من الحَجّ أي بعد وقوفه بعَرفات، عكس أنْ يكون تُوُفّيَ في طريق ذهابه، فعند عودته يعني أنه حَقَّقَ مُراده وأنهى آخر أركان إسلامه وهو حَجُّ البيت، فذلك يُخَفّفُ من فَجيعَة الفَقد عند الأهل، بل تتخللها فرحة على الحاج المتوفي واطمئنان على آخرته؛ لأنه بَلَغَ المقصود من الحَج، وكَحَّلَ عينيه برؤية الكعبة، وتقبيل الحجر الأسود. ولا سيما إذا دُفِنَ هناك في مكة أو المدينة، فَشُعُور الأهالي ولسَان حالهم عندها يعكسه القول المغربي السَّائر الذي لا يزال محفوظًا عند العامة: "الذهب الإبريز هو الذي يبقى هناك..."[١٤٥].

أما على صعيد المجتمع ككل، فإنَّه إذا قلنا إنَّ ليبيا بمُدنها وقُراها وواحاتها كانت تتحول في موسم الحَجّ إلى سوق تجارية كبيرة، فإنها في الوقت نفسه كانت تتحول إلى صالون ضيافة واسع، لا ينضب طعامه ولا يملّ أهله من استقبال نازليه. فمن يقرأ كتب الرحلات الحجازية المغربية يأخذه العجب والدهشة من الكرم الحاتمي وحُسن الضيافة التي تَميَّز بها أهالي المدن الليبية وقُرَاها التي في طريق الحَجّ، في استقبالهم لحَجيج بيت الله الحرام الْمُشَرّقين منهم في ذهابهم أو الْمُغَرّبين في إيّابهم. ومن غير المبالغة لو قلنا إنَّ الذي حَصل عليه هؤلاء الحُجَّاج من حَفَاوة الاستقبال في ليبيا لم يجدوه في أيّ أرض أخرى مَرُّوا بها في طريقهم للحَجّ، حَتَّى في بلدانهم. فتجد ركب الحَجّ لا يكاد يعبر مرحلة أو مرحلتين وينزل في مدينة أو قرية ليبية إلا وضَيَّفُوه أهلها ضيافة حسنة[١٤٦]. فقد كان الليبيون يَستجلبون البركة الإلهية من خلال ضيافة الحُجَّاج وإكرامهم، وما يحصلون عليه من دعواتهم بالخير. فاستقبال الحَجيج وضيافتهم وطلب البركة منهم أخذ مَنْحَى دينيًا مُقَدَّسًا عند الليبيين، فلا غرو أنَّ ذلك كان مَحّلُّ ملاحظة وإكبار من الرحالة البرتلي، وهو يحدثنا عن أهل فَزَّان وحُسن استقبالهم للحُجَّاج وضيافتهم وطلب البركة منهم، فَممَّا قاله فيهم: "وتَلَقّونا بالتّرحيب والبَشَاشة وطلب الدعاء، وضَيَّفُونا جَزاهم الله خيرًا ضيافة حَسنة، وما رأيت منذ خرجت من بلادي إلى الحرمين بلادًا مثل بلاد فَزَّان في الحرص على طلب البركة، والدعاء والتواضع وهضم النفس... ويستوي في هذا الأدب، الكبير منهم والصغير، والحُر والعَبد، والذَّكر والأُنثى. والله إنَّ صبيانهم ليأتي الواحد منهم إلينا ويُطَأْطِئ رأسه ويقول اجعل يدك يا سَيّدي على رأسي طلبًا للبركة ويُقَبّلون أيدينا. ولقد سمعت أنَّ هكذا دأبهم مع كل من مَرَّ بهم من الحُجَّاج، فقد سمعنا هذا عنهم من آبائنا وكُبَراء بلادنا ممَّن مَرَّ بهم حَاجًا من أهل بلادنا وهو متواتر عند أهل بلادنا. ومن توقيرهم للحُجَّاج خروج سُلطان البلد يتلقاهم ويَفرح بهم، ويُضَيّفُوهم الضيافة الحَسَنَة، وأمَّا غير الحَاج فلا يخرج إليهم أبدًا ولو جاؤوا بملْء الأرض ذَهَبًا"[١٤٧].

وهذا الذي كان عند أهل فَزَّان -من استقبال الحُجَّاج وضيافتهم وطلب بركتهم- كان كذلك عند أهالي طرابلس، وبرقة[١٤٨]، وكُتُب الرحلات المغربية وغيرها تفيض ذكرًا وسردًا عن ذلك. وفي هذا الخُصُوص لا نجد -حسب علمنا- منطقة في طريق الحاج سُمّيَت باسم الطعام الذي يَستضيف به أهلها أركاب الحَجّ - سواء في ذهابهم أم إيَّابهم- إلا في ليبيا، وقد بلغت شُهرتها إلى كل من رغب بالحَجّ من أهل بلاد المغرب الإسلامي، فنجد الحُجَّاج المغاربة يسمعون بها أو يقرؤون عنها من كُتُب الرحالة الذين سبقوهم، إلى أنْ يَكتبَ اللهُ لهم الحَجّ فَيَمُرَ ركبهم بها، وينزلوا في ضيافة أهلها، آكلين من الوجبة نفسها التي قرأوا عنها أو سمعوا بها واشْتُهرَ بها مُضَيّفوهم حتى أصبحت اسمًا لبلدتهم. وهذه المنطقة هي قرية صغيرة فيها مقام وزاوية بساحل

حامد أو الأحامد[١٤٩]، التي عَرَفَهَا الحُجَّاج باسم "سيدي بوعصيدة"، لأنَّ الوليّ الصالح الشيخ سيدي بوعصيدة وأبناءه من بعده والمرابطين سُكَّان هذه المنطقة، عُرِفوا باسم بوعصيدة واشتهروا به؛ لَمَا كانوا يُقَدّمونه للحَجيج من عَصيدة باللّحم[١٥٠].

وقد انفرد ابن عبد القادر الفاسي عَمّنْ سَبَقوه من الرّحّالة -من أمثال ابن ناصر الدرعي[١٥١](ت: ١١٢٩هـ/١٧١٦م)، والحُضَيكي[١٥٢](ت: ١١٨٩هـ/١٧٧٥م)، والورثيلاني[١٥٣]، وابن عبد السّلام النّاصري[١٥٤](ت: ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م)- الذين نزلوا ضُيُوفًا مُكرمين على أهل تلك المنطقة، وأكلوا من هذه العَصيدة وغاب عنهم ذكر اسمها، في حين ذكره ابن عبد القادر وسَجّلَهُ لنا في كتاب رحلته الحجازية باسم "البَازين"[١٥٥]. وهو طعام غَنيّ عن التعريف، لا يزال يحتفظ بالاسم نفسه إلى يومنا هذا، ويُعَدُّ من أشهر وجبات الأطعمة وأعرقها عند أهالي إقليم طرابلس وغيرهم، وهي عَصيدة من شعير كانت تُمَثّل الغذاء الرئيس لهم[١٥٦]، حتى أنها تُعَدُّ بالنسبة للحُجَّاج الليبيين وَجبة معتادة سواء في طريق سَفَرهم إلى الحَجّ أو عودتهم منه[١٥٧]، أو في أثناء الإقامة هناك.

وإذا كانت هذه معاملة أهالي المدن والقُرَى الليبية مع الغرباء من الحُجَّاج فَمَا بالك مع حُجَّاج بلدهم الذين تمر أركابهم بهم من أقصى انطلاقها من الغرب أو الجنوب الليبي، وقد حدثنا ابن نصر في رحلته الحجازية عن شيء من ذلك، وكيف أنَّ أهالي مدينة مصراتة استضافوا قافلة سيارات الحَجيج الليبي المنطلقة من طرابلس عند مرورها بمدينتهم، وكانوا نحو ٦٥٠ حَاجًا، وأنهم قد أَعَدُّوا لهم البّازين والشَّاي وغيره من وسائل الراحة والمبيت. وتستمر ضيافة قافلتهم -طوال الطريق من الغرب إلى الشرق- في مُدُن ليبيّة أخرى، منها الضيافة التي أَعَدَّهَا لهم تُجَّارُ مصراتة القاطنين في مدينة أجدابيا بذَبْح الأغنام وتجهيز الطعام. وبمجرد دخولهم مصر تحديدًا في مَنْطَقَتَي الضَّبْعَة والحَمَّام، كان الليبيون المهاجرون المقيمون هناك في الموعد، وتجلت مكارمهم في استقبالهم لإخوانهم الحُجَّاج واحتفالهم بهم، وتزويدهم بالمؤن من الشّاي والسُّكَّر واللَّحم والخُبز وغيره[١٥٨].

وفي الختام، وبعد كل ما ذكرناه أعلاه، نجد أنَّ مَوسمَ الحَجّ كان عند الليبيين من المواسم المشهودة، له صبْغَتَهُ الاجتماعية الواضحة على حياة السُّكَّان في البلاد، فَتَظْهَرُ فيه الأخلاق الإسلامية الحميدة لَدَى الأهالي، من السَّخَاء والعَطَاء والكَرم، ويحدث فيه من غير شَكّ التَّكَافُلَ الاجتماعيّ بين الفُقراء والأغنياء. فَبفَضل الحَجّ وقوافله تَتَجَلَّى آيات التَّعاون والتَّلاحُم بين أبناء الوطن الواحد، وتظهر فيه صفات التَّواد والتَّراحم بين الأُسر الليبية، إلى جانب الأخلاق الحميدة التي يستفيدها الحاج من سَفَره وفي أثناء أداء فروض حَجّه، من الإيثار والتَّسامح والصِّدق والطَّهارة والنَّقَاء وطيبَ الكلام، فكل ذلك له انعكاساته الإيجابية على حياة الناس ومَعاشهم، وفيه خَيرهم وصَلاحهم بإذن الله، مصْدَاقًا لقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنّ ٱلّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصّٰلِحَٰتِ إِنّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾.[١٥٩]

خَاتمَةٌ

في هذه الدراسة التي تَحَدَّثنا فيها عن بدايات الحَجّ الليبي بُعَيد الفتح العربي، واستمراره خلال العصور الإسلامية وتطوره، وعن كيفية استعدادات الليبيين لاستقبال مَوسم الحَجّ، وآلية تجهيز قوافله وإعداها، والطُّرُق التي استخدموها في الرحلة إلى الحجاز، وهيأة مَسيرهم في أركابَ وقوافلَ، إلى أنْ وصلوا إلى الأماكن المقدسة وقيامهم بأركان الحَجّ وسُنَنه، ثم آيبين في رحلتهم وقد تحقق المراد وحصلت الفائدة، فإلى جانب الهدف الرئيس من الحَجّ في أداء ركُن أَسَاس من أركان الإسلام، فإنَّ لرحْلَاته انعكاساتها الواضحة على المجتمع الليبي، تجلت في فوائد دينية وعلمية، وحركة اقتصادية، وزَخَم اجتماعيّ، وصبْغَة حياتية ارتبطت بالحَجّ ومَوسمه.

نَتَائِجُ الدِّرَاسَة

ومن خلال طرح هذه الموضوعات وتفريعاتها اتَّضَحت لنا بعض النتائج هي كالآتي:

١. عُنِيَ الليبيون بشَعيرة الحَجّ منذ وقت مبكر بعد الاستقرار الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي، وتحديدًا منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي،

ويتضح ذلك من بعض أسماء طلبة العلماء الذين حَجُّوا بَيتّ الله الحرام واستقوا العلم الشرعي من مكة والمدينة، الذين كان من أوائلهم وأكثرهم شُهرةً علي بن زياد العبسي الطرابلسي، ومحمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي، وغيرهما. فالأرض والبيئة التي تُخْرِجُ أمثال هؤلاء العلماء من المهتمين بطلب العلم واستيقائه من مَظانه، لا يُعْدَمُ أهلها اهتمامًا بشعيرة الحَجّ، وبَذْل الغالي والنفيس لأدائها، فمنذ الاستقرار الإسلامي في ليبيا كان لا يخلوا قرن من القرون الإسلامية الأولى والوسطى من رحلات حجازية ليبية، سعى أفرادها للحَجّ نفسه كونه فريضة، أو للاثنين معًا الحَجّ وطلب العلم وتحصيله.

٢. حسب المصادر التاريخية فإنَّ هيئة الركب الليبي وقوافل حُجَّاجهم لم تظهر ملامحها المستقلة إلا في زمن الدولة العثمانية ولا سيما في عهد القرمانليين، حيث إنَّ الحَجَّ في ليبيا سابقًا كان يَدخُلُ ضمن قوافل الحج المغربية وباسمها، ومع أواخر الحكم العثماني تغير الوضع، وازدان بتولي الأسرة القرمانلية لزمام الأمور، الذين أضفوا على حكم ليبيا هُوية خاصة، في ظاهرها عُثماني وفي واقعها حكم مَحلي مستقل له صبغته الليبية. فهذا الوضع ساعد على ظهور ملامح ركب الحج الليبي ومَقامه، ولا سيما مع الاهتمام المتزايد من قبل سلاطين القرمانليين، الذين كانوا يُقَدّسُون شَعيرة الحَجّ، ويُحبون حَجيج بيت الله ويحترمونهم.

٣. قد انعكس احترام القرمانليون لشَعيرة الحَجّ في فتح المجال في المساجد والكتاتيب لإلقاء الدروس وخُطَب الجمعة التي تُشَجَّع عامة الناس على الحَجّ، مُبَيّنَةً فضائله، مُوَضّحَةً أركانه، شَارحَةً لواجباته. وكذلك في تجهيزهم لقوافل الحَجّ وتوفير الحماية لها قدر المستطاع، إلى جانب الرسوم التي اتَّبَعُوها في الاحتفاء بشيخ الركب وطريقة تنصيبه، وفي احتفالات استقبال الحُجَّاج وتوديعهم، التي أضفوا عليها صِبْغَة الدولة وطقوسها الرسمية وما فيها من هَيبة ووَقار.

٤. أنَّ الأيام والأشهر التي تخرج فيها الأركاب الليبية للحَجّ، وغيرها من الأركاب المغربية -النازلة بأرض ليبيا خلال مَسيرها- كانت تُعَدُّ من المواسم المشهودة للتجار وأصحاب الأسواق والحوانيت والباعة المتجولين، وكذلك للصناع والحرفيين، فكل هؤلاء كانوا يستفيدون من مَوسم الحَجّ في ازدهار تجارتهم ونشاط صناعتهم بما يُنْفِقَهُ الحُجَّاج من مَال، ومقايضات في اقتناء لوازم السَّفر ومَؤونته. ولا نَنسى الحُجَّاج أنفسهم، الذين كان الكثير منهم يستغلون فرصة ذهابهم للحَجّ فَيَسْعون لتحقيق هدف آخر معه، الحَجّ وفي الوقت نفسه التجارة. وذلك بما ينقلونه من سلع محلية لبيعها في مصر وطريق الحج وصولاً إلى مكة، وبما يجلبونه من سلَع خارجية للبيع في ليبيا، فإن في تلك التجارة المباركة فرصةً لتغطية نفقات الحَجّ والحُصُول على ربْح مُبَاح وفَائض لو أمكن لهم ذلك.

٥. مَثَّلت شَعيرة الحَجّ لَدَى عامة الليبيين خلال العصور الإسلامية القديمة والحديثة شيئًا عزيزًا، لها مقام رَوحانيّ مُقَدَّس على أنفسهم، وليس أَدَلُّ على ذلك من فرحة أهالي المدن الليبية وقراها المختلفة بأركاب الحَجّ المختلفة المارة بأراضيهم، وحفاوة استقبالهم لها وضيافتها، وكرمهم الفائض مع حُجَّاج هذه الأركاب، ساعين إلى إرضائهم وطلب الدعاء منهم والحصول على بركتهم، وكَأَنَّ لَدَى هؤلاء الحُجَّاج قُوَى روحانية أضفتها عليهم صفَة الحَجّ والسَّعي لزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية.

٦. كان من أهم انعكاسات مَوسم الحَجّ على حياة الليبيين أنها أظهرت مَكَارمَ أخلاقهم وأَصلَّت فيهم الصّفات الإسلامية الحميدة، التي ظهرت واضحةً وجلية في طريقة تعاملهم مع الحُجَّاج العابرين لبلدهم وتأدبهم معهم، وقد شَهدَ بذلك عشراتُ المغاربة والشَّنَاقطة والأندلسيين من أصحاب الرحلات الحجازية، الذين رأوا فضائل الليبيين وعايشوها بأنفسهم، فَخَلَّدوها في كتب رحلاتهم حتى أصبحت تاريخًا مُشَرّفًا لليبيين الحاليين وفخرًا لهم، ونبراسًا يُهتدى به في تعليم الأجيال الحالية والقادمة الأخلاق الحميدة، التي منها: الكرم، والعطاء، والسَّخَاء، ونَقَاء السَّريرة، وحُبُّ الغَير وإيثاره على النفس، إلى جانب تبجيل الدين الإسلامي باحترام مُعْتَنقيه ومُتَّبعيه وإكرام حُجَّاجه أينما كانوا وأينما حَلُّوا.

الإحالات المرجعية:

(١) **سورة الحج**، الآية (٢٧).

(٢) كانت طريق الحج إلى بيت الله الحرام في السابق كلها مَشَقَّات وأخطارًا، بما كانت تُلْقِيهِ يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية، التي كانت تفتك بالكثير من الحُجَّاج في الطريق من حَرِّ الصيف وجفاف مياه الآبار في طريقهم في الصحاري المحرقة. وكذلك برد الشتاء وما كان يحدث فيه أحياناً من السُّيُول التي قد تدهم الحُجَّاج في بعض مناطق الطريق. وإلى جانب الطبيعة كان كثيراً ما تُوقِعُ بهم هجمات أشرار الأعراب وقُطَّاع الطرق = البتنوني، محمد لبيب: **الرحلة الحجازية لِوَليِّ النِّعَم الحاج عَبَّاس حلمي باشا خديو مصر**، مصر، مطبعة الجمالية، ط٢، ١٣٢٩ه، ص.٣١-٣١١.

(٣) الزاوي، الطّاهر أحمد: **أعلام ليبيا**، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط٣، ٢٠٠٤م، ص.٢٦-٢٦١، ٣٥٦. كذلك الشريف، ناصر الدين محمد: **الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية**، الأردن- لبنان، دار البيارق، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٤-٣٥، ٤١.

(٤) يقول المغاربة في أمثالهم: **"أمّا غَرْقَة إن سِرْتَ [أي مَشَيْتَ] في البحر، وإلّا برقة إن سِرْتَ في البرّ؛ لكثرة الْمَشَقّة في هَذَين الحالين"** = ابن عابد الفاسي، يوسف بن عابد بن محمد الحسيني الفاسي المغربي: رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضر موت، حَقَّقَ نَصَّهَا وقَدَّم لها وعَلَّق عليها إبراهيم السّامرّائي وعبد الله محمد الحبشي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م، ص٩١. كما قيل على أَلْسِنَة العوام: **"غَرقَةٌ أو حَرقَةٌ ولا بَرقَةٌ"**، بمعنى التعرض للحَرقِ أو الغَرقِ أهون من المرور من برقة = الورثيلاني، الحسين بن محمد: الرحلة الورثيلانية الموسومة بنُزْهَة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تصحيح محمد بن أبي شنب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٨م، ٧١٢/٢. وأيضًا ضَرَبَ المغاربة المثل لمن استطاع أنْ يَعْبُرَ فيافي برقة، وأنَّه أَمْسَىَ قديرًا لا يستطيع أحد أن ينال منه، فَيَقولون: **"حَجَّ وَجَازَ على بَرْقَة وما بَقِيَتْ فيه مَرْقَة"** = التّازي، عبد الهادي: **ليبيا من خلال رحلة ابن الطّيّب الشّرقيّ الصّميلي الفاسي ١١٣٩-١١٤٠/١٧٢٧-١٧٢٨م**، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، العدد الثاني والعشرون، ٢٠٠٥م، ص٥٥٢، هامش (١٠).

(٥) التازي، عبد الهادي: **بين المغرب وليبيا - ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي**، ليبيا، المؤسسة العامة للثقافة، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٣١، ١٣٢.

(٦) الْعَيّاشي، أبو سالم عبد الله بن محمد: **الرحلة العَيَّاشيّة ١٦٦١-١٦٦٣م**، حقّقها وقدّم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦م، مج١/١٧٨. كذلك ابن عبد القَادر الفَاسيّ، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد: **رحلة ابن عبد القادر الفاسي من مدينة فاس**، مخطوط مصور بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، تحت رقم حفظ (١٠٥٤ جغرافيا)، وميكروفيلم (٤٨١١٦)، ورقة ٢١ ب. الورثيلاني: الرحلة، مصدر سابق، ٢٠٩/١-٢١٠.

(٧) ابن عبد القَادر الفَاسيّ: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ١٤٤ أ- ١٤٤ ب.

(٨) البرتلي، محمد البشير بن أبي بكر بن الطالب: **رحلة البرتلي**، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، تحت رقم حفظ (١٠٥٢ جغرافيا)، ورقة ٦٣-٦٤.

(٩) الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ٣٣٧/١-٣٣٨.

(١٠) ابن الطيب الشرقي الفاسي، محمد الطيب بن محمد بن موسى: **رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة**، تحقيق عارف أحمد عبد الغني، دمشق، دار العراب- دار نور حوران، ٢٠١٤م، ص١١٧.

(١١) ابن عبد القادر الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ١٣٨ أ.

(١٢) ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١٣٥-١٣٦.

(١٣) ابن نصر، محمد عبد الرحمن: **الرحلة الحجازية**، تحقيق عمر حسن القويري، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠١٥م، ص٢٠.

(١٤) ابن نصر: **الرحلة الحجازية**، مصدر سابق، ص٢٠.

(١٥) ابن طاهر المصراتي، الطيب عثمان: **الروض العاطر في تاريخ حياة أبي علي بن طاهر- نصوص التأسيس في السيرة الذاتية في ليبيا**، إصدار نقدي طاهر محمد بن طاهر، مصراتة، منشورات جامعة مصراتة، ط١، ٢٠١٣م، ص١٠٨-١٠٩.

(١٦) ابن موسى، تيسير: **المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني دراسة تاريخية اجتماعية**، طرابلس-تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨م، ص٣٥.

(١٧) عبد الهادي التازي: **بين المغرب وليبيا**، مرجع سابق، ص١٣١.

(١٨) هورنمان، فريدريك: **الرحلة من القاهرة إلى مُرزق عاصمة فزان عام ١٧٩٧م**، تعريب مصطفى محمد جودة، طرابلس، مكتبة الفرجاني، ١٩٦٨م، ص٢٦-٢٧.

(١٩) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ٥١٤/٢. كذلك ابن غلبون الطّرابلسي، أبو عبد الله محمد بن خليل: **التّذكار فيمن مَلَكَ طرابلس وما كان بها من الأخيار**، عني بتصحيحه والتعليق عليه الطّاهر أحمد الزّاوي، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢٨٩.

(٢٠) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ٤٩٢/٢. كذلك ابن عبد القَادر الفَاسيّ: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ٣٨ ب.

(٢١) العياشي: رحلة، مصدر سابق، ٤٩٢/٢. كذلك ابن عبد القَادر الفَاسيّ: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ٤٣ أ، ١٣٥ أ.

(٢٢) الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ٢٨٣/١.

(٢٣) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ٢٠٧/١. كذلك ابن عبد القَادر الفَاسيّ: رحلة، مصدر سابق، ورقة ٣٥ ب. فريديريك هورنمان: الرحلة، مصدر سابق، ص٢٥.

(٢٤) عبد الهادي التازي: **بين المغرب وليبيا**، مرجع سابق، ص١٣٢.

(٢٥) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ٤٩٢/٢.

(٢٦) البرتلي: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ٢٢. كذلك ابن عبد القَادر الفَاسيّ: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ٣٩ ب.

(٢٧) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ٤٩٥/٢.

(٢٨) عبد الهادي التازي: **بين المغرب وليبيا**، مرجع سابق، ص١٣١.

(٢٩) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ١٧٧/١، ٢٠٢. كذلك الْعَيّاشي: التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز (الرحلة الصغرى)، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت تصنيف (٢٧٣٩ أو ٢٨٣٩). نقلاً عن عبد السلام، محمد الحراري: **ليبيا عبر كتابات الرحالين المغاربة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي**، الرباط، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، ٢٠٠٨م، ص٤٠٠. اليوسي،

محمد العياشي بن الحسن: **رحلة اليوسي**، تحقيق أحمد الباهي، تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ط١، ٢٠١٨م، ص٩٧، ١٠٥، ١٠٦. الْوَزّان، الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي: **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حَجّي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣م، ١١٢/٢. الناصري، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام: **الرحلة الناصرية الكبرى**، دراسة وتحقيق المهدي الغالي، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ٢٠١٣م، ص٣٥٥، ٣٨١، ٨٨٧.

(٣٠) الناصري: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٣٢١.

(٣١) الآنسة توللي: **عشرة أعوام في طرابلس**، ترجمة عبد الجليل الطاهر، د. م، دار ليبيا للنشر والتوزيع، ١٩٦٧م، ص٣١٧.

(٣٢) الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ٤٣٢/١.

(٣٣) بازامه، محمد مصطفى: **الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر- عبد الرحمن آغا البديري (١٧٢٠-١٧٩٢م)**، بنغازي، مكتبة قورينا للنشر والتوزيع، د. ت، ص٥٦.

(٣٤) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣١٧.

(٣٥) الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ٣٣٧/١-٣٣٨.

(٣٦) الأحمر، رمضان محمد رمضان: **طرابلس الغرب وبرقة خلال العصر الفاطمي- تفاعل السياسة مع الأرض والناس**، لندن- القاهرة، الناشرون دارف المحدودة- دار الفرجاني، ط١، ٢٠٢٣م، ص٢٠٤، ٢٨٢.

(٣٧) الْعَيّاشي: **التعريف والإيجاز**، مصدر سابق. نقلاً عن محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٠٠.

(٣٨) السَّرّاج، مصطفى فوزي: **ذِكريات وخواطر**، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٥م، ص٣٩٢. كذلك العَوَّامي، **رمضان الصالحين: ثقافة الرحيل**، طرابلس، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٥٥.

(٣٩) فريديرك هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٩.

(٤٠) الْعَيّاشي: **التعريف والإيجاز**، مصدر سابق. نقلاً عن محمد الحراري عبد السلام: ليبيا، مرجع سابق، ص٤٠٠-٤٠١.

(٤١) فريديرك هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٨.

(٤٢) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣١٩.

(٤٣) ابن مليح السراج، أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي: **أُنْس السّاري والسّارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/١٦٣٠-١٦٣٣م)**، حَقّقه وقَدّم له وعَلّق عليه محمد الفاسي، فاس، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، ١٩٦٨م، ص٣٥-٣٦. كذلك العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ٢٠١/١. اليوسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١٠٧. ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١٣٢. ابن عبد القادر الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ٣٧ أ-ب.

(٤٤) الْعَيّاشي: **التعريف والإيجاز**، مصدر سابق. نقلاً عن محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٠٢-٤٠٤.

(٤٥) الْعَبْدَري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود: **رحلة الْعَبْدَري**، حقّقها وقدّم لها علي إبراهيم كردي، دمشق، دار سعد الدين، ط٢، ٢٠٠٥م، ص٢٠١.

(٤٦) رمضان محمد رمضان الأحمر: **طرابلس الغرب**، مرجع سابق، ص٢٣٣.

(٤٧) الْعَيّاشي: **التعريف والإيجاز**، مصدر سابق. نقلاً عن محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٠١.

(٤٨) العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ١٣٥/١. كذلك باختلاف بسيط الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ١٨٤/١.

(٤٩) الْعيّاشي: **التعريف والإيجاز**، مصدر سابق. نقلاً عن محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٠١.

(٥٠) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣١٧.

(٥١) فريديرك هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٦٨.

(٥٢) محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٢٧.

(٥٣) الشبيبي، محمد رضا: **رحلة إلى المغرب الأقصى**، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني عشر، ١٩٦٥م، ص٥.

(٥٤) أعراب، سعيد: مع **القاضي أبي بكر بن العربي**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٧م، ص١٦٢، ١٩٨.

(٥٥) محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٢٩.

(٥٦) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ١٧٨/١-٢٠٠.

(٥٧) الْعَبْدَري: **رحلة**، مصدر سابق، ص٤٨١-٤٨٢. كذلك ابن عبد القادر الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ٣٧ أ، ٣٨ ب.

(٥٨) الْعَيّاشي: **التعريف والإيجاز**، مصدر سابق. نقلاً عن محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٠٣.

(٥٩) بَعَيُّو، مصطفى عبد الله: **دراسات في التاريخ اللوبي**، الإسكندرية، مطابع عابدين، د. ت، ص١٨٤.

(٦٠) خشيم، علي فهمي: **الحاجيّة من ثلاث رحلات في البلاد الليبية**، طرابلس، مجمع اللغة العربية، ط٢، ٢٠٠٨م، ص١٨٤.

(٦١) البَكْريّ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز: **الْمُغرِبُ في ذكر بلاد إفريقية والْمَغرب** (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت، ص١٤.

(٦٢) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ٢٠٣/١، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٦٣) العياشي: **رحلة**، مصدر سابق، ٢٠٣/١. كذلك الْعيّاشي: **التعريف والإيجاز**، مصدر سابق. نقلاً عن محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٠٢.

(٦٤) ابن مليح السراج: **أُنْس السّاري**، مصدر سابق، ص١، ٣٢-٤٧، ٦٩-٧٢، ٧٦.

(٦٥) المصدر نفسه والصفحات. كذلك البرتلي: **رحلة البرتلي**، مصدر سابق، ورقات ٩-٢٣. محمد الحراري عبد السلام: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٢٩.

(٦٦) البكري: **المغرب**، مصدر سابق، ص٨٤-٨٥.

(٦٧) ابن العربي، أبو بكر: **ترتيب الرحلة للترغيب في الملة**، تحقيق سعيد أعراب، منشور ضمن كتاب مع القاضي أبي بكر بن العربي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٧م، ص١٩٨.

(68) Goitein, S. D: A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, Vol. I: Economic Foundations, University of California Press, 1967, p. 212.

(٦٩) الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ٢٠٩/١-٢١٠.

(٧٠) حسن، حسن الفقيه: **اليوميات الليبية**، تحقيق محمد الأُسْطَى وعَمَّار جِحيدر، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط٢، ٢٠٠١م، ٣٠٤/١، ٤٤٩، ٤٥٦، ٥٢٣-٥٢٤، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٧١، ٦٢٩، ٦٣٠.

(٧١) دو ماثيسيو، ه. م: **عبر طرابلس الغرب**، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٦م، ص٥٥.

(٧٢) الأُسْطَى، محمد: **وَرَقات مَطويَّة، طرابلس**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٩٨٣م، ص٩٥-١١٢.

(٧٣) آخر قوافل الحَجّ اللّيبي التي وصلنا خبرها كيفما ذكرنا أعلاه، هي قافلة الحَجّ التي كان بها فضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن نصر (١٣١٨-١٤٠٤هـ/١٩٠٠-١٩٨٣م)، التي انطلقت من ليبيا سنة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م، وقتها كانت تدير البلاد الإدارة الإنجليزية عقب هزيمة الإيطاليون في الحرب العالمية الثانية = ابن نصر: **الرحلة الحجازية**، مصدر سابق، ص٣٦، ٣٧، ٣٩.

(٧٤) مروان، محمد عمر: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني (١٢٦١-١٣٣١هـ/١٨٣٥-١٩١٢م)**، طرابلس، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٨٢.

(٧٥) تيسير بن موسى: **المجتمع الليبي**، مرجع سابق، ص٢٥.

(٧٦) تُعَدُّ مدينة طرابلس مَجمعًا للأركاب الذاهبة والآتية من المشارق والمغارب إلى حج بيت الله الحرام، التي منها: ركب فاس، وركب مراكش، وركب الجزائر، وركب تونس، وركب الجريد وغيرها. وكان أهل طرابلس يُبالغون في إكرام حُجّاج تلك الأركاب، ولا يألون جُهدًا في أفضالهم عليهم وأنعامهم = الحشائشي، محمد بن عثمان: **رحلة الحشائشي إلى ليبيا سنة ١٨٩٥م (جلاء الكرب عن طرابلس الغرب)**، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراتي، بيروت، دار لبنان للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٥م، ص٥٣-٥٤.

(٧٧) اليُوسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص٩١. كذلك ابن الطيب الشرقي الفاسي، محمد الطيب بن محمد بن موسى: **رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة**، تحقيق عارف أحمد عبد الغني، دمشق، دار العراب- دار نور حوران، ٢٠١٤م، ص٣١٢-٣١٣.

(٧٨) المنالي، أبو محمد عبد المجيد بن علي بن محمد الفاسي الزبادي: **بُلُوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام**، مخطوط مصور بالخزانة العامة للرباط، تحت رقم حفظ (D١٨٠٨)، ورقة ١١ أ. كذلك ابن عبد القادر الفاسي: رحلة، مصدر سابق، ورقة ١٣٧ أ-ب.

(٧٩) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣١٨.

(٨٠) ابن عبد القادر: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ١٤٣ أ-ب.

(٨١) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣١٨.

(٨٢) العياشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ١/١٧٧.

(٨٣) المصدر نفسه، ١/١٧٨. كذلك ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١١٧-١١٨. الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ١/٢١١-٢١٢.

(٨٤) بتس، جوزيف: **رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ت، ص21-22.

(٨٥) البرتلي: **رحلة البرتلي**، مصدر سابق، ورقات ١١-١٢.

(٨٦) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣١٧.

(٨٧) منهم ابن عابد الفاسي في رحلته الحجازية، حيث ركب مع جماعة نحو سبعين **"من كل فَجّ عميق"**، حسب قوله للدلالة على اختلاطهم من مراكب مختلفة، وقد وَزَّعَهُم أصحاب النقل ما بين خمسة مراكب للتبرك بهم = ابن عابد الفاسي: رحلة، مصدر سابق، ص١٠١.

(٨٨) جوزيف بتس: **رحلة**، مصدر سابق، ص٢٢.

(٨٩) ابن مليح السراج: **أُنْس السّاري**، مصدر سابق، ص٦٩-٧٠.

(٩٠) ابن الصَّبَّاح الأندلسي، عبد الله: **نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار (رحلة حجازية)**، تحقيق جمعة شيخة، منشور في مجلة دراسات تاريخية (عدد خاص)، تونس، المطبعة المغاربيّة للطباعة والنشر والإشهار، العددان ٤٥-٤٦، ديسمبر ٢٠١١، ص١٠٤-١٠٥.

(٩١) ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١٦٩.

(٩٢) ابن مليح السراج: **أُنْس السّاري**، مصدر سابق، ص٦٩-٧٣، ٧٦.

(٩٣) أرسلان، شكيب: **الارتسامات اللطاف في خَاطر الحاج إلى أقدس مطاف**، حَرَّرها وقَدَّمَ لها أيمن حجازي، أبو ظبي- بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٤م، ص٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢.

(٩٤) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٩٥) محمد الأُسْطَى: **ورقات مطوية**، مرجع سابق، ص١١٢، ١٣٠، ١٣٨-١٣٩، ١٥٢.

(٩٦) ابن نصر: **الرحلة الحجازية**، مصدر سابق، ص٦٦، ٦٩-٧٠، ٧٢-٧٣.

(٩٧) المصدر نفسه، ص٧٢-٧٣.

(٩٨) ابن نصر: **الرحلة الحجازية**، مصدر سابق، ص٧٢.

(٩٩) جوزيف بتس: **رحلة**، مصدر سابق، ص٢٢.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص٦٢-٦٣.

(١٠١) جوزيف بتس: **رحلة**، مصدر سابق، ص٦٣، ٦٦، ٦٧، ٦٨.

(١٠٢) ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص٣٠٨.

(١٠٣) البرتلي: **رحلة البرتلي**، مصدر سابق، ورقة ٦٣-٦٤، ٦٥.

(١٠٤) هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٥٨. ٧٤-٧٥، ٧٧، ٧٩.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص٦٣، ٧٤.

(١٠٦) العياشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ٢/٥٠٠. كذلك الورثيلاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ٢/٧٢١.

(١٠٧) هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٨٠-٨١.

(١٠٨) ابن عبد القادر: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ٢١ ب.

(١٠٩) التّجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: **رحلة التّجاني**، قَدَّم لها حسني عبد الوهاب، طرابلس-تونس، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٥م، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(١١٠) عبد الهادي التازي: **بين المغرب وليبيا**، مرجع سابق، ص١٣١.

(١١١) لامعة، زكري: **الرحلة العلمية ودورها في إثراء المجال العلمي**، دورية كان التاريخية، دار ناشري للنشر الإلكتروني، السنة السادسة، العدد الثاني والعشرون، ديسمبر ٢٠١٣م، ص١٥٧، ١٥٨.

(١١٢) القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السّبتي: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمَعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق عبد القادر الصحراوي، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلامية، ط٢، ١٩٨٣م، ٣/٨٠.

(١١٣) أبو دبوس، إبراهيم محمد: **الإمام معاوية بن محمد الحضرمي سيرته ومَروِيَّاته**، مجلة أصول الدين، كلية الدعوة وأُصُول الدين بالجامعة الأسمرية الإسلامية، العدد السادس (عدد خاص)، ديسمبر ٢٠٢٢م، ص٨٥١، ٨٥٣.

(١١٤) ابن فَرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين: **الدِّيباج الْمُذْهَب في معرفة أعيان علماء الْمَذْهَب**، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجَنّان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٦م، ص٢٩٧.

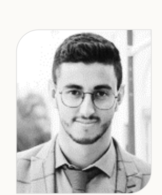
(١١٥) الحُمَيدي، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي: **جذوة المقتبس في تاريخ ولاة الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري،

القاهرة-بيروت، دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، ط٣، ١٩٨٩م، ٢/٥٧٦.
(١١٦) التّجاني: **رحلة**، مصدر سابق، ص٢١٩.
(١١٧) بعلي، حفناوي: **موسوعة الرحلات الحجازية - رحلات المغرب الأدنى تونس وليبيا وطرابلس**، عَمَّان، دار الأيام للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م، ص٣١٧.
(١١٨) العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ١/١٧٨.
(١١٩) المصدر نفسه، ١/١٣٥، ١٣٦.
(١٢٠) ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١٣١-١٣٢.
(١٢١) مصطفى عبد الله بعيو: **التاريخ اللُّوبي**، مرجع سابق، ص١٨٤.
(١٢٢) العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ١/١٧٨. كذلك فريدريك هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٨٠. محمد عمر مروان: **مدينة غدامس**، مرجع سابق، ص٣٨٣.
(١٢٣) ابن إسماعيل، عمر علي: **انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا ١٧٩٥-١٨٣٥م**، طرابلس، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، ط٢، ٢٠١٢م، ص٤١٢-٤١٣.
(١٢٤) العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ١/٢٠٨.
(١٢٥) مجهول، كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، د.ت، ص١٤٣.
(١٢٦) العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ١/١٩٨. كذلك ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١٢٩.
(١٢٧) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣٢٠.
(١٢٨) جوزيف بتس: **رحلة**، مصدر سابق، ص٦٢.
(١٢٩) الآنسة توللي: **عشرة أعوام**، مصدر سابق، ص٣٢٠.
(١٣٠) هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٣٤.
(١٣١) محمد عمر مروان: **مدينة غدامس**، مرجع سابق، ص٣٨٢.
(١٣٢) محمد لبيب البتنوني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٣١٠-٣١١.
(١٣٣) محمد عمر مروان: **مدينة غدامس**، مرجع سابق، ص٥٩٨.
(١٣٤) ابن الطيب الشرقي الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ص١١٧-١١٨.
(١٣٥) محمد عمر مروان: **مدينة غدامس**، مرجع سابق، ص٥٩٩.
(١٣٦) هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٧٤.
(١٣٧) العيّاشي: **الرحلة**، مصدر سابق، ٢/٥٠٠. كذلك الورثيلاني: **رحلة**، مصدر سابق، ٢/٧٢١.
(١٣٨) محمد لبيب البتنوني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٣١٠.
(١٣٩) محمد عمر مروان: **مدينة غدامس**، مرجع سابق، ص٥٩٩.
(١٤٠) هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٣٥.
(١٤١) عبد الهادي التازي: **رحلة الرحلات - مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**، مكة المكرمة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠١٥م، ص٣٢٨.
(١٤٢) البرتلي: **رحلة البرتلي**، مصدر سابق، ورقة ٢٢.
(١٤٣) البرتلي: **رحلة البرتلي**، مصدر سابق، ورقة ٦٠.
(١٤٤) حسن الفقيه حسن: **اليوميات الليبية**، مصدر سابق، ١/٥٥١.
(١٤٥) عبد الهادي التازي: **رحلة الرحلات**، مرجع سابق، ص٣٢٨.
(١٤٦) البرتلي: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ١٠ وما بعدها.
(١٤٧) البرتلي: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ١١-١٢. كذلك ينظر كيفية استقبال والي مُرزق العُثماني -وهي حاضرة فَزَّان آنذاك- لرَكْب الحَجّ الْمَرَّاكشي حوالي سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م = ابن مليح السراج: أُنْس السّاري، مصدر سابق، ص٣٤. وقارن ما ذكره فريدريك هورنمان من وصف استقبال سُلطان مُرزق أيضًا لقافلة حُجَّاج فَزَّان سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م = هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٨٠-٨١.
(١٤٨) ابن الصَّبَّاح الأندلسي: **نسبة الأخبار**، مصدر سابق، ص٧٢-٧٣.
(١٤٩) بلد بجوار مدينة لُبْدَة، وهو ملاصق لمدينة الخمس، وطوله من الشرق إلى الغرب نحو ١٨كم، وينتهي الذاهب منه إلى الشرق بعين كعام، ومن هناك يدخل أرض زليتن = الطّاهر أحمد الزّاوي: **معجم البلدان الليبية**، طرابلس، مكتبة النور، ط١، ١٩٦٨م، ص١٧٩.
(١٥٠) الورثيلاني: **رحلة**، مصدر سابق، ١/٢١٩، ٢/٧١٧.
(١٥١) ابن ناصر الدَّرْعي، أبو العباس أحمد بن محمد: **الرحلة الناصريّة ١٧٠٩-١٧١٠م**، حقّقها وقدّم لها عبد الحفيظ ملوكي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص٢٠٤، ٦٦١.
(١٥٢) الْحُضَيْكي السّوسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: **الرّحلة الحجازيّة**، ضبط وتعليق عبد العالي لمدبر، الرباط، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط١، ٢٠١١م، ص٨٨.
(١٥٣) الورثيلاني: **رحلة**، مصدر سابق، ١/٢١٩، ٢/٧١٧.
(١٥٤) الناصري: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٣٥٦.
(١٥٥) ابن عبد القادر الفاسي: **رحلة**، مصدر سابق، ورقة ١٣٦ ب.
(١٥٦) الْوَزّان: **وصف إفريقيا**، مصدر سابق، ٢/٩٨.
(١٥٧) هورنمان: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٨.
(١٥٨) ابن نصر: **الرحلة الحجازية**، مصدر سابق، ص٣٨، ٥٠، ٥٨-٥٩.
(١٥٩) **سورة الكهف**، الآية (٣٠).

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].



الكتابة التاريخية في العصر الموحدي
البيذق أنموذجًا



عماد تبهوت
باحث دكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – مكناس
جامعة مولاي إسماعيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

تُعَدّ عملية تدوين الأخبار وفق منهج كلاسيكي، ركز على تتبع تاريخ الحضارة الإنسانية منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، إحدى أقدم صور الكتابة التاريخية. والتي ساهمت في بناء المعرفة التاريخية. وعرفت الكتابة التاريخية تطورات عدة، وذلك للتطورات التي عرفها علم التاريخ سواء من حيث المنهج أو من حيث المواضيع التاريخية التي اهتم بها. وهذا ما ولد لدى الباحثين المهتمين بتاريخ التأريخ الرغبة في تتبع تطور الكتابة التاريخية منذ بداية التدوين إلى الزمن الراهن. والتجربة المغربية في مسألة إنتاج المعرفة التاريخية كانت غنية جدًا، من ناحية تعدد الكتابات التي ألفت عن تاريخ الدولة المغربية خاصة في مرحلة العصر الوسيط. مما يدعو إلى ضرورة رصد تطور الكتابة التاريخية في المغرب خلال هذا العصر. من هذا المنطلق تقدم هذه الورقة موضوع الكتابة التاريخية في المغرب خلال العصر الموحدي، كمحاولة للوقوف عند السميات التي ميزت الكتابة التاريخية الموحدية. مع التركيز على ما ألفه أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق –"أخبار المهدي ..." و"المقتبس ..."–، لكونه أول مَن أرخ للبدايات الأولى للدعوة والدولة الموحدتين في المغرب، كما أنه كان من المؤرخين المعاصرين أو مشاركين في صناعة الأحداث وكان من المقربين من ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٧	مارس	٢٠٢٤
تـاريخ قبـــول النشــر:	٢٩	أبريل	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

منهج البحث التاريخي؛ الكتابة التاريخية؛ العصر الموحدي؛ البيذق؛ الدولة الموحدية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.279390.1114 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عماد تبهوت. "الكتابة التاريخية في العصر الموحدي: البيذق أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٠٦ – ١١٨.

Corresponding author: tabohout96@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ عملية تدوين الأخبار وفق منهج كلاسيكي، ركز على تتبع تاريخ الحضارة الإنسانية منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، إحدى أقدم صور الكتابة التاريخية. والتي ساهمت في بناء المعرفة التاريخية. وعرفت الكتابة التاريخية تطورات عدة، وذلك للتطورات التي عرفها علم التاريخ سواء من حيث المنهج أو من حيث المواضيع التاريخية التي اهتم بها[١]. وهذا ما ولد لدى الباحثين المهتمين بتاريخ التأريخ الرغبة في تتبع تطور الكتابة التاريخية منذ بداية التدوين إلى الزمن الراهن.

والتجربة المغربية في مسألة إنتاج المعرفة التاريخية كانت غنية جدا، من ناحية تعدد الكتابات التي ألفت عن تاريخ الدولة المغربية خاصة في مرحلة العصر الوسيط[٢]. مما يدعو إلى ضرورة رصد تطور الكتابة التاريخية في المغرب خلال هذا العصر. وفي هذا الصدد ستتناول هذه الورقة موضوع الكتابة التاريخية في العصر الموحدي. حيث يجد الباحث في تاريخ المغرب الوسيط صعوبات كثيرة في العثور على مصادر موحدية تؤرخ للبدايات الأولى للدعوة والدولة الموحديتين في المغرب، ونخص هنا بالذكر المصادر التاريخية الموحدية الأولى التي كان مؤلفوها معاصرين أو مشاركين في صناعة الأحداث. وتعتبر هذه المؤلفات من المصادر المفقودة. وما وصلنا من مصادر عن هذه المرحلة، على قلتها، نجد ما خلفه أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق، حيث إنه هو الآخر لم تسلم كتاباته من الضياع، مما أدى إلى بتر جزء مما دونه.

لكن وعلى الرغم من ضياع جزء مما خلفه البيذق عن تاريخ الحركة الموحدية، والأيديولوجية التومرتية. إلا أن الباحث في هذه المرحلة من تاريخ المغرب، يجد نفسه أمام مُؤَلَّفَين نادرين تناول فيهما صاحبهما المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحدية. خاصةً وأن البيذق ممن شاركوا في صناعة الأحداث التي أوردها في كتاباته، وكان من المقربين من ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن المنهج الذي اتبعه البيذق في إعادة بنائه للأحداث؟ وما الدوافع التي دفعت البيذق إلى كتابة تاريخ الحركة التومرتية وبداية نشأة الدولة الموحدية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، ستتناول هذه الورقة ملامح الكتابة التاريخية في عصر الموحدين، من أجل معرفة مكانة كتابات البيذق ضمن ما أُلِّفَ من مصادر تاريخية، ومدى أهميتها للباحثين في تاريخ الوسيط عامة، والدولة الموحدية خاصة. ومن ثم تتبع سيرة البيذق ومعرفة شخصيته كما ستتناول آثار الأيديولوجية الموحدية في كتابات البيذق. وكذلك أبرز القضايا التي شغلت مفكرة البيذق، وتختتم هذه الورقة موضوع الكتابة التاريخية عند البيذق بدراسة منهجه في تناول الأخبار، والخلفية التاريخية أو المفكرة التاريخية التي من خلالها انطلق البيذق في إعادة بنائه للأحداث التاريخية التي أوردها.

أولاً: معالم الكتابة التاريخية في المغرب خلال العصر الموحدي (ق ٦ و٧ هـ)

مع مطلع القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) ظهر الموحدون كقوة سياسية جديدة على ساحة الحكم بالمغرب (٥١٥ – ٦٦٨هـ /١١٢١- ١٢٦٩م)، في ظل التقلبات والاضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها بلاد المغرب، خاصة في الفترة التي سبقت وصول الدولة الموحدية إلى الحكم، واستمرار صراعهم مع المرابطين وأتباعهم حتى بعد سقوط دولتهم، وتوسيع نفوذهم السياسي، وما رافقها من توسع جغرافي، ليشمل بلاد المغرب، كما استطاعت الدولة الموحدية الحفاظ على الأندلس.

في خضم هذه الصراعات السياسية والحروب التي كانت الدولة الموحدية طرفًا رئيسيًا فيها، سواء مع سابقيهم (المرابطين) أو لاحقيهم (المرينيين)، عرف العصر الموحدي نهضة علمية وفكرية، حيث ازدهرت عندهم المعارف، بداية من الدعوة الموحدية حيث كان المهدي بن تومرت إما الموحدين، من العلماء العارفين الذين يجتمع عندهم وجوه الناس، ويشير صاحب المعجب إلى أنه "... لما نزل (بن تومرت) اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير، [...] وألف لهم عقيدته بلسانهم، وكان أفصح

أهل زمانه في ذلك اللسان، ... ثم صنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سماه (أعز ما يطلب) وعقائد في أصول الدين ..."[٣]، وهذا الازدهار استمر مع مؤسس الدولة الموحدية عبد المؤمن بن علي الذي "كان مُؤْثِرًا لأهل العلم، محبا لهم، محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم ..."[٤] وهذا الاهتمام الذي خصه السلاطين الموحدون للعلوم والعلماء، كان له دور في انتشار العلماء في عصرهم، كالفيلسوف ابن رشد -الحفيد- وابن زهر الأندلسي، ثم العالم والفيلسوف أبي بكر محمد بن عبد الملك ابن طفيل، وما خلفه هؤلاء وغيرهم من علماء عصرهم من إنتاج معرفي يصعب إحصاؤه.

إضافة إلى هذا الازدهار العلمي الذي عرفه العصر الموحدي، عرف التدوين التاريخي هو الآخر ازدهارا وانتشارا على نطاق واسع في الدولة الموحدية، ويظهر هذا الانتشار في وفرة الكتابات التاريخية التي تم تدوينها في المغرب والأندلس خلال العصر الموحدي، ومن هذه الكتابات التي اهتمت بتدوين وتخليد الآثار الموحدي نجد:

كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"[٥] وكتاب " المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"، لأبي بكر بن علي الصنهاجي (البيذق)، وهذان الكتابان هم العمود الفقري لهذه الدراسة، وسنعرف بهم في محلهم.

كتاب "تاريخ المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة أبي مروان عبد المالك بن محمد الباجي الأندلسي المتوفى عام ٥٩٤هـ/١١٩٨م، ويتكون هذا الكتاب من ثلاثة أقسام، ضاع منها قسمان (الأول والثالث)، وتبقى منها القسم الثاني، الذي أرخ فيه صاحبه للدولة الموحدية والأندلس بداية من عام ٥٥٤هـ أي من عهد عبد المؤمن بن علي وصولا لعهد ابنه يوسف الأول بن عبد المؤمن، أورد فيه تفاصل عن الحياة الاقتصادية والمنشآت المعمارية، وعن الأنظمة الموحدية، والحياة الفكرية والأدبية والدينة خلال الفترة المشار إليها، كما أورد فيه بعض القصائد الشعرية أندلسية ومغربية، مع بعض التراجم.[٦]

كتاب "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان" لمؤلفه حسن بن علي بن محمد الكتاني المعروف بابن القطان، توفي في النصف الثاني من المائة الهجرية السابعة، جمع فيه أخبارَ ثلاث وثلاثين سنة من تاريخ الدولة الموحدية والأندلسية (من سنة ٥٠١ إلى ٥٣٣هـ)، إضافة إلى تناوله جزءًا من تاريخ الشرق العربي.[٧]

كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لصاحبه عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي المتوفي سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨م. وهو كتاب ألفه صاحبه بأمر من أحد وزراء الخليفة العباسي لم يذكر اسمه، وكان ذلك في الربع الأول من القرن السابع الهجري، بغية تعَرف أهل المشرق بأحوال أهل المغرب.[٨] ويتكون الكتاب من قسمين رئيسيين: القسم الأول خصصه صاحبه لأخبار الأندلس، بداية بذكر جغرافية شبه الجزيرة، وتاريخ فتحها، ومن ثم انتقل لذكر أخبار ملوكها بداية من ملوك بني أمية ثم أمراء الطوائف وصولا إلى حكم المرابطين حيث ثم توحيد الحكم بين العدوتين المغرب والأندلس. أما القسم الثاني فخصصه المراكشي لذكر تاريخ الدولة التي عاش في كنفها، أي، الدولة الموحدية منذ تأسيسها مع المهدي بن تومرت إلى عهد يوسف الثاني ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م.[٩]

المصادر المفقودة:

- كتاب "المجموع" لمؤرخ مجهول اقتبس منه البيذق في كتابه "أخبار المهدي".[١٠]
- تقييد للقاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم زغبوش المكناسي في تاريخ مكناس، وهو أحد مصادر ابن الغازي خلال تأليفه الروض الهتون.[١١]
- رسالة أبي يحيى ابن المعلم الطنجي، وردت عند المقري في النفح الطيب.[١٢]
- كتاب المعرب عن أدب أهل المغرب، ابن اليسع الأندلسي القرطبي.

ثانيًا: ترجمةُ أبي بكر بنِ علي الصنهاجي "البيذق" والتعريف بكتاباته

١/٢ـ ترجمة أبي بكر بنِ علي الصنهاجي "البيذق"

يجد الباحث عن الشخصيات التاريخية الأولى للدولة الموحدية صعوبة في الوصول إلى معلومات كافية تعرفنا عنها، وعلى رأسها أبو بكر بنُ علي الصنهاجي.

حيث تعرف هذه المصادر شحا في الأخبار التي يمكن من خلالها أن نبني ترجمة وافية لإحدى أهم الشخصيات الموحدية، باعتباره رفيق ابنِ تومرت خلال رحلته المشرقية، وأحد تلاميذه، ورفيق خليفته عبد المؤمن بن علي،[١٣] وأحد مؤرخي دولتهم.

ورغم وفرة كتب التراجم، سواء التي ألفت في العصر الموحدي، أو التي بعده، والتي كانت لها اهتمامات واضحة بأهم الشخصيات الموحدية، فإن أبا بكر بن علي الصنهاجي لم يوجد له ذكر في هذه الكتابات، لذلك لا يمكن للباحث عن هذه الشخصية معرفة نسبه ولا تاريخ ولادته أو مكان نشأته، غير ما ورد في كتابه "أخبار المهدي بن تومر وبداية دولة الموحدين". فلم يصلنا عن البيذق سوى اسمه الذي أورده في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت ..." حيث قال "والعبد الفقير أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنا بالبيذق"[١٤].

غير أن تاريخ وفاته يرجح أن يكون في آخر حياة عبد المؤمن بن علي، لكون البيذق توقف في نقله لأخبار الدولة الموحدية على عهده، إذ إن آخر باب ذكره عن السلاطين الموحدين كان "باب ولاية أولاد الخليفة" وكانت بداية خلافتهم في حياة أبيهم عبد المؤمن، كما يرجح أن تكون وفاته على عهد ولاية السلطان يوسف بن عبد المؤمن.

أما فيما يخص أصل أبي بكر بن علي فهناك من الباحثين[١٥] -محمد بن معمر والمنور عواد -من نسبه إلى قبيلة إزناكن التي تقع بالأطلس الصغير، لكون هذه القبيلة متجاورة لقبيلة محمد بن تومرت؛ هرغة، إضافة إلى أن قبيلة ازناكن أو صنهاجة الأطلس الصغير هي القبيلة التي ينتسب إليها أصدقاءُ المهدي أو المقربون منه.

٢/٢-كتبه

خلف البيذق مؤلَّفَين إثنين، أو على الأقل هذا ما وصلنا من مؤلفاته، الأول هو كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"، والذي خصصه لتتبع أخبار مهدي الموحدين كما هو ظاهر من عنوان الكتاب. ومن ثم، تناول باقي أخبار قيام الدولة الموحدية ومراحل تطور دعوتهم، من خلال تتبع رحلة المهدي المشرقية، وعودته إلى المغرب، وتدوين أخبار خليفته عبد المؤمن بن علي الكومي.

وهذا الكتاب، نوع من كتب المذكرات، لأن مؤلفه اعتمد على ذاكرته في ذكر الأحداث، لكونه كان شاهدا على جل أو أغلب الأحداث التي ذكرها، كما أنه كان صانعا أو مشاركا في بعضها. والدليل على ذلك قول البيذق في الباب الأول من الكتاب "فلما كان بعض الأيام أمرنا (المهدي) بالأخذ على أنفسنا وقال لنا نتوجه إن شاء الله نحو الغرب ..."[١٦]، وجاء في الباب الثاني "ثم قال لنا الامام المعصوم رضي الله عنه لتأخذوا على أنفسكم غدا إن شاء الله، فلما أصبح خرجنا من القسطنطنة ..."[١٧]، وهكذا استمر في ذكر أخبار المهدي بن تومرت وأخبار خليفته معتمدا على ذاكرته.

وكانت ذاكرة البيذق في تدوينه للأحداث المذكورة قوية جدا، ويتضح ذلك جليا في الأخبار التي نقلها ورتبها ترتيبا كرونولوجيًا دقيقا، حيث لا يقدم حدثًا عن آخر، رغم أنه لا يذكر تواريخ وقوع الأحداث إلا نادرا، لكن يظهر الترتيب الزمني للأحداث من خلال الأبواب التي أوردها البيذق في كتابه، حيث يمكن لنا ربط التسلسل الزمني بتحركات المهدي وخليفته. ومثال ذلك، نجد أن أول باب أورده البيذق في ذكره لأخبار المهدي هو باب دخوله إلى تونس عائدا من رحلته المشرقية[١٨]، فيما جاء في الباب الثاني خبر دخول ابن تومرت إلى قسنطينة[١٩]، أما الباب الثالث فخصصه لذكر أخبار دخول المهدي إلى مدينة بجاية[٢٠]، ثم بابا في خروج المهدي نحو الغرب متجها نحو المغرب[٢١]، إلى آخر الأخبار التي ذكرها في الكتاب.

والخاصية المشتركة بين الأبواب التي ذكرها البيذق، هو التتابع الجغرافي للمناطق التي قطعها المهدي في رحلته من المشرق عائدا إلى المغرب، بداية من تونس وصولا إلى المغرب، ومنه نستنتج أن الأخبار التي ذكرها أبو بكر بن علي الصنهاجي، مرتبة ترتيبا زمنيا موافقا للترتيب الجغرافي في ذكره للأخبار، متأثرا في ذلك بكتب المسالك التي كانت منتشرة في عهده، وهي عبارة عن كرونولوجيا تاريخ تأسيس الدولة الموحدية إن صح التعبير.

وبالإضافة إلى أن كتاب "أخبار المهدي"، من المذكرات، فهو يتأطر ضمن كتب السيرة الغيرية، وهذا ما يشير إليه الشق الأول من عنوان الكتاب "أخبار المهدي بن تومرت"، حيث نقل فيه المؤلِف الحياة الشخصية للمهدي بن تومرت بدقة كبيرة جدا، ويتضح هذا كذلك في بداية الكتاب، حيث يشير البيذق في الباب الأول إلى حياة إمامهم لما دخل تونس، يقول "وكان طلبتها يأتون إلى الإمام رضي الله عنه يأخذون عنه العلم، فلما كان بعد خمسة عشر يوما صلا الظهر يوم الجمعة، فلما صليت الفريضة صلا على الجنازة ..."[٢٢]، وهذا مثال على التفاصيل الدقيقة من حياة المهدي التي أوردها المؤلِف، في القسم الأول من كتابه، المخصص لهذه الشخصية الملهمة للعنصر الموحدي. ثم إن كتاب "أخبار المهدي ..." هو كتاب في التاريخ السياسي، وهذا ما يحيلنا عليه الشق الثاني من عنوان الكتاب "بداية دولة الموحدين"، لكون الكتاب خصصه صاحبه لرصد بداية بناء مشروع الموحدين السياسي في المغرب.

أما الكتاب الثاني لأبي بكر بن علي الصنهاجي، فهو "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب". وهو نبذة مختصرة من الكتاب الأصلي المسمى ب"كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"، الذي يعد من الكتب المفقودة، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في تقديمه ل"كتاب المقتبس" أن "المؤلفات التي كتبت عن تاريخ المغرب قبل قيام الدولة الموحدية مفقودة أو في حكم المفقود، [...] وحتى الكتب التي ألفت على عهد الدولة الموحدية كاد أن يشملها ما شمل سابقتها [...] وكتاب الأنساب في معرفة الأصحاب لأبي بن علي الصنهاجي المكنا بالبيذق هو واحد من هاذه المؤلفات العديدة التي كتبت على عهد الدولة الموحدية ثم عفا عنها الزمان فمحا رسومها وطمس معالمها وفج بعد العين بأثارها".[٢٣]

ورغم فقدان كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، إلا أن الباحثين في التاريخ الموحدي لم يحرموا من الاطلاع على مقتبسه، الذي أُختصر فيه البيذق الكتاب الأصلي، ولم يعرف الدافع الذي جعل المؤلف يختصر هذا كتاب، وذلك لضياع جزء من مقدمة كتب "المقتبس" والتي من المفروض أن يكون البيذق قد ذكر فيها الأسباب التي كانت وراء اختصار الكتاب الأصلي. وتم العثور على هذا المقتبس من قبل المستعرب الفرنسي ليفي بروفينصال في مكتبة دِيرسان لورانثييو بمدينة الأسكوريال القريبة من مدريد.[٢٤]

ويعتبر كتاب المقتبس من كتب الأنساب والتراجم، حيث يظهر من خلال عنوانه -كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب-، وفصوله، أن البيذق خصص كتابه هذا للتعريف بالمهدي بن تومرت وأصحابه المقربين، وهذا ما يحويه الكتاب. لكن البيذق في مقدمته للكتاب أشار إلى الدافع الذي كان وراء تأليفه له، ولخصه في قوله "إنما الفائدة فيه -يقصد كتاب الأنساب- تعريف القبائل بعضها ببعض لقوله تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)".[٢٥]

ثالثًا: أهمية كتب البيذق

يكتسي الكتابان اللذان ألفهما البيذق "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" و"المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"، أهمية كبيرة ضمن الكتابات التاريخية الموحدية لعدة اعتبارات، منها: أن المؤلف عاصر بدايات الدعوة وقيام الدولة الموحديتين، كما أنه كان قريبا من الشخصيات المؤسسة، حيث كان رفيق المهدي في رحلته المشرقية، وتلميذَه، أخذ العلم منه. وبعد وفاة المهدي كان زميلا ومرافقا لخليفته عبد المؤمن بن علي. إضافة إلى هذا فالكتابان كانا من الكتابات الأولى التي ألفت في العصر الموحدي، وأرخت له.

كما أن الكتابين اللذين بين أيدينا، وخاصة كتاب "أخبار المهدي بن تومرت..." يعتبر مصدرا أساسيا لتاريخ الدولة الموحدية خلال فترة قيامها، حيث اعتمده أبناء عصره ومن لاحقهم من المؤرخين كمصدر أساسي في مؤلفاتهم. ومن بين المؤرخين الذين اتخذوا "كتاب أخبار المهدي" مصدرا رئيسيا في تأريخهم للدولة الموحدية، ابن القطان، في كاتبه "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان"، الذي نقل عنه بعض أخبار الحركة الموحدية، خاصة المرتبطة بالمهدي بن تومرت ورحلته المشرقية، وإن كان ابن القطان أكثر تفصيلا في ذكر أخبار المهدي باعتماده عن مصادر أخرى.

إضافة إلى ابن القطان، نجد ابن عذاري المراكشي صاحب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" قد أخذ عن البيذق أخبار المهدي في مواضيع كثيرة، والأخبار المرتبطة بخليفته عبد المؤمن بن علي. إضافة إلى مؤرخين آخرين كما أشار إلى ذلك الأستاذ الحسين بولقطيب بقوله "وتبدو أهمية الكتاب خصوصا إذا علمنا أن أربعة من رواد تاريخ المغرب الوسيط استقوا منه معلوماتهم حول دولة الموحدين، وهؤلاء ابن القطان وابن عذاري وصاحب (الحلل الموشية) وابن خلدون"[٢٦]

ويكتسي كتابَا البيذق أهمية كبيرة من الناحية التاريخية، فما أورده البيذق من أخبار عن دولة الموحدين لا غنى عنها، لانفراده أولا بأحداث تاريخية لم تورد عند غيره من المؤرخين أبناء جيله، خاصة تلك التي أوردها في كتابه "أخبار المهدي"، كون هذه الأخبار تمتاز بالدقة والتفصيل، وفيها من السذاجة أحيانا ما يطلعنا على جوانب غامضة من نفسية ابن تومرت وسلوك أنصاره وحقيقة دعوته حسب تعبير الأستاذ لحسن بولقطيب.[٢٧]

ورغم الأهمية التاريخية لكتابي البيذق، فإنه ينبغي التعامل معهما بحذر لكون المؤلف من المتحيزين للدعوة الموحدية، وهذا يظهر جليا في كثرة إعجابه بقائد الحركة، وخليفته عبد المؤمن، "حيث ينسب إلى الأول أفعالا تنم عن مبالغات واضحة كقوله إن إمامه واصفا الأمير المرابطي عليّ بن يوسف أثناء مناظرة مراكش بالجارية المنقبة"[٢٨]، ومن ثم يبني البيذق للقب "المعصوم" الذي أطلق على المهدي في كتابيه، حيث لم يذكر عنده محمد بن تومرت إلا باسم المهدي أو المعصوم. وهنا نتساءل، كيف للبيذق أن يذكر مساوئ وأخطاء شخص معصوم؟

رابعًا: البيذق بين الموضوعية والانحياز لقادة الدولة الموحدية

لا يمكن لدارس كتابي البيذق، عدم ملاحظة انحياز البيذق الدعوة للتومرتية. وهذا يجعلنا نتساءل هل يمكن اعتبار كتابات البيذق وسيلة من وسائل الدعاية للفكر التومرتي والأيديولوجيا الموحدية؟

وللإجابة عن هذا السؤال يتوجب علينا استخراج وإحصاء المصطلحات المفتاحية التي من خلالها نتوصل إلى مدى انحياز البيذق للفكر الموحدي، مع التركيز على كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين".

	الألقاب	العدد
الدعاية للقائد الروحي للدولة الموحدية "المهدي بن تومرت"	المعصوم	١٥٥
	الإمام	٤٣
إعطاء المشروعية لخلافة عبد المؤمن بن علي	الخليفة	١٥٥
	أمير المؤمنين	٤٤

ويتضح من خلال الجدول أعلاه، مدى انحياز البيذق للمشروع الموحدي في كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية" للبيذق. ويظهر هذا الانحياز في نقطتين أساسيتين:

الأولى: الدعاية لقائد الدعوة الموحدية، حيث ركز البيذق على شخصية بن تومرت بكونها الركيزة الأساسية في تأسيس الفكر الموحدي، حيث لم يذكر المؤلف ابن تومرت إلا مع لقب المعصوم أو الإمام إضافة إلى ألقاب أخرى خصها لابن تومرت. واستعملت هذه الألقاب كنوع من الدعاية أولا للمذهب التومرتي، وإظهارًا لصحة هذا المذهب لكون صاحبه معصومًا من الخطأ، وإمامَ أتباعه، تيمنا بالمذهب الشيعي. وثانيا يظهر لنا اقتناع المؤلف بأفكار ابن تومرت لكونه رفيقا له وأحد تلاميذه، لذلك كان انحيازه للأيديولوجية الموحدية ظاهرا في كتابيه. إضافة إلى تكرار الألقاب التي وصف بها البيذقُ ابنَ تومرت في كل موضع ذكر فيه اسمه، نجد أن أبا بكر قد خصه كذلك بالكرامات والخوارق التي

تظهر مدى مكانة شخصية ابن تومرت في مفكرة البيذق.

ثانيًا: انحياز لمشروع قيام الدولة الموحدية مع عبد المؤمن بن علي، وذلك أن البيذق وعلى غرار ما خص به ابنَ تومرت، نجده قد أسقطه على خليفته، فما ذكر البيذق اسم عبد المؤمن إلا ووسمه بلقب الخليفة أو أمير المؤمنين، محاولا إثبات أحقيته في خلافة المهدي بعد وفاته. وبدأ البيذق بذكر لقب الخليفة وأمير المؤمنين منذ أول خبر ذُكر فيه، حيث جاء في نص البيذق "وذلك أن الحق تبارك وتعالا أزعج أمير المؤمنين الخليفة عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه".[٢٩]

وبذلك نستنتج أن منهج التكرار الذي اتبعه البيذق في إشارته إلى شخصية ابن تومرت وعبد المؤمن، كان لغرض رئيسي، والذي تجلى في الدعاية لفكر ابن تومرت والدعوة الموحدية، إضافة إلى ترسيخ أحقية عبد المؤمن بن علي في خلافته للمهدي كما يشير إلى ذلك البيذق بقوله "فلم يزل يدنو من الإمام والمعصوم يقربه (عبد المؤمن) حتى دنى منه، فقال له المعصوم ما اسمك يا فتا؟ فقال له عبد المؤمن فقال له المعصوم وأبوك علي؟ فقال نعم [...] فقال له يا شاب من أين إقبالك؟ قال له من تلمسان، من ساحل كومية، فقال له المعصوم من تاجزرا أم لا؟ فقال له نعم ..."[٣٠] واسترسل البيذق في ذكر اللقاء الأول بين ابن تومرت وخليفته إلى أن وصل إلى قوله "أسمعه يقول (ابن تومرت) لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين"[٣١]. وبذلك يكون البيذق قد أشار إلى إيمان ابن تومرت بولاية عبد المؤمن بن علي على الموحدين وقائد دولتهم. وللإشارة فالبيذق أورد هذا الخبر في موضع يسبق دخول ابن تومرت وخليفته إلى المغرب وقبل مبايعته في تنملل وتأسيس دولتهم.

خامسًا: القضايا التي عالجها البيذق

١/٥-مضمون الكتابين

(١/٥) ١-كتاب "أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين"

يتضح من خلال عنوان الكتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" المضمون العام للكتاب، والذي تناول فيه البيذق في قسمين، أخبار المهدي بن تومرت في رحلته المشرقية، ومن ثَمَّ أخبار بداية الدولة الموحدية خلال مرحلة التأسيس.

ففي القسم الأول قام البيذق بتتبع أخبار المهدي بن تومرت خلال عودته من رحلته المشرقية إلى المغرب، محاولا تقديم صورة واضحة عن تنقلاته والأماكن التي مر منها أو أقام فيها، أو بمعنى أدق أورد البيذق في القسم الأول من كتابه الخطوات الأولى للدعوة الموحدية، من تونس، يقول عن دخول المهدي إليها "فلما صليت الفريضة صلاًّ على الجنازة فنظر الإمام إلى جنازة من وراء الناس فقال لهم لم لا تصلون على هذه الجنازة، قالوا له هو يهودي وكان يصلي فقال لهم [...] افيكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس نعم [...] ثم أمر من يقيم الصفوف وصلا عليه [...] فلما صلا دعا بالفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة وبين لهم الكتاب العزيز فقالوا له بعد أن عرفوا الحق جهلنا يا فقيه"[٣٢].

وهكذا استرسل البيذق في ذكر أخبار المهدي وحركته الدعوية بداية من تونس ومرورا بمدن الجزائر والمغرب الأقصى، حيث أورد أبواباً خاصة لكل منطقة أو مدينة دخلها المهدي أو خرج منها، ومثالا على ذلك نجد "باب دخول المعصوم إلى مكناس" و"باب خروج المعصوم من مكناس" -والأمثلة في هذا الجانب كثيرة- إلى أن وصل إلى مراكش عاصمة المرابطين، ومنها إلى تنملل حيث تمت مبايعته، "ثم بعد ذلك رحل إلى تنملل فبايعوه بها وذلك تحت شجرة الخروب ..."[٣٣]. إضافة إلى ذكره لعملية التمييز التي قام بها المهدي قبل وفاته، لتمييز أتباعه عن غيرهم.

أما بخصوص القسم الثاني من الكتاب، والذي يشمل على ما تبقى من الأبواب التي ذكرها المؤلف، والتي تناول فيها أخبار قيام الدولة الموحدية مع مؤسسها الفعلي عبد المؤمن بن علي، وصولا إلى ولاية ابنه يوسف بن عبد المؤمن. بداية من بيعة عبد المؤمن بن علي وفتوحاته في بلاد المغرب، وأهم الغزوات التي قام بها المقربون منه، كعمر أصناج، والبشير الونشريسي. ثم انتقل البيذق إلى ذكر عملية الاعتراف التي قام بها عبد المؤمن بن علي، والتي تم فيها القضاء على الآلاف من معارضي النظام الموحدي، وهي من الوقائع التي تفرد البيذق بذكرها. إضافة إلى القسمين السابقين، اختتم البيذق كتابه هذا

"أخبار المهدي" بقسم ثالث ذكر فيه الثائرين على النظام الموحدي في المغرب والأندلس. كما ذكر بعض أخبار يوسف بن عبد المؤمن وحركته الجهادية في الأندلس ضد المرابطين الذين كانوا يدافعون على ما تبقى لهم من الأراضي فيها. وفي ختام هذا الكتاب وردت وثيقة تلخص أهم أحداث الدعوة الموحدية خلال عهد ابن تومرت دون ذكر اسم صاحبها، ويفترض أنها لناسخ الكتاب.

(١/٥) ٢كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب"

خصص البيذق كتاب "المقتبس للتعريف بالمهدي بن تومرت والمقربين منه. وبدأه بذكر نسب إمام الموحدين محمد بن تومرت، ثم انتقل لذكر نسب أصحابه المقربين كعبد المؤمن بن علي وأهل داره -أمه وإخوته وقرابته-، والبشير الونشريسي، وأصحاب المهدي ببلاد مصر. كما ترجم البيذق لأهل الخمسين، واختتم هذا الكتاب بالإشارة إلى واقعة تمييز الموحدين التي أشرف عليها المهدي بن تومرت.

٢/٥-القضايا

تعددت القضايا التي أوردها البيذق في كتابيه، بداية من قضية العصمة والإمامة والكرامات التي اختص بها مهدي الموحدين. إضافة إلى قضية نشأة الدولة الموحدية، وصراعهم مع قادة الدولة المرابطية. ومن القضايا التي تناولها الكتاب، قضية العنف حيث تناول كتاب "أخبار المهدي بن تومرت ..." سياسة العنف التي نهجها كل من ابن تومرت وخليفته، والتي تجلت في عملية التمييز والاعتراف، إضافة إلى استعمال العنف للقضاء على الثوار والمعارضين، وهي القضية التي تفرد البيذق بذكرها

(٢/٥) ١-التمييز (٥١٩هـ/١١٢٥م)

سياسة اتخذها المهدي بن تومرت لتمييز أتباعه من معارضيه، ويقول البيذق بخصوص هذه السياسة "فأكرم الله المهدي بدعوة البشير فأمر بالمِيِّز فكان البشير يُخْرِجِ المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب [...] فمات يومئذ من الناس خمس قبائل"[٣٤]. وهكذا تكون سياسية التميز التي اعتمدها ابن تومرت إنما هي عملية إبادة لكل من خالفه وخالف مذهبه.

(٢/٥) ٢- الاعتراف (٥٤٤هـ/١١٤٩م):

سياسة اتخذها عبد المؤمن بن علي، وهي سياسة مشابهة للتمييز، حيث كان الهدف من ورائها معرفة أتباع الخليفة عبد المؤمن بن علي ومن خرج عن طاعته. وهي الأخرى كانت عبارة عن إبادة للعديد من القبائل بأمر من عبد المؤمن بن علي، وجاء في نص البيذق "وكتب الجرائد [...] بالوعظ والاعتراف وقسمها لأشياخ الموحدين وأمرهم بالسيف"[٣٥]. وكان من نتائج هذه السياسة حسب ما أورده البيذق " وضمًّا هزميرة إلى رباطهم وقتلا خمسمئة من أهل التخليط [...] وقتلا منهم من أهل التخليط ثمانمئة في أصاكًّا ن كمات، [...] ودفع جريدة أخرا إلى هسكورة [...] قتلوا منهم ثمانمئة، وغاروا على البقية في قياطينهم، فجاء عددهم ألفين وخمسمئة [...] ثم جند عمر بن ميمون وخرج لتازرقتن يملوان، فقتلهم بموضوع يقال له تيفسرت، وساق غنائمهم ونسائهم إلى تادلا [...] وخرج (أك أنكي) إلى القلعة متاع مهدي بن توالا باعترافهم وقتل منهم ستة آلاف من زناتة فازاز ..."[٣٦].

ومنه نلاحظ مكانة العنف ضمن القضايا التي شغلت مفكرة البيذق في تناوله للوقائع التاريخية في كتاباته. رغم أن الإشارة لقضية العنف في كتابات البيذق لم تكن بشكل مباشر، لكون هذا العنف له ما يبرره، ولم يتخذ كسياسة ضد المخالفين، لكن اُتخذ كسياسة لنشر الأمن والأمان، وإظهار قوة دولتهم في استقرار أوضاع رعيتهم، ويشير البيذق في ذكره للاعتراف إلى الأسباب التي كانت وراء أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي شيوخ القبائل بتنفيذ هذا الاعتراف بقوله "وبعد ذالك قتل مكناسة الفحامين في نظر فاس، فأرسل الجياني الكتب للخليفة وهو يقول حصرنا في فاس، فقال له من أي سبب؟ فقال له من أمر مكناسة فانهم قتلوا الفحامين في جبلهم، فخرج الخليفة للموحدين وعمل لهم المجلس ووعظهم وقال لهم الشارب إذا منع اللبن والماء ما جزاؤه؟ فقالوا له يقصَّص، قال أحسنتم فيما قلتم ثم دخل الخليفة وكتب الجرائد لهم بالوعظ والاعتراف وقسمها لأشياخ الموحدين وأمرهم بالسيف".[٣٧]

سادسًا: منهج البيذق في عرضه للمادة التاريخية

تعرض أبو بكر الصنهاجي في عملية التأريخ لقسمين من الأخبار، القسم الأول خص به أخبار المهدي بن تومرت، ونقل سيرته وحركته التوحيدية، ثم قسم ثان خصصه لتناول أخبار بداية ظهور الدولة الموحدية على الساحة السياسية، أي أخبار عهد عبد المؤمن بن علي.

١/٦-منهجه في عرض أخبار محمد بن تومرت

يتضح أن البيذق في عرضه لأخبار المهدي بن تومرت قد اتخذ من الكرونولوجيا التاريخية منهجا في بنائه للأحداث، الذي يعتمد ترتيب الأحداث التاريخية حسب تعاقب السنين، دون تقديم خبر عن أخر. وهو المنهج التاريخي الكلاسيكي الذي اعتمده المؤرخين المغاربة منذ بداية عملية التدوين التاريخي في المغرب. وهذا يتضح في ترتيب الذي اعتمده البيذق في إعادة بنائه للأحداث التي خص بها المهدي بن تومرت في رحلة عودته من المشرق إلى المغرب، كما هو ظاهر في الأبواب التي أوردها، حيث الباب الأول خصص لدخول المهدي إلى تونس، من ثم باب ثاني لدخوله إلى بجاية منها إلى المغرب في أبواب أخرى، وصولا إلى مبايعته في مراكش.

إضافة إلى التوجه الدعوي في كتابي البيذق، من خلال تناوله لشخصية ابن تومرت كظاهرة دينية استوجب الوقوف عندها، ويظهر هذا من خلال التقديس الذي خصه البيذق لشخصية بن تومرت، وما أسقط عليها من الصفات الدينية، بداية بتلقيبه بالمهدي تيمنا بالمذهب المهدوي الذي اتخذه مهدي بن تومرت كركيزة من ركائز قيام حركته التوحيدية. إضافة إلى الإمامة والعصمة، والأمثلة في هذا الباب عديدة وكثيرة كما أشرنا إلى ذلك في محور "آثار الفكر الموحدي في كتابات البيذق". كما نجد أن البيذق خلال تناوله لأخبار الحركة الموحدية، كان تركيزه عن شخصية بن تومرت دون غيرها من الأخبار الأخرى. ومنه نجد أن المنهج الدعوي كان له أثر كبير، أولا في توجه الكتابة التاريخية ككل، ثم في ازدهارها. كما أن البيذق تفرد في استعمال الماضي الدعوي في تأريخه لمرحلة بن تومرت، مقارنة مع أبناء عصره، كصاحب المعجب عبد الواحد المراكشي أو ابن صاحب الصلاة.

٢/٦-منهجه في عرض أخبار بداية دولة الموحدين

على غرار الصورة التي قدم بها البيذق شخصية ابن تومرت، اتبع نفس المنهج في تقديم شخصية عبد المؤمن بن علي، باعتبار الأول إمام الموحدين والثاني خليفته أمير المؤمنين، والمؤسس الفعلي لدولتهم. أما فيما يخص منهج نقل ابن تومرت لأخبار نشأة الدولة الموحدية، فقد اتخذ من الكرونولوجيا التاريخية منهجا في نقله للأخبار، بداية من مبايعة الموحدين لعبد المؤمن مرورا بغزواته وفتوحاته ببلاد المغرب الكبير وما جاورها من البلاد، حيث رتب الأحداث التي أوردها في هذا الجانب ترتيبا زمنيا دقيق، حيث لم يقدم أو يؤخر حدثا أو أخبر عن آخر.

أما فيما يخص المادة المصدرية التي اعتمدها البيذق في بنائه للأخبار وتعليلها، ففي كتاب "أخبار المهدي" اعتمد على ذاكرته. لأنه رافق ابن تومرت في رحلته المشرقية، وساهم في صناعة الوقائع. ولم يذكر البيذق أيَّ مصدرٍ مكتوب، أو رواية شفوية. باستثناء إشارته إلى مصدر لمجهول، وفي نفس الوقت هو مفقود في وقتنا هذا، وهو كتاب المجموع.[٣٨] واستناده إلى الرواية الشفوية، في موضع ذكر فيه وفاة ابن تومرت، بقوله "ومما نقل عن بعض أشياخ الموحدين ..."[٣٩]

فيما أن كتاب "المقتبس" مصادره متنوعة عكس كتابه الأول، حيث نجده قد نقل بعض الأخبار من مصادر أخرى، رغم أنه لا يذكرها إلا نادرا، كقوله "ينقل من يوثق بنقله من قرابته وغيرهم"[٤٠]، ويقول في موضع آخر يذكر فيه قصيدة شعرية في مدح نسب عبد المؤمن بن علي "وإياه عنا غازي بن قيس رحمه الله حين قال بكلام منظوم ..."[٤١] والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتعددة. إضافة إلى اعتماد البيذق للمصادر، نجده قد اعتمد كذلك على الرواية الشفوية، في تدوينه لبعض أخبار من ذكرهم في "المقتبس"، كقوله "وأما ما يروا في نسبه (رضه) ..."[٤٢]، ويشير في موضع آخر" ويذكر أيضًا أن نسبه ..."[٤٣]، وفي الأخير نجد أن كتاب المقتبس اعتمد البيذق في تأليفه ونقل أغلب الأخبار على ذاكرته، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة ومتعددة.

إضافة إلى ذلك، تميز كتابَا البيذق ببساطة اللغة المستعملة في بناء الأحداث، حيث كانت لغته بسيطة، إذ لم يكلف البيذق نفسه استعمال لغة رصينة، بل تعتبر اللغة المستعملة في الكتابين، هي خليط بين اللغة الفصحى واللغة العامية، إضافة إلى استعمال اللغة الأمازيغية عندما يستعصي عليه التعبير بالعربية، وكان يشير إليها البيذق باللسان الغربي. ويشير الأستاذ الحسين بولقطيب إلى مسألة بساطة اللغة بقوله "ويتضح من كتابي البيذق أنه لم يكن من الذين نبغوا في ميدان التأليف التاريخي، ولا ممن مارسوا الكتابة قبل تأليف كتابيه، فهو قد ارتكب العديد من الأخطاء النحوية والأسلوبية"[٤٤].

سابعًا: المفكرة التاريخية عند أبي بكر بنِ علي الصنهاجي "البيذق"

كان للفكر الثقافي والسياسي والديني الذي ساد في العصر الذي شهده البيذق أثر كبير على مفكرته التاريخية، والتي كانت العامل الأساسي في بنائه للأحداث التاريخية، وعملية التأليف. ويمكن تحديد هذه العوامل التي سيطرت على المفكرة التاريخية للبيذق في ثلاثة عوامل أساسية وهي:

١/٧-المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي محركان للتاريخ:

لا يمكن لقارئ كتابي البيذق –اللذين هما أساس هذه الدراسة– أن لا ينتبه إلى الدور الذي لعبته الشخصيتان المؤسستان للكيان الموحدي في حركية التاريخ وبنائه، إذ ربط أبو بكر بن علي الصنهاجي معظم الأحداث التي ذكرها في كتابيه إما بشخصية المهدي بن تومرت أو بخليفته عبد المؤمن، وإذا كانت الأخبار لا تخص إحدى هاتين الشخصيتين، فكان يربطها بالشخصيات التي كان لها دور في صناعة الحدث، والأمثلة في هذا الصدد كثيرة ومتعددة، لكن يمكن الإشارة إلى البعض منها على سبيل المثال لا الحصر، ويمكن الاقتصار هنا على عناوين الأبواب التي عنون بها البيذق الفقرات التي أوردها في كتابه، ك "باب نذكر فيه دخول المعصوم رضي الله عنه إلى تونس"[٤٥] و "باب نذكر فيه خروج الخليفة للغزو"[٤٦] و"باب نذكر فيه غزاة البشير رضي الله عنه"[٤٧].

وهكذا يكون البيذق قد جعل من الشخصيات البارزة في الدولة الموحدية هي أساس بناء الحدث التاريخي، وهذا الحدث التاريخي لا يتوقف عن جانب معين من حياة هذه الشخصيات، بل يقف عند جوانب عديدة ومختلفة، كالجانب الدعوي الديني والعلمي ثم السياسي والاجتماعي ...، ومثالاً على ذلك أشار البيذق فيما يخص الأحداث التي شارك فيها المهدي بن تومرت، أولا إلى الجانب الدعوي الديني بقوله "فلما صليت الفريضة صلاًّ على الجنازة فنظر الإمام إلى جنازة من وراء الناس فقال لهم لم لا تصلون على هذه الجنازة، قالوا له هو يهودي وكان يصلي فقال لهم [...] افيكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس نعم [...] ثم أمر من يقيم الصفوف وصلا عليه [...] فلما صلا دعا بالفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة وبين لهم الكتاب العزيز فقالوا له بعد أن عرفوا الحق جهلنا يا فقيه"[٤٨].

أما الجانب العلمي في شخصية ابن تومرت أورد البيذق أن "طلبتها يأتون إلى الإمام رضي الله عنه يأخذون عنه العلم ..."[٤٩]. وكذلك أشار بخصوص الجانب السياسي في شخصية ابن تومرت إلى بيعته بقول "ثم بعد ذلك رحل إلى تنملل فبايعوه بها وذلك تحت شجرة الخروب ..."[٥٠]. ثم في الأخير أشار البيذق إلى الجانب الاجتماعي بتناول أخبار تخص دور محمد بن تومرت في إصلاح المجتمع الموحدي، خاصة في مرحلة الدعوة، حيث أورد في هذا الصدد قوله "فلما كان يوم من الأيام [...] فقال المعصوم أخرجوا وأقطعوا مقارع من شجر التين [...] فقال لنا أخفوا مقارعكم وسرنا معه وما علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة، قال لنا تفرقوا على الحوانيت، وكانت الحوانيت مملوءة دفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا وروطا وأربية وكيتارات فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللهو"[٥١]، وهذه كإشارة إلى وضع المجتمع الفاسي وانتشار اللهو والترف، وكذلك إشارة إلى دور ابن تومرن في إصلاح هذا المجتمع.

٢/٧-تاريخ العوارض

رغم اعتماد البيذق على الشخصيات الموحدية البارزة الصانعة للحدث، إلا أن تدوينه للتاريخ لم يخل من تاريخ العوارض أي "مجموعة من الأحداث الطبيعية لا

تذكر إلا مقرونة بآثارها على البشر"[٥٢]. وتعددت الأحداث التاريخية التي أوردها البيذق في كتابيه على كونها عوارض للشخصيات الموحدية الرئيسية، سواء المهدي بن تومرت أو عبد المؤمن بن علي. ومثالا على ذلك أشار البيذق في حديثه عن دخول المهدي بن تومرت إلى منطقة صاء –تاوريرت حاليا–إلى ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة بقوله "فلما دخل صاء نظر النساء مزينات محليات يبعن اللبن"[٥٣]، وهذا الحدث ورد مقرونا بدخول المعصوم إلى المدينة المذكورة، ومن خلاله نستتج أيضا الحالة الاجتماعية التي تعيشها هذه المدينة، والتي تعرف انحلالا أخلاقيا حسب البيذق، وكذلك فيها إشارة إلى مساهمة النساء في الحياة الاقتصادية لهذه المدينة، وذلك لممارستها تجارة بيع اللبن. والأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتعددة.

٣/٧-الآخر في مفكرة البيذق (المرابطين):

وعلى الرغم من أن كتابي البيذق ألفهما للتعريف بالدعوة الموحدية وتاريخ دولتهم، إضافة إلى التعريف بالشخصيات الموحدية المؤثرة، إلا أن الآخر –المرابطين– كان له حيز في التدوين التاريخي عند أبي بكر بن علي، حيث خصص هذا الأخير جزءا من كتابه للإشارة إلى العلاقة التي كانت تجمع الموحدين بالمرابطين، خاصة من ناحية الصراع السياسي بين الدولتين في سبيل السيطرة على زمام الحكم.

وورود المرابطين في المفكرة التاريخية عند البيذق كان تحت تأثير الأيديولوجية الموحدية، وهذا ما يظهره البيذق من خلال وصفهم بالمجسمين في مواضع عديدة، حيث جاء في سياق حديث البيذق عن غزوات ابن تومرت والتي كانت ضد المرابطين، حيث جاء فيما أورده "وذالك أرشدك الله أنه لما بلغه أن جيش المجسمين أتاه يقدمهم سليمان بن يكلَّد ..."[٥٤]. و "... أزعج عمر بن ديان من مراكش، ثم وصل إلى أنسا بجيش كبير فبلغ الخبر للمعصوم، [...] فلما التقا العين بالعين قاتلناهم قتالاً شديدًا [...] وانهزم المجسمون ..."[٥٥].

كما وَرَدَ لقبُ المجسمين بعدما أمر ابن تومرت بتلقيبهم به، كردة فعل بعد تلقيب المرابطين الموحدين بالخوارج، "... فقال الموحدون ما يقولون بعد أن سمع منهم كلاما من عندهم قالوا لقبونا قال وكيف لقبوكم قالوا يقولون خوارج"[٥٦] فرد عليهم ابن تومرت "سبقونا بالقبيح لو كان خيرا أحجموا عنه وما سبقونا إليه لقبوهم أنتم [...] قولوا لهم أيضا المجسمون"[٥٧]. إضافة إلى ذلك فقد خصص البيذق بابًا خاصًا لما أنجزه المرابطون من حصون، "باب نذكر فيه الحصون التي بناها المجسمون ليجعلوا فيها خيلهم ورجالهم ويتحصنون فيها فلم ينقذهم من أمر الله شيء"[٥٨].

ومن هنا نستنتج أن كتابي البيذق ألف تحت تأثير فكري ساد في العصر الموحدي، خاصة في عهد كل من محمد بن تومرت وخلفيته عبد المؤمن بن علي اللذين عاش المؤلف في مرحلة حكمهما، وهذا ما أثر على مفكرته التاريخية في تدوينه لتاريخ الحركة الموحدية وبداية قيام دولتهم. وبذلك نجد أن المفكرة التاريخية عند البيذق قد ارتكزت على ثلاثة أسس رئيسية، وهي ابن تومرت وخليفته إضافة إلى شخصيات بارزة في الدولة الموحدية الأساس في عملية التدوين التاريخي، وكل ما جمعه البيذق من أخبار هي مرتبطة بهم. وكل الأخبار والحوادث غير المرتبط بهذه الشخصيات، أوردها البيذق على شكل تاريخ عوارض، أي كعارض لمرور إحدى هذه الشخصيات أو إقامتها في مكان وقوع الحدث أو الخبر الذي أشار إليه المؤلف في تأليفه.

وفي الأخير نجد لذلك الآخر –المرابطون–بدوره قد أثار مفكرة البيذق خلال عملية التدوين، من خلال علاقة هذا الآخر مع دولة الموحدين، ونلتمس طبيعة هذه العلاقة في الصورة التي أسقطها البيذق على المرابطين، التي كانت من دون شك نتاجًا لتأثير فكري ساد خلال ذلك العصر، ومتداولةً بين من كان يجالسهم البيذق، وهو وصف المرابطين بالمجسمين.

خَاتِمَةٌ

ختاماً، نلاحظ أن التجربة الموحدية في عملية التدوين التاريخي من خلال نموذج البيذق، والذي يعتبر ما أنتجه من معرفة تاريخية بمثابة اللبنة الأولى في تشكيل ملامح الكتابة التاريخية في العصر الموحدي. وكانت الكتابات التاريخية التي أنتجها البيذق في غاية الأهمية، لكون هذا الأخير كان شاهداً وصانعًا للأحداث التي أوردها في كتابيه، وذلك لمكانته من قادة الدولة الموحدية –مهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي–، وهذا ما ميز كتابي البيذق عن غيرهما مما ألف في العصر الموحدي.

كما امتازت الكتابة التاريخية عند البيذق بالمنهج البسيط في تناوله للأحداث التاريخية، أولاً بتأثرها بالوضع الفكري العام السائد في المجتمع الموحدي، وذلك بسيطرة الفكر الدعوي على أغلب مجالات الحياة، وهذا ما انعكس بشكل مباشر على مفكرة البيذق، بالدعوة للمهدي بن تومرت قائد التيار الموحدي قبيل تأسيس الكيان السياسي، ولخليفته عبد المؤمن بن علي. إضافة إلى آثار الفكر الدعائي للأيديولوجيا الموحدية في تناول البيذق للآخر –المرابطون.

واستمرت بساطة منهج البيذق في عملية التدوين، لتشمل اللغة التي وظفها البيذق في بنائه للنص التاريخي، إذ أظهرت لغته قلة خبرة البيذق في التأليف التاريخي، وممارسة التأليف بصفة عامة.

الإحالات المرجعية:

(١) بدايتا مع المؤرخين اليونانيين والرومانيين، ومن بعدهم المؤرخين العرب -خاصةً ابن خلدون الذي دعا إلى ضرورة تمحيص الأخبار واستقراء المسببات-، وصولا إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، والإضافات التي أضافتها كل من المدرسة الوضعية التي اهتمت بعملية التأريخ ومناهجه. ومن ثم مدرسة الحوليات التي عملت على توسيع حقول المعرفة التاريخية من خلال توسيع مفهوم الوثيقة، وبالانفتاح على العلوم الاجتماعية.

(٢) انظر: المنوني، محمد، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس- الرباط، سنة ١٩٨٣م

(٣) عبد الواحد المراكشي، "**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط الأولى، سنة ١٩٤٩م، ص١٨٧ و١٨٨.

(٤) عبد الواحد المراكشي، المعجب ...، ص. ٢٠ و٢٠١

(٥) طبع الكتاب في نسختين، الأولى من تقديم الأستاذ عبد بن منصور، ومن منشورات دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط، في طبعته الأولى سنة ١٩٧١م. أما الثانية، تحقيق الأستاذ عبد الحميد حاجيات، ومن منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، بالجزائر سنة ١٩٨٦م.

(٦) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ص ٥١

(٧) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ص٥٧.

(٨) عبد الواحد المراكشي، **المعجب** ...، ص ٤.

(٩) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ص. ٥٠.

(١٠) انظر: البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٢.

(١١) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر -الدار البيضاء، ط الأولى ١٩٨٩م، ص. ٥٠.

(١٢) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، ص. ٥٠.

(١٣) أبو بكر بن على الصنهاجي، **البيذق، أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين**، تقديم عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، سنة ١٩٧١، ص ٥.

(١٤) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٢٣.

(١٥) انظر: المنور عواد ومحمد بن معمر، **الكتابة التاريخية عند البيذق من خلال كتابه أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد الحادي عشر، العدد ١، ٣١ مارس ٢٠٢٠، ص ص ٦٧-٨٥.

(١٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(١٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(١٨) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.

(١٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(٢٠) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٣.

(٢١) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٨.

(٢٢) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.

(٢٣) أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧١، المقدمة، ص ٦.

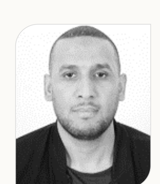
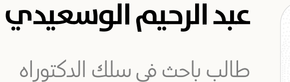
(٢٤) البيذق، **المقتبس** ...، ص ٦.

(٢٥) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٢.

(٢٦) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين (٥٠٠-٥٥٨هـ ـــــ ١١٠٦-١١٦٢م)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، غير منشورة، السنة الجامعية ١٩٨٩م ص ٥.
(٢٧) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، ص ٥.
(٢٨) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، ص ٥.
(٢٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٤.
(٣٠) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٦.
(٣١) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٦.
(٣٢) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.
(٣٣) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٤.
(٣٤) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٩.
(٣٥) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٧٠.
(٣٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٧٠ و٧١.
(٣٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٦٩ و٧٠.
(٣٨)انظر: البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٢.
(٣٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٣.
(٤٠)البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٢.
(٤١) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٩.
(٤٢) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٣.
(٤٣) البيذق، **المقتبس** ...، ص ١٣.
(٤٤) الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، ص ٥.
(٤٥) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.
(٤٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٤٩.
(٤٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٩.
(٤٨) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١١.
(٤٩) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ١٢.
(٥٠) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٤.
(٥١) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ص ٢٣ و٢٤.
(٥٢) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ: الألفاظ والمذاهب، المفاهيم والأصول**، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، ط الرابعة، ٢٠٠٥، ص ٣٥.
(٥٣) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٢١.
(٥٤) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٥.
(٥٥) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٧.
(٥٦) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٨.
(٥٧) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٣٨.
(٥٨) البيذق، **أخبار المهدي** ...، ص ٩٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

مدارس الكتابة التاريخية الأوربية الحديثة
وقفة مع الرواد المؤسسين



عبد الرحيم الوسعيدي

طالب باحث في سلك الدكتوراه

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتناول هذ المقال التطور الذي شهدته الهيستوغرافيا التاريخية في أوربا خلال القرن التاسع عشر، وتأسيس مدارس جديدة على مستوى الكتابة التاريخية، وبخاصة في ألمانيا وفرنسا حيث عمت حركة واسعة انتشرت في مختلف الجامعات الأوربية. فبفضل "ليوبولد فون رانكة" ونضاله من أجل "استقلال" التاريخ عن التصور الفلسفي واللاهوتي. أصبح التاريخ علم قائم لذاته؛ واستجابة للتصور الجديد الذي دافع عنه رانكة ومناصريه من المؤرخين الشباب وخاصة في فرنسا. انتظم التاريخ مع تأسيس المدرسة الوضعانية التي أطرت جميع المعارف الأوربية، كعلم من العلوم الإنسانية إلى مادة وضعانية تستند إلى الالتصاق بالوثيقة ونقدها. الموجة ستعرف تطورًا جديدًا خلال القرن العشرين مع تأسيس مدرسة الحوليات سنة ١٩٢٩. إذ تجاوزت المدرسة الجديدة باشتغالها المتعدد مركزية الوثيقة التاريخية التقليدية. حيث اعتبرت الوثيقة جزء في بناء الواقعة التاريخية وليس الكل، لذا فتحت النقاش مع مختلف المواضيع والتخصصات الأخرى إلى ما بات يعرف بـ الأنثربولوجية التاريخية. عرفت الحوليات ثلاث أجيال رئيسية، جيل المؤسسين مارك بلوك ولوسيان فيفر، وجيل فرناند بروديل، وجيل ثالث يتزعمه جاك لوغوف الذي نادى إلى مراجعة التحقيب التاريخي. في هذا المقال البحثي سنقف عند أهم الآباء المؤسسين للمدارس التاريخية الأوربية الحديثة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٦	أبريل	٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٩	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الهيستوغرافيا؛ الكتابة التاريخية؛ المدرسة الوضعية؛ مدرسة الحوليات؛ التحقيب؛ المدارس التاريخية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.374194 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحيم الوسعيدي، **"مدارس الكتابة التاريخية الأوربية الحديثة: وقفة مع الرواد المؤسسين"**.- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١١٩ – ١٢٨.

Corresponding author: abderrahim261116@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

استوجب التقدم الحاصل في أوربا ما بعد عصر النهضة الأوربية، تحولات كبيرة في المجالات العلمية والثقافية، والفنية، والدينية، والأدبية. فخلال بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ناضل الألماني "ليوبولد فون رانكه" من أجل إخراج التاريخ من قبضة اللاهوت الديني ومن قبضة الفلسفة، ليصير إلى مادة مستقلة لذاتها ومتخصصة بموضوعها. ولم يقف رانكة عند هذا الحد، بل دخل في جدل حاد مع المدرسة السوسيولوجية، حيث أضفى صفة العلمية على التاريخ، عكس السوسيولوجين الذين ربطوه بالتفسير لكي يصير علما. لقي دفاع رانكة هذا عن التاريخ، ترحيبًا واسعًا من لدن الباحثين الشغوفين بالبحث في التاريخ، وبخاصةً في فرنسا مع المؤرخين الشباب، تشارل لانجلوا وتشارل سينيوبوس الذين وضعوا الأسس الأولى لتأسيس أولى المدارس التاريخية المنهجية الحديثة في أوربا، باسم "المدرسة الوضعانية"، وكان من أهم مبادئها مركزية الوثيقة في بناء المعرفة التاريخية.

وخلال بدايات القرن العشرين وبفعل الاحتكاك مع علم الاجتماع تجددت المعرفة التاريخية، وانبثق جيل جديد من المؤرخين من حيث الرؤية والمنهج والأسلوب، تأسست على إثره مدرسة جديدة في فرنسا باسم "مدرسة الحوليات"، ودعت هذه المدرسة إلى تجاوز النظرة الأحادية للوثيقة والتخصص الضيق، وبخاصة مع آبائها المؤسسين، مارك بلوك ولوسيان فيفر. صاحب فكر مدرسة الحوليات طريقة جديدة، نادت من خلالها بالانفتاح على مختلف الحقول المعرفية الأخرى، وإخراج التاريخ من دائرة الانحباس للوثيقة إلى كتابة تاريخية شاملة، واعتبرت أن الوثيقة جزء في كتابة التاريخ وليس الكل كما دأبت عليها الوضعانية من قبل.

عرفت الحوليات الفرنسية ثلاثة أجيال، جيل المؤسسين، وجيل المخضرمين، وجيل ثالث الذي كان يتزعمه جاك لوغوف، كما نبين في هذا المقال. كانت هذه جملة من التحولات التي برزت في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية في أوربا، وصلت من خلالها بناء المعرفة التاريخية مستويات جد متطورة منهجيًا وابستمولوجيا. أشار الأستاذ محمد حبيدة في كتابه "كتابة التاريخ قراءات وتأويلات"، أن هذا التراكم المعرفي الذي حصل منذ القرن الثامن عشر من ناحية البناء وتوليد الأفكار والمعاني وتجدد الخطاب والنظرة الواقعية للأحداث التاريخية وتأويلها وتفسيرها وإعادة تركيبها وفق قراءات منهجية ملائمة للتغيرات التي حدثت في أوربا، كان من أجل تجاوز نمط الكتابة التاريخية الموروثة عن العهد القديم والعصور الوسطى[١]. ومع الحوليات اتسعت دائرة البحث التاريخي من البحث في الأحداث إلى البحث في تاريخ البنيات. وهذا التحول الطارئ في بنية الأبحاث مكّن من ظهور أبحاث تاريخية جديدة شملت كل الميادين الإنسانية والاجتماعية.

أولاً: المدرسة الألمانية (تأسيس لكتابة تاريخية منهجية حديثة)

شهد القرن التاسع عشر تقدما غير مسبوق على مستوى انفصال وتفكك العلوم عن بعضها البعض وبحثها عن أسباب التخصص وتأكيد الذات. ومن مظاهر هذا التقدم، يشير وجيه كوثراني، إلى قواعد أساسية من أهمها؛ مراجعة النظريات السائدة وأنظمة الفهم القديم الموروثة أحيانًا عن المنظومة الإغريقية بالاستناد إلى أدوات قياس جديدة تجمع بين البحث الميداني والتجريب المخبري. وإلى الانطلاق من التراكمات المعرفية الموجودة والاشتغال عليها وتطويرها. ثم إلى بروز علماء كبار في ميدان اشتغالهم[٢]. في هذا السياق، انخرط التاريخ في الدينامية المعرفية في أوربا خلال القرن التاسع عشر وأراد أن يصير علما؛ واجتهد المؤرخون في أن تكون مادة التاريخ مادة علمية، وخاصة مع الألماني البروتستانتي المذهب، (Leopold von Ranke) ليوبولد فون رانكة ١٧٩٥-١٨٨٦[٣]؛ فهو الذي وقف في وجه التصور الفلسفي وناضل إلى أن يتحول التاريخ إلى مادة علمية، فهو دعا إلى أن من اللازم أن يكون للتاريخ قواعد والموضوع؛ أي ضرورة اللجوء والاعتماد على الأرشيف، والموضوع الأساسي هو الحدث. ورأى أنه من الضروري أن تحصل عمليه التحصين المعرفة التاريخية، أي ضرورة الوثائق[٤]. كانت هذه المسألة في غاية الصعوبة بالنسبة للأوربيين، أي أنه ينبغي على المؤرخين الأوربيين الباحثين

في التاريخ إتقان اللغة الكلاسيكية (اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية)؛ وطريقة فك الخطوط التي تكتب بها اللاتينية القديمة، وهكذا أراد رانكة، وضع حاجز أمام غير المتخصصين في ميدان التاريخ[٥].

رانكة كان يؤمن بعملية بناء وفية للتاريخ، فهو يركز على مجموعة الثوابت الأساسية لإمكانية هذا البناء، من أهمها: التحقق من الوثائق وتحليلها ونقدها؛ التحقق من الأحداث وعرضها بطريقة كرونولوجية. اجتناب الحكم على الماضي واقتصار على وصف الواقعة التاريخية كما هي. ثم نفي العلاقة بين الذات العارفة (المؤرخ) وموضوع المعرفة، أي الواقعة التاريخية. وأخيرًا التاريخ موجود لذاته موضوعيا وعلى المؤرخ أن يفهمه فهما موضوعيا وحياديًا من دون اصدار احكام أو استخلاص عبر[٦]. هذه القواعد التي اعتمد عليها رانكة ستنتشر في معظم أوربا ولاسيما فرنسا ثم إنجلترا وإلى خارج أوربا اليابان والولايات المتحدة الأمريكية. ثمة خاصية في أوربا هو أن الأوربيين كانوا يتوفرون على الأرشيف[٧]. فحينما نادى الوضعانيون الاستناد إلى الوثائق المكتوبة، كانت هذه الوثائق موجودة ومصنفة وموضوعة رهن إشارة الباحثين، فعندما ركزت الوضعانية على الوثائق، كانت من الأمر البديهي على الاعتماد على الحدث، بالنسبة لها الحدث هو التاريخ.

حدث في أوربا أن وفرت الدولة الأرشيف، فكتب الوضعانيون تاريخ الدولة والتاريخ السياسي للدولة انطلاقا من نفس الخاصية وهو الأرشيف الذي ركز على الحدث وبالتالي فهناك علاقة جدلية بين الأرشيف والدولة في أوربا[٨]. الدولة وفرت الأرشيف للمؤرخين والمؤرخون كتبوا تاريخ الدولة على اعتبارها رافعة التاريخ، كانت مسألة أساسية. أعقب هذه المرحلة ظهور مجلات تاريخية متخصصة أضافت صبغة نوعية للكتابة التاريخية الجديدة في أوربا. خاصة "المجلة التاريخية"، التي تأسست سنة ١٨٥٩ على يد المؤرخ هاينريش فون سيبال (١٨١٧-١٨٩٥ Heinrich von Sybel)، تلميذ رانكة وأستاذ في جامعة ميونيخ. الأوربيون صاروا على نفس الاتجاه وظهرت مجالات أخرى بعد المجلة التاريخية بنفس الاسم. في فرنسا أنشأ "غبريال مونو (١٨٤٤-١٩١٢ Gabriel Monod) بنفس الاسم سنة ١٨٧٦. حدث نفس الشيء في إيطاليا سنة ١٨٨٤؛ وفي إنجلترا سنة ١٨٨٦؛ وفي الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٩٥ بنفس الاسم تقريبا "مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية". والتجربة انتقلت إلى اليابان عن طريق تلامذة رانكة. واليابانيون ركزوا كثيرا على الألمان في جميع المجالات، وركزوا على مبدأ ضرورة الوثائق لكتابة التاريخ، وفي نهاية القرن التاسع عشر، أول خطوة قاموا بها حينما نشأت جامعة طوكيو ١٨٨٩، حيث أسس قسم التاريخ مجلة على الطريقة الألمانية "المجلة التاريخية"[٩].

في فرنسا منح المؤرخون نفسًا جديدًا للكتابة التاريخية ابتداءً من سنة ١٨٧٦ نشأة المجلة التاريخية. في سنة ١٨٩٨ تم صدور كتاب في غاية الأهمية لمؤرخين وضعانيين فرنسيين، بعنوان، " مدخل إلى الدراسات التاريخية"، حيث طرح شارل لانجلوا (Charles – Victor Langlois) وشارل وسينيوبوس (Charles – Seignobos)[١٠]، قواعد البحث التاريخي على الطريقة التي وضعها رانكة، مثل مسألة التحقق من الوثائق والتحقق من الأحداث الموضوعية[١١].

ثانيًا: الوضعانية (الأرشيف مصدر التأريخ)

مع الآباء المؤسسين، تشارل لانجلوا وتشارل سينيوبوس، عرفت الكتابة التاريخية تطورًا كبيرًا من حيث التركيز على الحدث التاريخي في بعده السياسي؛ يذكر سينيوبوس ولانجلوا، "أن التاريخ يكتب انطلاقا من الأرشيف. الأرشيف هو الأثر الذي يتركه فعل الإنسان في الماضي وتفكيره. لكن قليلا ما يترك هذا الفعل هذا التفكير أثرًا مرئيًا أو دائمًا"[١٢]. يضيف لانجلوا وسينيوبوس، "يكفي أن تحدث كارثة ما لينذثر كل شيء"[١٣]، لذلك فإن كل فعل أو فكر لم يخلف أثرًا مباشرًا أو غير مباشر يَضيع بالنسبة للتاريخ، وكأنه لم يوجد أبدًا. فبدون وثائق تبقى حقب عريضة من الماضي مجهولة. لا شيء يعوض الوثائق. لا تاريخ بدون وثاق وأرشيف[١٤]. وهذا ما يرجع بالخصوص بول ريكور إلى القول، "المؤرخ هو في الأصل محلل للوثائق التاريخية"[١٥]. من هذه الزاوية يظهر التاريخ ككتابة كإعادة بناء لقراءة الماضي وباستعادة لمقولات ومفاهيم وإعادة صياغة هذه المقولات والمفاهيم[١٦]. وفي هذا

السياق نفسه، الذي حصل بالنسبة للكتابة التاريخية التي اشتغل عليها مؤرخو الوضعانية، هو التركيز على الحدث، أي انحباس خاص للوثيقة وصار المؤرخون يصفون ولا يفسرون، وهي إشكالية أساسية خلقت نقاشا كبيرا بين المؤرخين الوضعانيين وعلماء الاجتماع؛ وهي الطفرة الابستمولوجية التي تفسر التطور الذي حصل في الكتابة التاريخية فيما بعد(١٧). فلما كانت الوثيقة ضرورية لكل عمل تاريخي، في نفس الوقت كانت سجن بالنسبة للمؤرخ، الشيء الذي يفسر انحباس عدد من الأعمال التاريخية. كون أن العديد من الباحثين ينحصرون في هذه الوثيقة ولا يستطيعون التخلص من هذه الوثيقة، وبالتالي يقولون ما تقوله الوثيقة فعمل المؤرخ يقضي بخلق نوع من التوازن بين ما تقوله الوثيقة وما يقتضيه الفهم من تفسير وتأويل، فمسألة التفسير والتأويل لا تتأتى إلا بالاحتكاك بالعلوم الاجتماعية المجاورة. وبالتالي لا يمكن التاريخ بدون وثيقة، ولكن كلما كثرت الوثائق إلا وحاصرت تفكير المؤرخ وسجنه في قوالب ضيقة. حيث تطغى هذه الوثائق على عمل الباحث ولا يستطيع التخلص من هذه الوثائق لكي يقدم بحثًا نوعيًا. فتطور المعرفة التاريخية لا يرتبط بوجود كميات الوثائق، بل بدرجة الاحتكاك بالعلوم الاجتماعية المجاورة لأن المسألة مسألة مفاهيم بدرجة أساسية فهذه المفاهيم هي التي تميز التاريخ عن الوثيقة. وتمكن المؤرخ من الحديث بلغة مغايرة عن لغة المؤرخ الإخباري عندما يتحدث عن البنية ونمط العيش والعقلية(١٨).

في نهاية القرن التاسع عشر حصل نقاش كبير بين المؤرخين وعلماء الاجتماع خاصة في فرنسا، ولاسيما بين زعيم المدرسة السوسيولوجية الفرنسية ايميل دوركهايم، الذي كان يقول التاريخ ليس علما. فالاجتهاد الذي حصل في القرن التاسع عشر منذ رانكة إلى غاية نهاية هذا القرن، كان يسعى إلى إضفاء العلمية على التاريخ. وبهذا الخصوص يقول دوركايهم، "لا يمكن للتاريخ أن يصير علما إلا إذا فسر، ولا يمكن للعلم أن يُفسر إلا إذا قارن؛ والحال أن التاريخ إذا قارن لن يختلف عن علم الاجتماع(١٩). كلام دوركهايم، اثار نقاش حاد بين أوساط المؤرخين في فرنسا، حيث حدث أن ردّ عليه "فوستال دوكولانج"، بالقول "السوسيولوجيا الحقيقية هي التاريخ". ومرة أخرى رد عليه دوركايهم، "لا جدال في ذلك شريطة أن يُكْتَب التاريخ بطريقة سوسيولوجية"(٢٠). يقصد دوركايهم، بطريقة تفسيرية وتأويلية، الذي حدث أن المؤرخين الوضعانيين لم يكن بإمكانهم فتح هذه النافذة، نافذة التفسير ونافذة التأويل. غير أن الذي يمكن أن يحمل هذا المشعل هو مجموعة من مؤرخين الشباب، وهذه المرة ليس في باريس التي تمثل المركز، بل في استراسبورغ في الهامش، حيث ظهر مجموعة من المؤرخين الشباب وخاصة مارك بلوك ولوسيان فيفر، واستجابوا لهذا الاستفزاز الذي طرحه ايميل دوركايهم، واجتهدوا من أجل اخراج التاريخ من التخصص الضيق أي الاقتصار على مركزية الوثيقة والتأريخ بالحدث(٢١).

ثالثًا: الحوليات التاريخية (رؤية جديدة للتاريخ)

أنشأ مارك بلوك (Marc Bloch) ولوسيان فيفر (Lucien Febvre)، مجلة جديدة مجلة الحوليات ١٩٢٩. هؤلاء المؤرخين الشباب اللذان اشتغلا بتعاون مع مجموعة من الباحثين خارج تخصص التاريخ، حيث اشتغلوا مع الجغرافيين واشتغلوا مع علماء الاجتماع(٢٢). إذ كان يتم عقد مرة في الأسبوع لقاء حبي بين مارك بلوك ولوسيان فيفر من جهة، وجغرافيين وعلماء الاجتماع يشتغلون من داخل مدرسة استراسبورغ من جهة أخرى، وكان هناك نقاش من أجل إخراج التاريخ من التخصص الضيق وفتحه على التفسير، إذ ركزوا على عدم الاقتصار على الوثائق، والانفتاح على أجناس مصدرية أخرى، كالآثار الواقفة، والنقود، والرواية الشفهية والصورة... وثانيا، الانفتاح على مفاهيم ومقولات ونتائج علم الاجتماع، وحتى الجغرافيا. ومسألة ثالثة، تعتبر بمثابة بيت القصيد. ألا وهي الانتقال من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات الاجتماعية والاقتصادية، هذا هو التحول الأساسي الذي دشنه الجيل الأول لمدرسة الحوليات ابتداءً من الثلاثينيات القرن العشرين.

أجيال متعاقبة. وإلى جانب بلوخ وفيفر ساهم ثلة من الباحثين المنتمين إلى الجيل الأول في تأطير تيار الحوليات ومن أهمهم: جورج لوفيفر (١٨٧٤-١٩٥٩)، الفلاحين في الشمال خلال الثورة الفرنسية، Les paysans du nord pendent la Révolution française، و هنري بير (١٨٦٣-١٩٥٤)، التركيب التاريخي وعلاقته مع التركيب العام، La Synthèse en histoire : Son rapport avec la synthèse générale، وفرانسوا سيميان (١٨٧٣-١٩٣٥)، منهجية التاريخ المطبقة على العلوم الاجتماعية، La méthode historique appliquée aux sciences sociales، وغابريال مونو (١٨٤٤-١٩١٢)، دراسات نقدية لمصادر تاريخ الميروفانجيين، Etudes critiques sur les sources de l'histoire mérovingienne، و كامي جوليان (١٨٥٩-١٩٣٣)، تاريخ مدينة بوردو حتى عام ١٨٩٥، Histoire de Bordeaux depuis jusqu'en 1895، وتاريخ بلاد الغال، Histoire de la Gaule، وكتب أيضا، نهر الراين الغالي والفرنسي، Le Rhin gaulois : Le Rhin frnçais. والباحث بول مانتو (١٨٧٧-١٩٥٦)، الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، La révolution industrielle au 18è siècle، وبيار لاكوب (١٨٣٤-١٩١٩)، التاريخ بوصفه علمًا، De l'histoire considérée science، و وليام لانجر (١٨٩٦-١٩٧٧)، مؤرخ أمريكي له كتاب دبلوماسية الإمبريالية (١٨٩٠-١٩٠٢)، The Diplomancy of Imperialism، و جيمس هارفي روبنسون (١٨٦٣-١٩٣٦)، وهو أيضا مؤرخ أمريكي صدر له كتاب بعنوان، تاريخ جديد: أبحاث حول النظرية التاريخية الجديدة، The New History : Essays Illustrating the Modern Historical Outlook، سنة ١٩١٢. ولويس بيرينشتاين نامير (١٨٨٨-١٩٦٠)، مؤرخ إنجليزي، له كتاب بنية السياسية عند صعود جورج الثالث على العرش، The Structure of Politics at the Accession of George 3[٢٣].

والجيل الثاني، يتزعمه فرناند بروديل، الذي سطر بالفعل برنامجًا أو توجهًا مستقبليًا للتاريخ في علاقة بالعلوم الإنسانية الأخرى. وانطلاقًا من ذلك برزت أدوات ومفاهيم مثل "البنية" و "النموذج" وعلاقتهما بأزمنة التاريخ "الطويل المدى". ورغم الغزو البنيوي يقول ميشيل فُوفُيل تمكن برنامج فيرناند بروديل من النجاح إلى حد كبير لأن الباحثين انخرطوا فيه دون تنسيق أو اتفاق مسبق. ومما يفسر ذلك توجه البحث التاريخي نحو حقول معرفية أخرى وتغير المناهج والتقنيات. لقد اقتحم البحث التاريخي حقل التاريخ الاقتصادي المهتم بتزامن الأزمنة في الأنشطة الاقتصادية، وارتبط الأمر بتاريخ الأسعار نحو تاريخ الإنتاج والنمو[٢٤]. أما الجيل الثالث فيتزعمه جاك لوغوف (Jacques Le Goff)؛ جيل تاريخ العقليات والأنثروبولوجية التاريخية[٢٥]. بصفة عامة؛ ثمة أفكار أساسية يمكن أن نحتفظ بها منذ تأسيس الحوليات إلى الجيل الثالث في السبعينيات من القرن العشرين، وهي ثلاثة عناصر. العنصر الأول وهو السؤال أو بعبارة أخرى الإستشكال، أي استشكال القضايا المرتبط باستنطاق الوثائق بطريقة أخرى لأن الوثيقة قد تقول شيئا وقد تقول أشياء أخرى إذا أحسن المؤرخ استنطاقها لكي نستخرج منها ما لا يظهر للوهلة الأولى.

العنصر الثاني المقارنة وهي في غاية الأهمية، لا يمكن أن نفهم من دون المقارنة، وهو النهج الذي صارت عليه مدرسة الحوليات. كتب مارك بلوك مقالة ١٩٢٨ في هذا الاتجاه بعنوان "من أجل تاريخ مقارن للمجتمعات الأوربية". وطبق هذا النهج في كتابه "المجتمع الفيودالي" حينما قارن أوفقيا بين النظام الفيودالي في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وعموديًا بين الفيودالية الأوربية والفيودالية اليابانية. فقضية المقارنة مهمة جدًا للفهم. ففي كتاب المجتمع الفيودالي، مارك بلوك يتساءل في النهاية، هل عرفت المجتمعات غير الأوربية الفيودالية؟ فهو يقصد الفيودالية ولا يشير إلى الإقطاع حيث يعتبر الإقطاع جزء من النظام الفيودالي. في سنة ١٩٣٩ قال "المجتمع الذي يُظْهِرُ تشابها مع الفيودالية الأوربية هو المجتمع الياباني". هذه المقارنة هي إيحائية لفهم حتى المجتمعات العربية الإسلامية في تاريخها حينما كان يسود النظام الإقطاعي. يقول مارك بلوك، بأن النظام الفيودالي الذي عاشته أوربا يرتكز على شيئين أساسيين هما العمل والانضباط، لأن أوربا صنعها الأوربيون كمجال في العصر الوسيط عن طريق

العمل (الأقنان). لأن أوربا في الأصل من الناحية المجالية، كانت عبارة عن غابة والأوربيون بفضل العمل تمكنوا من كسب القرى ومن كسب المدن ومن كسب المراعي ومن كسب الطرقات على حساب اجتثاث الغابة.

وفي هذا الصدد ثمة كتاب لجاك لوغوف، بعنوان "هل ولدت أوربا في العصر الوسيط". التهيئة المحالية التي حدثت في أوربا حاليًا على مستوى القرى وعلى مستوى المدن والطرقات موروث عن المرحلة الوسيطية الفيودالية وكان ذلك بفضل العمل والانضباط، لأن المجتمع الفيودالي مجتمع يحكمه الفرسان، والأقنان كانوا منضبطين لما يقوله الفرسان، يعني العمل ثم العمل. في اليابان حدث نفس الشيء المجتمع الياباني تاريخيًا مجتمع مبني على العمل والانضباط، وأن هذا العمل والانضباط هما اللذان يفسران التحول الذي حصل في اليابان في القرن التاسع عشر. النافذة التي فتحها اليابانيون على الحداثة مع" تجربة الميجي" في أواسط القرن التاسع عشر. وهنا نرجع إلى ما طرحه ايميل دوركايهم حينما قال "التاريخ ليس علمًا، لأنه لا يفسر وإذا أراد أن يكون علمًا عليه أن يُقَارِن"، فنتيجة المقارنة هو توليد الأفكار. والمؤرخ بإمكانه أي يولد الأفكار وبإمكانه أن يتجاوز مرحلة الوصف وأن يبلغ مرحلة توليد الأفكار المرتبطة بهذا المنهج القائم على أساس المقارنة. العنصر الثالث هو التركيب الذي يركز عليها رواد الحوليات، بمعنى عوض الانحباس في بحوث ضيقة مجهرية منوغرافية مرتبطة بالقرى ومرتبطة بالمدن مرتبطة بقبائل[٢٦]. يقترح رواد الحوليات فتح التاريخ على التركيب، لأن التجربة الأوربية يتبين منها أن الباحثين في المرحلة الأولى ينجزون أبحاث منوغرافية. وفي مرحلة ثانية ينتقلون لإنجاز أبحاث تركيبية. وهذه المسألة نلاحظها في تجارب عدد من المؤرخين من بينهم "جورج دوبي" المنتمي إلى جيل المخضرم، ما بين الجيل الثاني والثالث، حيث اشتغل في البداية حول الفيودالية في منطقة مكُّونيا، وفي مرحلة ثانية اشتغل على الفيودالية في مجموع الأقطار الأوربية. العنصر الأخير هو التحقيب أو مراجعة التحقيب المعمول به لدى المؤرخين الأوربيين كما هو مقسم لمراحل معلومة، التاريخ القديم، التاريخ الوسيط، التاريخ الحديث والمعاصر، هذا التصور المألوف لدى الأوربيين[٢٧] في هذا الصدد سنقف مع جاك لوغوف، خاصة النقاش الذي فتحه لمراجعة التحقيب.

طبع تأثير الحوليات الفرنسية تاريخ جديد، إذ تمكنت من فتح آفاق جديدة أمام الباحثين، بمنهجية وأدوات أكثر شمولية وانفتاحًا على العلوم الاجتماعية الأخرى. وكان هدف مؤسسيها كسر جمود المدرسة الوثائقية التقليدية وقيودها، فانفتحت على حقول الاقتصاد وعلوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والديمغرافيا، وأغرقت في تحليل المعطيات الكمية والإحصاءات بوصفها أدوات فعالة لتجسيد مشروعها التجديدي الذي أطلقه رائداها الأولان مارك بلوخ ولوسيان فيفر، والذي واصله ورسّخ دعائمه فيرناند بروديل، (١٩٠٢-١٩٨٥) وإرنيست لابروس (١٨٩٥-١٩٨٨)، وحاولا بعث نفس جديد فيه أقطاب "التاريخ الجديد"[٢٨]. مثل الجيل المخضرم للحوليات الفرنسية باحثين كثر، ومن أهم وجوه هذا الجيل ومساهماتهم البحثية: إرنيست لابروس، أزمة الاقتصاد الفرنسي في نهاية العهد القديم (الملكي) وبداية الثورة الفرنسية،
La crise de l’economie française à la fin de l’ancian régime et au début de la Révolution française , Paris : PUF,1944.،

ولويس هالفان (١٨٨٠-١٩٥٠)، مدخل إلى التاريخ، Introduction à l’histoire, Paris : 1946، وألفونس دوبون (١٩٠٥-١٩٩٠)، خرافة الحروب الصليبية، Le Mythe de croisade ; Paris : Gallimard,1977، و غابريال لوبرا (١٨٩١-١٩٧٠)، دراسات في علم الاجتماع الديني، Etudes de sociologie religieuse, Paris : PUF,155-1956، وجان ماركزيوسكي (١٩٠٨-١٩٩٠) مدخل إلى التاريخ الكمي، Introduction à l’histoire Quantitative , Genéve : 1956، و إرنست روبير كورتيوس (١٨٨٦-١٩٥٦)، الأدب الأوربي والعصر الوسيط اللاتيني، La Littérature européenne et le Moyen, Paris :PUF,1956، آندريه بيغانيول (١٨٨٣-١٩٦٨)، ما هو التاريخ؟، Qu’est-ce-que l’histoire ? وفيليب آرييس (١٩١٤-١٩٨٤)، زمن التاريخ، Le temps de

l'Histoire, Paris :1954، وبيار دوسان جاكوب (١٩٠٦- ١٩٦٠)، الفلاحون في بورغنديا الشمالية في القرن الأخير للعهد القديم (الملكي)،
Les paysans ge la Bourgogne du Nord au dernier siècle de l'Ancien Régime, Dijon : Impr. Bernigaud et Privat ; 1960،

وجان موفري (١٩٠١-١٩٧١)، الزراعة في أوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، L'agriculture en Europe aux 17 et 18 siécles, Florence : Sansoni, 1955.، و بيار فيلار (١٩٠٦-٢٠٠٣)، تاريخ إسبانيا، Histoire de L'Espagne,Paris :1947 [٢٩].

رابعًا: في مراجعة التحقيب (وقفة مع جاك لوغوف)

بفضل إسهاماته الكثيرة وإنتاجه المتنوع، وتواصله مع فئات عريضة من الجمهور، وانفتاحه على التاريخ الأوربي، ومشاركته في إصدار مجلة الحوليات، وتأثيره القوي في مجموعة من الباحثين المرموقين الذين يمثلون الجيل الثالث من مؤرخي الجوليات الفرنسية، لقِّب جاك لوغوف بعملاق التاريخ[٣٠]. ومن مؤلفاته: تجار ومصرفيون في العصر الوسيط، Marchands et banquiers au Moyen Age, Paris 1957. المثقفون في العصر الوسيط، Les intellectuels au Moyen Age, Paris :1957. حضارة الغرب الأوربي في العصر الوسيط، La civilisation de l'Occident médiéval ; Paris :1964. من أجل عصر وسيط آخر، Pour un autre Moyen Age, Paris :1977. نشأة المطهر، Le Naissance du purgatoire, Paris : 1981. مخيال العصر والوسيط، L'Imaginaire médiéval, Paris :1985. البورصة والحياة، La Bourse et la Vie, Pris : 1986. أوربا محكية للشباب، L'Europe racontée aux jeunes, Paris : 1996.[٣١] وإلى جانب عملاق التاريخ، ثمة مؤرخين ينتمون إلى نفس الجيل، أي الجيل الثالث من الحوليات الفرنسية، نذكر منهم: بيار نورا (١٩٣١، البالغ من العمر إلى حدود كتابة هذه الأسطر ٩٣ سنة)، له مؤلف دراسة من أجل تاريخ معاصر، الصادر سنة ١٩٧٣، Pour une histoire contemporaine,. وجورج دوبي (١٩١٩-١٩٩٦)، خلف دوبي إنتاجًا غزيرًا في التاريخ، من مؤلفاته: تاريخ فرنسا الريفية، القسم الأول: من الأصول إلى ١٣٤٠، Histoire de la France rurale,Tome1 : Des origines à 1340 (1976). كان له اسهام كبير في احياء الاهتمام بالتاريخ السياسي وتوجيه البحث التاريخي نحو دراسة العقليات والذهنيات في المجتمعات. والمؤرخ بول فاين (١٩٣٠-٢٠٢٢)، كانت له مساهمات كبيرة في فهم السلوك الاقتصادي وأثره على السياسة العامة. من أبرز مؤلفاته، كيف يُكتب التاريخ. محاولة بحث نقدي، Comment on écrit l'histoire, essai d'épistémologie, Paris : 1971. إيمانويل لوروا لادوري (١٩٢٩-٢٠٢٣)، يعتبر أبرز من نظر إلى التاريخ من الأسفل إلى الأعلى. من أهم مؤلفاته، مونتيو قرية أوكتانية (١٢٩٤-١٣٢٤)، Mountaillou, village occitan de 1294 à 1394 : Paris1975. بيار شونو (١٩٢٣-٢٠٠٩)، من أهم مؤلف له، التاريخ الكمي، التاريخ المجزأ، Histoire quantitative, histoire sérielle, Cahiers des annales 37, Paris : 1978. والمؤرخ فراسوا دوس (١٩٥٠، البالغ من العمر إلى حد كتابة هذا المقال البحثي ٧٤ سنة). من أهم اسهاماته التاريخية مؤلف التاريخ المفتت: من الحوليات إلى التاريخ الجديد: L'histoire en miettes. Des « Annales » à la « nouvelle histoire »(1987). من جملة ما تناوله في هذا المؤَلَّف، هو التنبه لتوجه التاريخ كما تصورته مدرسة الحوليات؛ إلى التفتت وفقدان هويته بعد طغيان العلوم الاجتماعية عليه، بحيث تحول إلى تواريخ منشطرة[٣٢]. وبما أن جاك لوغوف عملاق التاريخ فإننا سنقف هنا قليلاً لنأخذ أهم النقط الأساسية التي أسهم بها فيما يخص مراجعة التحقيب التاريخي.

لقد عالج جاك لوغوف تصور التحقيب، من استمراريات وقطائع وأشكال فهم التاريخ، ويستعيد مفهوم العصر الوسيط الطويل من خلال مراجعة المفهوم المركزي لعصر النهضة، كما ظهر في القرن التاسع عشر[٣٣]. ركز لوغوف كثيرًا على مناقشة النقلة بين العصر الوسيط والحديث، بين القرون الوسطى والأزمنة الحديثة. نعلم أن الأزمنة الحديثة بدءًا بالقرن الرابع

عشر وانتشرت في عدد من المدن الأوروبية في القرن الخامس عشر والسادس عشر. نجد الإصلاح الديني ونشأة مذهب جديد مذهب اللوثري البروتستانتية التي غيرت وجه أوربا، ونشأة الدولة القومية، والكشوفات الجغرافيا والآفاق الاقتصادية التي فتحت أمام الأوربيين تحولات كبيرة حصلت في القرن السادس عشر، ومع ذلك يرى جاك لوغوف، أن أوربا لم تلج العصر الحديث مع هذه التحولات التي ذكرناها. حجة جاك لوغوف في ذلك يقول: "بأن الأوربيين صنعوا شيئًا جديدًا بالعودة إلى الوراء"، لأن عصر النهضة ينادي بالعودة إلى العصر الاغريقي والروماني، الفلسفة اليونانية وللقانون الروماني وعظمة الدولة. والحال بالنسبة لجاك لوغوف، أن العصر الحديث مرتبط بفكرة التقدم(٣٤) وبالتشوف إلى المستقبل، بمعنى أن الأوربيين تحرروا من جاذبية الماضي وسحره. فالتحولات الكبرى بالنسبة لجاك لوغوف، لم تحصل في القرن السادس عشر، بل حصلت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

وكذلك كلمة الحداثة التي ظهرت في القرن الثامن عشر عصر الأنوار عند الفيلسوف جان جاك روسو فهو أول من استعمل كلمة حداثة. الثورة الصناعية التي غيرت الحياة المادية للإنسان على جميع المستويات. الثورات البورجوازية (الثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية)، والمفاهيم الجديدة التي ظهرت؛ كالحرية، المساواة، حقوق الإنسان، المدنية، الديمقراطية..ثم فكر الأنوار الذي اتسع على حساب التفكير الديني وعلى حساب الكنيسة. بالنسبة لجاك لوغوف، هذه المؤشرات الأساسية التي تمكننا من الحديث عن نقلة الأوربيين من التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث. "وقد تجسدت مظاهر التقدم والحداثة تجسيدًا ماديًا في القرن التاسع عشر: اتساع الحديد والزجاج، والقطارات والباخرات، والبنادق والمدافع، والمطّاط، والصورة الفوتوغرافية، والأدوية الصناعية، والألبسة المقدودة، والنظارات، والساعة الشخصية، وغيرها من المستحدثات، الناعمة والعنيفة، التي تجاوزت الحدود الأولربية لتتبناها مجتمعات أخرى، في أمريكا وآسيا وإفريقيا، في إطار عولمة ما فتئت تتمدّد لتُدخِل شعوب المعمور في العصر الحديثً"(٣٥) لذلك فهو يتكلم عن القرون الوسطى الطويلة وبعبارة أخرى القرون الممتدة. وفي نهاية حياته أبريل ٢٠١٤، وقبل ذلك بثلاثة أشهر أصدر كتاب بعنوان "هل يحق تقسيم التاريخ إلى حقب" فيه مراجعة للتحقيب على الشكل الذي تناولنا بعض منه وباختصار(٣٦)، دعا جاك لوغوف إلى مراجعة التحقيب، لا إلى الشك فيه، فهو يدعو إلى فتح النقاش مرة أخرى، وإلى التنبه إلى بطء المرور من حقبة إلى أخرى. هذا لأن مهمة المؤرخ تقتضي الكشف عن التداخل الحاصل بين الحقب، ورصد الفظائع التي قد تخفي الاستمراريات، والتجرؤ على التعامل مع التاريخ في مدته الطويلة(٣٧). وبالتالي فلوكوف كرس حياته العلمية لمناقشة قضية التحقيب ومراجعة الفكرة السائدة التي ترى في القرون الوسطى الأوربية حقبة تقع زمنيًا بين العصر القديم وعصر النهضة الأوربية(٣٨).

يذكر الأستاذ حبيدة، أن أن لوغوف الذي صدر له آخر كتاب قبل وفاته في يناير ٢٠١٤، بعنوان "هل يحتمل التاريخُ التحقيبَ"(٣٩) الصادر عن منشورات سُوي الفرنسية في ٢٠٩ صفحة من الحجم الصغير، الكتاب تكملة لكتاب سبق أن نشره هذا المؤرخ عام ٢٠٠٤ تحت عنوان "العصر الوسيط الطويل" الذي يقول فيه لوغوف: "هذا المبحث ليس أطروحة ولا تركيبا. هو حصيلة لبحث طويل، أي تفكُّر في التاريخ، وفي حقب التاريخ الغربي، رافقني منذ عام ١٩٥٠، منذ حصولي على التبريز الذي ترأس لجنته العلمية فيرناند بروديل، والذي مثل فيها التاريخ الوسيط موريس لومبار. أحملُ إذن هذا الكتاب منذ زمن طويل، إذ تغذى بأفكار اقتنعتُ بها، وعبَّرتُ عنها في مناسبات متعددة بطرق مختلفة"(٤٠).

خَاتِمَةٌ

وبناءً عليه، فقد تناولنا في هذا المقال البحثي منطلقات الكتابة التاريخية منذ النشأة في ألمانيا مرورًا بالتطور الذي عرفته في فرنسا مع تأسيس المدرسة المنهجية سنة ١٨٧٦، مع التركيز على تناول أفكار الرواد المؤسسين، وصولاً إلى مدرسة الحوليات وإسهاماتها التاريخية، من جيل الآباء فجيل فيرناند بروديل وجيل جاك لوغوف. عموما، لقد أسفرت الإسطوغرافية في أوربا منذ القرن التاسع عشر، عن ابتكار منهج ابستمولوجي جديد. أنتقلت بالكتابة التاريخية بالتركيز الكلي على الوثيقة التاريخية، (البحث في التاريخ السياسي) إلى البحث في الأثربولوجية التاريخية، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وإعادة فتح النقاش في التحقيب التاريخي ومراجعته، ولا سيما العصر الوسيط باعتباره عصر ولادة أوربا وتطورها. ومع مرور الوقت، ظهرت لدى الجيل الأخير من مؤرخي مدرسة الحوليات، مثل فراسوا دوس، (٧٤عام)، نزعة تسعى لتجاوز مفاهيم مدرسة الحوليات والبحث عن تاريخ جديد يعكس تطلعات الجيل المعاصر الذي قد يُطلق عليه الجيل الرابع من مؤرخي الحوليات(٤١).

الإحالات المرجعية:

(١) محمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ٢٠٢٢، ص.٨-٩.

(٢) وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ: اتجاهات - مدارس - مناهج**. الدوحة/بيروت، منشورات المركز العربي للدراسات والأبحاث ودراسة السياسات،٢٠١٣. ص.١٦٥.ف

(٣) مؤرخ ألماني ولد من أسرة لوثرية متدينة درس في جامعة لايبزيج، فيما بعد أصبح مدرسًا في إحدى ثانويات فرانكفورت، بدأ مسيرته العلمية مؤرخًا بمؤلف ذاع صيته عن "تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية" وعلى إثر هذا الكتاب نودي به أستاذًا للتاريخ في جامعة برلين عام ١٨٢٥، إلى أن تقاعد عام ١٨٧١، شارك في الحياة السياسية في ألمانيا فتولى تحرير "المجلة السياسية التاريخية"، عين عام ١٨٤١ مؤرخًا للدولة البروسية، فكتب مؤلفا ضخمًا عن التاريخ البروسي في تسعة مجلدات، أصدر كتابه الشهير " التاريخ الألماني في عصر الإصلاح الديني"، شرع في كتابة التاريخ الفرنسي والإنجليزي، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بوصفهما جزءًا من التاريخ الأوربي، كتب تاريخ إسبانيا وبلاد الصرب وألقى سلسلة من المحاضرات عن التاريخ الحديث. في سن السادسة والثمانين من عمره كتب مؤلف "تاريخ العالم" ووصل بأحداثه حتى عام ١٤٥٠م، وكان من أعظم إنجازاته إصدار "السيرة الألمانية العامة" في ٥٦ مجلدًا. انظر: عبد الرحيم الوسعيدي، موجز الكتابة التاريخية من النهضة الأوربية إلى الحوليات الفرنسية؛ في التجديد المنهجي والابستمولوجي، **مجلة التنويري**، ١٤ مارس ٢٠٢٤.

(٤) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ، من المنهج إلى التناهج**. الرباط: دار الأمان، ٢٠١٨.ص.٨.

(5) نفسه، ص.٣٤-٣٥.

(٦) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م، ص.٣٥.

(٧) نفسه.

(8) نفسه.

(٩) وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ**...م،ص. ١٦٨.

(10) Langlois, Charles-Victor & Charles Seignobos, Introduction, aux études historiques. Paris: Edition Kimé, 1992. p.29.

(١١) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م، ص.٣٥-٣٦.

(12) Langlois, Seignobos, op.cit. p.29.

(13) Ibid.

(14) Ibid.

(١٥) حمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**، م.س.ص.١١.

(١٦) نفسه.

(١٧) نفسه.

(١٨) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م.س. ص. ٣٦-٤٠.

(١٩) نفسه،٣٦.

(٢٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**، م،س،ص. ٣٦.

(٢١) نفسه.

(٢٢) ناصر الدين سعيدوني، الطريق إلى التجديد: مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (١)، **أسطور** (الدوحة)، العدد ١٤، (تموز/ يوليوز ٢٠٢١). ص ١٧-١٩.

(٢٣) ناصر الدين سعيدوني، الطريق إلى التجديد: مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (١)، مجلة **أسطور**، العدد ١٤، تموز/ يونيو ٢٠٢١، ص١٧-١٩.

(٢٤) محمد حناوي، الكتابة التاريخية ورهان التجديد المنهجي، **رباط الكتب**،٢٠٠٩.

(٢٥) جاك لوكوف، **التاريخ الجديد**، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،٢٠٠٧

(٢٦) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م، س، ص.٤٠.

(٢٧) محمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**...م.س، ص٨١.

(٢٨) ناصر الدين سعيدوني، مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (٢)، مجلة **أسطور**، العدد ١٥، كانون الثاني/ يناير٢٠٢٢. ص.٩.

(٢٩) ناصر الدين سعيدوني، مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (٢)، **أسطور**، م.س، ص.٢١-٢٣.

(٣٠) نفسه، ص.٢٣.

(٣١) نفسه، ص.٢٤.

(٣٢) ناصر الدين سعيدوني (٢) ،م، س، ص.٢٤-٢٥.

(٣٣) نفسه.

(٣٤) كلمة التقدم لم تظهر إلا في القرن الثامن عشر المرتبط مع "ميرابو" الذي يقول، التقدم هو السعي إلى حياة زاهرة.

(٣٥) محمد حبيد، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**...م،س، ص.٩٠.

(٣٦) نفسه، ص.٩٣.

(٣٧) نفسه، ص.٩١.

(٣٨) نفسه، ص.٨١.

(39) J. Le Goff, **Faut-il vraiment découper l’histoire en tranches ?**, Paris, Seuil, 2014,209 pages.

أورد الأستاذ محمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**، م.س.ص.٨١. ونشرها أيضًا في مجلة رباط الكتب الإلكترونية، نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٦.

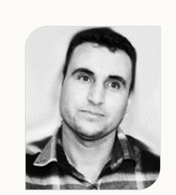
(٤٠) نفسه.

(٤١) ناصر الدين سعيدوني (2) ، م.س، ص.٢٦.

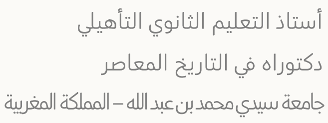
دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

التهامي الوزاني نموذج للمثقف الوطني
على عهد الحماية في المغرب
١٩٠٣ – ١٩٧٢



د.عاهد ازحيمي



أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

مُلَخّص

يُعَدّ التهامي الوزاني من رواد الحركة الوطنية بشمال المغرب، الذي كوّن شخصيته الثقافية والسياسية بشكل عصامي، وساهم كثيرًا في نشر التعليم العصري داخل المدرسة الأهلية والمعهد الحر بتطوان، ولعب دورًا كبيرًا في نشر الوعي الوطني والسياسي من خلال افتتاحياته الثقافية والتاريخية والسياسية التي كان ينشرها على صفحات جرائد عدة مثل: الحياة والريف، والحرية، ومجلتي الأنيس، والأنوار. كما كان للتهامي الوزاني مساهمات جليلة في العمل الوطني لمناهضة الاستعمار بالمغرب، حيث انخرط في معظم الجمعيات الثقافية واللجان السياسية التي تأسست بشمال المغرب على عهد الحماية الإسبانية، كما ساهم في جل الأعمال الوطنية التي أشرفت عليه هذه الهيئات، ووقع على مختلف العرائض والبرقيات الاحتجاجية، كما كان من الفاعلين البارزين في إعداد عريضة مطالب الأمة لسنة ١٩٣١م، وساهم بدور محوري في اندلاع ثورة العمال المغاربة بتطوان في ٤ مايو ١٩٣١، وأشرف على إدارة جريدة الحياة، ولعب دورًا مهمًا في أنشطة جمعية الطالب المغربية، وقام بتأسيس جريدة الريف سنة ١٩٣٦م وأشرف على إدارة تحريرها طيلة عشرين سنة، كما شغل منصب وكيل حزب الإصلاح الوطني الذي تأسيس سنة ١٩٣٦م، وأشرف على تسيره لمدة سنة تقريبًا. وفي عهد الاستقلال شغل مناصب عدة من أبرزها تقلده عمادة كلية أصول الدين. وإلى جانب أعماله الوطنية، تميز التهامي الوزاني بغزارة إنتاجه الفكري والأدبي، حيث ألف العديد من الكتب التاريخية والأعمال الأدبية والفكرية. ونشر مئات المقالات الوطنية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والدينية على صفحات الجرائد، كما خلف مجموعة من المخطوطات والرسائل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ أبريل ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ١١ مايو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التهامي الوزاني؛ الحماية الإسبانية؛ شمال المغرب؛ النخبة المثقفة؛ محاربة الاستعمار

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.281519.1119

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عاهد ازحيمي, "التهامي الوزاني نموذج للمثقف الوطني على عهد الحماية في المغرب ١٩٠٣ – ١٩٧٢".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة -العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٢٩ – ١٤٢.

Corresponding author: ahidzhaymi89@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةٌ

يعتبر التهامي الوزاني أحد رواد الحركة الوطنية المغربية بمنطقة الحماية الإسبانية، ومن أبرز مثقفي المغرب خلال القرن العشرين، الذين ساهموا بأدوار طلائعية في بعث النهضة المغربية، بنشر التعليم والمعرفة وترسيخ الوعي الوطني، عن طريق المدارس الحرة والجرائد الوطنية، وإلقاء الخطب وتقديم الدروس والمحاضرات العلمية والثقافية والأدبية، كما ساهموا في التأسيس للعمل الثقافي والسياسي المنظم، من خلال الجمعيات المدنية والأحزاب السياسية.

وتميز التهامي الوزاني عن مثقفي عصره بكونه جمع بين شخصية الصوفي الذي كان يتبع طريق القوم ويميل للعزلة والزهد والتقشف، وشخصية المثقف الحداثي الذي مارس العمل الصحفي والتربوي وخاض غمار السياسة سعيًا وراء تطور المغرب ورافهية مجتمعه. فكان اسمه حاضرًا في أغلب اللجان والجمعيات والمؤسسات العلمية والثقافية والسياسة التي تألفت بتطوان على عهد الحماية، كما أنه كان من النادر جدًا أن لا تجد مقالاً موقعًا باسمه على إحدى الصحف والمجلات الوطنية التي كانت تنشر بمدينة تطوان في هذه المرحلة. ولم يكن التهامي الوزاني صحفيًا يكتفي بالكتابة فقط، بل ولج حتى إدارة الصحف وتحريرها. كما ألف العديد من الكتب في التاريخ والسيرة الذاتية والغيرية والرواية والقصة والرحلة والتفسير.

كوَّن التهامي الوزاني هذه الشخصية الفريدة بشكل عصامي، حيث لم يزيد تكوينه العلمي عن الدراسة بالمسيد وتلقي بعض الدروس على يد علماء تطوان، فلم ينال لا شهادات ولا إجازات ولم يقم برحلات علمية لا داخل الوطن ولا خارجه. لكن ثقافته الموسوعية التي امتلكها واتقانه للغة الإسبانية، هي ثمار عصاميته ومطلاعته الكثيرة للكتب والمجلات والصحف التي شغف بقراءتها منذ طفولته، حتى صار من كبار مثقفي المغرب وعلمائه في القرن العشرين، حيث شغل وظائف عديدة، وخلف تراثًا فكريًا غنيًا. وسنعرض في هذا الدراسة لظروف نشأة التهامي الوزاني وتكوينه العلمي، وتصوفه، كما سنتطرق لمساهمته الريادية في الحركة الوطنية والثقافية بشمال المغرب، وجرد أهم الأعمال الأدبية والفكرية التي خلفها.

أولاً: التكوين العلمي والصوفي للتهامي الوزاني

١/١-النشأة والتكوين

هو الشريف سيدي التهامي بن عبد الله بن التهامي الوزاني[١]، ولد بتطوان في ٦ صفر ١٣٢١، موافق ٤ ماي١٩٠٣[٢]، ونشأ يتيم الأب، الذي توفي عندما كان عمره لا يتجاوز ثلاث سنوات، فتربى في حضن أمه، وجدته لوالده[٣]. وقد بدأ دراسته بحفظ القرآن وتعلم حروف الهجاء، بالمسيد على يد فقهاء تطوان، وبعد دخول الجيش الإسباني لتطوان سنة ١٩١٣، تعرف على الشاب محمد الكحاك الذي وجهه لطريق العلم، وساعده على حفظ مجموعة من المتون اللغوية كالأجرومية والمرشد المعين وألفية ابن مالك ومختصر خليل[٤]. كما فتح أمامه باب مكتبته فصار ينكب على مطالعة كتبها الكثيرة، ونظرا لميول التهامي الوزاني في هذه المرحلة لقراءة القصص، أخذ يشتري بعضها ويؤدي ثمنها بالتقسيط[٥].

وانصرف بعد هذه الدراسة الأولية لتلقي العلم على كبار الشيوخ فحضر مجالس الفقيه ابن الآبار، الذي كان يدرس "متن السلم" في علم المنطق[٦]، وقرأ على الفقه العلامة الرهوني "الرسالة" بمسجد العيون[٧]، و"الألفية" بالمكودي، وعن الشريف الفقيه سيدي أحمد الزواقي التحفة بالشيخ التاودي السودي[٨]، وعن الفقيه سيدي محمد المؤذن العلمي الأجرومية بالأزهري. ودرس الحساب على يد الحاج عبد السلام بنونة بالمدرسة العربية الإسبانية[٩]. وانتهى التهامي الوزاني من الدراسة وغادر ميدانها عام ١٣٣٥ ه، ولم يقيم برحلات علمية ولا حصل على شهادات ولا إجازات وأغلب قراءته مطالعات[١٠]. حيث لم تسعفه ظروفه وأوضاعه المادية من التوجه إلى مدينة فاس من أجل تحصيل العلوم بجامع القرويين[١١].

٢/١-التصوف وأخذ الورد

وفيما يتعلق بتكوينه الصوفي ذكر التهامي الوزاني، أنه عندما حصل على سلسة شجرة نسبه، واكتشف أن

كل رجل فيها كان إما عالمًا أو قطبًا أو واليًا[١٢]، فأصبح يقارن نفسه بهم، فصار يحتقر نفسه أمامهم[١٣]، وهو ما جعله يعيد النظر في تكوينه، فتوقف عن قراءة كتب الأدب التي تصور حياة الخلاعة وصار يطالع كتب الوعظ[١٤].

وفي ذلك الوقت، الذي كان التهامي الوزاني يبحث فيه عن ذاته، ويحاول إتباع طريق أسلافه، كان يجالس كتبيا يدعى محمد بن عبد الله الهادي فطلب منه أن يدله على كتاب يمكنه من اكتشاف عالم التصوف فأشار عليه بكتاب شرح الأجرومية لأحمد بن عجيبة، فاشتراه منه، وبدأ قراءته[١٥]. ففتح هذا الكتاب أمام التهامي الوزاني عالم التصوف، فصار يميل إلى العزلة، ولم يعد يخالط أصدقائه، وصغرت الدنيا في عينه، وأصبحت كل غايته هي معرفة "الله حق المعرفة"[١٦]. وهو ما دفعه للبحث عن شيخ التربية، يدله إلى طريق الله، فعاد إلى محمد بن عبد الله الهادي القادري، ليستشيره في الأمر، فاقترح عليه هذا الأخير الشيخ محمد بن الصديق الغماري، الذي كان يستقر بمدينة طنجة[١٧].

وكان التهامي الوزاني في تلك الأثناء يدرس منظومة الطيب بن كيران في الاستعارة بالزاوية الحراقية، فاستشار عبد السلام غيلان في اتخاذ محمد بن الصديق الغماري كشيخ للتربية، لكن غيلان دله على الشيخ إدريس الحراق، الذي لقنه الورد بتاريخ ١٧ دجنبر ١٩١٩م، وسنه آنذاك لم يتجاوز خمسة عشر سنة[١٨]. فوضع نفسه رهن إشارة شيخه واعتزل بهذه الزاوية مدة وتأثر بجوها الروحي والموسيقي تأثرًا كبيرًا[١٩]، وبهذا تكونت شخصية التهامي الوزاني الصوفية التي تشتاق للعبادة والتوجه إلى الله كلما ضاقت به الدنيا وعزفت نفسه عنها[٢٠]. غير أن التهامي الوزاني اختار من الصوفية شقها غير المعارض للعقل[٢١]، فلم يكن تصوفه سلبيًا ولا جافًا ولا متزمتًا، ولا منقطعا عن الحياة، أو زهدًا في الدنيا وطيبات الحياة، بل كان يرى جمال الله في كل شيء ويقبل على الحياة ويتعشق جمالها ويراها من مظاهر جمال الله[٢٢].

وعاش حياته وسط مجتمع بشكل عادي، ومارس دوره كمثقف عصري مطلع على متطلبات مجتمعه، وهو ما جعله ينخرط في الحياة السياسة، وأصبح من زعماء الحركة الوطنية بشمال المغرب، وساهم في نموها وتطورها، وجند قلمه ومواهبه للدفاع عنها والعمل على إيقاظ الشعب وتعليمه وتثقيفه، وبرع في مجال الكتابة فكان يدبج المقالات الضافية، يحلل فيها واقع المغرب أو ينتقد الاستعمار، وأعوانه، أو يدعو إلى الإصلاح وتنوعت الموضوعات التي كان يتطرق لها فكتب في السياسة وقضايا الفلسفة وشؤون الدين وفي والإنتاج السينمائي والتصوف والتربية، واستعمل مختلف الأنواع الأدبية في أعماله الإبداعية من مقالة وقصة وسيرة ذاتية وترجمة وأبحاث تاريخية.

ثانيًا: مشاركة التهامي الوزاني في الحركة الوطنية والثقافية بشمال المغرب

٢/١-بداية انخراطه في العمل الوطني

انخرط التهامي الوزاني في صفوف الحركة الوطنية وعمره لا يتعدى ٢٥ سنة، حيث تؤكد بطاقة استخبارتية أعدتها نيابة الأمور الوطنية بتايرخ ٧ يناير ١٩٢٩، على متانة علاقته بالحاج عبد السلام بنونة ومحمد داود، اللذان كان يشكلان في هذه المرحة قطب رحى الحركة الإصلاحية التي عرفتها تطوان قبل سنة ١٩٣٠. كما أشارت هذه الوثيقة إلى الدور الذي كان يقوم به التهامي الوزاني إلى جانبهم، في توزيع الصحف العربية التي كانت ترد على الحاج عبد السلام بنونة بواسطة البريد البريطاني، ونشرها بين الأوساط المتعلمة بمدينة تطوان، وقراءتها بالمناوبة، رغبة منهم في توعية هذه العناصر المتعلمة، وتوسيع دائرتها وتوحيد كلمتها وإلفات نظرها نحو القضية الوطنية[٢٣].

ونظرًا للحماس الوطني الذي كان يتمتع به الشاب التهامي الوزني وما أظهر منذ انخراطه في جماعة الحاج عبد السلام بنونة من رغبة في سبيل توعية وتعليم أبناء مدينة تطوان، وحثهم على القراءة، وإبعادهم عن مجامع اللعب واللهو، وتحسيسهم بمدى المسؤولية التي تنتظرهم، تم تعينه كعضو في لجنة تنظيم التعليم بشمال المغرب التي تألفت يوم ٢٠ يوليوز ١٩٣٠، وكانت اللجنة الأصلية تتكون من الرئيس وزير العدلية العلامة أحمد الرهوني، وقاضي تطوان العلامة محمد المرير، والكاتب الأول بالصدارة السيد أحمد الغنيمة، وفي ٢٨ يوليوز تم

تطعيم هذه اللجنة بأعضاء جدد وهم السادة: علي الخطيب ومحمد داود والتهامي الوزاني وأحمد بن تاويت ومحمد بن مَحمد اللبادي والحاج محمد الريسوني ومحمد طنانة، ومن الإسبانيين سرديدا وشاكون وبريطو[٢٤]. وانتخاب محمد داود كاتبًا عامًا لهذه اللجنة وشاكون كاتبا لها باللغة للإسبانية، ثم عهد إلى الأعضاء الشباب (محمد داود – التهامي الوزاني- أحمد بن تاويت) بإعداد برنامج عام للتعليم الإسلامي، فأخذت هذه اللجنة تجتمع لمدة شهر حتى انتهت من إعداد التقرير، الذي تم رفعه لرئيس اللجنة الوزير أحمد الرهوني[٢٥].

وبعد صدور ظهير ١٦ ماي ١٩٣٠ (الظهير البربري) وما عرفته مدن المنطقة الجنوبية من مظاهرات واحتجاجات ساخبة، لم تكن مدينة تطوان لتبقى بعيدة عن هذه الأحداث، دون أن تنخرط فيها، حيث "تضامنت المنطقة الشمالية مع أختها"[٢٦] الجنوبية، بتأسيسها يوم ٢٩ يوليوز ١٩٣٠ لجنة لمقاطعة البضائع الفرنسية بمدينة تطوان، ترأسها الحاج عبد السلام بنونة، وكان سيدي التهامي الوزني من بين أعضائها الفاعلين والناشرين لفكرة المقاطعة بمدينة تطوان بين جميع الطبقات والشرائح المجتمعية[٢٧].

وكان التهامي الوزاني من بين المشرفين على الحفل الديني الذي قرئ فيه إسم اللطيف في "المسجد الأعظم يوم الجمعة ٦ ربيع الأول ١٣٤٩ موافق فاتح غشت ١٩٣٠ وفي الزاوية الريسونية يوم ٦ منه"[٢٨]، كما كان ضمن أعضاء اللجنة التي رتبت قراءة اللطيف بعد صلاة العشاء بتاريخ يوم الأحد ٣ غشت ١٩٣٠ بجامع القصبة، والزاوية الريسونية، وبالرغم من محاولة منعهم عن ذلك، وقطع التيار الكهرائي عن الزاوية، فإنهم أصروا على إتمام قراءة اللطيف بالصيغة التي كانوا متفقين عليها، وفي اليوم الموالي تم استدعاء كل من التهامي الوزاني وأحمدبن تاويت وابن عبود وابن عبد الوهاب وامحمد بنونة، "لأجل التحقيق والمحاكمة بدعوى مخالفة أوامر الحكومة وحث الناس على الهياج"، غير أن الوزير ابن عزوز تدخل للدفاع عنهم وقال للمقيم العام: "إن الشبان إنما ذكر اسم اللطيف وهو شيء ديني لا دخل لكم فيه"[٢٩].

كما كان التهامي الوزاني من بين الموقعين على البرقيات الاحتجاجية ضد ظهير ١٦ ماي، التي تم رفعها لكل من السلطان محمد بن يوسف والمقيم العام الفرنسي ووزير خارجية فرنسا، كتعبير عن رفضهم للسياسة "العنصرية والتحيزية التي تنهجها الجمهورية الفرنسية في منطقة حمايتها بالمغرب"، وكذلك مطالبتهم بضرورة إلغاء ظهير ١٦ ماي "لأنه ينتهك الحقوق المقدسة للشعب المغربي المسلم، وفيه خرق للتعهدات التي إلتزمت بها فرنسا مع الدولة المغربية"[٣٠]. وترأس التهامي الوزاني الجنة المكلفة بتكريم الأمير شكيب أرسلان عند زيارته مدينة تطوان في ١٤ غشت ١٩٣٠، والتي تألفت يوم (١٣ غشت)، وتكلفت هذه اللجنة بوضع برنامج الحفلات والمأدوبات التي أقيمت على شرف الأمير[٣١]، وعند إقامة الحفلة العمومية الكبرى لتكريم أمير البيان يوم ١٧ غشت بدار محمد الحاج، كُلف التهامي الوزاني مرة أخرى هو برئاسة لجنة التكريم[٣٢]. كما ألقى قصيدة شعرية في حق أمير البيان "هنأ فيها تطوان بزيارته وذكر بعض مزياه ورحب به"[٣٣].

ويعتبر التهامي الوزاني من بين المؤسسين بتاريخ ٥ شتنبر ١٩٣٠، للهيئة الوطنية السرية المعروفة بالهيئة الوطنية الأولى، والتي انتخب كاتبا لها، وسيلعب التهامي الوزاني دورا كبيرا في هذه الهيئة بعد سقوط الملكية وإعلان النظام الجمهوري بإسبانيا بتاريخ ١٤ أبريل ١٩٣١، حيث استغلال الوطنيين بشمال المغارب هذا الحدث وقدموا عريضة مطلبية للحكومة الجديدة. فكان التهامي الوزاني، فاعلا نشيطا طيلة مرحلة إعداد عريضة المطالب، حيث نجده ضمن أعضاء لجنة تحرير عريضة المطالبة التي تألفت بتاريخ ١٦ أبريل[٣٤]، والتي بدأت العمل في اليوم الموالي بدار الحاج عبد السلام بنونة، وفي ١٩ أبريل كلفت اللجنة سيدي الوزاني بمهمة السفر إلى القصر الكبير والعرائش والاتصال بالعناصر الوطنية هناك وإخبارهم بأمر عريضة المطالب، وذلك ما أكده الحاج عبد السلام بنونة بقوله: "تعينت لجنة مؤلفة من الأخوين التهامي الوزاني والسيد محمد بن الحاج أحمد الخطيب ... وتوجها إلى القصر والعرائش وأصيلا لأخذ الإمضاءات أهالي هذه المدن "[٣٥].

وعند اندلاع المظاهرة العمالية يوم ٤ ماي ١٩٣١، وما عرفته مدينة تطوان من اضطرابات، اضطرت المقيم العام لإعلان حالة الطوارئ، كان سيدي التهامي الوزاني والفقيه محمد داود وراء هذه المظاهرة، التي لم يتم إخمادها إلا بعد أن طلب منهما الكولونيل كباص التدخل لتهدئة المتظاهرين، فتمكنا من إقناع المتظاهرين العدول عن استعمال العنف، والاكتفاء برفع مطالبهم إلى المقيم العام بطريقة سلمية، وإفراز لجنة لتحرير هذه المطالب، التي تألفت من السادة: محمد داود؛ التهامي الوزاني؛ عبد الكريم داود؛ عبد اللطيف غيلان؛ محمد زبيدة[٣٦]. وعند تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية بمدينة تطوان، بتاريخ ٢٩ شتنبر١٩٣١، اتفق رجال الوطنية العاملين في الميدان السياسي على أن لا ينخرطوا فيها، حتى يتسنى لهم العمل بكل حرية في أنشطتهم السياسية[٣٧]، ولكي لا تمنع الأنشطة الخيرية للجمعية بسبب مواقفهم المتطرفة من الاستعمار، لكن هذا القرار لم ينطبق على التهامي الوزاني الذي عين كاتبا ثانيا لهذه الجمعية، لما كان يتميز به من اعتدال في مواقفه ورزانة في فكره[٣٨].

وهكذا أصبح التهامي الوزاني أحد أقطاب الحركة الوطنية بشمال المغرب ومن نخبتها المثقفة، فلا يمكن أن يعقد اجتماعًا أو تأسيس هيئة دون أن يكون اسمه حاضرا ومساهما فيها. حيث شغل مهام نائب الرئيس في اللجنة الفرعية لهيئة وفد مطالب الأمة التي تأسست بتاريخ ١٩ يونيو ١٩٣١[٣٩]، وساهم في هذه الهيئة بدور كبير في تجاوز مشكلة اختيار أعضاء الوفد الذي سافر لمدريد لتقديم عريضة المطالب لرئيس الجمهورية الإسبانية.

٢/٢-انخراطه في الهيئات الوطنية السياسية بشمال المغرب

وعند تأسيس الهيئة الوطنية بشمال المغرب بتاريخ فاتح أبريل ١٩٣٢م، انتدب التهامي الوزاني كاتبا للجماعة العلنية لهذه الهيئة،، وعضوا في جماعتها السرية[٤٠]. كما أنه عندما قامت هذه الهيئة بتعين وفد للمفاوضات مع المقيم العام الإسباني حول طريقة تنفيذ تلك المطالب، انتخب التهامي الوزاني عضوا في هذا الوفد[٤١]. كما عين عضوًا في لجنة التعليم العام التي تأسست بتاريخ ٦ ماي ١٩٣٢م، كما كان عضوًا كذلك في لجنتها المصغرة، التي تكلفت بإعداد تقارير حول التعليم وطريقة إصلاحه[٤٢]، فتم رفع تقريرها الأول للمقيم العام يوم ٧ يوليوز والثاني بتاريخ ٢٥ شتنبر من سنة ١٩٣٢م[٤٣].

وكان التهامي الوزاني عضوًا في اللجنة التي تألفت يوم ٢ ماي لإحياء ذكرى الظهير البربري، والتي نظمت مهرجانًا خطابيًا بباب المقابر، وألقى إلى جانب عبد الخالق الطريس خطابا، ندد فيه بالسياسة البربرية المتبعة من طرف فرنسا في منطقة حمايتها، كما كان سيدي التهامي الوزاني من بين الموقعين على جميع البرقيات الاحتجاج التي رفعت إلى رئيس عصبة الأمم، وإلى رئيس الجمهورية الفرنسية ووزير خارجيتها بباريس وإلى المقيم العام بالرباط[٤٤]. وانخرط التهامي الوزاني إلى جانب الوطنيين المغاربة في المحفل الماسوني بتاريخ المحفل الماسوني يوم٩ مايو ١٩٣٢[٤٥]، لاعتقادهم أن هذه المحفل قادر على دعم قضيتهم في التحرر من الاستعمار، ولم يجد التهامي الوزاني حرجًا في التصريح بذلك الانتماء والإشارة إليه في مختلف كتاباته ومذكراته[٤٦]، شارحًا للأسباب التي دفعت الوطنيين المغاربة للانخراط في هذا المحفل، وكيف تراجعوا عن انتمائهم ذاك بعدما تبين موقفها المؤيد للاستعمار[٤٧].

وعند تأسيس الهيأة التحضيرية لنظام حزب الإصلاح الوطني بتطوان يوم ١٦ يناير ١٩٣٣، كان التهامي الوزاني من بين أعضاها، حيث حضر جميع جلساتها (١١جلسة)، باستثناء الجلسة الرابعة[٤٨]. كما كان أيضا عضوا في اللجنة التي تألفت يوم ٣ نونبر ١٩٣٣ لإحياء الذكرى السادسة لجلوس السلطان محمد بن يوسف على العرش، وكذلك كان من بين الموقعين على البرقية التي تم رفعها إلى جلالته يوم ١٨ نونبر[٤٩]. وانتدب التهامي الوزاني كاتبا لهيئة العمل الوطني بشمال المغرب التي تأسست يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٣٣، عندما أسست هذه الأخيرة لجنة باسم "لجنة الاتصال بالحلقات"، كان التهامي الوزاني من بين أعضائها، وتكلف بإعداد نضام خاص بها، صادقت عليه الهيئة بتاريخ ١٤ أبريل، كما كان عضوا في "لجنة مقاومة فرنسا"[٥٠]، وعضوا في "لجنة التعليم الحر"، التي تألفت

يوم ١٨ ماي ١٩٣٤[٥١]. كما كان عضوا في اللجنة المكلفة بإحياء ذكر المولد النبوي التي تأسست يوم ١٣ يونيو ١٩٣٤[٥٢].

كما ترأس التهامي الوزاني جمعية الطالب المغربية بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٣٤[٥٣]، وبعد تعين عبد الخالق الطريس مديرا للأحباس بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٣٤، أسندت للتهامي الوزاني رئاسة إدارة جريدة "الحياة"، من عددها ٣٢ الذي صدر يوم ١٨ أكتوبر ١٩٣٤م، حتى توقيها من طرف الحماية الإسبانية فكان أخر عددها هو٧٧ الذي صدر بتاريخ ٢٩ غشت ١٩٣٥[٥٤]. كما كان التهامي الوزاني عضوا في النقابة الحرة للصحافيين المغاربة والإسباني، التي تم تأسيسها من طرف الصحفي الإسباني رفايل وعبد الخالق الطريس، بتاريخ ٢٤ غشت ١٩٣٤م[٥٥].

وعند تأسيس لجنة خاصة بتخليد ذكرى وفاة الحاج عبد السلام بنونة بتاريخ ٩ يناير ١٩٣٥م، كان التهامي الوزاني من بين أعضائها الفاعلين والمشرفين على إحياء هذه الذكرى، كما كان من بين الموقعين على برقيات التذكير بالمطالب التي تم رفعها بتاريخ ١٤ أبريل إلى رئيس الجمهورية الإسبانية ورئيس البرلمان الإسباني[٥٦]. كما كان عضوا في اللجنة التي تأسست بتاريخ ٢١ أكتوبر ١٩٣٥م، لوضع مذكرة عن سياسة إسبانيا وعملها في المنطقة[٥٧]. وبعد تأسيس "كتلة العمل الوطني في شمال المغرب"، بتاريخ فاتح فبراير ١٩٣٦م، انتخب التهامي الوزاني وكيلاً لها[٥٨]، وهي الهيئة التي ستندمج في حزب الإصلاح الوطني بعد تأسيسه بتاريخ ١٨ دجنبر ١٩٣٦م.

ونظرًا للتجربة الصحفية التي خاضها التهامي الوزاني في جريدة الحياة، واطلاعه على شؤون إدارتها وكيفية تحريرها، ونظرا للفراغ الذي حدث على إثر منع جريدة الحياة، ومجلة السلام، من طرف السلطات الإسبانية، تقدم التهامي بطلب تأسيس مجلة باسم "المنبر"، للمراقب المحلي بتطوان بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٣٦م، لملء الفراغ الصحفي بمدينة تطوان، وتكون منبرًا حرًا لجميع الأقلام، غير أن المراقب المحلي اشترط عليه "إيداع مبلغ قدره ثلاث ألف بسيطة في إدارة المالية"، بمدينة تطوان. فكان هذا الشرط التعجيزي سببًا في وأد هذا المشروع[٥٩]. واعترافًا بالمكانة الثقافية والتنظيمية والسياسية التي كان يحتلها التهامي الوزاني في صفوف الحركة الوطنية بشمال، أقام له أعضاء كتلة العمل الوطني حفلاً تكريميًا بدار طنانة بتاريخ يوم الجمعة ٢٧ مارس ١٩٣٦م[٦٠].

٢/٣-عمله الوطني والصحافي خلال العهد الفرنكوي

وبعد الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال فرنكو على الجمهورية الإسبانية بتاريخ ١٧ يوليوز ١٩٣٦م، واندلاع الحرب الأهلية الإسبانية، أظهر فرانكو الذي نصب نفسه مقيما عاما بالمغرب، رغبته في تقديم تنازلات وتسهيلات للحركة الوطنية بشمال المغرب مقابل اتخاذ المنطقة موقف الحياد من الأحداث التي كانت تعيشها إسبانيا، وفي إطار هذه السياسة اقترح نائب الأمور الوطنية بكيبدير على التهامي الوزاني فكرة إنشاء جريدة، فوافق على ذلك، لكن شريطة أن يكون له كامل الحرية في تسيرها وتبقى مفتوحة في وجه جميع أقلام الوطنيين المغاربة بدون استثناء وعلى رأسهم عبد الخالق الطريس[٦١].

غير أن زعماء الحركة الوطنية بشمال المغرب لم يتقبلوا من التهامي الوزاني هذه الخطوة الانفرادية، فكان رده عليهم: "لقد قبلت المهم إن كان فيها خير فهو لنا جميعا، وإن لم يكن كذلك فأنا أتحمل المسؤولية وحدي"[٦٢]، وبهذا الاتفاق بين أعضاء الكتلة انطلقت جريدة الريف بتاريخ ٢٧ غشت ١٩٣٦، وعاشت عشرين سنة كاملة من العمل الدؤوب، لتغطية الأحداث الداخلية والخارجية، وكذلك نشر الوطنية بين الأوساط المغربية[٦٣].

وساهم التهامي الوزاني كذلك بمقلاته في مختلف الجرائد والمجلات التي تأسست بشمال المغرب وخاصة جريدة الحرية ومجلة الأنيس، مما يدل على موسوعيته، وتعمقه في قضايا المجتمع المغربي وتاريخه وتراثه. فتحدث باسم الوطنية، ونادى باسم الصناع والحرفيين، ودافع عن الفلاحين والكادحين، وطالب بإصلاح التعليم والأحباس والقضاء، والتحرر الاقتصادي، مما جعل منه نموذج للمثقف المغربي المعتدل الذي جعل من قلمه ولسانه في خدمة قضايا مجتمعه، ودفاعا عن وطنه ووحدته، ومنتقدا لكل أشكال التخلف التي كان يعاني منها المغرب، طامحا من أجل الحصول على الوحدة

والاستقلال. كما كان لا يتوانى في التنديد بالتجاوزات المباشرة وغير مباشرة للسياسة الإسبانية في المنطقة الشمالية وهو ما عرضه للاعتقال بتاريخ ٧ نونبر ١٩٣٧ بأمر من باشا تطوان على اثر نشره مقالا شديد اللهجة ضد قائد أخماس، ثم أطلق سراحه في اليوم الموالي[٦٤].

وكان من نتائج سياسة التساهل التي نهجها فرانكو مع الحركة الوطنية بشمال المغرب، السماح لهذه الأخيرة بتأسيس حزب الإصلاح الوطني بتاريخ ١٨ دجنبر ١٩٣٦م، فشغل فيه التهامي الوزاني مهام وكيل الحزب[٦٥]، فساهم في هذه المرحلة بأدوار طلائعية داخل الحزب حيث ترأس معظم اجتماعات لجنته التنفيذية، طيلة شغور منصب رئاسة الحزب التي لم يتقلدها عبد الخالق إلا بتاريخ ٢ يونيو ١٩٣٧م، بعد استقالته من وزارة الأحباس الإسلامية في الحكومة الخليفية[٦٦].

كما أسندت للتهامي الوزاني رئاسة المجلس الأعلى للفتيان[٦٧]، وكلف بوضع نظام انتخابات الحزب[٦٨]، وساهم بمعية ابن جلون والطيب بنونة في إعداد الوصايا العشر للحزب[٦٩]، وكلفته اللجنة بالسفر لمدينة العرائش لتنظيم الفرع[٧٠]، كما كان الوزاني من بين الأعضاء الذين أشرفوا على إعداد مشروع استقلال القضاء[٧١]. ونظرًا لكثرة المهام التي كانت تسند إليه، مقابل تراجع نشاط باقي أعضاء الحزب، وجه لهم انتقادًا حادًا وأكد عليهم أن الواجب يتطلب منهم جميعا التعاون والتضحية في سبيل سير أعمال الحزب، وأن قدراته وصحته لا تسمح له بالقيام بكل المهام الموكلة له في الجريدة والحزب[٧٢].

ولكون شخصية التهامي الوزاني كان فيها نوعا من الميزاجية والتقلب في القرارات ورفضه للأفكار والقرارات التي لا يقتنع بها، وجد نفسه غير مرتاح في نظام الحزبية، وهو ما سيدفعه لتقديم استقالته من الحزب بتاريخ ٦ يونيو ١٩٣٨[٧٣]، وبرر ذلك وبقوله: "لقد قدمت استقالتي من حزب الإصلاح الوطني خوفا من الانشقاق الذي يمكن أن يحدثه تمسكي بمرتبتي فيه، إذ أن فريقًا من مناصري الحزب يرون من شروط العامل فيه أن يكون تحت إرادتهم ونظرهم حتى في حياته الخاصة وأعماله الفردية وهذا لا يتفق مع نظريتي في الحياة وقد شاع بعض الناس أنني أستغل مركزي في الحزب لمصلحتي الخاصة فيها"، غير أن مكانته داخل الحزب ودور الفعال داخل هيئاته، جعلت أعضاء الحزب يتمسكون به ويرفضون طلب استقالته[٧٤].

استمر التهامي الوزاني منضبطًا داخل حزب الإصلاح الوطني، يساهم في بأفكاره واقتراحاته وقلمه، حتى سنة ١٩٤٦، فجدد طلب استقالته من الحزب، في رسالة رفعها لعبد الخالق الطريس يبرر فيها الأسباب التي دفعته لذلك جاء فيها: "إني أشعر بحاجة إلى أن أعيد القول بأن لي طبعًا ملتويًا لا يبيح لي أن أعاشر من الناس إلا من كان مثلكم رحب الصدر رحابة الفضاء، فإن فطرتي لم تعدني لأكون رجل حزب يتقيد بالقيود الحزبية الواجب إتباعها، وأنني أتذكر مواقف وقفتها لو كان غيركم وغير إخواني من أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب القديم ما تحملها ... إنني لا أستطيع أن أخضع لنظام الحزبية كما أنني لم أخضع لها قط ... أقدم استقالتي لأنها أمر إذا لم أفعله اليوم فإنني مضطر لفعله غدا، وأنا أختار تقديمه"[٧٥].

وحسب رسالة بعثها إلى محمد داود، فإنه أشار إلى أن الأسباب التي ذكرها في طلب الاستقالة كانت مجرد مبررات واهية فقط، وأن السبب الحقيقي الذي دفعه لذلك هو تورطه في التعامل مع الإنجليز والألمان في نفس الوقت، وفتح جريدة الريف أمامهم، دون إخبار رفاقه في الحزب بذلك حيث قال: "وطمحت نفسي للعب بالورقتين ... وساورتني فكرة الثانوية وأنها ازدواج أفيد من الحياد"[٧٦].

وعندما علم بأن سره صار مكشوفًا، وشعر بأن علاقته بأصدقائه تباعدت وفترت أعلن استقالته من حزب الإصلاح الوطني، حيث قال: "وشعرت بأن وجودي بين أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني صار نابيا، فتجرأت وقدمت استقالتي مستندا إلى بعض الأسباب الواهية"[٧٧]، خاصة وأنه كان يدرك أن الوضع الذي أصبح عليه الحزب في تلك المرحلة بعد تجديد أعضائه، كان يتطلب الخضوع الكلي للنظم الحزبية والتقيد بالخطة، والانضباط لما تقتضيه المصلحة العامة وما تقرره الأكثرية[٧٨]. في حين كان يدرك أن شخصيته ترفض كل خضوع وهو ما أكده بقوله: "وأظنني ما كنت

رجل حزب في يوم من الأيام، ولست لي العقلية الصالحة بالأحزاب"[٧٩].

٢/٤-نشاطه الوطني خلال أزمة ١٩٤٨م

ورغم استقالة التهامي الوزاني من حزب الإصلاح الوطني، بقي مرتبطا بالحركة الوطنية، حيث شارك في الاحتفال الذي نظم سنة ١٩٤٧م بمناسبة استقلال الباكستان[٨٠]، كما نجده يقوم بدور مهم عند اندلاع أزمة ١٩٤٨م، بعد منعت السلطات الإسبانية دخول زعماء الحركة الوطنية لمسقط رأسهم تطوان، التي شهدت على إثر ذلك احتجاجات عديدة، قُبِلت بقمع المتظاهرين بطرق وحشية واعتقالهم بالمئات. وإذا كان التهامي الوزاني لم يشارك في هذه المظاهرات[٨١]، فإنه لما علم باعتقال العديد من الوطنين ذهب هو والحاج امحمد بنونة وعبد الله البقالي إلى الباشوية والمشور للتضامن مع المعتقلين، وهو ما عرضهم للاعتقال كذلك[٨٢]. وفي صباح اليوم الموالي تم تقديمهم أمام الباشا، والحكم عليهم بالسجن داخل منازلهم مع تشديد الحراسة عليهم، ولم يتم الإفراج عنهم إلا بعد أسبوع. فاعدوا لنشطهم الوطني حسب ما أكده امحمد بنونة في رسالة للطيب بنونة جاء فيها: "بمجرد ما وصلني الإعلان (الإفراج) خرجت وذهبت إلى دار الطنجي وأخذته معي هو وسيدي عبد الله وذهبنا إلى دار الحاج وتذاكرنا في تجديد العمل كلجنة الدفاع والمطالبة، ويوم الاثنين اتصلت بالأخ ابن الآبار وطلبت منه أن يشترك معنا فوعد... اليوم الثلاثاء خرجت صباحًا وزرت سيدي التهامي لأول مرة وتذاكرت معه فيما يجب عمله في هذه الظروف. ... فاتفقت معه على أن يكتب رسالة للصدر يطالب فيها بإطلاق سراح أعضاء اللجنة، ونمضيها نحن الستة"[٨٣].

ونظرًا لتوالي الاحتجاج من طرف جميع شرائح المجتمع التطواني من وطنيين وتجار وحرفيين ونساء وأطفال، وتوزيع المناشير وانتشار الكتابات على الجدران، زادت الإقامة العامة الإسبانية من تشديد الخناق على الوطنيين كما تعنتت في إطلاق سراح المعتقلين وقامت باستدعاء معظم الذين أعفي عنهم من قبل ومن بينهم التهامي الوزاني وامِّحمد بنونة للتحقيق معهم من جديد، ونظرا لعدم ثبوت أية أدلة ضدهم تم إطلاق سراحهم مرة أخرى[٨٤]. وبمجرد ما تم إخلاء سبيلهم حتى استأنفوا أنشطتهم الوطنية السرية كما أكد ذلك امِّحمد بنونة في رسالته إلى الطيب جاء فيها: "ها أنا حر مرة أخرى ولله الحمد، وغدا سأزور الأخ الحاج وسي التهامي وداود لنستأنف العمل بحول الله، فهاتوا ما عندكم فقد تمرننا وسوف ينصرنا الله عليهم بفضله"[٨٥].

ولم تكن الإقامة العامة الإسبانية بغافلة عن تلك الأنشطة السرية للوطنيين، حيث اتهم التهامي الوزاني بتوزيع المناشير، حسب ما أورده امِّحمد بنونة في رسالة للطيب التي جاء فيها: "لقد توالت جماعة المناشير عملها خمسة أيام متوالية، ... واتهموا فيها سيدي التهامي الوزاني غير أنهم لم يقبضوه حتى الآن وقطعا سيقبضونه معنا هذا المساء أو غدا والله أعلم، هذا ما حملناه هنا ولو كان يمكننا أعمال شيء أكثر من ذلك لفعلناه"[٨٦]. كما تعرضت مطبعة الريف للتفتيش من طرف البوليس السري[٨٧].

غير أن توالي التحقيقات والتهديدات التي كان يمارسها الجواسيس جعلت الجماعة الوطنية تشعر بخطورة الأمر خاصة وأنهم كانوا يشاهدون يوميا المجازر التي ارتكبت في حق العديد من المعتقلين، مما سرب الضعف والخوف إلى قلوبهم وهو ما جعل عبد الخالق الطريس يبعث رسالة إلى التهامي الوزاني ومحمد داود وامِّحمد بنونة يحثهم فيها على الثبات من أجل استمرار العمل الوطني، حيث قال لهم: "نعتبر أنفسنا في مفترق الطرق فإما أن تصمد حركتنا وتستمر قائمة منتشرة ... وإما أن يفت في عضدنا الإرهاب ويؤثر علينا التهديد المصطنع فنتخلى عن الواجب ... إننا لسنا بعيدين عنكم ولسنا بجاهلين حال البلد ولسنا نطالبكم بما فوق الطاقة أو ما يتعارض مع الإمكان ولكننا نعتقد أن جعبة الاحتمالات لم تفرغ من سهام أصبح من الضروري استعمالها ...فلا ينبغي أن يذهب سدى ما قدمه الشهداء من دماء وما لحق زملائنا من عنت في السجون"[٨٨].

كما بعث الطيب رسالة أخرى للعديد من الوطنين يدعوهم فيها الاتصال بالتهامي الوزاني ومحمد داود وامِّحمد بنونة للتنسيق معهم من أجل الحفاظ على نشاط الحركة الوطنية حيث قال لهم: "لإبقاء الحركة

الوطنية نشيطة وتقوية جبهة الدفاع ... قررنا أن نوجه الدعوة إلى سيادتكم راجين منكم الاتصال بإخواننا الأفاضل الأساتذة السيد محمد داود والسيد التهامي الوزاني والسيد الحاج امّحمد بنونة لأنهم على اتصال بنا ومد يد المساعدة بتعضيد الحركة بأفكاركم ومجهوداتكم ورغبتنا أن تتوحد الجهود"(٨٩).

ورغم أن هذه الرسائل كانت تهدف لحث الجماعة الوطنية بتطوان على متابعة أنشطتها الوطنية وتوحيد صفها، إلا أن الأسلوب القمعي والترهيبي الذي نهجته إدارة المقيم العام الإسباني فاريلا، جعلت أغلب الوطنين تحت التهديد والحراسة النظرية فقلت أنشطتهم الوطنية بشكل تدريجي وذلك ما أفصح عنه امّحمد بنونة بشكل صريح حيث قال: "نحن الآن نقطع مرحلة خطرة، لا يمكن العمل فيها إلا بتحفظ كبير وحكمة دقيقة وإلا أوقعنا أنفسنا وغيرنا في محذور لا نستطيع الخلاص منه"(٩٠).

٢/٥-مرحلة غيابه وتواريه عن الأحداث الوطنية بعد سنة ١٩٤٨م

وفي سياق هذه الأزمة التي عاشتها المنطقة الشمالية تراجع النشاط الوطني والثقافي للتهامي الوزاني إما بعامل الخوف، أو تحت عامل التهديد والضغط. وذلك ما لاحظه المؤرخ عبد المجيد بن جلون في دراسة حول التهامي الوزاني، ورد فيها: "لاحظنا خلال أبحاثنا أن الوثائق التي تذكر سيدي التهامي الوزاني وعلى الأخص بعد ١٩٤٨م نادرة"(٩١). غير أن ما يطرح العديد من التساؤلات في هذه المرحلة، هو تغطية جريدة الريف التي كان يشرف عليها التهامي الوزاني لرحلة المقيم العام الإسباني باريلا ونشر خطابه(٩٢) في أوج توتر العلاقة بين الوطنيين مع الإقامة العامة الإسبانية؟؟

ولعل هذا الموقف هو السبب الذي جعل عبد الخالق الطريس والعناصر الوطنية التي كانت مبعدة بطنجة تغضب من التهامي الوزاني حسب ما ذكره محمد عزيمان الذي قال: "أثناء المدة التي كان فيها الأستاذ الطريس مقيما في بطنجة ممنوعًا من دخول تطوان اتخذ سيدي التهامي الوزاني بعض المواقف التي لم يرض عنها الأستاذ الطريس ورفقاؤه الذين كانوا معه بطنجة فاتفقوا على أن يظهروا له نزوعا من الفتور"(٩٣).

غير أن مكانة التهامي الوزاني بين زملائه في العمل الوطني، جعلت الطريس ورفاقه لا يقدرون على تنفيذ اتفاقهم، حيث يكمل محمد عزيمان القصة بقول: "ولما رجع الأستاذ الطريس إلى تطوان كان سيدي التهامي الوزاني في طليعة المستقبلين والمهنئين فعانقه الأستاذ الطريس عناقًا حارًا وهو في غاية التأثر والسعادة بلقائه، والتفت إلى مرافقيه الذين كانوا معه بطنجة معتذرًا قائلاً: "سامحوني لا أستطيع أن أخاصم سيدي التهامي الوزاني"، ولم يكونوا هم أنفسهم أقل بهجة وسعادة بلقاء سيدي التهامي"(٩٤).

وعمومًا فإن التهامي الوزاني أشار في العديد من كتاباته إلى أنه في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات مر بحالة نفسية صعبة، أثرت بشكل كبير على شخصيته وسببت في وتوتر علاقته بأصدقائه وأسرته، وأدت إلى انقطاعها(٩٥)، كما أثرت على نشاطه الوطني والسياسي، حيث لم نعثر في هذه المرحلة سوى على وثيقة وحيدة تضم توقيع التهامي الوزاني، هي وثيقة تجديد بيعة الملك محمد الخامس من طرف سكان المنطقة الخليفية بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٥٣م، عندما كانت فرنسا تحبك خيوط مؤامرة نفيه إلى مدغشقر(٩٦).

هذا الفتور في نشاط التهامي الوزاني الوطني، رافقه كذلك فتور على المستوى الثقافي والصحافي، حيث عثرنا مرة واحد فقط على اسم التهامي الوزاني ضمن لجنة لمنح جائزة معهد مولاي الحسن للأبحاث لسنة ١٩٥٣م، التي حاز عليها محمد داود الذي تقدم بكتابه "مختصر تاريخ تطوان"(٩٧). كما يبدوا هذا الفتور بشكل واضح من خلال تتبع أعداد جريدة الريف التي كان يشرف عليها، حيث اختفت افتتاحياته ومقالته الوطنية، وأغلب ما صار ينشره في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات هو بعض مؤلفاته التاريخية والدينية والأدبية مثل: "سليل الثقلين" الذي نشره في نهاية سنة ١٩٤٩م وبداية سنة ١٩٥٠م، ثم "الباقة النضرة"، التي نشرها سنة ١٩٥٣م، و"الرفرف" التي امتد نشرها من سنة ١٩٥٢م، حتى سنة ١٩٥٥م، و"القصة في المغرب" التي تم نشره بمجلة الأنيس ما بين ١٩٥٠م و١٩٥٣م، بالإضافة إلى نشره بعض المقالات الاجتماعية والدينية على صفحات جريدة الشهاب(٩٨).

وبعد حصول المغرب على الاستقلال سنة ١٩٥٦م استمر التهامي الوزاني في أعماله العلمية والثقافية، حيث نشر مقالات عديدة في منابر مختلفة مثل: مجلة دعوة الحق ومجلة النصر والأمانة والنبراس والمعرفة والوحدة الكبرى. كما استمر عمله التربوي، حيث أشرف على تحويل سجن واد لو إلى مدرسة داخلية لأبناء مختلف المداشر والقبائل المجاورة[٩٩]، وساهم بأدوار جبارة لتوفير كل ما كانت تحتاجه تلك المدرسة من موارد مادية وبشرية حتى أصبحت جاهزة لاستقبال النزلاء[١٠٠]. كما ساهم في تحويل معسكر للجيش الإسباني إلى معهد للتعليم الديني[١٠١]، وأنشأ مجموعة من المدارس القرآنية الإعدادية لتكون روافدا للمعاهد الدينية تمدها بالتلاميذ باستمرار حفاظا على بقائها واستمرارها[١٠٢].

٦/٢-عودته للعمل الثقافي والعلمي بعد الاستقلال

وتولى التهامي الوزاني مناصب عديدة بعد الاستقلال حيث عين ما بين عامي ١٩٥٦م و١٩٦٤م أستاذا بدار الحديث الحسنية بالرباط، وعين سنة ١٩٥٩م عضوًا في المجلس الأعلى للتربية الوطنية، وعضوا في لجنة تعريب التعليم[١٠٣]، كما عين سنة ١٩٦٠م مستشارًا دائمًا لرابطة علماء المغرب ورئيس فرعها بتطوان[١٠٤]، وانتخب في نفس السنة خليفة لرئيس جمعية "أصدقاء تطوان"[١٠٥]، هذا بالإضافة إلى اشتغاله مديرًا للمعهد الديني ثم مديرًا للمعهد الديني العالي، الذي أصبح يعرف بكلية أصول الدين فكان التهامي الوزاني أول عميد لها، وظل يدرس بها ويشرف على تسيير إدارتها حتى وفاته[١٠٦].

وبعد وفاة الملك محمد الخامس سنة ١٩٦١م، واعتلاء ولي عهده الملك الحسن الثاني عرش البلاد، كان التهامي الوزاني عضوًا في وفد مدينة تطوان الذي حضر إلى مقر التشريفات الملكية بالرباط بتاريخ ٢٧ فبراير للتوقيع على نص البيعة للملك الجديد[١٠٧]. وفي سنة ١٩٧٢ انتخب رئيسًا للمجلس البلدي لتطوان[١٠٨]. وهكذا ظل التهامي الوزاني طيلة سبعين سنة من حياته رجلاً عصاميًا عمليًا نشيطًا، فكان متصوفًا ومثقفًا وصحفيًا وكاتبًا ومؤرخًا ومناضلاً وسياسيًا ومربيًا[١٠٩]، وبعد عمر حافل بالإنجازات والأعمال، توفي رحمه الله بتاريخ ٢٢ دجنبر ١٩٧٢م ببيته في درب شرفاء وزان ودفن به[١١٠].

ثالثًا: تراث التهامي الوزاني

وخلف التهامي الوزاني تراثًا فكريًا وأدبيًا وتاريخيًا مهمًا، حيث كان غزير الكتابة والإبداع، غير أن جل هذا التراث مازال مخطوطًا أو منشورًا على صفحات الجرائد، ومن أبرز هذه الكتابات[١١١]:

الكتب المطبوعة

- تاريخ المغرب، نشر سنة ١٩٤٠م في ثلاث أجزاء، عن مطبعة الريف.
- الزاوية، نشر سنة ١٩٤٢م بمطبعة الريف. أعاد عبد العزيز سعود طبعه سنة ٢٠٠٨.
- المغرب الجاهلي، طبع سنة ١٩٤٧م بمطبعة الريف.
- التاريخ العام للأطفال، طبع سنة ١٩٤٧م بمطبعة الريف.
- سليل الثقلين، نشر سنة ١٩٥٠م بمطبعة الريف. أعاد نشره إبراهيم الخطيب سنة ٢٠٠٠م.
- المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب، حققه محمد بن عزوز حكيم، ونشره ١٩٨٠م
- خمسون سنة في صحبة آل بنونة، نشره عبد القادر الخراز على صفحات جريدة الشمال ٢٠٠١م.
- مدرسة لوقش، في الأصل عبارة عن مقالات نشرت بمجلة الأنيس سنة ١٩٥٠م، أعادت نشرها نادية الرزيني في كتاب سنة ٢٠٠٢م.
- الرسالة الوزانية إلى محمد داود، نشرته حسناء داود سنة ٢٠١٨م.
- بين تطوان وجبل العلم، نشر بجريدة الحرية سنة ١٩٤٠م، تحقيق لطيفة الوزاني الطيبي، منشورات مكتبة سلمى الثقافية، ٢٠٢٣.
- مذكرات عن مؤسس الوطنية في المغرب، تحقيق عاهد ازحيمي، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، تحت الطبع.

الكتب المنشورة على صفحات الجرائد

- بين تطوان وجبل العلم، نشر بجريدة الحرية سنة ١٩٤٠م.
- طفولة النبي العربي، نشر بجريدة الحرية سنة ١٩٤٠م.
- رسالة حرب، قصة نشرت بجريدة الحرية سنة ١٩٤٠م.
- الإمبراطورية المغربية في السودان، نشر بجريدة الحرية سنة ١٩٤١م.
- القصر الكبير بين المغرب والأندلس، نشر بجريدة الحرية سنة ١٩٤١م.
- فوق الصهوات، نشر بجريدة الريف ما بين سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٤م.
- مستخلصات من سلة المهملات، نشر بجريدة الريف سنة ١٩٤٤م.
- الباقة النضرة، نشر بجريدة الريف ما بين سنتي ١٩٥٣ و١٩٥٤م.
- الرفرف، نشر بجريدة الريف خلال ١٩٥٣ و١٩٥٤ و١٩٥٥م

المخطوطات غير منشورة

- ملخص تاريخ العالم، العالم القديم، موجود بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- الأعلاق والأسوار، دفتر واحد يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- وركان، دفتر واحد يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- تفسير القرآن الكريم، في أربعة دفاتر، يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- الثورة الفرنسية، دفتر واحد يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- الرؤيا ١، مثبتة ضمنا الرسالة الوزانية الدفتر الثاني، يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- الرحلة الخاطفة، في ثلاث دفاتر الأول مفقود، والثاني والثالث بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- ترجمة ضون كيخوطي، لثيرفانطيس، في عشرة دفاتر توجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- مكب وسوي، دفتر واحد يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- العصر الجديد أو الشجرة المباركة، دفتر واحد يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- شرح الصلاة المشيشية، دفتر واحد يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- الوطنية المغربية في طورها الحاسم، دفتر واحد يوجد بالخزانة العامة والمحفوظات بتطوان.
- أحاديث المنتديات، في ثلاث دفاتر، يوجد بمكتبة ابن عزيز حكيم
- أفكار وحواطر، دفتر واحد، بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- أشتات، دفتر واحد، بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- الحرب الأهلية الإسبانية،في ثلاث دفاتر، بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- الحرب العالمية الثانية، ثلاث دفاتر، بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- الرؤيا ٢، مثبتة ضمن دفتر ملخص تاريخ المعاصر القديم.
- رسالة من أخ إلى أخيه، في دفترين بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- الليلة الفاصلة، دفتر واحد، بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- تراثنا الشعبي، عشرة دفاتر بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- مشروع تحرير المغرب بمساعدة ألمانيا، في دفترين بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- شمال المغرب في مواجهة العزو الايبيري، في دفترين بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- الشمال وجامعة القروين، دفتر واحد، بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- مذكرات يومية للتهامي الوزاني ما بين ١٩٢٨ و١٩٥٧م، في أربعة عشر دفترا، بمكتبة ابن عزوز حكيم.
- ترجمة ماروكوس، لطوماس غراثيا فيكيراس، في ١٢ دفتر بمكتبة ابن عزيز حكيم

- أم هانئ، دفتر واحد أشار إليه إبراهيم الخطيب في دراسة له حول التهامي الوزاني نشرها في كتاب تطوان على عهد الحماية.
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بتطوان في القرن العاشر هجري"، مفقود.
- اليغورية، مفقود
- أبناء النقسيس، دفتر واحد، مفقود
- العصف والريحان، دفتر واحد مفقود.
- ديوان شعر، مفقود

وإلى جانب هذه الأعمال المخطوطة والمطبوعة والمنشورة على صفحات الجرائد، نشر التهامي الوزاني مئات المقالات السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية والتاريخية(١١٢).

خَاتِمَةٌ

وختامًا نستخلص أن سقوط المغرب تحت الاستعمار في النصف الأول من القرن العشرين قارنه وجود نخبة وطنية مثقفة، واجهت هذا الاستعمار بمحاربة العوامل والأسباب الذاتية التي جعلت المغرب دولة ضعيفة قابلة للاستعمار، التي تجلت حسب هذه النخبة في الجهل والتخلف واعتماد أنشطة اقتصادية عتيقة وتقليدية وانغلاق المجتمع على العالم مما جعله لا يتأثر بالتطورات التي عرفها العالم.

هذا التصور للتحرر من الاستعمار الذي روج له رائد النهضة الوطنية بالمغرب الحاج عبد السلام، آمن به التهامي الوزاني وانخرط في المشروع النهضوي، وساهم فيه طيلة مرحلة الاستعمار بمختلف الوسائل، فلم تكن الحركة الوطنية بشمال المغرب تعقد لقاء أو تنظم نشاطًا إلا وكان اسم التهامي الوزاني حاضرًا فيه. ورغم هذا الحضور للتهامي الوزاني في صناعة أحداث القرن العشرين إلا أن الرجل لم ينل حقه في الكتابة التاريخية.

الإحالات المرجعية:

(١) ابن الحاج السلمي، محمد بن الفاطمي، **من أعلام المغرب الأقصى إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢. ص. ٧٧.

(٢) الوزاني، التهامي، **الزاوية**، مراجعة وتقديم السعود عبد العزيز، طبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠٠٨، ص.٧.

(٣) نفسه، ص.١٦.

(٤) نفسه، ص.٢٨.

(٥) الوزاني، التهامي، **الزاوية**، م.س، ص.٢٩.

(٦) خليفة، إدريس، **الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال ١٩١٢-١٩٥٦**، ج.١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٩٤م، ص.٥٨٦؛ الوزاني، التهامي، **الزاوية**، م.س، ص.٣١.

(٧) خليفة، إدريس، م.س، ص ٥٨٦.

(٨) ابن الحاج السلمي، م.س. ص. ٧٧.

(٩) الوزاني، التهامي، **"من قصة التعليم الديني"**، جريدة الريف، ع. ٢٩٢، ١٠ أبريل ١٩٤٢، ص. ١.

(١٠) نفسه، ص. ٧٨.

(١١) الوزاني، التهامي، **وصف زيارة الشيخ أبي شعيب الدكالي لمدينة تطوان**، ضمن كتاب: **رياض، محمد، شيخ الإسلام أبو شعيب الدكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح الوطنية مع ذكر ثلة من تلاميذه وآثاره**، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص. ٢٨٣.

(١٢) الوزاني، التهامي، **الزاوية**، ص. ٣٨.

(١٣) نفسه، ص. ٣٨.

(١٤) نفسه، ص. ٣٨.

(١٥) نفسه، ص. ٤٢-٤٣.

(١٦) نفسه، ص. ٤٤-٤٥.

(١٧) نفسه، ص. ٤٧.

(١٨) نفسه، ص. ٨١-٨٢-٨٣.

(١٩) خليفة، إدريس، م.س، ص ٥٨٦.

(٢٠) ابن يسف، سناء، **المقامات الإبداعية عند سيدي التهامي الوزاني شخصيته وإنتاجه**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠١٤، ص.١٢٧.

(٢١) نفسه، ص١٣٧.

(٢٢) خليفة إدريس، م.س، ص. ٥٩١.

(٢٣) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي من خلال الوثائق"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص. ٣.

(٢٤) محمد داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠١١. ص. ١٢٦.

(٢٥) نفسه، ص. ١٢٦.

(٢٦) الوزاني، التهامي، **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب**، دراسة وتحقيق ابن عزوز حكيم، محمد، الرباط، ١٩٨٠، ص. ١٢١.

(٢٧) ابن عزوز حكيم، محمد، **الحاج عبد السلام بنونة أب الحركة الوطنية المغربية حياته ونضاله**، ج. ١، الرباط، ١٩٨٧، صص.٤٠٤-٤٠٥.

(٢٨) الوزاني، التهامي، **المقاومة المسلحة والحركة الوطنية...**، م.س، ص. ١٢١.

(٢٩) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية المغربية ...**، ج. ١، م.س، صص.٤٠٦-٤٠٧.

(٣٠) ابن عزوز حكيم، محمد، **" سيدي التهامي الوزاني من المواقعين على برقيات الاحتاج ضد الظهير البربري"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص. ٥.

(٣١) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب أسبابها أهدافها نتائجها**، تطوان، ١٩٨٠، ص.٤٣.

(٣٢) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي يرأس حفلة استقبال على شرف الأمير شكيب أرسلان"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص. ٥.

(٣٣) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق سرية ...**، م.س، ص.٤٣.

(٣٤) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي الوزاني عضو في لجنة تحرير عريضة مطالب الأمة"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.٦.

(٣٥) بنونة، أبو بكير، **من أعلام تطوان الحاج عبد السلام بنونة**، ج. ٢، ملف إلكتروني مضغوط، ص. ٢٥.

(٣٦) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة...**،م.س، ج.٢، ص. ٣٢٣.

(٣٧) الوزاني التهامي، **مذكرات عن مؤسسي الوطنية في المغرب**، مخطوط بالخزانة العامة بتطوان، مخطوط بدون رقم، ويحمل رمز ع٦/٤١ بالمكتبة العامة والمحفوظات، بتطوان، ص. ٢٢.

(٣٨) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي الوزاني من مؤسسي الجمعية الخيرية الإسلامية"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.٨.

(٣٩) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب**، ج.١، مطبعة الشويخ، تطوان، ١٩٨٠، ص. ٢٢.

(٤٠) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي الوزاني كاتب الجماعة العلنية وعضو الجماعة السرية بالهيأة الوطنية "**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.٨.

(٤١) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق الحركة الوطنية ...**، م.س، ص. ٢٢.

(٤٢) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي عضو في لجنة التعليم العام "**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.٩.

(٤٣) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق الحركة الوطنية ...**، م.س، ص. ٢٢.

(٤٤) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي والذكرى الثانية للظهير البربري "**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص. ١٠.

(٤٥) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي الوزاني ينخرط في سلك الماسونية "**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.٨.

(٤٦) نقلاً عن: ابن يسف، سناء، **المقامات الإبداعية عند سيدي التهامي الوزاني شخصيته وإنتاجه**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠١٤، ص. ١٠٦-١٠٧.

(٤٧) نقلاً عن: ابن يسف، سناء، **المقامات الإبداعية ...**، م،س، ص. ١١٠-١١.

(٤٨) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي الوزاني عضو الهيأة التحضرية لنظام الحزب الإصلاح "**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.١١.

(٤٩) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي الوزاني وعيد العرش"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.١١.

(٥٠) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق الحركة الوطنية ...**، م.س، ص. ٣٠-٣٢.

(٥١) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي عضو في لجنة التعليم الحر "**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.١٢.

(٥٢) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق الحركة الوطنية ...**، م.س، ص. ٣٣

(٥٣) بن يجلون، عبد المجيد، دور **سيدي التهامي الوزاني في الحركة الوطنية بالمغرب الخيليفي**، ضمن كتاب: التهامي الوزاني الكتابة- التصوف- التاريخ، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٥٠.

(٥٤) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي رئيس تحرير جريدة الحياة"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.١٣.

(٥٥) ابن عزوز حكيم، محمد، **وثائق الحركة الوطنية ...**، م.س، ص. ٣٤.

(٥٦) نفسه، ص. ٣٦.

(٥٧) نفسه، ص. ٣٨.

(٥٨) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي وكيل كتلة العمل الوطني بشمال المغرب "**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.١٣.

(٥٩) ابن عزوز حكيم، محمد، **"سيدي التهامي يقوم بأول محاولة من أجل إنشاء مجلة عربية حرة"**، جريدة الحياة، عدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤، ص.١٣.

(٦٠) ابن يسف، سناء، **المقامات الإبداعية ...**، م،س، ص. ٨٢- ٨٣.

(٦١) ابن عزوز حكيم، محمد، **''رجل المواقف الحاسمة الذي قدم للحركة الوطنية في الشمال خدمة يسجلها له التاريخ**، ضمن أعمال ندوة: شخصية التهامي الوزاني ومساهمته الأدبية، ص. ٤٣.

(٦٢) ابن عزوز حكيم، محمد، **''سيدي التهامي الوزاني، يقدم للحركة الوطنية خدمة لن ينساها له التاريخ''**، جريدة الحياة، العدد ٨٦، ٢٢ دجنبر ١٩٩٤.

(٦٣) بن يجلون، عبد المجيد، **دور سيدي التهامي الوزاني في الحركة الوطنية...**، م،س، ص. ٥٢.

(٦٤) - بن جلون، عبد المجيد، **دور سيدي التهامي الوزاني ...**.، م.س، ص. ٥٢.

(٦٥) ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية لمشروع النهضة الوطنية** ١٩١٣-١٩٣٦م، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، القنيطيرة، ٢٠٢٠م، ص. ٥٠٠.

(٦٦) ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة ...**، م.س، ص. ٥١٠

(٦٧) ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة ...**، م.س، ص. ٥٠٧.

(٦٨) بنونة، أبو بكر، **وثائق حزب الإصلاح الوطني**، ملف إلكتروني مضغوط، المجموعة الأولى، ص. ١٣٢.

(٦٩) نفسه، ص. ١٤٠.

(٧٠) نفسه، ص. ٢٢٨.

(٧١) بنونة، أبو بكر، **وثائق حزب الإصلاح الوطني**، م.س، المجموعة الثانية، ص. ٣٣٥.

(٧٢) نفسه، ص. ٤٤٣- ٤٤٥.

(٧٣) ابن يسف، سناء، **المقامات الإبداعية ...**، م،س، ص. ٨٢.

(٧٤) نقلا عن: ابن يسف، سناء، **المقامات الإبداعية ...**، م،س، ص. ٨٢.

(٧٥) الخطيب، محمد، **الحركة الوطنية بشمال المغرب**، منشورات مجلة أمل، ٢٠٢٠، ص. ٢١٨.

(٧٦) **الرسالة الوزانية من سيدي التهامي الوزاني إلى محمد داود**، تقديم وتعليق حسناء محمد داود، مطبعة، شمس برينت الرباط، ٢٠١٨، ص. ١٥٩.

(٧٧) نفسه، ص. ١٥٩.

(٧٨) الخطيب، محمد، **الحركة الوطنية بشمال المغرب**، م، س، ص. ٢١٨.

(٧٩) **الرسالة الوزانية...**، م، س، ص. ١٥٠.

(٨٠) بنونة، أبوبكر، **من أعلام تطوان الحاج امحمد بنونة**، ملف إلكتروني مضغوط،ج. ٢، ص. ٢٧٠.

(٨١) قال محمد داود: "**علمت أن التهامي الوزاني وح مَحمد بنونة وعبد الله البقالي كانوا بالريسونية ولم يخرجوا للمظاهرة**"، أنظر: داود، حسناء، **على رأس الثمانيين**، م، س، ص. ٢٢٩.

(٨٢) نفسه، ص. ٢٢٩- ٢٣٠.

(٨٣) بنونة، أبوبكر، **من أعلام تطوان الحاج امحمد بنونة**، م، س، ج. ٢، ص. ٢٧٠.

(٨٤) نفسه، ص. ٢٩٤.

(٨٥) نفسه، ص. ٢٩٥.

(٨٦) نفسه، ص. ٢٨١.

(٨٧) نفسه، ص. ٢٨٩.

(٨٨) نفسه، ص. ٢٩٢- ٢٩٤

(٨٩) بنونة، أبو بكر، **محاضر حزب الإصلاح الوطني**، م،س، ج. ١٨، ص. ٣٢١٢.

(٩٠) بنونة، أبو بكر، **من أعلام تطوان الحاج امحمد بنونة**، م،س، ج. ٢ ، ص. ٢٩٦- ٢٩٧.

(٩١) بن يجلون، عبد المجيد، دور **سيدي التهامي الوزاني...**، م، س، ص. ٥٤.

(٩٢) **رحلة موفقة**، جريدة الريف، ع. ٥٨٢، ٣١ أكتوبر ١٩٤٨، ص. ٤.

(٩٣) عزيمان، **محمد**، **شهادة رفيق**، ضمن أعمال ندوة الكتابة التصوف والتاريخ، ص. ١٤.

(٩٤) نفسه، ص. ١٤.

(٩٥) **الرسالة الوزانية...**، م.س، صص. ١٦٣-١٦٤.

(٩٦) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، م.س، ص. ٢٣٥.

(٩٧) نفسه، ص. ٢٣٥.

(٩٨) ملينة، انتصار، **التهامي الوزاني: بيبليوغرافية صفية**، ضمن أعمال ندوة: شخصية التهامي الوزاني ومساهمته الفكرية، ص. ٩١- ١٢٤.

(٩٩) الوزاني، عبد الله، **كلمة العائلة**، ضمن أعمال ندوة التهامي الوزاني الكتابة التصوف والتاريخ، ص. ٤.

(١٠٠) عزيمان، محمد، **شهادة رفيق**، م.س، ص١٦.

(١٠١) الوزاني، عبد الله، م. س، ص. ٤.

(١٠٢) عزيمان، محمد، **شهادة رفيق**، م. س، ص١٦.

(١٠٣) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، م. س، صص. ٢٦١-٢٦٢.

(١٠٤) الناصر، عبد الغافور، **سيدي التهامي الوزاني كما عرفته**، ضمن أعمال ندوة: شخصية التهامي الوزاني ومساهمته الفكرية، ص. ١١.

(١٠٥) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، م.س، ص. ٢٧٩.

(١٠٦) خليفة، إدريس، **الحركة العلمية والثقافية بتطوان...**، م. س، ج. ١، ص. ٥٨٨.

(١٠٧) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، م.س، ص. ٢٨٢.

(١٠٨) خليفة، إدريس، **الحركة العلمية والثقافية بتطوان**، م. س، ج. ١، ص. ٥٨٨.

(١٠٩) الخطيب، إبراهيم، **صورة رجل نهضة**، ضمن كتاب: التهامي الوزاني الكتابة- التصوف- التاريخ، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٣.

(١١٠) بربيش، حسن؛ المسيري محمد البشير، **رجال من تطوان**، منشورات تطاون أسمير، ص. ٥٦.

(١١١) اعتمدت في هذه البيبليوغرافيا على: ابن يسف، سناء، **المقامات الإبداعية ...**، م،س، ص. ٤٤١- ٤٤٩؛ السعود، عبد العزيز، **تقديم كتاب الزاوية**، م.س، ص. ٩-١٠؛ ملينة، انتصار، **التهامي الوزاني: بيبليوعرافية وصفية**، م.س، ص. ٩٠- ١٢٤.

(١١٢) ملينة، انتصار، **التهامي الوزاني: بيبليوعرافية وصفية**، م.س، ص. ٩٠- ١٢٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الماء والأحوال الصحية بأطلس مراكش
خلال فترة الحماية الفرنسية بالمغرب



المصطفى العياطي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث دكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

مُلَخَّص

يلعب الماء دورًا أساسيًا في حياة البشر، ليس من حيث أهمية هذه المادة في مجال الزراعة وتربية الماشية فحسب، وإنما لما له من دور حاسم في سلامة الصحة لدى الأفراد والجماعات. فإذا كان الماء متوفرًا وذا نوعية جيدة، فإن ذلك ينعكس بالإيجاب على الصحة العامة، أما إذا كان في وضعية رديئة فإنه يتحول الى مصدر للأمراض والأوبئة وبالتالي هلاك الإنسان. ذلك ما لم يستوعبه المغاربة في العصور السابقة، بالنظر الى جهلهم وتدني الثقافة الوقائية والصحية لديهم. إن تاريخ المغرب الصحي حافل بالأحداث والوقائع المأساوية التي سببها استعمال الماء الملوث في الشرب أو الاستحمام، أو بسبب افتقاد الماء زمن القحوط والمساغب، التي كانت تتعاقب على هذا البلد بشكل دوري. سنتناول ضمن هذا البحث دراسة أخطار الماء الصحية في المناطق الجبلية المغربية من خلال حالة أطلس مراكش خلال فترة الحماية الفرنسية، كما أننا سنتطرق لجوانب من الإجراءات العلاجية والوقائية التي اتخذها المستعمرون الفرنسيون في هذه الربوع الجبلية من التراب المغربي، مع رصد بعض ردود أفعال الجبليين إزاء الأنماط العلاجية الجديدة التي أقحمها الأطباء الكولونياليين في هذا المجال. وقد توصلت الدراسة إلى أن السفوح الشمالية لجبال أطلس مراكش لم تكن بمنآي عن الأمراض والأوبئة ذات المصدر المائي. ذلك أن طبغرافية وهيدروغرافية هذا المجال الاستثنائي لم تمنع من أن تعاني ساكنة الجبل كذلك من العلل والأسقام التي تنجم عن افتقاد الماء زمن الجفاف أو عن تلوث وسوء استخداماته زمن الوفرة، كما هو الحال في المجالات السهلية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٤	أبريل	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الماء؛ أطلس مراكش؛ الأوبئة المائية؛ الطب الكولونيالي؛ الحماية الفرنسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.284899.1127 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

المصطفى العياطي, "الماء والأحوال الصحية بأطلس مراكش خلال فترة الحماية الفرنسية بالمغرب".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٤٣ – ١٦١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: elayaty.elmostafa@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةٌ

قبل أن يشكل الماء إلى جانب الأرض قاعدة للإنتاج الاقتصادي والغنى الاجتماعي، وسببًا من أسباب الاستقرار، فهو مادة للشرب والتطهير قبل كل شيء، بل أن الماء نفسه "يعتبر من الأدوية الناجعة، والعلاجات الشافية، فهو نافع في معالجة أكثرية الأمراض التي تعتري الناس".[١] غير أن الماء كمادة حيوية، يمكن أن ينعكس وجودها وهي في حالة الوفرة والنقاء وسلامة الاستعمال بالإيجاب على صحة الإنسان، كما يمكن أن تتحول في حالة الندرة الى مصدر رئيسي للمتاعب الصحية والوقائية، على المستوى الفردي والجماعي.

قبل فترة الحماية الفرنسية لم تكن لدى ساكنة السفوح الشمالية لأطلس مراكش-شأنهم في ذلك شأن باقي المغاربة-ثقافة وقائية، تستند الى فكرة أن الماء يحتوي على كائنات مجهرية، أو على بعض الحشرات التي قد تفتك بهم في حالة تناولهم إياه، أو أنه يمكن أن يكون في حالة كيميائية تسبب لهم أمراض جلدية عند استخدامهم له في الاستحمام والتطهير. نتكلم هنا عن الماء وعلاقته المباشرة بانتشار الأمراض والأوبئة، دون أن نغفل ما كان لندرة الماء وقلته من دور غير مباشر في تراجع الصحة العامة لدى المجتمع الجبلي، على اعتبار أن هناك علاقات سببية تربط بين الماء والغداء والصحة. ففي قلة الماء وانحباس المطر قلة للأقوات واختفاء للغذاء، الأمر الذي ينعكس على سلامة الأجساد ومناعتها أمام العلل والأسقام. فماهي إذن الأمراض التي كان يسببها الماء بفضاء أطلس مراكش؟ وكيف كانت ساكنة هذا الفضاء تعالج هذه الأمراض؟ وهل يمكن الحديث عن أمراض مخصوصة بهذا الوسط الجبلي دون غيره من المجالات المغربية الأخرى؟ وماهي الإجراءات الكولونيالية التي اعتمدت بمجال أطلس مراكش في علاج العلل والأمراض التي كان الماء مصدرا لها؟

أولاً: أطلس مراكش (الطوبونيم والتوطين)

يجرنا البحث عن معنى وجذور طوبونيم "أطلس" الى إجراء إطلالة وجيزة عن التاريخ القديم لجبال الأطلس وتتبع تداول هذه اللفظة ضمن المنتوجين الإغريقي والروماني. فبحكم امتدادها وتكتلها وارتفاعها فقد استرعت هذه الجبال انتباه عدد غير قليل من الكتاب القدامى الذين تناولوها بالذكر عن طريق الرواية أو عاينوها ووصفوها من حيث طبغرافيتها ومميزاتها الطبيعية ومعتقدات ساكنتها المستقرة. وهكذا نجد أن هيرودوت [Hérodote] الإغريقي (القرن الخامس قبل الميلاد) قد ألمح الى هذه الجبال ووصفها دون أن يسميها، بينما ذكرها سطرابون [Strabon] (القرن الأول الميلادي) اسميا بالرواية عمن سبقوه في كتابه: "الجغرافية"، بقوله: "بعد اجتياز أعمدة هرقل، نجد جبلا يدعوه الإغريقيون أطلس والأهالي يسمونه [Dyres]..."[٢]. علما أنه كان يعني بذلك " سلسلة جبال الريف المغربية"[٣]. إلا أنه مع كتاب رومانيين آخرين مثل بومبونيوس ميلاً [Pompius Mila] (حوالي سنة 40 للميلاد) وبلينيوس الشيخ [Pline l'Ancien] (القرن الأول للميلاد) والجغرافي بطوليمايوس[Ptolemaius] (القرن الثاني للميلاد) والكاتب بوسانياس[Pausanias] (القرن الثاني للميلاد) بدأ يتضح التوطين الصحيح للأطلس ضمن جغرافيا موريطانيا، بل" أن الملك يوبا الثاني (25قبل الميلاد-23 للميلاد)-حسب بلينيوس الشيخ- ذهب أبعد من ذلك حين اعتبر أن الأطلس منبع مياه للنيل بعد أن بحث في الموضوع ، وقد سار على نفس ما ذهب إليه كتاب رومانيون آخرون مثل دون كاسيوس[Dion Cassius] في القرن الميلادي الثالث وبول اوروسيوس[Paul Orosius] في القرن الميلادي الخامس"[٤].

لعل أفيد إشارة تساعدنا في اكتشاف معنى كلمة "أطلس" هي تلك التي أوردها ديودور الصقلي [Diodor de Sicile] (القرن الأول قبل الميلاد) حيث استند فيما ذهب إليه الى اسطورة الملك المسمى "أطلس" الذي حكم المنطقة الغربية المحاذية للمحيط ضمن تراب ليبيا، ومنه تسمى رعاياه بالأطلسيين وكذا البحر المحيط بالأطلسي. وتقول هذه الأسطورة بأن الملك أطلس كان له أبناء وبنات" وقد حدث أن واحدًا من أبناء "أطلس" المدعو هيسبيروس[Hésperos] كان ذات يوم فوق قمة جبل الأطلس، يلاحظ حركة النجوم فعصفت به الرياح واختفى إلى الأبد"، كما تحدثت نفس الأسطورة عن"

بنات الملك السبعة" التي تلقب بالاطلنتيدات [Atlantides] نسبة الى والدهن أو بالهسبيريدات [Hésperides] نسبة الى والدتهن [Héspéris]."[٥]

أما تسمية أطلس مراكش فلم تأت في سياق التقسيم الإداري أو الجيولوجي للمغرب أو حتى للدلالة على خصوصيات مجال معين من الناحية الإثنية، بل هي تسمية مركبة بدأ صداها يتردد في كتابات الأجانب طيلة القرن التاسع عشر، القصد منها هو توطين الجبال القريبة والمطلة على مدينة مراكش بشكل مباشر، دون تحديد دقيق لأبعاد وحدود المجال الجغرافي الذي تشكله هذه المدينة مع هذه الجبال. إنه مجال تاريخي يتوسع ويتقلص بحسب نفوذ المدينة على ظهيرها الجبلي، ويمكننا أيضًا أن نختزل مجال أطلس مراكش من زاوية ديمغرافية، على أنه تلك المناطق الجبلية التي ظلت ساكنتها عبر التاريخ تجمعها بمدينة مراكش أواصر اقتصادية وإدارية واجتماعية مباشرة.

يسمى أطلس مراكش أيضًا بجبال مراكش[٦]، بالنظر الى قربها وارتباطها العضوي بهذه المدينة منذ ألف سنة خلت، مما جعل لهذا الارتباط أبعادًا اقتصادية (تدفق المنتوجات الجبلية الى الأسواق الحضرية بالمدينة) وأبعادا ديمغرافية واجتماعية (التراقص اليومي وهجرة اليد العاملة الجبلية بحثا عن العمل وقضاء الأغراض الإدارية بالمدينة). يمارس أطلس مراكش نفوذه وتأثيره على عدد من القبائل الجبلية والديرية[٧] المتباينة طبيعيا وتضاريسيا وديمغرافيا، وكلها مجالات تخترقها أودية بشكل اتجاهها فضاء متواصلا بين البلد الأعلى والدير[٨]. وقد وردت تسمية أطلس مراكش ضمن عناوين لكتب عربية وأجنبية رحلية ودراسية، تناولت المغرب من زوايا متعددة: جيولوجيًا ومعدنيًا، وتاريخيًا، واقتصاديا، وسياسيا. وستأخذ هذه التسمية مكانتها المتميزة لاحقا بين دفوف الدلائل الاشهارية لمدينة مراكش في القطاع السياحي، لما تزخر به هذه المدينة بمعية جبالها القريبة من معطيات سياحية استثنائية.

ثانيًا: كشف عام للأمراض والأوبئة المائية بـأطلس مـراكش وأشـكال التـدخل الكولونيالي

٢/١-الأمـراض والأوبئـة المائيـة بالسـفوح الشمالية لأطلس مراكش

يقصد بالأمراض المائية التي ستشكل موضوع هذه الدراسة -من حيث كيفية معالجتها من طرف الفرنسيين في جبال أطلس مراكش والمناطق المحاذية لها -تلك التي عرفها الأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله بأسلوبه الخاص على أنها "مجموع الظاهرات المرضية والفيزيولوجية المتسببة عن جسم حي بعد شرب ماء ملوث بعناصر كيميائية سامة، أو بعد استعماله للنظافة الخاصة"[٩]. لم تكن هذه الأمراض بأطلس مراكش تحمل أسماءها العلمية، التي وردت بها ضمن متون الرحلات والدراسات والتقارير الأجنبية، وإنما كانت تتداول بأسماء أمازيغية محلية تعارفت عليها الساكنة. لم نعثر -في إطار البحث البيبليوغرافي والوثائقي -عن إحصاءات أو معطيات يمكن الاستئناس بها في محاولة تحديد مساحة انتشار هذا النوع من الأسقام بمجال أطلس مراكش، ولذلك سنكتفي بالحديث -على سبيل التعميم – عن مديات انتشارها أو انحسارها، مرجحين أن تكون الأماكن الموبوءة واقعة ضمن شعاع المصادر والمنشآت المائية، مثل الفضاءات الموجودة على طول الأودية والمجاري، والسواقي والخطارات والنطفيات والأحواض وغيرها.

وتفيد أخبار كثيرة أن حدة اليأس التي كان يعيشها السكان بهذا المجال من فضاء تشلحيت، زمن الأمراض والأوبئة التي يكون الماء مصدرًا لها، جعلتهم يخصوا الأولياء والصلحاء بعلاجها، وذهب بهم اعتقادهم إلى أن خصوا كل ولي بعلاج مرض معين أو مجموعة معلومة من الأمراض-كما لو كان هؤلاء الأولياء اختصاصيين مثل الأطباء[١٠] – وأشاعوا ذلك بكل الأرجاء والأصقاع، قريبها وبعيدها. فما هي طرق العلاج وأساليبه للقضاء على الأمراض المائية بفضاء أطلس مراكش على عهد الحماية الفرنسية؟ وماهي ردة فعل السكان إزاء هذه الأنماط العلاجية الجديدة؟

للإجابة عن هذه الأسئلة حاولنا أن نصنف الأمراض والأوبئة المائية بمجال أطلس مراكش -لدواعي منهجية - إلى ثلاثة أنواع:

- أمراض وأوبئة تسببها قلة الماء، بمعنى الجفاف المفضي الى المجاعة.
- أمراض وأوبئة يسببها الماء الملوث عند الشرب.
- أمراض يسببها الماء عند التطهير والاستحمام.

ولا ينبغي أن يفهم أنه حين يتفشى صنف معين من هذه الأمراض والأوبئة، يكون الصنف الأخر غير موجود، لقد أفادنا البحث البيبليوغرافي بأن كل الأصناف تكون موجودة في هذا المجال، فقط أنها تتباين من حيث درجة استفحالها وكذا من حيث نسبة ما تخلفه من ضحايا ضمن العدد الإجمالي للوفيات. أيضًا تتباين هذه الأصناف في مجال اطلس مراكش الاستثنائي بالنظر الى نوعية المياه وشروط استعمالها (مياه العيون، مياه المجاري، مياه الآبار، مياه الخطارات، مياه النطفيات، مياه البحيرات والضايات...) وكلها مياه موجودة بالمجال المدروس، ولربما تكون خريطة المياه الفاسدة هي نفسها خريطة انتشار الأمراض والأوبئة في مجال اطلس مراكش، فانتشر التيفوس في مكان، والحمى الخبيثة في مكان ، والطاعون في مكان ، والجذري والبلهارسيا في مكان آخر، فرغم أن كل هذه الأسقام نشأت محليًا عن تناول المياه الفاسدة، لكننا لم نتمكن من توطين بؤر انتشارها، إذا ما أقحمنا عوامل أخرى تتصل بالتراقص البشري بين مدينة مراكش و جبال الأطلس أو بين أكدال وأزغار اذا ما تحدثنا عن الانتجاع السنوي.

(٢/١) ١-الأمراض الوبائية المتصلة بندرة الماء

نقصد بها الكوليرا والطاعون والجدري والحمى الصفراء والتيفوس الطفيلي [exanthématique Typhus]، كانت كل هذه الأمراض مجتمعة تضرب المناطق الجبلية بأطلس مراكش بنسب متفاوتة، غير أننا سنركز على أخطرها وأكثرها انتشارًا وهو التيفوس، ذلك المرض الوبائي الذي يستفحل بالتزامن مع فترات الجفاف وقلة الماء في المجاري مما كان يفضي الى المجاعة واستفحال مظاهر البؤس والقذارة. سنولي هذا المرض الاهتمام على اعتبار أن" التيفوس لديه تشابه كبير مع الطاعون، يتميز بالنمشات والعطش الشديد، ونفس الحجاب السميك الذي يخفي سبب الكوليرا عن أعين الأطباء، يخفي عنهم أيضًا سبب التيفوس.

التيفوس **[Typhus]**: ويرجع هذا المرض(...) إلى استعمال المياه الفاسدة في الشرب"[١١]. من أعراض هذا الوباء ارتفاع في درجة حرارة الجسم وحالة الإغماء وظهور طفح أو بقع حمراء على الجلد، تنتقل جراثيم عدواه بواسطة القمل "تيليت"[١٢]على وجه الخصوص، دون التهوين من وسائط أخرى مثل البرغوث "إوردان"[١٣] والصؤاب[١٤] "إيوطن"، التي تغزو الأشخاص نتيجة لسوء نظافة الأجساد والألبسة، وتدني الحالة الاجتماعية والاقتصادية والاستقرار في أماكنة ضيقة ومزدحمة. تتكون هذه الطفيليات أيضًا بسبب عدم تغيير الملابس والاكتفاء بلباس واحد يستعمل في الليل والنهار ولمدة طويلة، ويعاني المصابون جراء ذلك بحكة شديدة. وتنتقل هذه الحشرات الصغيرة غير المجنحة من شخص الى آخر بسهولة عن طريق مشاركة الملابس والأشياء الشخصية كالأمشاط والقبعات وغير ذلك.

تفشى هذا المرض على نطاق واسع في القبائل الجبلية بأطلس مراكش كما في قبائل الدير المتصل به. تسببه بكتيريا الركيتسيا [Rickettsia] [١٥]التي بدورها تنشأ عن القذارة وتراجع النظافة في وسط مكتظ تغيب فيه تقنيات التطهير والصرف الصحي، التي كانت تتم بواسطة مطامير[Fosses septiques] ، وكلها شروط تتوفر في القرى والدواوير الجبلية حيث استفحال السكن المتجمع المتصلة منازله بعضها ببعض المعروف بـ "إغرم" . يزيد من وتيرة استفحال هذا الوباء على أوسع نطاق تدهور الأجساد وافتقادها للمناعة بسبب الجوع ، فهو مرض الخصاص والبؤس بامتياز، حيث لاحظ الطبيب بول شاتينيير [Paul chatiniéres] وجود هذا المرض أثناء جولته على رأس الوحدة الصحية المتنقلة من مراكش الى مرتفعات الأطلس الغربي ما بين 1912و 1914، واقترح أنداك سلسلة من الإجراءات الصارمة لعزل وحرق جميع الأشياء الملوثة كما فرض التطعيمات المضادة[١٦]، وهي إجراءات اصطدم تنفيذها بمقاومة من سكان الجبال بسبب جهلهم وقناعتهم بأن لا شيء يمكن أن يمنع المرض الذي يرسله الله لهم "فهو

مكتوب"، لأنهم لا يستوعبون الدور الوقائي للنظافة الأوروبية[١٧].

ويعتبر التيفوس من الأمراض المستوطنة أي تلك التي تبدوانها قد اختفت تماماً، لكنها سرعان ما تعود حين تتوفر بعض الشروط كعودة مظاهر البؤس الناجمة أساساً عن شح المياه، فتستعيد على الفور ضراوتها في شكل وباء، يؤدي الى الفتك بأعداد كبيرة من الجبليين ، وهذا ما حدث بهذه الجبال طيلة الثلث الأول من القرن العشرين، حتى سميت تلك الأعوام بـ "عام التوفيس" والتي ما تزال آثارها عالقة في أذهان عدد ممن التقيناهم واستفتيناهم من مسني ومسنات تلك المناطق، من فرط ما شاهدوا –بأم أعينهم –من الجثث من مختلف الأعمار تتساقط صريعة في كل مكان: على الطرقات في الحقول في الأسواق، أثناء جني الزيتون في المساجد، وفي الأزقة بالعشرات كل يوم.

(٢/١) ٢-الامراض المتصلة بثلوث مياه الشرب الأوبئة الحمية

نقصد بالأمراض الحمية أو الحميات مرض التيفويد [Typhoïde]ومرض حمى المستنقعات [Paludisme]، والحمى الراجعة (الحمى المتقطعة) [La fièvre récurrente]. يعرف مرض التيفوئيد في اغلب قبائل أطلس مراكش بـ "تمضونت" أو" تاولا" و"ترغى"، ويسمى عند عامة المناطق الناطقة بالدارجة العربية بـ"المكلفة" أو "السالمة" أو "القرينة". ينجم هذا المرض بالأساس عن تناول المياه الراكدة، الملوثة بالضايات والبحيرات والكلثات أو بالآبار وبالنطفيات وكذا الخطارات، التي تظل مثاباتها وفتحاتها مشرعة أمام كل أنواع القذارات الأدمية والحيوانية، كما ينتج هذا المرض عن تناول الخضروات والفواكه الملوثة. ذلك أن، حمى هذا المرض كانت تخلف الكثير من الضحايا بالأطلس الكبير الغربي خلال فصل الصيف من كل سنة بسبب تناول الأطعمة بدون غسل اليدين وكذا بدون غسل الفواكه".[١٨] يشعر الشخص المصاب بجرثومة التيفويد " بالألم في الرأس، والشعور بالوهن، وانقباض الصدر والأرق، وارتفاع درجة الحرارة أثناء الليل وانخفاضها في الصباح، بالإضافة إلى الهذيان، وانقباض العضلات، وكذا شدة العطش وتبدل لون اللسان"[١٩]. وعلى الرغم من حرص الجبليين على تصفية[٢٠]ماء الشرب قبل شربه باستعمال الأقمشة، فإن هذه الأخيرة لا تسهم في التخلص سوى من الشوائب المرئية بالعين المجردة فقط، مثل: عيدان القش وأوراق النباتات والطحالب والحصيات الصغيرة، وبعض الحشرات الدقيقة بنية اللون المعروفة بـ"الزغلال"[٢١].

لم تكن عملية التصفية تلك لتحول دون بقاء الكائنات المجهرية بالماء خصوصاً الكائنات الغائطية والروثية [les colibacilles]، التي لم تكن الساكنة على دراية أصلا بوجودها. مع العلم أن مياه العيون الجارية هي الأخرى تتعرض للتلوث، على الرغم من خروجها نقية من منابعها[٢٢]، حيث تعلق بها القاذورات والكائنات الميكروبية الناجمة عن الطحالب السامة وعن الكائنات الحية التي ترتع بمجاريها كالضفادع والسلاحف والهوام البرمائية صغيرة الأحجام. ومعلوم أن سكان بعض الهضاب المنخفضة والديرية من الأطلس المراكشي – حيث يستغل الناس في الشرب مياه النطفيات" تينوضفيين" والآبار والأحواض المائية المعروفة ب"تيفروين"– قد دأبوا منذ القديم على استعمال أساليب أخرى في تنقية الماء، ومنها جلب نوع من اسماك وادي نفيس وتاساوت ورميها بتلك المنشآت حيث "تتكفل" بالتقاط الكائنات الحية الصغيرة ،أو رمي كميات من رماد الحطب "إيغد" بها كطريقة متعارف عليها في تنقية الماء وتخليصه من الكائنات الحية[٢٣]، كما اعتادت فئة منهم على "خلط القطران مع الماء حيث يعمل على تنقيته[٢٤]، ولو أن في واقع الأمر كانت غالبية هؤلاء السكان يساهمون عن جهل في تلويث ماء شربهم، عن طريق غسل ملابسهم وتطهير أجسادهم فيها أو بالقرب منها، بل وتعويم أحصنتهم بحريمها.

فيما يتعلق بالحمى الراجعة و"هي من الحميات التي تنتاب الإنسان وتتميز بارتفاع مفاجئ في درجات الحرارة لديه لعدة أيام قد تصل إلى أسبوع ثم تنخفض الحرارة لتعود مرة أخرى إلى الارتفاع، لذلك أطلق عليها اسم الحمى الراجعة"[٢٥]. وهي أعظم الحميات خطراً، حيث سمتها بعض كتب الطب التقليدي بـ"حمى الغب وهي التي تغيب يومًا وتنوب يومًا"[٢٦]، فهي متقطعة.

أما المرض الأخير فهو حمى المستنقعات [Paludisme][٢٧]: يسمى عند السكان الجبليين بـ "تويكات" ويعرف أيضًا بينهم بمرض "البرد" و"السخانة". لقد أثبتت الدراسات الصحية الحديثة بأن نوعان من بعوضة الملاريا المعروفة باسم أنوفيل[Anophèle] وهما A.claviger وA.hispaniola يمكن أن تعيشا على ارتفاع يزيد عن ٢٠٠٠ متر في المناطق المغطاة بالثلوج لفترة طويلة وينقلان مرض الملاريا الحاد هناك[٢٨]، وإن كانت "السهول المنخفضة والمستنقعية والأودية أكثر تضررًا من الجبال"[٢٩]. ذلك أن ما يدعم هذه الخلاصات العلمية هو توفر الشروط المساعدة على توالد وتكاثر الحشرة الناقلة لهذا المرض، وهي التي تنتعش بالأساس بالمسطحات المائية – وما أكثرها بفضاء أطلس مراكش خلال الفصول المطيرة- بحيث " تضع البعوضة بيضها في الماء فيتحول إلى يرقات تلد بدورها بعوضا مكتمل النماء ،ومنذ البدايات الأولى لارتفاع حرارة الشمس تتطور اليرقات -بشكل كبير -في المياه الهادئة المعشوشبة والصافية، التي تكون على حافة البرك والبحيرات والمستنقعات ، وكذا بالتيارات ذات الضفاف المنبسطة ، حيث الجريان البطيء خلال فترات الجفاف أو في فصلي الربيع والصيف"[٣٠]. ولأن مثل هذه الأماكن كثيرة جدًا بالمجال الأطلسي كما أسلفنا، فهي توفر مرتعًا مفضلاً للبعوض، الذي يساهم في انتشار الوباء على نطاق واسع. يصيب هذا المرض المرء بنوبات من الحمى الشديدة ويزيد من حجم الطحال لديه، لدرجة تجعله يحتل أكثر من نصف جسمه، ليصاب بهزال شديد ويصفر وجهه ويعجز عن الحركة ليموت في النهاية.[٣١]

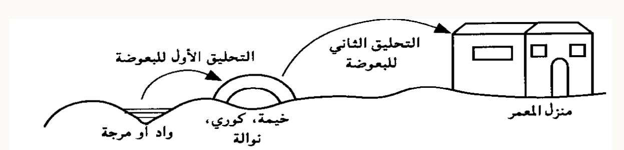
سيتم تداول مرض الملاريا باسمه العلمي ببعض المناطق من أطلس مراكش زمن فترة الحماية، في سياق التقارير الدورية، التي كانت تنجزها مكاتب الشؤون الأهلية بالمراكز التابعة لقيادة ناحية مراكش. وهذا لا يعني أن هذا الوباء المائي لم يكن يضرب تلك المناطق خلال الأزمنة السابقة عن فترة فرض الحماية، خاصةً وأنه وباء مرتبط بشروط موضوعية كانت متوفرة في بيئات متعددة بهذا المجال. ذلك ما أومأ إليه الرعيل الأول من المستكشفين الأجانب الذين جالوا بربوع السفوح الشمالية لأطلس مراكش ومنهم بول شاتينيير [Paul Chatiniéres] وادمون دوتي [Edmond Doutté] حيث ذكر هذا الأخير أنه: "من المحتمل أن كمية المياه الكبيرة وخصوبة التربة تسببان العديد من حالات الإصابة بالملاريا، وقد شهدنا هذا المساء عددا قليلاً من الأشخاص المصابين بالحمى."[٣٢]

لم نتمكن من العثور على معطيات إحصائية يمكن الاستئناس بها حول مدى انتشار هذه الحمى المعدية بقبائل أطلس مراكش، ولا حتى على مجرد إشارات تفيدنا عن دوائر استفحالها بمناطق معينة دون أخرى. لكن جداول إحصائية إجمالية أنجزتها السلطات الصحية الاستعمارية حول مدينة مراكش وأحوازها ورد بها ذكر هذا المرض، مما يجعلنا نرجح أن تكون للسفوح الشمالية للأطلس الكبير الغربي -التي ترتبط بهذه المدينة ديمغرافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا-حصتها كذلك من هذا المرض، إما موضعيًا كما أسلفنا أو كنتيجة لتراقص المنتجعين وممتهني العطارة المتجولين، أو عبر أشخاص موبوئين هاربين في اتجاه المرتفعات بحثا عن طوق النجاة من الأوبئة، التي كانت تضرب المدينة وضواحيها.

لم تكن لدى الساكنة ثقافة صحية تجعلهم قادرين على الفصل بين الحميات الثلاث، نظرًا لتشابه أعراضها خصوصًا فيما يتعلق بارتفاع درجة الحرارة في أجساد المصابين، لذلك تجدهم يطلقون اسم "تاوالا" على كل الأصناف. وسواء تعلق الأمر بحمى التيفويد أو حمى المستنقعات أو الحمى المتقطعة، فقد تعودت ساكنة أطلس مراكش منذ زمن بعيد —حتى ما قبيل فترة الاستعمار-على علاج داء الحمى باستخدام أدوية تقليدية طبيعة وبسيطة، منها ما يعرف ب "اللبيخة"[٣٣] وهو خليط مكون من نباتات معروفة: "تيرلين"[٣٤] و"غاغالس " أو"لمخينزة" واليقطين الأخضر (السلاوي) مع قليل من عصير الحامض أو الخل البلدي ، تدهن به جبهة المريض ويشد الى رأسه بواسطة قطعة قماش، كما يستعمل البعض البصل بوضعه في أسفل القدمين. أما العلاج من حمى المستنقعات الفتاكة -التي ظل عموم المغاربة ومن ضمنهم أهل الجبال "يعتبرون المصاب بها "مضروبًا على الما" أو به مس من الأرواح الشريرة التي

تسكن الماء.."[٣٥]- فقد كانوا يقاومونها باللجوء الى أضرحة الأولياء والصلحاء خصوصا تلك التي ترتبط بعيون الماء[٣٦]، ومنها القبور المهملة والجثوات المشهورة مجهولة الاسم سوى بنوع المرض الذي يعالج بها. يتم شرب ماء العيون المحاذية لهذه الأضرحة أو الاغتسال به، في أوقات معلومة من أيام معينة ووفق برنامج محدد، غالبا ما كان يحدده مقدم الضريح. فمثلاً، من طقوس علاج الحمى بضريح سيدي شمهروش الذي يزوره المحمومون القادمون بأعداد كبيرة من وادي نفيس، قضاء ثلاث ليال متتالية بكهف مجاور لـ "كلثة" مائية[٣٧].

يصيب هذا المرض الأطفال والشيوخ خلال الفصول المطيرة، وبالأخص ما بين شهري ماي ونونبر، وهو من الأمراض التي تعطل العمل الفلاحي وتؤثر على دورة الإنتاج الاقتصادي لذلك، كان إصرار السلطات الصحية كبيرًا من اجل حماية المعمرين. ولأن الملاريا غير موجود في الطبيعة، سواء في الماء أو التراب أو الهواء أو الغطاء النباتي -كما يمكن أن يعتقد كثيرون- ولأنه موجود فقط في دم المرضى المصابين بالملاريا في شكل طفيليات تدعى الهيماتوزوير [Hematozoires] التي تكون مثبتة في الكريات الحمراء، وأن البعوض هو الناقل لهذا المرض بين الأشخاص، لذلك فإن جهود مصلحة الصحة التابعة لسلطات الحماية تكرست لأجل القضاء عليه على مستويين أساسيين: "إزالة الهيماتوزوير من دم المرضى و القضاء على البعوض الناقل ، فذلك هو الحل الأمثل الذي من شأنه أن يؤدي إلى اختفاء الملاريا".[٣٨] اعتبر الفرنسيون هذا الوباء عدو الاستيطان والمعرقل الأول لمباشرة عملية الاستغلال الفلاحي، خصوصًا وأن أساليب الري المحلي في اغواطيم وسعادة و السراغنة وزمران ومسفيوة واوريكة وأراضي الكيش ،وكذلك مجاري الأودية ومياه الأمطار الراكدة كلها تؤدي الى خلق بؤر تكاثر مواتية لتطور بعوضة الملاريا، بل تجاوزت هذه العداوة الوباء نفسه لتشمل حتى البدو الرحل والأهليين [Les indigènes] المصابين بهذه الحمى، حيث من المحتمل أن ينقل المشتغلون منهم بضيعات المعمرين العدوى الى منازل هؤلاء.



رسم تخطيطي توضحي لمسار العدوي بحمى الملاريا
[Le paludisme]

المصدر: مجلة أمل، العدد السادس، السنة الثانية، 1995، ص116.

البلهارسيا[La bilharioze][٣٩].

لولا أن هذا المرض الوبائي مرتبط بالماء ما فكرنا في إدراجه ضمن الأمراض المائية، ولولا أن الشروط الموضوعية المحتضنة له بمجال أطلس مراكش متوفرة ما زاد إصرارنا على الحديث عنه ضمن هذه الدراسة. البلهارسيا مرض طفيلي تسببه المياه الملوثة، ويصاب به الأشخاص الذين يشتغلون في الأنشطة المرتبطة بالماء كالزراعة المسقية اوكانسي الآبار والنطفيات والسواقي والخطارات والصهاريج المائية الريفية "تافراوت"، أيضًا يصاب بها الأشخاص الذين يسبحون بالمياه المتجمعة كالضايات والدروع التي تبقى بأسرة الأودية بالتزامن مع توقف الجريان المائي خلال فترة الصيف، وكلها هذه الشروط متوفرة كما أسلفنا. تنتقل عدوى هذا المرض في التجمعات السكانية المغلقة حينما يلوث المصابون به مصادر الماء بفضلاتهم التي تتضمن الكائنات الطفيلية المسؤولة عن الإصابة بالمرض والتي تتكاثر بسرعة فائقة في الماء. ولأن المصاب به تظهر عليه أعراض تتطور "إلى حالة يحدث له التهاب في المسالك البولية، فيصبح بوله مشوبا بالدم في مرحلة أولى، ثم أحمر قاني في مرحلة لاحقة ثم يصير تبول الدم لديه أمرا دائمًا ومستمرًا"،[٤٠] مما يعني أنه يصنف ضمن الأمراض التناسلية التي تحاط بالتكتم في المجتمعات المحافظة كما هو حال التجمعات الجبلية الأطلسية والمناطق القريبة لها، ولهذه الأسباب ليس هناك معطيات حول هذه المرض مما جعله ضمن الأمراض المتستر عليها، على الرغم أنه يلازم المبتلين به لسنوات طويلة.

نرجح بأن هذا المرض كان متفشيا بفضاء أطلس مراكش نظرا لتوفر شروط تكونه، رغم أن طلائع الأطباء الذين زاروا هذا المجال قبل فترة الحماية الفرنسية لم

يذكرونه، بما فيهم الطبيب موشان [Mauchamp] "الذي كان يعمل بمراكش ما بين 1905و1907، ولم يورد في مذكراته أي ذكر لداء من هذا القبيل، ولا نخال الدكتور موشان ممن يغفل التصريح بهذا الداء لو صادفه"[٤١] يقول الأستاذ بوجمعة رويان. غير أن عددا من الدراسات بدأت تتحدث عن وجود هذا المرض بنواحي مدينة مراكش ما بعد سنة1915، مثل الدكتور جوب [Job] والدكتوران[٤٢] كاروس[Carrosse] وبيرنيود[Berneoud][٤٣] والدكاترة لوبيناي [Lepinay] وكريفان [Grevin] وبيتريكس[Bietrix][٤٤]. يتعذر الحديث عن وجود أدوية فعالة كان يستعملها سكان مجال اطلس مراكش بقسميه الجبلي و الديري، في معالجة البلهارسيا سوى لجوئهم الى الأساليب التقليدية والتي لم تكن سوى لتطيل من أمده، كزيارة أضرحة الصلحاء والاستحمام بمياه العيون القريبة منها، أو استعمال بعض الأدوية العشبية والنباتية، مثل فاكهة الحنظل [Citrullus Colocynthis] المرة، المسماة عند شلوح الأطلس بـ "تافرزيزت"، بحيث يتم إدخال مقدمة قضيب الشخص المصاب فيها بعد إحداث ثقب بها وملئه بزيت الزيتون الساخن، مؤولين الإصابة بالمرض كما لو كانت بسبب "ضربة برد".[٤٥]

الزحار الأميبي [La dysenterie amibienne ou L'amibiase]

نظرًا لارتباط هذا المرض بالقذارة وسوء النظافة وتلوث الماء- وتلك وضعيات واردة جدا - فإنه لا يستبعد تفشي مرض الزحار الأميبي في أوساط الساكنة الجبلية في أطلس مراكش والحزام الديري المحاذي له. فحسب عدد من المصنفات الطبية، يعاني المصابون بعد دخول الأميبيا إلى أجسادهم بالإسهال وآلام البطن وارتفاع درجة الحرارة وفقدان الشهية والشعور بالغثيان. لم نقف ضمن المراجع التي تصفحناها على معطيات أو حالات من الأشخاص الذين ابتلوا بهذا المرض بمرتفعات وسفوح اطلس مراكش، لكن تبين لنا من خلال توزعه الجغرافي بالمغرب حسب الدراسة التي أنجزها الدكتور فلاي-سانت ماري[Flay-Saint-Marie]رئيس المختبر الجهوي لفاس -بالاستناد على خلاصات توصل إليها أطباء أجانب ميدانيون- فإن الزحار الأميبي بمدينة مراكش كان موجودًا هناك وله بعض الأهمية؛ بل هو شائع جدًا و تصاب به الساكنة المحلية بالدرجة الأولى، أما بالنسبة لنواحي مراكش فالمرض موجود بقلعة السراغنة بأهمية محدودة نسبيا حيث "يصل الى مستوصف القلعة عشر حالات كل شهر تقريبا، أما في دمنات فيبدو نادرا وعرضيا"[٤٦].

(٢/١) ٣-أمراض يسببها الماء عند التطهير والاستحمام

يُقصد بها جميع الأمراض التي تصيب جلد الإنسان، ما خفي منه وما ظهر، نتيجة للاستحمام بالمياه الكدرة وما تحمله من كائنات جرثومية ومحللات كيماوية ومعدنية.

الأمراض الجلدية [Maladies dermiques]:

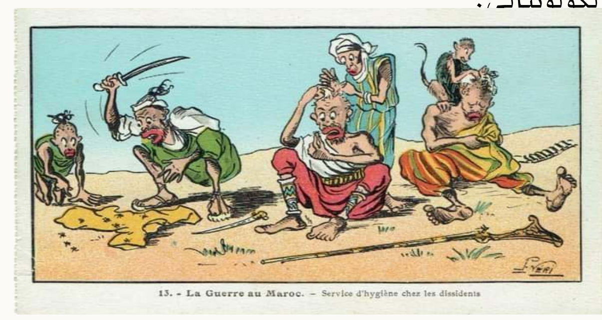
نذكر من هذه الأمراض ما سمعناه مباشرة من أفواه بعض كبار السن من الرجال والنساء الذين استجوبناهم في إطار البحث الميداني، ونذكر منها ما يلي، حسب الجدول أسفله:

المرض الجلدي باللغة العربية	الاسم المعروف به	اسمه بلهجة "تاشلحيت	أعراضه
داء الجرب	الجرب	أجضيض	حكة شديدة تزداد حدتها خلال الليل، وهي سريعة الانتقال بين الأشخاص. يتجلى داء الجرب في شكل نتوءات وبثور صغيرة في ثنايا الجلد.
داء البهاق	لبهك (الكاف مصرية)	لبهك	ظهور بقع بيضاء، يفقد فيها الجلد لونه الطبيعي. ظهور الشيب المبكر.
التأليل	التالول	تيفضليوين	زوائد جلدية صغيرة خشنة الملمس، لا تسبب الألم.

المرض الجلدي باللغة العربية	الاسم المعروف به	اسمه بلهجة "تاشلحيت	أعراضه
الثعلبة (السعفة)	التونية	تامجوطت	مرض جلدي يستهدف المناطق التي بها شعر بالجسم، فيؤدي الى حدوث الصلع.
التهاب الجلد التأتبي	لكزيما	تافورا	ظهور بقع على الجلد تثير حكة جافة، بالأخص على اليدين، والعنق، والوجه، والرجلين. قد تؤدي هذه الحكة إلى جروح وقروح.
تورد الجلد	تاوردايت	تاوردايت	ظهور بقع حمراء تختلف من حيت المساحة، تسبب في حكة شديدة لكنها لا تدوم كثيراً.
تشقق الجلد	لمشك	إفورسن	تشقق يصيب الأصابع واليدين والقدمين.

جدول لبعض الأمراض الجلدية الشائعة بأطلس مراكش والتي تكون المياه غير الصالحة لاستحمام سبباً فيها، حسب الروايات المحلية.

وتفصح الروايات الشفوية المحلية عن كثير من أسباب الإصابة بالأمراض الجلدية، ومن ذلك البهاق الذي يكون سببه الاغتسال بالمياه الراكدة قليلة العمق الواقعة تحت حرارة الشمس، أو عن ارتداء ثياب ماتزال بها رطوبة الماء. و"لمشك" الذي يتسبب فيه المشي بقدمين حافيين بمياه راكدة، و"تاوردايت" التي تنجم عن ارتداء ملابس ما يزال بها بلل أو رطوبة. كما أن هناك عدد من الأمراض الجلدية يعود السبب فيها لكثرة القمل والصؤاب والبرغوت، وكلها كائنات تنجم بالأساس نتيجة لغياب النظافة، وعدم الاستحمام واستبدال الألبسة بانتظام. اعتاد المصابون بهذه الأمراض منذ القديم بأطلس مراكش على اللجوء إلى أضرحة الأولياء، مثل ضريح لالة تيمليت بجلاوة حيث المرضى بالجرب أو البهاق أو الثآليل يغتسلون بمياه العين القريبة منها، ويمررون تراب قبرها على الأعضاء المصابة من أجسادهم. ويروي كبار السن تجاربهم العلاجية تلك وهم راضون على النتائج الإيجابية، معتقدين اشد الاعتقاد في بركة المقبورين المستمرة حتى بعد وفاتهم بقرون، وما تزال هذه الطقوس سارية الى يومنا هذا رغم ما تحقق من تقدم طبي بالبلاد! بالتزامن مع الوجود الفرنسي بقبائل أطلس مراكش، استمر السكان هناك في القيام بالتفلية –دون أن يكون لديهم علم بأن القمل والصؤاب والبرغوث كائنات مسؤولة أيضًا عن نقل الحمى ووباء التيفوس بين الأشخاص –التي تكون يدوية فيما يخص الرؤوس المقملة والصبئة، بينما الألبسة المصابة فيتم غمسها في الماء المغلي لأجل التخلص مما علق بها من القمل والصؤاب، أما الأقمشة والأغطية فتنفض ضرباً بالعصي، وكلها أساليب بدائية، غير فعالة ومقرفة، مما جعلها تشكل موضوعا للسخرية على صفحات الإعلام الكولونيالي.



صورة ساخرة من طريقة التفلية عند المغاربة
المصدر: www.delcampe.net تاريخ الاطلاع، 5 أكتوبر 2023

(٢/١) ٤- أمراض مائية أخرى بأطلس مراكش

"تيضى"، العلق [Sangsues]:

لما كانت جميع المجاري والمسطحات المائية[٤٧] بأطلس مراكش موبوءة بالعلق[٤٨]، وكان السكان يتناولون مياهها تحت تأثير العطش إما ليلاً أو مضطرين ،يعبون تلك المياه بدون تصفية ولا معالجة، فإن معاناتهم كانت شديدة مع العلق "تيضى"[Sangsues] الذي يعلق بحلوقهم .يقتضي

إسقاط تلك الحشرة اللجوء الى المعالجين المحليين الذين يخضعونهم لوصفات علاجية متنوعة يختلط فيها ما هو طبي بما هو سحري، غير أن الدواء الشائع الاستعمال هو ما كان يقتبسه "فقهاء الشرط" من كتاب "الرحمة في الطب والحكمة"، وهو أن " تأخذ الحبة السوداء وهي السانوج وتدقها وتأخذ ماء البصل فتصبه على السانوج ويغرغر ولا يبلع الماء ويأخذ شيئا من ذلك الماء فيصب في أنفه فتسقط في الحين ميتة"(٤٩).

غير أنه خلال فترة الحماية بدأت تظهر مجموعة من التقنيات لنزع العلق من حلوق الأشخاص المصابين. ومن ذلك ما أصبح الأطباء الأجانب العاملون بالمستشفيات الكبرى في الصويرة والرباط ومراكش وفاس يتبادلونه من تجارب بينهم في هذا الشأن، من خلال نشر ما توصلوا إليه على صفحات المجلات الطبية المتخصصة، مثل مجلة "Maroc- médical". في مستشفى ميزوناف[Maisonnave] بمراكش الذي كان يمارس نفوذه الطبي على المجال موضوع دراستنا، توصل طبيب جراح يدعى فاليت[Valette] الى تقنية وصفها بالسهلة لإزالة العلق من الحلق حسب شهادة زميله الدكتور بوفريت [Bouveret] رئيس المستشفى المختلط بموكادور(٥٠).

تحصي الكلي

ثمة أيضًا مرض "تحصي الكلي" يصاب به بكثرة المستقرون بخاصرة أطلس مراكش، ممن كانوا يستغلون مياه الآبار في الشرب بشكل وبدون معالجة، وينجم هذا المرض عن وجود معدلات عالية من بعض المعادن مثل الكالسيوم. ومن أعراض هذا المرض العسر في التبول والرغبة الدائمة فيه، أو عدم القدرة على التبول أو التبول بكمية قليلة فقط. إن ترجيحنا لاستفحال هذا المرض بالمناطق المذكورة نابع من الحاضر، حيث عايشنا إحدى العائلات بدوار "ألكجي" بقبيلة أوريكة وقد لجأ معظم أفرادها على التوالي إلى نزع الحصى من الكلي بإحدى مصحات مراكش المشهورة، والسبب في ذلك حسب الطبيب المختص هو شرب مياه البئر التي بحوزتهم بدون معالجة.

تضخم الغدة الدرقية (مرض مزمن)

هناك نوع آخر من الأمراض التي يمكننا نعتها بالمزمنة ويتعلق الأمر بأمراض الغدد، ذلك ما لاحظه الطبيب بول شاتيير[Paul Chatiniéres] أثناء رحلته الصحية المعروفة إلى الأطلس الكبير الغربي، وجود عدد لافت للأشخاص المصابين بتضخم الغدة الدرقية بمناطق مختلفة من هذه الجبال. ومن أعراض هذا المرض أنه ورم غير طبيعي في الغدة الدرقية –في قاعدة الرقبة أسفل تفاحة آدم – ناهيك عن معاناة المصابين من صعوبة البلع وعسر التنفس، والسعال، وبحة الصوت، والشخير. ذلك أن الطبيب بول شاتينيير [Paul Chatiniéres] كلما حط رحاله بقرية من قرى أطلس مراكش، إلا ويقع بصره على هذا النوع من الأشخاص ضمن الحشود التي تتجمهر حوله، وقد تكرر ذلك المشهد لديه في أيت ربوح بكلاوة وأيت ميزان بغيغاية وبأماكن متعددة بقبيلة أهل تيفنوت(٥١).ليتنا تمكننا –بالاستعانة ببعض الأطروحات والدراسات الطبية المغربية– من التأكيد على أن هذا المرض –الذي كان مستفحلا بالواجهة الشمالية لأطلس مراكش والذي من أعراضه تضخم الغدة الدرقية[Le goitre] – كان سببه الماء. غير أن دراسة أجراها الفرنسي تروتات أوجين [Trutat Eugéne] المختص في علم الطبيعيات عن جبال البرانس [Les pyrénées] (طبعت ونشرت سنة 1894م)، والتي أكد من خلالها أن "الدراق في الماضي كانوا موجودين على نطاق واسع بجبال البرانس"(٥٢)، أسعفتنا في تأكيد العلاقة بين الماء وهذا المرض. وقد أفادنا هذا الباحث بقوله: "إن هناك الكثير من النقاش حول أسباب تضخم الغدة الدرقية، وغالبًا ما يُعزى تطور هذا المرض إلى جودة المياه، وبالتالي إلى طبيعة التربة."(٥٣) مضيفًا بالاستناد على الدراسات المنجزة من قبل الطبيب شوبيني [Chopinet] حول البرانس الوسطى "إذا كان للمياه تأثير معين، فإن سوء النظافة هو السبب الرئيسي لتضخم الغدة الدرقية..."(٥٤).

أما بخصوص العلاج، فلم نقف على وجبة علاجية جاهزة كان السكان يستعملونها لمكافحة هذا المرض والتخفيف من آلامه، إن كنا نرجح لجوؤهم إلى أساليب استشفائية تقليدية لا تبتعد عن زيارة الأولياء واستعمال

الأدوية التقليدية المركبة من الأعشاب العطرية وجذورها. فماهي الخطوات التي أقدمت عليها السلطات الصحية الاستعمارية من أجل تطويق الأمراض والأوبئة التي يكون الماء مصدرًا لها بفضاء أطلس مراكش، وبالخصوص تلك الأمراض ذات الانتشار الواسع المهددة للاستيطان، كالتيفوس والحميات؟

٢/٢-أشكال تدخل الطب الكولونيالي في تطويق الأمراض والأوبئة المائية بأطلس مراكش

(٢/٢) ١-الأجهزة والمؤسسات (البنية الطبية)

اتسم التعاطي الكولونيالي مع الجبال المغربية بشكل عام بالتردد على مستوى وضع الخطط الرامية للإخضاع، وذلك على اعتبار أن "معظم الجبال أراضي فقيرة غير منتجة للغاية وصعبة ومكلفة في الغزو..."[٥٥]. لذلك ركزت سلطات الحماية على السهول كونها أراضي غنية ومنتجة من ناحية وسهلة في الإخضاع والاحتلال، قبل أن تستدرك في النهاية" وحسب ما قاله بوكود[Bugeaud]: ينبغي أن تكون سيدا في كل مكان وإلا فلن تكون آمنا في أي مكان"[٥٦]. في جبال أطلس مراكش التي انيطت مراقبتها في البداية للقياد الكبار، لم تمنع هذ ه الخطة من استعمال الطب الكولونيالي- بشكل مبكر -في عملية الاختراق والتواصل عن قرب مع الساكنة الجبلية بهدف جس النبض واستكشاف الساكنة الجبلية واستمزاجها لغاية قياس درجة عدوانيتها [La xénophobie] وموقفها تجاه الأجانب، فكان الطب وسيلة لإحداث ذلك الاحتكاك. تم ذلك على اعتبار أن "الطبيب بمثابة مراقب جيد للقيم والسلوك..." [٥٧]من جهة، وأنه من جهة ثانية "فاعل رائع في التغلغل السلمي..."[٥٨]. ذلك توسع ليوطي[Liauty] في توضيحه كثيرا ضمن مقدمة الكتاب الذي ألفه بول شاتينيير" في الأطلس الكبير"، بقوله: "إنكم تعرفون أفكاري حول أهمية الطبيب في المستعمرات، وحول ما يمكن أن يقدمه من مساعدة لتمهيد بلد ما أن كثيرا من النزاعات وسوء التفاهم تنتهي بمجرد التعارف، فما هو الباسيفيكاسيون [Pacification]في غالب الأحيان سوى نهاية سوء التفاهم. إن التوضيح الأول فقط هو الأصعب، ولا بد من وجود شخص يستأثر بثقة مسبقة، وهو أمر لا يتوفر إلا في الطبيب..."[٥٩] . وقد رأى الطبيب بول شاتينيير [Paul Chatiniéres] –الذي يُعَدّ أول مَنْ ترأس وحدة طبية متنقلة جالت مختلف جيوب أطلس مراكش – بأن الطبيب بهذه المناطق ،ليس فقط صانع التهدئة في الأراضي التي وصلها الغزو، بل سيكون أيضًا من يسبق أرتال الاحتلال، يمهد لتغلغل النفوذ الفرنسي ويهيئ لقبول الحماية"[٦٠]. فما هي آليات اقتحام الطب الكولونيالي لمرتفعات وسفوح وتلال وهضاب أطلس مراكش؟

المجموعات الطبية المتنقلة

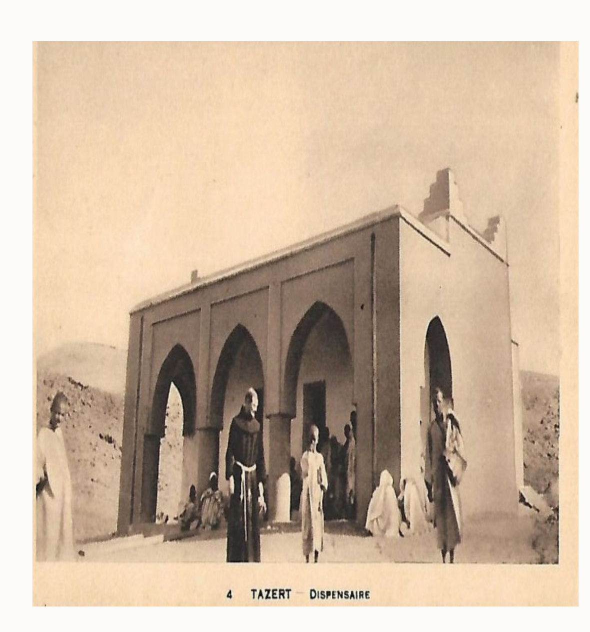
انطلاقًا من توجهات الجينرال ليوطي [Liauty] الذي ما لبث يردد في خطبه مقولته المعروفة: "عندما لا يأتي المريض إلى الطبيب، فالطبيب هو الذي ينبغي أن يذهب عند المريض"، انبثقت فكرة تأسيس الوحدات الطبية المتنقلة [Les groupes sanitaires mobiles]، المعروفة اختصارًا بـ [G.S.M]، والتي سيعتمد على أنشطتها وتحقيقاتها الميدانية الزاخرة بالمعطيات، في إبلاغ الأطباء ورؤساء المناطق لاحقًا بالتفاصيل الصحية الدقيقة عن الساكنة بالجبال. يعرفها ليوطي على أنها "مستوصفات متنقلة للفحص والعلاج" وكانت هذه الوحدات الصحية المتنقلة التي اقتحمت جبال الأطلس "تتكون من طبيب أو اثنين ومن معاونين اثنين ومن ثلاثة سائقين يكون لهم ستة بغال على أظهرهم برادع ، ويتخذ الأطباء معهم أدوية مختلفة ورزمة طبية وخبائين أحدهما للمستخدمين، وأربعة قفف للأدوية وشواريات ثلاثة ومحمل القفف ومن آلة ربط البغال ستة".[٦١] تتميز هذه الوحدات الطبية بقدرتها على التنقل بسهولة والوصول الى الأماكن القصية والموبوءة، وبإمكانها "التخييم على أطراف الدوار، في الأسواق المزدحمة، بالقرب من خيمة القائد. ويمكن أن تتحرك أسابيع كاملة داخل المناطق الملوثة حيث يجب اتخاذ إجراءات صارمة. فهي في يد القائد الإقليمي يحركها متى شاء ويحدد مسارها.."[٦٢].

وجدير بالذكر أن جل المناطق المغرب تحت الحماية الفرنسية كانت تتوفر على وحدة طبية متنقلة واحدة باستثناء جهة مراكش فقد كان عددها مضاعفا[٦٣]،

حيث وصل عددها بمستشفى موشان "ست وحدات طبية متنقلة، يشرف على غالبيتها أطباء عسكريون، كانت تجول كل مناطق الرحامنة والحوز وأعالي الأطلس الكبير ومنطقة شيشاوة، من خلال برنامج زيارات أسبوعية متواز مع أيام الأسواق الأسبوعية أو المواسم الدورية"[٦٤]. وكانت أولى هذه المجموعات الطبية المتنقلة التي وصلت الى جبال أطلس مراكش هي تلك التي ترأسها الطبيب بول شاتينيير سنة 1912 بتكليف مباشر من الجينرال ليوطي.

قاعات التمريض والفحص والمستوصفات

في المسافة الزمنية ما بين1917و1925، سيتعزز وجود الطب الكولونيالي بمقدمة جبال أطلس مراكش ببنية صحية قريبة من سكان القبائل الجبلية، من خلال إنشاء عدد من قاعات الفحص والتمريض وبعض المستوصفات المركزية من خزينة الإدارة الاستعمارية، في كل من ثلاث ن يعقوب وايمي –ن –تانوت و أكويم وايت اورير وقلعة السراغنة التي شملت قبائل السراغنة وزمران وتملالت والعطاوية وسيدي رحال ...[٦٥]، وكانت هذه القاعات ملحقة بالمراقبة المدنية ومراكز الشؤون الاهلية ، وظيفتها أنها تعمل كمراكز إنقاد، أو أنها تشكل" مرحلة استشفائية أولى يتم التعرف على المرضى الوافدين قبل إرسالهم الى مراكز الاستشفاء الأخرى، ويتكلف بها طبيب يزورها مرة أو مرتين في الأسبوع غالبًا ما يكون ذلك أيام الأسواق الأسبوعية"[٦٦]. تضاف إلى ذلك مستوصفات متقدمة داخل بعض القبائل الجبلية الأطلسية، تم بناؤها من تبرعات الأطباء الفرنسيسكانيين [Les franciscains] التابعين للكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، ومن ذلك مستوصف تازارت[٦٧] بقبيلة جلاوة ومستوصف أبادو بقبيلة غجدامة، فكانت هذه المنشأة الصحية من ضمن المراكز التي حسب قول أحدهم "ينبغي أن نجعل من كل واحد منها مركزًا للجاذبية السياسية والاقتصادية التي من خلالها سنتصرف مباشرة مع هذه الفئة من السكان".[٦٨]



مستوصف تازارت المحدث سنة 1931بقبيلة جلاوة
المصدر: www.delcampe.net تاريخ الاطلاع ٦ أكتوبر ٢٠٢٣



مستوصف أبادو المحدث سنة ١٩٣٢بقبيلة غجدامة.
(عمل ميداني بتاريخ١٥غشت٢٠٢١)

(٢/٢) ٢-أشكال التدخل: طرائق العلاج والوقاية من الأمراض المائية بأطلس مراكش

كانت جبال أطلس مراكش مع ديرها تابعة من حيث الإشراف الصحي، لمدينة مراكش عاصمة الجنوب الطبية[٦٩]، وقد ركز ت السلطات الاستعمارية منذ البداية على حماية هذه المدينة من الأمراض والأوبئة بكل أصنافها، عن طريق تطويق كل مصادرها القريبة

والبعيدة. لقد كان الرهان الاستعماري على النهوض بعاصمة الجنوب كي تكون مدينة سياحية تستقطب إليها أكبر عدد من الزوار والعشاق على المدى المنظور. كانت هذه الرغبة يتردد صداها في الصحافة الكولونيالية كما في الخطاب الرسمي الكولونيالي أثناء جميع الاجتماعات الجهوية والمركزية، حتى أن أحد المسؤولين ذهب إلى أبعد من ذلك، حين اعتبر أن ما ينبغي اتخاذه من تدابير صحية ووقائية بالنسبة لمراكش وجهتها، يجب أن يرقى لان يكون في حجم المغرب كله.[٧٠]

جاء ذلك في معرض الجواب عن سؤال طرح في مجلس الحكومة المنعقد بمقر الإقامة العامة سنة 1945، حين أراد صاحب السؤال معرفة ما أعدته الإدارة من وسائل مادية وبشرية من أجل مكافحة وباء التيفوس والحمى الراجعة المتفشيين بشكل خطير بالجنوب قبل أن يمتدا الى الشمال أي الى مدينة مراكش وجهتها. تبنت المصالح الجهوية للصحة في مراكش —منذ البداية —خطة وفلسفة السلطات الصحية للحماية، في القضاء على الأمراض والأوبئة، خدمة كذلك للاستيطان الفلاحي وشروطه بأحواز مراكش. علمًا أن تلك الفلسفة الصحية الاستعمارية، كان هدفها "هو حماية الفرنسيين أولا من الأوبئة (...) وذلك بمنح الضمانات الصحية للمعمرين بالمغرب النافع أولا لتوفير اليد العاملة اللازمة. فالحملة الصحية حرب موجهة للاستفادة من القادرين على العمل وليس المعتوهين والأطفال والشيوخ" [٧١]. لقد كان التدخل الطبي وقائيا متعدد المظاهر والتطبيقات حسب نوعية المرض ودرجة خطورته وشساعة انتشاره والإمكانات المتاحة لتطويقه بفعالية، تم تنزيله وفق مقاربة شمولية "غالبًا ما تستخدم أساليب خاصة غير مكلفة اقتصاديًا وعلى أعداد كبيرة من الأشخاص. تتم ممارسة عملها إما بشكل مستمر ضد الظروف الوبائية المستوطنة أو في لحظة نفسية وعرضية معينة، أو عندما تكون الصحة مهددة بشكل خاص".[٧٢] وبناءً عليه اتخذت أشكال التدخل مستويات متكاملة، زاوجت بين ما هو تشريعي وتحسيسي وبين ما هو اجتماعي ـــتجهيزي وما هو طبي وعلاجي، وإن كان التركيز واضحًا على الحميات (الملاريا والتيفوس)، دون استثناء —بالطبع -للعلل والأسقام المائية الأخرى.

بالنسبة لحمى الملاريا فقد شكل هذا النوع من الحمى هاجسا للمستعمرين منذ خطواتهم الأولى بجهة مراكش، وكأنهم يستحضرون ما أحدثه هذا الوباء بأسلافهم بالجارة الجزائر. في مدينة مراكش حينما نصب الضابط مانجان [Manjan] وجنوده مخيماتهم في كل من قصر "الدار البيضاء" وجيليز والمنارة، كان انتباههم شديدا – منذ الوهلة الأولى –لما يمكن أن تشكله عليهم الصهاريج والسواقي المنتشرة بضواحي مراكش من خطر، بالنظر لما يحوم حولها من البعوض. لذلك فقد انتهج الفريق الصحي المرافق لهم كل أساليب الإبادة والتطويق لهذه الحشرة باستعمال الكينة. أما بالقبائل الجبلية والديرية فقد اتخذت محاربة حمى الملاريا وكل أشكال الحميات طيلة فترة الوجود الاستعماري، الإجراءات التالية:

-تكثيف العلاج الجماعي عبر التلقيح وتوزيع الأدوية مثل الكينين [La quinine]

-التركيز على معالجة الأشخاص الذين يزاولون أعمالا يكونون مضطرين أثنائها الى ملامسة المياه الملوثة والعمل بجوار المياه المتجمعة ذات العمق المحدود، كالمزارعين وعمال الري.

ـــ رش الوديان والبرك بالمازوط [Le pétrolage] كوسيلة فعالة لإبادة كل الحشرات.

ـــ تحديد خريطة كل البحيرات المائية الراكدة، وتمت معالجتها لمحاربة أسباب الأوبئة.[٧٣]

-استعمال نوع من الحيتان الشرهة تتناول يرقات البعوض.

– التوعية بأهمية النظافة ومكافحة البعوض وعدم الاستحمام في المياه الضحلة والراكدة.

ـــ تكليف المقدمين والشيوخ بمنع السكان من الاستقرار وبناء المنازل بجوار المجاري والمسطحات المائية، "على الرغم من جاذبية بناء المساكن في أسفل الأودية، بالقرب من نقط الماء.."[٧٤].

-استعمال القنوات بالتناوب خلال كل أسبوع لمنع استكمال تطور ونمو اليرقات.

أما بالنسبة لوباء التيفوس الذي استمر في ضرب المناطقة الجبلية لأطلس مراكش طيلة فترة الحماية، حتى بات مرضًا مستوطنا لتلك المناطق حسب إفادات متفرقة بالصحف الكولونيالية، فقد وصل ذروته الوبائية هناك خلال ثلاثينيات القرن العشرين. ذهب ضحية هذا الوباء أحد الأطباء ممن تصدوا لمكافحته مثل الأب شارل أندري بواسونيي [Charles- Andre Poissonier] الذي ابلى وفريقة البلاء الحسن في مكافحة الأوبئة المائية مثل الملاريا والجدري والتيفوس في الجزء الشمالي الشرقي من اطلس مراكش، منذ إنشائه للمستوصف الطبي في تازارت سنة 1931أ إلى غاية سنة 1938 تاريخ وفاته ، وهي السنة التي شكل التيفوس لوحده 20 في المائة من مجموع الوفيات.(٧٥)

كان هذا الطبيب قد استشعر بالخطر وهو في أوج اختلاطه وعمله الطبي مع جحافل الوافدين على المستوصف، الذين تجاوز عددهم 4000 شخص في احد أيام شهر دجنبر من سنة1937، حيث قال في رسالة مؤرخة في 4 فبراير1938: "إذا أرادني الرب أن أستمر، فلا يعوزه ذلك أن يبقيني سالمًا مع هذا الاختلاط"(٧٦)، لقد كان مقتنعًا بأن أبسط لسعة من قملة يمكن أن تودي بحياته، وذلك ما حصل فعلاً، فنقل إلى مستشفى مراكش حيث توفي يوم 18 فبراير 1938. يرجع الفضل الى هذا الأب في بناء مستوصف آخر بأبادو سنة 1932(٧٧) في قلب قبيلة غجدامة غير بعيد عن قبيلتي فطواكة وتكانة وجزء من قبيلة جلاوة، بعدما لاحظ كثرة الموبوئين القادمين من تلك القبائل القصية بأطلس مراكش إلى مستوصف تازارت، المعروف عند الساكنة المحلية بـ "لمرابو" والذي كان يشمل فضلا عن خدماته الصحية توزيع الغذاء والألبسة، على مئات من اليهود داخل ملاحهم وكذا ساكنة القبيلة العربية بسهول زمران.

سيواصل مستوصف تازارت أنشطته الطبية المعتادة في علاج الأمراض الناجمة عن احتباس المطر وقلة الماء في المجاري التي تزامنت مع أربعينيات القرن العشرين، وذلك مع خلف اندري بواسونيي [André Poissonnier] الاب ابيل فوك[Abel Fauc] الذي عرف عنه كثرة تنقله ممتطيا بغلته متجولا بين دواوير المرتفعات البعيدة بأطلس مراكش، يعالج الموبوئين المصابين -بالتيفوس والجذري والحمى الراجعة والطاعون وغير ذلك من الأسقام -من الذين لم تكن لديهم القدرة على المجيء الى تازارت أو أبادو. سيواصل الأب ابيل [Abel] مهمته الى أن أصيب بدوره بمرض التيفوس، "ففي مارس ١٩٤٦ تم نقله إلى مستشفى مراكش. ولحسن الحظ، لم يفت الأوان بعد حيث كان بالإمكان وقف العدوى عن طريق بتر ذراعه اليسرى"(٧٨).





تجمهر الساكنة الجبلية أمام مستوصف تازارت بقبيلة جلاوة، لأجل العلاج من التيفوس والملاريا والجدري خلال الموسم **1937-1938**(٧٩)

وسواء تعلق الأمر بالدور الذي لعبه الفرنسيسكانييون [Les franciscains] في الشمال الشرقي لأطلس مراكش أو الوحدات الطبية المتنقلة المنطلقة من مستشفيات مدينة مراكش أو من

المستوصفات الموجودة في ايمي ـــن ـــتانوت وايجوكاك وايت اورير وأكويم ودمنات ، فإن إجراءات مكافحة التيفوس تركزت على حملات التلقيح [La vaccination] والتفلية [Le dépouillage] ومكافحة الفئران وإبادة الحشرات[La désinsectisation] في الزرائب والمراحيض وكل الأماكن الموبوءة، فضلاً عن الإجراءات التي تمت على عدة مستويات أخرى:

على المستوى التشريعي والقانوني

وتمثل ذلك في القرار الوزيري في شأن المحافظة على المياه المعدة لحاجات سكان المدن والقرى ومنع تدنيسها ومما جاء في فصله الأول أنه يمنع منعًا كليًا: "أولاً: غسل الثياب وغيرها ولا سيما غسل اللحم والجلود أو ما شاكلها من المواد الحيوانية في المياه المعدة لسكان المدن والقرى والمعسكرات سواء كانت جارية في السواقي أو في القنوات أو في القواديس أو كانت في الصهاريج أو في الآبار، كما أنه يمنع غسل ما ذكر على مسافة تقل عن عشرة أمتار منها. ثانيًا: الاستحمام والاغتسال فيما ذكر من السواقي وغيرها. ثالثًا: وضع مواد مضرة بالصحة أو جعل حفاير[هكذا] للمراحيض أو المياه القذرة أو البول وذلك على بعد مسافة تقل عن عشرين مترًا مما أشير إليه من السواقي وغيرها. رابعًا: توريد الحيوانات أو غسلها أو استحمامها بها. خامسًا: المرور على السواقي والقنوات الغير المسقفة بالحيوانات والعجلات على اختلاف أنواعها ما عدا المواضع المعدة فيها للمرور. سادسًا: أخذ مواد منها مهما كان نوعها أو أخد ما ذكر على مسافة تقل عن بعد عشرة أمتار منها."[٨٠] وفي حالة المخالفة فإن الأشخاص المخالفين يقعون تحت طائلة الظهير الشريف المؤرخ في ١٦ يناير ١٩١٦ وما يتضمنه من عقوبات زجرية.

على المستوى التجهيزي والاجتماعي

انصب اهتمام سلطات الحماية باشراك إدارة الأشغال العمومية على تهيئة نقط الماء وتجديدها واستبدالها بمنشآت عصرية، تتوفر فيها الشروط الوقائية والصحية، واستعمال مادة الأسمنت بدل المواد المحلية في بناء السواقي والآبار والأحواض الريفية. نذكر من ذلك إنشاء عدد من الآبار التي ستشتغل لأول مرة بالطاقة الريحية والمحتوية على جوابي أسمنتية اختيرت لها أماكن مناسبة بعيدة عن المثابات، كما تم بناء نطفيات مخزنية[٨١] بمواصفات وشروط وقائية جديدة، ونقصد بذلك تزويد هذه الخزانات بحريم اسمنتي ومصفاة تمنع ولوج القاذورات والجثث والأوساخ من التسرب الى قيعان هذه النطفيات زمن تهاطل الأمطار وامتلاء الشعاب، وبسلم حديدي يستعمل عند عمليات الكنس وإنقاذ المتساقطات –على الفور– من الهوام والحيوانات وحتى الأشخاص. ولأن فضاء الأطلس الكبير الغربي برمته –الواقع تحت تأثير مدينة مراكش –تميز منذ البدايات الأولى لنظام الحماية بوضع استثنائي، بحيث "كانت الألية التدبيرية الخاصة بمراكش مختلفة عن باقي المدن المغربية، من خلال قرار الإقامة العامة بالرباط التعاون مع واحد من كبار قواد الجنوب والأطلسين الكبير والصغير، المدني لكلاوي وشقيقه التهامي لكلاوي"[٨٢]، فقد استخدم هذا الأخير نفوذه من أجل توفير اليد العاملة اللازمة لكنس السواقي والخطارات المنبثقة من الأطلس، المزودة لمدينة مراكش بالمياه، وذلك بغاية مواجهة كل أسباب الأوبئة والأمراض المعدية، خصوصًا وأن هذه المدينة كانت تسجل بها دوريًا موجات من أوبئة الملاريا والجدري والتيفويد والبلهارسيا نتيجة رداءة تجهيزاتها المائية الرديئة. لقد لعب "القائد المدني لكلاوي وشقيقه التهامي لكلاوي الدور الحاسم بمنطق القوة والإكراه (...) من خلال تنظيف كلي للخطارات وللآبار المرتبطة بها وللسواقي الحاملة للماء"[٨٣]، تجسد ذلك في تجييش اليد العاملة الكافية من أجل كنس الخطارات من القاذورات وجثث الحيوانات وحتى من جثث الأشخاص الذين كانوا يقتلون في أعمال انتقامية ويرمون بها في ظروف مجهولة[٨٤].

على المستوى الاجتماعي والتحسيسي

تمحورت الحملات التحسيسية في هذه الجبال والمناطق الديرية المرتبطة به، في الإقناع بأساليب الطب الحديث والتوعية بضرورة:

–القيام بعمليات التلقيح والإقبال على العمليات الميدانية التي تنظمها الوحدات الطبية المتنقلة.

ـــجوفلة المياه وتطهيرها باستعمال مادة الكلور.

–تغلية مياه الترع والنطفيات قبل استخدامها.

–غسل الأواني قبل استعمالها وتنظيف الفواكه قبل تناولها.

–غسل اليدين قبل تناول الوجبات الغذائية، وليس بعد تناول الغذاء كما هو شائع بين الناس مع استعمال الصابون.

– الاستحمام واستبدال الألبسة بشكل دوري مع تخصيص البسة للنوم.

بعض نتائج التدخل الكولونيالي لمكافة الأمراض والأوبئة ذات المصدر المائي بأطلس مراكش.

حقيقة أن الساكنة الجبلية الأطلسية –حسب ما جاء على لسان بول شاتينيير__ كانت تتسابق إليه خلال رحلته بالأطلس الكبير الغربي، رجالاً ونساء، أطفالاً وشيوخًا، فقراء وأغنياء ينتظرون قدومه بشوق، وفي مقدمتهم الأعيان وقواد الجبال كالمدني لكلاوي والكندافي والمتوكي، الذين استضافوه بقصباتهم ورحبوا به من أجل تقديم العلاج لحريمهم وتخفيف ما بهم من أوجاع. نفس الانطباع عبر عنه قبله ادمون دوتي حين زار كندافة سنة1901، بقوله: "خرجنا من ثلاث –ن –يعقوب قبل ساعة وتوجهنا الى تينملل التي لم نتأخر في تجاوزها بحيث تسرعنا في مسيرنا خوفا من ملاحقة عدد من زبنائنا المرضى الذين يلاحقوننا. إن سمعتنا كطبيب انتشرت بسرعة في جميع أنحاء كندافة، يبدو أن الأدوية التي قدمناها حققت علاجات رائعة..."[٨٥]

لكن ينبغي التمييز أولاً بين طبيعة السلوك الذي أبداه الأطباء الذين زاروا مرتفعات وسفوح الأطلس الكبير الغربي في إطار الوحدات الطبية المتنقلة، خلال الفترات الأولى من الحماية، وكذا تصرف الفرنسيسكانيين [Les franciscains]، فهؤلاء تميز تعاملهم باللطف بالمرضى واحترام خصوصيات الساكنة الجبلية وعوائدها. وعلى العكس من ذلك، كانت تصرفات المتدخلين الرسميين في شخص أطباء وممرضي سلطات إدارة الحماية – أثناء تقديمهم للخدمات العلاجية والفحوصات لفائدة القبائل الجبلية تطغى عليها الخشونة والفظاظة[٨٦] –خصوصًا بعد التهدئة – مما كان يثير حفيظة الشلوح وسط صراخ أطفالهم وامتعاض نسائهم، مما أفضى الى صدامات بين السكان والمخازنية، كما حدث في قبيلة سكساوة الأطلسية.[٨٧]

رغم الخدمات الصحية التي قدمت للساكنة الجبلية في علاج الأمراض والحميات ذات الصلة بالماء، فإن ذلك لم يترك تأثيرًا واضحًا على الممارسات العلاجية التقليدية بجبال أطلس مراكش. لقد استمرت الساكنة في استعمال الأساليب القديمة في علاج الحميات كما أنهم استمروا في الاعتقاد بأن أمراضًا بإمكان الطب الكولونيالي القضاء عليها، لكن أمراضًا أخرى تبقى مستعصية عليه فالعلاج منها رهين بالمشيئة الإلهية.

خَاتمِةٌ

هكذا تبين لنا بأن السفوح الشمالية لجبال أطلس مراكش لم تكن بمنآي عن الأمراض والأوبئة ذات المصدر المائي. ذلك أن طبغرافية وهيدروغرافية هذا المجال الاستثنائي لم تمنع من أن تعاني ساكنة الجبل كذلك من العلل والأسقام التي تنجم عن افتقاد الماء زمن الجفاف أو عن تلوث وسوء استخداماته زمن الوفرة، كما هو الحال في المجالات السهلية. لاحظنا أيضًا أن سلطات الحماية الفرنسية قد بذلت جهودا في تطويق ومحاصرة هذه الأمراض بما توفر لديها من إمكانات طبية حديثة لم تعهدها الساكنة الجبلية من قبل، تقوم على استعمال اللقاحات وتناول الأدوية الفعالة والمناسبة، فضلاً عن الإجراءات الوقائية والاحترازية. وعلى الرغم مما قيل عن الطب الكولونيالي على أنه كان أداة من أدوات الهيمنة والاستقطاب والغزو، وعن التمييز بين المغاربة والأوروبيين فيما يخص جودة العلاج وشروطه بناء على قاعدة أسبقية الأجانب عن "الأهالي"، وعن الخلفية الاستعمارية المؤطرة للطب الكولونيالي الرامية الى توفير مناخ ملائم للاستيطان المفضي الى الاستغلال بأريحية، وعن الشطط والعسف والدكتاتورية أحيانا في تقديم العلاج لسكان الجبال، فإن كل هذه الأحكام لا تمنع من الاعتراف بأن فرنسا الاستعمارية تلك، قد أسدت خدمات جليلة في الميدان الطبي لساكنة هذه الجبال ولكل المغاربة، والإقرار بأن الطب الكولونيالي هو بحق غنيمة وحسنة من حسنات فترة الحماية على المغرب.

الإحالات المرجعية:

(١) بن عبد العزيز بن عبد الله محمد، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**، الجزء الثالث. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط 1996 م. ص460.

(٢) مجذوب محمد، **جبل الأطلس قبل التوسع الروماني**، ضمن ندوة: **"الجبل في تاريخ المغرب" ما بين 20و22 يناير1994**، فاس، ص25.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) نفسه، ص27.

(٥) نفسه، ص 28.

(٦) الناصري محمد، **الجبال المغربية مركزيتها -هامشيتها-تنميتها**، الرباط، فبراير 2000، ص 142.

(٧) نقصد بذلك قائل: نفيفة، سكساوة، ادويران، امزوضة، كندافة، كدميوة، سكتانة، وزكيطة، غيغاية، مسفيوة، تكانة، كلاوة، غجدامة فطواكة وزمران وغيرها من القبائل الصغرى المحاذية.

(٨) الناصري محمد، **الجبال المغربية**......، ص179.

(٩) بن عبد العزيز بن عبد الله محمد، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**.....، الجزء الثالث، ص459.

(١٠) على سبيل المثال، يوجد ضريح على الحدود بين كلاوة وغجدامة بالقرب من موقع "أمكيركس"، الجماعة الترابية ايت حكيم، يدعى سيدي امحمد أيت عزي "يختص" بعلاج الأبقار (استدرار الحليب) بعد سقيها من ماء العين القريبة منه.

(11) EMANNUEL RENOR (Victor), Les eaux potables causes des maladies épidémiques. Librairie J.- B BALLIERES et FILS. Paris 1878 .p129

(١٢) ينطقها سكان قبيلة اوريكة ونواحيها بـ "تيليشت".

(١٣) ينطقها سكان قبيلة اوريكة والمناطق القريبة منها ب" إكوردان".

(١٤) يسميه عامة الناس بـ "الصيبان"، لكن تفصيحًا يسمى الصئبان "والصؤابة، كغرابة: بيض القمل والبرغوث، ج صؤاب وصئبان. وقد صئب رأسه وأصأب: كثر صؤابه...." انظر: الفيروز آبادي محمد مجد الدين بن يعقوب، **القاموس المحيط**. مراجعة: انس الشامي وزكريا جابر أحمد. القاهرة 2008 ص909.

(١٥) اطلق عليه هذا الاسم تخليدًا للطبيب الأمريكي ريكتس[RICKETS] الذي توفي وهو يدرس التيفوس في إحدى مدن المكسيك. انظر: رويان بوجمعة، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب1912-1945**، الرباط 2013، ص112.

(16) CHATINIERES(PAUL): Dans le grand Atlas Marocain Extrait du carnet de route d'un Médecin d'assistance indigène 1912-1916.Itroduction du général LYAUTEY ,Paris. Librairie PLON.PLON-NOURIT et Cie. Imprimeurs-Editeurs. p XI.

(17) CHATINIERES(PAUL),Op.Cit ; p XI.

(١٨) ب.بلانسا-أ.بيوميي-ب.لامبير- ج.كاتيل-وج.كريك، **المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م-1868م**، ترجمة وتقديم: بوشعيب الساوري، البيضاء 2018، ص 78.

(١٩) رويان بوجمعة، **مادة الحميات**، معلمة المغرب، المجلد الحادي عشر، سلا 1421-2000، ص3603.

(٢٠) يتداول سكان الاطلس الكبير الغربي مثلاً مشهورًا وهو"ستي تسوت"، بمعنى "صفي تشرب" للدلالة على ضرورة تنقية الماء وتصفيته قبل شربه. ولهذا المثل على سبيل المجاز معنى آخر، وهو ضرورة التحلي بالاستقامة والمثابرة من أجل تحقيق الغايات.

(٢١) كلمة عامية متداولة على أوسع نطاق بالبوادي المغربية، لكن لم نتمكن من تفصيحها، غير أن شفيق محمد أوردها في معجمه بمعنى آخر:"...من الرخويات، هو حلزون البحر،أجغلال [L'escargot de mer]"، انظر: شفيق محمد، الدارجة المغربية مجال توارد بين الامازيغية والعربية، ص 113.

(٢٢) "كان باستور[Pasteur] قد قال: "إن مياه الينابيع التي تخرج من الأرض نقية من الميكروبات". لمزيد من الاطلاع، انظر:

PONCET(F), Les microbes de l'eau de VICHY.J.-B BALLIERES et FILS. Librairie-Editeurs. Paris 1891.p28

(٢٣) إفادة شفوية استمعنا إليها في اطار العمل الميداني بدوار ايت أكثل من قبيلة غجدامة بتاريخ 15غشت2021، وبتاريخ 23يونيو 2023 بأمزميز من قبيلة كدميوة.

(24) CHATINIERES(Paul), Op .cit ; p 251.

(٢٥) رويان بوجمعة، **مادة الحميات**، معلمة المغرب، المجلد الحادي عشر، سلا 1421-2000، ص3606.

(٢٦) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، **الرحمة في الطب والحكمة**، بيروت، د ت، ص 131.

(٢٧) يصنف هذا المرض عند البعض ضمن الأمراض الكولونيالية (الملاريا، مرض النوم)، انظر:

Programmes de l'enseignement du second degré, Instructions ministérielles relatives a l'application des arrêtes du 30 Aout 1937 et du 11 Avril 1938.p32.

(28) LANGERON(M), Anophèles du grand Atlas et de l'anti-Atlas Marocain .Archives de l'institut Pasteur du Maroc .Tome II.Fascicule1.1Janvier1938.p359.

(29) PAISSEAU(G) , La lutte contre le paludisme. In : Revue France-Maroc,3eme année, N° 1 , 15 janvier 1919 ,p15 .

(30) Ibid ,p14.

(٣١) رويان بوجمعة، **مادة الحميات معلمة المغرب**، المجلد الحادي عشر، سلا 2000، ص3603.

(32) DOUTTE (Edmond), Missions au Maroc. En tribu, Librairie PAUL GENTHNER, 1914. p30.

(٣٣) تصغير لكلمة "لبخة"، وهي "خرقة يجعل فيها دواء كالمرهم توضع حارة أو باردة على مكان الألم لتسكنه"، انظر: https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%84%D8%A8%D8%AE%D8%A9/

(٣٤) تحمل هذه النبتة أسماء متعددة حسب المناطق بالمغرب، ومنها "ترهلا" بالمناطق الناطقة بالعربية.

(٣٥) رويان بوجمعة، **مادة الحميات**، معلمة المغرب، المجلد الحادي عشر، سلا 1421-2000، ص3606.

(٣٦) نذكر من بين هذه الأضرحة: مولاي إبراهيم بجبل كيك وضريح لالة تكركوست بكدميوة وسيتي فاظمة باوريكة ولالة العزيزة بسكساوة ولالة تمليلت بكلاوة وسيدي عبد الله أولحساين

بغجدامة وغيرها كثير. ومعلوم أن الربط بين قبور الصلحاء وعيون الماء والأشجار مسألة شائعة بأفريقيا الشمالية"، انظر: إدمون، دوتي، **الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، البيضاء2014،ص،112.

(37) DOUTTE (Edmond) , Op.cit ;p 90.

(38) Notions générales sur le paludisme et les moyens de s'en préserver (Prophylaxie).Revue : Maroc-Medical,N°87 ,du 18Septembre1929.p341.

(٣٩) سمي بهذا الاسم نسبة إلى بلهارز [Bilharz] الطبيب الألماني الذي اكتشف الكائن الطفيلي المسبب للمرض في منتصف القرن التاسع عشر.

(٤٠) رويان بوجمعة، **الماء والصحة بالمغرب خلال فترة الحماية**، مساهمة ضمن ندوة: **الماء في تاريخ المغرب**. أيام ١٠-١١-١٢دجنبر ١٩٩٦م. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-عين الشق-سلسلة ندوات ومناظرات رقم:١١، مطبعة المعرف الجديدة-الرباط ١٩٩٩م.ص201.

(٤١) نفسه، ص202.

(42) JOB, La bilharziose au Maroc .Soc.med .hop.Paris(3(e) serie) .Dec .1915 .

(43) CARROSSE et BERNEOUD, La bilharziose vésicale à Marrakech (SHISTOSOMA HAEMATOBIUM). Archive de l'institut Pasteur d'Algérie, T.VII.fas1.Mars1929.p51.

(44) LEPINAY, GREVIN et BIETRIX ,Un cas de Bilharziose vésicale contractée à Marrakech . "Maroc-Médical",N°94 du 15 Avril1930.p130.

(٤٥) استعمال فاكهة الحنظل في علاج هذا المرض، سمعناها من عدة روايات بالمجال، في كل من دوار ايت اكتل بقبيلة غجدامة، وبدوار ألكجي باوريكة، وبإجوكاك بمنطقة نفيس وذلك في اطار زيارات ميدانية متفرقة قادتنا الى تلك المناطق.

(46) Flay-Saint-Marie ,Lamibiase en milieu indigène Marocain Etude épidémiologique et observations parasitologiques. Maroc-Médical N°166 du 15 Avril 1936.p152.

(٤٧) ظلت الأبقار التي ترعى بأكدال ياكور (بمنطقة تيغدوين) تعاني لمدة طويلة من حشرة العلق "تيضى "، التي تعلق بحلوقها فتصيبها بالهزال المفضي الى الموت. لكن مالكي الأبقار المصابة اهتدوا في فترة معينة -من اجل علاجها -الى سقيها بالمياه المعدنية التي كانوا يجلبونها من إحدى العيون بأربعاء تغدوين، فكان القطيع المصاب بالعلق يبرأ منه، حسب رواية استمعنا إليها في إطار العمل الميداني بتاريخ 27 ماي 2022.

(48) COUSIN(Albert) et SAURIN(Daniel), LE MAROC, Librairie du FIGARO, Paris, 1905. p268.

(٤٩) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، **الرحمة في الطب والحكمة**. دار إحياء الكتب العربية. بدون تاريخ. ص124.

(50) BOUVERET(Dr), Extractions des sangsues fixées dans le Cavum . Revue « Maroc- Médical », N°44 du 15 Aout 1925.p312.

(51) CHATINIERES(Paul), Op.cit ;pp 14,144 ,206.

(52) TRUTAT (Eugéne),LES PYRENEES ,Les montagnes ,Les glaciers ,Les eaux minérales ,Les phénomènes de l'atmosphère ,La flore ,La faune et l'Homme . LIBRAIEIE J.-B.BAILLIERE et FILS .Paris 1894,p352.

(53) Ibidem.

(54) Ibidem.

(55) AUGUSTIN (Bernard) ,Le Maroc .Librairie FELIX ALGAN .Paris 1916 ,p271.

(56) Ibid, p369.

(57) DUPUCH(Henri), J'étais médecin au Maroc (1942-1958) . Préface : MICHEL JOBER, Editions France. empire. Paris sans année, p5.

(58) AUGUSTIN (Bernard) ,Op.Cit ;p378.

(59) CHATINIERES(Paul),Op.cit ;pp 14,144 ,206

(60) Ibid ;p2.

(٦١) **الجريدة الرسمية** للدولة المغربية الشريفة المحمدية. عدد 38 بتاريخ 25 صفر عام 1332 الموافق ل23يناير1914.

(62) MAURAN(Dr),L'effort sanitaires au Maroc .Revue :France-Maroc . N° 17 du 15 Juillet 1917 .p18.

(63) Ibidem .

(٦٤) العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب 1888-1940** الدار البيضاء 2022. ص214.

(٦٥) ماتزال أجزاء من بنايات هذه المستوصفات قائمة الى وقتنا هذا، منها التي خضعت للتوسيع وإعادة التهيئة بعد الاستقلال، لتستمر في وظيفتها الصحية كما هي الحال في مركز امي –ن-تانوت و مركز ايت اورير ،ومنها التي تم طمس معالمها لتتحول الى سكن كما هو الحال في ثلاث-ن-يعقوب .(حظيت هذه المواقع بزيارات ميدانية)

(٦٦) رويان بوجمعة، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945**، الرباط2013، ص299.

(٦٧) تم افتتاح مستوصف تازارت سنة ١٩٣١ بطلب من باشا مدينة مراكش القائد التهامي الكلاوي ، حيث سلم لهذا الغرض قطعة من الأرض للآباء الفرنسيسكانيين [Les franciscains] وقام الاب شارل أندري بواسونيي [Charles- Andre Poissonier]على الفور بمباشرة البناء.

(68) AUGUSTIN (Bernard), Op .cit,p372.

(٦٩) "منحت مدينة مراكش، منذ سنة 1912م، سلطة إدارية تدبيرية خاصة في كامل المجال الترابي الذي احتلته فرنسا من مجموع المغرب. الامر الذي خولها في المجال الصحي أن تشكل إدارة جهوية "شبه مستقلة" يمتد نفوذها على كامل الجنوب المغربي من وارززات في الجنوب الشرقي ودمنات في الشمال الشرقي حتى أكادير في الجنوب الغربي والصويرة في الشمال الغربي"، انظر: العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب 1888-1940** الدار البيضاء2022 .صص229-245.

(70) Résidence générale de la république Française au Maroc. Conseil de gouvernement. Séance des 10 ,11et 12 Juillet1945.Imprimerie officielle, Rabat1945.p188.

(٧١) شكاك صالح، **المغرب العميق ورديغة الكبرى 1873-1956 مساهمة في دراسة تاريخ الجهات بالمغرب المعاصر**. تقديم: محمد كنبيب، الطبعة الأولى2010. ص225.

(72) CHARBONNEAU(P) et Mlle KOCHER(G), La médecine préventive au Maroc. Bulletin économique et social du Maroc. Volume XIX ,N°67,Troisieme trimestre 1955,Decembre 1955.p302

(٧٣) العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب**، ....ص 237.

(74) PAISSEAU(G) , La lutte contre le paludisme. In : Revue France-Maroc,3eme année, N° 1 , 15 janvier 1919 ,p17 .

(75) DUVAL(Jean)، L'œuvre Française au Maroc: TAZERT ou la charité le CHRIST chez les berbères. Journal : MAROC-MONDE, N°85 ,3eme année, Le 14 Septembre 1947. p 4 .

(76) Ibidem.

(77) Ibidem .

(78) Ibidem .

(79) DUVAL(Jean)،Op .cit ;p4.

(٨٠) **الجريدة الرسمية** للدولة المغربية الشريفة المحمدية. عدد 161 بتاريخ 26رجب عام1334 الموافق ل29مايو1916. ص425.

(٨١) وقفنا في إطار العمل الميداني الذي قادنا خلال فترات متفرقة الى مرتفعات وسفوح ودير جبال اطلس مراكش، على العشرات من الآبار والنطفيات التي تنحدر من المرحلة الاستعمارية و التي ما تزال أطلالها موجودة الى يومنا هذا.

(٨٢) العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب** .....،ص234.

(٨٣) نفسه، ص 236.

(٨٤) مكننا مسح سريع ببعض الأعداد لجريدة كولونيالية تدعى " L'Echo d'Alger" من تسجيل بعد الحالات نوردها حسب الجدول التالي للإشارة فقط:

مكان الخطارة	تاريخ العثور على الجثة	جنسها وجنسيتها	المرجع
نواحي مراكش	4شتنبر1931	زنجية إفريقية	عدد 8001، بتاريخ 5شتنبر1931 السنة، العشرون، ص4.
	شهر يوليوز 1931	رجل اسباني	
	-	سيدة مغربية	عدد 7981، بتاريخ 10غشت1931 السنة، العشرون، ص4.
ضواحي مراكش	26يوليوز1932	سيدة أوروبية مع فرسها	عدد 8327، بتاريخ 27يوليوز1932 السنة الواحدة والعشرون، ص4.
تسلطانت	28دجنبر1933	جثة مجهولة عالقة في الوحل	عدد 8547، بتاريخ 29دجنبر1933 السنة الثانية و العشرون، ص2.
منطقة فروكة	27فبراير1934	سيدة مغربية مسلمة عمرها سنة مخنوقة بحبل	عدد 8608، بتاريخ 28فبراير1934 السنة الثالثة والعشرون، ص2.
باب الخميس بمراكش	20شتنبر1934	شخص مغربي مسلم يدعى بنلعربي	عدد 8813، بتاريخ 21شتنبر1934 السنة الثالثة العشرون، ص4.

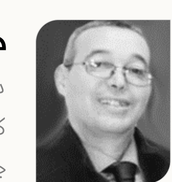
(85) DOUTTE (Edmond), Op .cit ;p134 .

(٨٦) نعت بعض الكتاب الكولونياليين هذا السلوك بـ "الدكتاتورية الطبية"، انظر: دانيال ريفي، **الطب الاستعماري أداة استبدادية متسامحة لمراقبة السكان**. تعريب: عزوز هيشور وعبد القادر مومن. مجلة أمل، العدد6 - السنة الثانية 1995، ص120.

(٨٧) نفسه، ص123.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

مظاهر "سيبة" قبيلة بني مسارة في منطقة وزان
أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين
وردود فعل المخزن المغربي على ذلك



د. إبراهيم بل العافية
دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد المالك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخّص

ظل المخبرون الفرنسيون الذين زاروا قبيلة بني مسارة ومنطقة وزان أو كتبوا عنها إلى حدود توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢م، يدعون بأن علاقة قبيلة بني مسارة مع المخزن المغربي كانت دائمًا في توتر واصطدام. كما ألصقوا بالقبيلة صورة بلاد "السيبة" التي لا تنضبط، والرافضة دوما لسلطة المخزن مع اعترافها طبعا بسلطته الدينية. إلا أنها كانت ترفض الخضوع لحكمه، كما ترفض أداء أعشارها وضرائبها له، وأن فترات الهدنة واستجابة القبيلة لرغبات المخزن في أداء الضرائب أو البيعة الشرعية، لم تكن سوى ذريعة مؤقتة لكسب الوقت وتجنب غضب المخزن. وهذا أمر غير دقيق ونسبي إلى أبعد الحدود، فمهما بدا من كتابات الفرنسيين التي تدعي أن المخزن قد عانى الأمرين في محاولة إخضاع قبيلة بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلا أنه كما سنبين من خلال هذا العرض، أنه كانت للسلطان سلطات خاصة ووظائف مهمة تدفع القبيلة إلى احترامه، ودفع واجباتها الضريبية بكيفية منتظمة له. وعندما تدعو الحاجة الوطنية كانت القبيلة تقدم مساهمتها العسكرية عندما يداهم البلاد خطر ما، أو تلبي بعض رغبات المخزن غير المعلنة والمبطنة كهجومها ونهبها لشرفاء وزان الذين كانت بعض ممارساتهم كالاحتماء بالأجانب تثير غضبه. لقد كانت تجمع بين المخزن وبني مسارة في بعض اللحظات مصلحة مشتركة في ربط علاقات جيدة، خاصة أمام استفحال الحمايات القنصلية في صفوف الشرفاء والميسورين بالمنطقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	أبريل	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:
المخزن، السيبة، الحسن الأول، القواد، منطقة وزان.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.282832.1124

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
إبراهيم بل العافية، "مظاهر "سيبة" قبيلة بني مسارة في منطقة وزان أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وردود فعل المخزن المغربي على ذلك".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٦٢ – ١٧٧.

Corresponding author: ibrahimbelafia9@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

لم تكن قبيلة بني مسارة، تحت النفوذ الفعلي للمخزن خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلا نادرا، ولهذا كانت تدير شؤونها إضافة إلى ممثل المخزن بنظام "الجماعة"، هذا النظام كان يقوم على اختيار العقلاء من السكان إما علماء ورعين أو وجهاء عاقلين...[١]، لتسيير الأمور وإدارة الأوضاع، التي كانت تتم بتنسيق مع القائد ممثل السلطة الذي كان يريد فرض هيبة المخزن. ولم يكن السكان يرغبون في التخلي عن هذا النظام رغم الحرج الذي كان يضعهم فيه القواد الذين كانوا يطالبون الناس بالخضوع، والاعتراف قسرا بقوة المخزن، وأداء ما بذمتهم من أعشار وضرائب. كان السلطان ينأى بنفسه عن التدخل في مؤسسات القبيلة ومجالسها مادامت المشاكل تحل وتعفيه من عناء تولي الإدارة المباشرة، بالمقابل كانت القبيلة تريد من المخزن توفير سلطة تحل مشاكل الناس، وتحافظ على الأمن وتردع القواد المستبدين المشتطين، أما أحاديث الفوضى وعشق "السيبة" الدائمة كما يدعي الأجانب فقد كانت نسبية فقط، فسلطة المخزن دائمًا موجودة في شخص قواده الذين يمثلون السلطان، ويكرسون حضوره، لأن سلطته الحقيقية كانت مستمدة من السلطة التي يجسدها في نظر الناس باعتباره ممثلا للسلطان. إلا أن ظلم القواد وقسوتهم كانت تدفع القبيلة إلى "السيبة" فكانت تهجم عليهم وتطردهم من قيادتهم أو تقتلهم، وبذلك كان يضطر السلطان إلى القيام بحملات عسكرية لتأديب القبيلة على تمردها وطغيانها. فماهي إذن مظاهر وتجليات سيبة قبيلة بني مسارة على المخزن في منطقة وزان خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؟ وما هي ردود فعل المخزن على ذلك؟ وما هي عواقب هذا التدخل على العلاقة بين الطرفين وعلى الأوضاع الأمنية في منطقة وزان خلال هذا العهد؟

أولاً: مظاهر سيبة بني مسارة في منطقة وزان أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

بعد طرد المساريين للقائد محمد بن محمد القيسي سنة ١٨٧٣م بقيت القبيلة بدون قائد لمدة سبع سنوات، وهو ما دفع بالمخزن إلى إرسال عدة حملات لتأديب القبيلة، وكان معظمها على يد قواد الغرب في سفيان[٢] وبني مالك[٣]، لأن بني مسارة والمنطقة كانت تابعة آنذاك لعمالة الغرب بدل العرائش كما كانت في السابق، وكانت تدار من قرية بن عودة شمال مدينة سوق الأربعاء الغرب الحالية، تحت قيادة القائد ابن عودة الجزائري الذي كلف قائد سفيان أبو بكر بن محمد الحباسي بتأديب ثوار القبيلة سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م. أمام صعوبة ضبط الأمور، سيعين السلطان هذا القائد عاملاً على القبيلة بعد حملة ١٨٨٠م، وبقي يدير أمورها سنة ١٨٨٧م، وفي سنة ١٨٨٨م قام السلطان الحسن الأول بتقسيم القبيلة على إيالتين، بعد أن كانت إيالة واحدة تحت نظر قائد واحد وهي:

- قيادة في الجهة الشمالية بزومي بقيادة ابن الشيخ السابق محمد بن محمد القيسي القطاري.
- قيادة في الجهة الجنوبية في بني مسارة السفلى بقيادة القائد الدريدي البوصروري انطلاقا من دوار المناصرة ببني كلة[٤].

وعلى الرغم من ذلك، سابت القبيلة على القائدين وقتلت القائد المعين على بني مسارة العليا ابن محمد القيسي (الابن)، الذي كان أشد ظلما من أبيه، فهاجمته القبيلة وطردته من قيادته[٥]، وفي الوقت نفسه قامت بني مسارة السفلى بالثورة على القائد الدريدي البوصروري وأبعدته عن عمله[٦]، لهذه الأسباب سيضطر السلطان الحسن الأول إلى النزول بنفسه في بني مسارة سنة ١٨٨٩م، لتأديب القبيلة على تمردها وطغيانها، لكنه بمجرد رحيله عادت القبيلة إلى سيبتها وعتوها من جديد، وثارت على القائدين، وهذا ما دفع المخزن إلى تجريد عدة حملات أهمها حملة العربي السوسي سنة ١٨٩٣م، وحملة عبد السلام الأمراني سنة ١٩٠٢م لتأديبها على ما اقترفته من جرائم. لقد كان لتعيين قائد القبيلة من طرف المخزن تأثير سياسي في الوسط القبلي، فبني مسارة أنفسهم لم يكونوا يعترفون بسلطة أي قائد، إلا إذا جاءه التعيين من السلطة المركزية، لكن السلطة والنفوذ الذي كان يستطيع أن يمارسه القائد لم يكن يتوقف على بركة المخزن، بل

بالطبع على كفاءته في القيادة، ولهذا السبب اتبع كل قائد سياسته الخاصة التي تسمح بنجاحه في مهمته، كالتعاطف مع أوضاع القبيلة المتأزمة، كما فعل الشيخ الحمرني عندما رفض جمع ضرائبها[٧]، أو بالاعتماد على الجواسيس والاحتماء بعصبيته العائلية في قمع الناس والسيطرة عليهم، كما فعل القائد بن محمد القيسي.

كما كان المخزن يعتمد في ضبط القبيلة على الشرفاء سواء من داخلها[٨]، أو من خارجها كشرفاء وزان وشرفاء أولاد البقال بقبيلة غزاوة، وكذلك على تدخل الأولياء والصلحاء ذوي الشهرة الدينية، والذين كان لهم تأثير قوي جدا على الناس[٩]. كما عزز المخزن في عهد السلطان الحسن الأول سلطانه على القبيلة بتقسيمها وتعويض قائد واحد بقائدين أو أكثر، وفي حالة استعصاء الأمر كان يتدخل السلطان شخصيا لحسم المسألة، لأن المخزن كان يريد إسكات الجبهة الداخلية للبلاد حتى يتفرغ للضغوط الأوربية التي كانت تنخر سلطته. أما بالنسبة لبني مسارة، فقد كانت تؤدي واجباتها إلى المخزن كاملة شريطة وفرة الإنتاج، وتقدم مساهماتها العسكرية إن داهم الوطن خطر ما، فمثلا خلال حرب تطوان شاركت بني مسارة بفرقة عسكرية معتبرة[١٠]، وكانت القبيلة في حالة توتر علاقتها بالمخزن تحاول تجنب غضبه برفع الشكايات إليه، واللجوء إلى عطفه وعفوه إن سرح إليها الحملات القمعية وإلقاء القبض على رجالها[١١]، كما كان المخزن يعتمد في فرض تأثيره العسكري من حين لآخر في منطقة وزان، بالاستعانة بخدمات بني مسارة التي كانت تقف دائمًا بجانبه، من نماذج ذلك، المساعدة في القبض على الثوار كالثائر "بوحمارة" في ضريح مولاي عمران، وضرب بعض القبائل العاصية كما حدث لقبيلة سطة[١٢].

يقول البكاري في هذا الشأن:" كما أخمدت القبيلة ثورة بوحمارة أخمدت ثورة الروكي... ومدت يد المساعدة للحكومة الشرعية وساعدتها في القضاء على الفتن وحركة التخريب التي كانت المناطق الجبلية مسرحا لها خلال فترة طويلة من الزمن. وبذلك تكون بني مسارة هي الصخرة التي تكسرت عليها حركات التخريب أثناء ضعف الحكومة الشرعية بالمغرب عبر عصورها رغم ما اتسمت به من الفوضى والاستهتار والسطو والنهب على أمتعة الجيران"[١٣]. بصفة عامة، كانت أهداف المخزن هي الاحتفاظ على الأقل بسلطته الشكلية على منطقة وزان، موطن القبائل الجبلية الصعبة المراس، ومنع أي انقطاع طويل الأمد لسلطته على جزء من رعيته، أما فيما يخص مسألة رفض المساريين دفع المال للمخزن فلم تكن شائعة على الدوام، بل كانت فقط خلال السنوات العجاف وبعد تقديم التماس بالعفو أو التأجيل[١٤]. إننا لا نبرر أفعال القبيلة، بل نحاول فقط أن نحدد المسؤوليات التي أغفلتها المصادر المغربية التقليدية والكتابات الأجنبية، التي تحمل المسؤولية كاملة للمساريين الذين كانوا يثيرون بشكل دوري القلاقل بمنطقة وزان، ويشيعون الفوضى والاضطراب بها، بالهجومات المتكررة على القبائل وعلى مدينة وزان وعلى بسائط الغرب واللكوس، مستفيدين من ضعف المخزن المركزي والمحلي، فينهبون جيرانهم ويمارسون سطوتهم عليهم.

كانت "سيبة" أو "تمرد" قبيلة بني مسارة يتميز بالعنف والقسوة، إذ كان المساريون يهجمون على وزان وعلى القبائل المجاورة لهم، خاصة على قبائل مصمودة وبني مزجلدة ورهونة... ناشرين للعنف والفوضى، ومن بين الأفعال المنسوبة إليهم في المراسلات المخزنية الدخول إلى الزاوية واختراق حرم مولاي عبد الله الشريف[١٥]، يذكر لوشاتلييه (Le Chatelier) أنهم احتلوا مدينة وزان سنة ١٨٨٥م لمدة ستة أشهر، حيث نشروا الفساد ومارسوا النهب وسبوا الفتيان والفتيات لبيعهم في الأسواق، وقد تساوى عندهم الشريف والعامي، ولم يسلم من أفعالهم ضريح مولاي عبد الله الشريف الذي سرقوا كسوته"[١٦]. هذا الكلام مطابق تماما لما جاء به المشرفي تعليقًا على الرحلة المخزنية الخامسة عشرة إلى شمال المغرب في صيف سنة ١٨٨٩ حيث قال:" وكان قصده الفتك ببني مسارة لما اشتهروا به من نهب الركبان وقطع الطريق على المار لمدينة وازان، وهتك حرمة الحريم"[١٧]، ويؤكد هذا الكلام كذلك المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان معلقا على نفس الرحلة، "ووجه حركة أخرى - الحسن الأول - لقبيلة مستارة لتسكين الروعة التي قامت بها، والضرب على أيدي الناهبين

وقطاع الطريق على المارة لوزان ولا يعظمون حرم مولاي عبد الله"[١٨]. كما جددت القبيلة غاراتها على القبائل المجاورة من أهمها؛ بني مزجلدة، ومصمودة، ورهونة، خاصة بعد تحالف القبيلة مع غزاوة، يقول السلطان الحسن الأول في هذا الشأن: "بني مسارة وغزاوة غاروا على رهونة وحرقوا مداشر زاعمين أن لهم حقوقا عليهم، إلا مداشر أربعة تركوها بلا حرق"[١٩].

ثانيًا: ردود فعل المخزن الأولية على "سيبة" بني مسارة

كان لأفعال بني مسارة عواقب وخيمة عليها وعلى منطقة وزان بشكل عام، حيث تكررت الشكاوى إلى السلطان رمز البركة والسلطة العليا، وعجز الشرفاء الوزانيون عن ضمان أمن مدينتهم وممارسة دور التحكيم بين القبيلة وجيرانها[٢٠]، واستعمل السلطان كل الوسائل لردع المساريين عن تمردهم وطيشهم وإعادتهم إلى الجادة والصواب، في إطار دوره التحكيمي بين كل عناصر المجتمع، وكان تدخل السلطان يتم بطريقتين:

٢/١-توجيه رسائل النصح والتأنيب وإرسال المبعوثين

وجه المخزن رسائل عدة إلى قواد بني مسارة والى أشرافها وأعيانها يطالبهم بالكف عن الاعتداء على الناس وعلى الشرفاء واحترام الأولياء، خصوصا ضريح مولاي عبد الله الشريف. يقول السلطان الحسن الأول في هذا الشأن:" وأما الخديم المساري، فقد كتبنا له باللوم على ذلك وحذرناه عاقبة شؤم ما هنالك"[٢١]. وفي رسالة من الصدر الأعظم الوزير باحماد إلى الحاج محمد الطريس:" وأنهينا ذالك لمولانا أيده فاستقبح أفعالهم وكتب لهم أعزه الله بما يحملهم على الاستقامة والإقلاع عن ذالك والجلوس عند الحد وكتب لعاملهم بحضهم على التنفيذ".[٢٢] وجاء في رسالة أخرى من الصدر الأعظم الوزير باحماد إلى الحاج محمد الطريس:" ولم يبق إلا ما في بني مستارة من الطيش الذي صار بها وهم يتحدثون بسبب بالهجوم على القصر[القصر الكبير]... وعن بني مستارة، فإنه أعزه الله كان كتب لهم قبل صحبة الكاتب السيد أحمد الكردودي بما يحملهم على الكف والجلوس عند الحد، بعد أن أمر الكاتب المذكور بالبحث عن أحوالهم فيما تشوفوا له، وقد جرد الأمر الشريف لعامل الخلط والطليق برد البال للقصر.."[٢٣].

٢/٢-الاعتماد على وساطة الأشراف والأولياء

بسبب ضعف المخزن المحلي وصعوبة استعمال القوة دائمًا ضد القبيلة بسبب عوامل طبيعية متمثلة في صعوبة التضاريس، وأخرى سياسية ارتبطت بالظروف العامة التي كانت تعيشها البلاد، لجأ المخزن إلى الاستعانة بأدوار الوسطاء من الأشراف والأولياء الذين كانت لهم مكانة خاصة وكلمة نافذة على الناس، ومن أهمهم الشرفاء الوزانيون الذين كان ينظر إليهم كمصلحين بحكم شرفهم، وانتسابهم للدوحة النبوية الشريفة، والذين لعبوا دورا مهما في إشاعة السلام بين الناس، وتهدئة القبائل والمحافظة على السلم والأمن بها، وإقامة التوازن بينها، دفع كما رأينا سابقا السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى تعيين الشيخ سيدي علي بن أحمد الوزاني خليفة له بالشمال الغربي بقوله:" نحب من سيدي علي بحق مولانا عبد الله الشريف أن تكون حاجزا بيني وبينهم في جميع أمورهم"[٢٤]، كما كان الشرفاء يقومون بتدعيم المخزن المحلي وتثبيت سلطته أثناء تمرد القبيلة على القائد، أو العامل وفرض احترام السلطة المخزنية وترسيخ طاعة من يعينهم السلطان. وفي هذا الصدد كتب السلطان مولاي الحسن الأول إلى الشريف سيدي محمد بن المكي مقدم الشرفاء بوزان آمرا إياه بمساعدة قائد بني مسارة السفلى محمد بن العربي الكلي بعد عزله: "المحب مقدم الزاوية الوزانية السيد محمد بن المكي، فنأمرك أن تشد عضد قائدنا محمد بن العربي المستاري الكلي على فساد إيالة إخوانه بالقبض عليهم في أسواق إيالتك وتكون معه عليهم يدا واحدة حتى يرجعوا للجادة"[٢٥]. مقابل هذه الأدوار كانوا يحظون بكل أنواع التقدير والتبجيل والاحترام... لكن خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تراجعت أدوار الوزانيين بسبب تصرفات شيوخ الوقت الخاطئة التي أفقدتهم الكثير من التقدير والاحترام، لأنهم حادوا عن جادة الشرفاء الأولين، وانحرفوا في ممارستهم نحو اللهو والبحث عن مفاتن الدنيا، بل وصل الأمر إلى طلب الحماية الأجنبية،

وفي بعض الفترات أصبحوا يبادلون بني مسارة العنف بالعنف ونشر الفوضى، فتحولوا من عامل استقرار إلى طرف في الفتنة والاضطراب، لهذا لجأ السلطان إلى وساطة الشرفاء البقاليين الغزاويين الذين كانوا يحظون باحترام وتقدير خاص لدى المساريين، وإلى دور بعض الأولياء المبجلين لمصالحة القبيلة مع جيرانها، كالولي سيدي العربي الخيصي الذي حاول سنة ١٣٠٠هـ مصالحة القبيلة مع جيرانها[٢٦].

٣/٢-الإصلاح الإداري بتقسيم القبيلة على قسمين

بهدف تحصين البلاد ومواجهة الضغوط الأوربية، وتكثيف حضوره بين القبائل وإخضاعها لحكمه المباشر، قام المخزن بإجراء إصلاح إداري عن طريق توزيع القيادات الكبرى إلى قيادات صغرى، فمن ١٨ إيالة في بداية عهد الحسن الأول إلى ٣٣٠ قيادة سنة ١٨٨٨م [٢٧]، فعلى سبيل المثال كانت بني مسارة على عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان إلى نظر قائد واحد، وهو القائد محمد بن امحمد فتحا القيسي القطاري، بينما أصبحت في عهد الحسن الأول يتوزع حكمها قائدان: محمد بن محمد القيسي (الابن) بزومي في بني مسارة العليا، والدريدي البوصروري في المناصرة ببني مسارة السفلى، سابت القبيلة على القائدين وطردتهما وجعلت مكانهما عاملين آخرين... والجدير بالذكر أن المخزن كان يروم بهذا التقسيم إلى إضعاف قبضة القواد على القبيلة، وتجنب الخوف من تفكيرهم في التمرد، كما حدث مع القائد المستبد القيسي القطاري المساري[٢٨]، أضف إلى ذلك إحكام قبضة المخزن على السكان، وتجميع الجبايات بسهولة لمواجهة المتاعب الجديدة التي أصبح يواجهها بيت المال[٢٩].

أما من جهة القبيلة، فهي لم تكن تستهين باختيار السلطان للشخص المعين، بل كانت تقبله وترحب به، لكن في حالة استشاطته وظهور تعسفه على الناس، كانت القبيلة ترسل إلى المخزن وفودا للاحتجاج على تصرفاته، وبعد رفض أو تلكؤ السلطان في الاستجابة إلى مطلبهم في عزله أو معاقبته، يتغير موقف الناس من سلطته، ويأخذون الثأر بأنفسهم، وأحسن مثال يمكن أن نسوقه في هذا الشأن ما وقع للقائد محمد بن امحمد القيسي في ولايته الأولى سنة ١٨٤٨ عندما قام المخزن بسجنه، وإسقاط ولايته استجابة لرغبة السكان في التخلص من حكمه المستبد، لكن الأمر اختلف في ولايته الثانية التي كانت أكثر استبدادا وبطشا ولم يكن يخدم إلا مصلحته، حيث رفض المخزن الاستجابة لرغبات السكان في التخلص منه، ولما لم يتدخل ثاروا عليه سنة ١٨٧٣ وتخلصوا من شره[٣٠]. كان أمل المخزن في تقسيم القبيلة على قيادتين، قيادة في بني مسارة العليا وأخرى في بني مسارة السفلى هو ضمان الأمن بالمنطقة والحصول على اعتراف الناس بسلطته الحقيقية على القبيلة والمنطقة، كأن تمر كل مشاكل الحدود بين القبائل عبر ممثليه عوض أن يتكلف بها ثوار القبيلة، إضافة إلى إلزام الناس بالهدوء والابتعاد عن النشاط الإجرامي ونشر الفوضى داخل المنطقة، يقول السلطان الحسن الأول جوابا على طلب العفو الذي قدمه له المساريون لما حل بأرضهم سنة ١٨٨٩:" إن التوبة يا بني مسارة لها شروط، منها أن ترد المظالم إلى أهلها وأنتم تظلمون الناس، وتأخذون أموالهم وتعتدون عليهم"[٣١].

كما تمثل دور القائد في التحدث باسم السلطان لحل مشاكل الحدود مع الجيران، وتمثيل سلطته الرمزية الشريفة على المنطقة، وكان للقائد وخلفائه مهام متنوعة، وكيف ما كانت الفائدة التي قدمها هؤلاء للمخزن في القبيلة، فإن معظم السكان في بني مسارة كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم أدوات لتدخل المخزن وفرض الضرائب، بالمقابل كانوا يدركون بأن حياتهم لا يمكن أن تستقيم بدون وجود هؤلاء، لأنهم كانوا يؤثرون بشكل أو بآخر في مجرى العلاقات داخل القبيلة وخارجها، يقول البكاري تعليقا على أفعال قائد بني مسارة القائد بن امحمد القيسي:" ومما يثير الانتباه في هذا الشيخ أثناء حكمه للمنطقة أنه علم قبيلة بني مسارة الإغارة على جيرانها من القبائل التي تحيط بها، فعاشت المنطقة حقبة من الزمن في فوضى واضطرابات عمت كل أرجاء الريف الغربية، وقد تفاقم الوضع بشكل هائل بعد هروب الشيخ إلى مدينة فاس تاركا وراءه حالة من الفوضى[٣٢]، كانت وبالا على أعوانه الذين تركهم حطابا للبندقية والسلاح"[٣٣].

تأكيدًا على أهمية سلطة القائد في حياة القبيلة، انقسم أفراد وفرق القبيلة حول بقائه من عدمه، فبينما كان جزء من فرقة أو عدة فرق يعاملون القائد بجفاء، وجدت في ذلك فرق أخرى سببا ليكونوا معه أكثر توددا، ومثال ذلك قضية فرقة أولاد جنون الذين عاملوا القائد الدريدي البوصروري بجفاء وقسوة، أدت إلى مقتله، وإحراق داره ومقر قيادته بدوار المناصرة، بالمقابل كانت فرقة بني كلة تحالفه وتميل إليه لأنه منهم، ونفس الأمر وقع مع القائد أبو الشتاء بن الهاشمي الحجري الذي عينه المولى عبد الحفيظ سنة ١٩١٢، والذي عادته فرقة أولاد كنون الذين قتلوه، بالمقابل حالفته فرقتا حجر بني يعيش وبني كلة[٣٤]، بصفة عامة فعلاقة بني مسارة بالمخزن قد اتخذت شكلين أو طريقتين بارزتين:

ـ التمرد والعصيان كلما رام المخزن المحلي الاستبداد والتسلط على أرزاق الناس وقوتهم المعيشي إلى درجة التمرد ورفض السلطة، وبقتل قادته المحليين والمواجهة المباشرة مع السلطان نفسه في عدة مناسبات.

ـ الاعتراف بسلطة السلطان الروحية دون الزمنية، حيث كانت ترسل وفودها خاصة الأشراف في أوقات متعددة إلى العاصمة لتقديم البيعة للسلطان الجديد[٣٥]، أو خلال عيد الأضحى، حيث يقدمون له تهانيهم وهداياهم وهباتهم وزكاتهم، باعتباره أميرا للمؤمنين وقائدا روحيا، وإن حل بأرضهم يبجلونه ويعظمونه ويقدمون له الاحترام الكامل[٣٦]. وبخصوص الضرائب، لم تكن القبيلة تجمعها أو تؤديها بشكل منتظم والتي كان على قواده أن يجتهدوا في جمعها، وهذا ما كان يؤدي إلى المواجهة مع السكان، إن رام هؤلاء القواد أخذها بالقوة.

ثالثًا: مواجهة المخزن عسكريًا لـ"سيبة" بني مسارة (١٨٧٣ ـ ١٩١٢)

لقد كانت علاقة بني مسارة مع المخزن عبر التاريخ متذبذبة، تارة متوترة وعكرة، وتارة أخرى جيدة ومتينة، وكانت بني مسارة تعترف دائمًا بسيادة المخزن، لكنها لم تكن تخضع لسلطته إلا نادرًا، وقد قضى المخزن في عهد السلطان المولى الحسن الأول الجزء الأكبر من مدة حكمه في تهدئة القبائل والقضاء على التمردات والانشقاقات القبلية بالمغرب، وكان من نصيب بني مسارة في الفترة الممتدة من سنة ١٨٨٠م إلى سنة ١٨٩٣م، ثلاث محلات قادها قادة مخزنيون، وحركة سلطانية قادها السلطان بنفسه، وفي عهد المولى عبد العزيز قاد قائده وابن عمه عبد السلام الأمراني حملة خطيرة على القبيلة سنة ١٩٠٢م.

٣/١-مواجهة السلطان الحسن الأول للتمرد الأول لبني مسارة (١٨٧٣ ـ ١٨٨٠)

بعد طرد القائد محمد بن محمد القيسي سنة ١٨٧٣م بقيت بني مسارة بدون حاكم، تعيش في شبه فوضى وتسيب على جيرانها، في سنة ١٨٨٠م تغير فجأة موقف اللامبالاة الذي كان يتبعه المخزن مع بني مسارة التي بقيت بدون قائد لمدة سبع سنوات بعد طرد القائد القيسي، لما قرر السلطان الحسن الأول مواجهة هذا التمرد الذي بدأ يتدحرج نحو تهديد العرش، حينما بعث بحركة إلى القبيلة سنة سنة ١٨٨٠م بقيادة أبو بكر الحباسي الغرباوي لحصر طغيان القبيلة وتمردها[٣٧]، لكنه فشل في مهمته لأن بني مسارة سرعان ما عادت إلى العصيان، وقد اشتد تمردها أكثر خاصة بعد تحالفها مع قبيلتي رهونة وغزاوة، حيث أحدثوا انتفاضة كبيرة بمنطقة وزان، ولم ينحصر تمردهم بالاحتجاج على فرض الضرائب، بل انتقلوا إلى الثورة والعدوان على السلطان نفسه، وعينت بني مسارة زعيما لها يلقب ببوقبة لضخامة رأسه، وسلمته الشعار الشريف المتمثل في المظل الذي يرمز في المغرب إلى أعلى سلطة، نزلت هذه القبائل من الجبال وتجمعوا حول وزان، وهددوا شرفائها وسكانها وطالبوهم بالانضمام لهم، وإلا تعرضوا للهجوم والنهب، فأرسل المخزن قوات على التو بقيادة مبارك بن سحلن[٣٨] لمواجهة الخطر الداهم الذي إن نجح سيهدد عرشه لا محالة[٣٩].

تمكن قائد المخزن مبارك بن سحلن من هزم المتمردين والقبض على زعيمهم بوقبة، إضافة إلى وضع ٢٣ من رؤوس المتمردين في الملح وإرسالها إلى فاس، حيث علقت على أحد أبوابها، أما بوقبة فإنه أفلح في الهروب من سجانيه بواسطة حيلة ذكية سنسردها، كما جاءت في رسالة السفير الفرسي بطنجة:" حين وجد زعيم المتمردين هذا نفسه محاصرا أقنع محاصريه من

الجنود، بأنه ليس بوقبة، ثم دلهم على شريف يقف غير بعيد عنه، رأسه هو الآخر كبير، وأكد لهم أنه هو الثائر الراغب في الوصول إلى عرش المغرب الذي يبحثون عنه، وبسذاجة صدق الجنود القصة وأطلقوا سراح بوقبة قبل أن ينقضوا على الشريف، الذي اقتيد إلى حيث يوجد القائد وقطعت رأسه في الحين، وبعد وقت قصير من ذلك تحقق مبارك بن سحلن[٤٠] من الخطأ الذي ارتكبه رجاله، فغضب بشدة لفداحة صنيعهم وأمر بضربهم بعد أن كبلهم"[٤١].

يبدو أن الخطأ الذي ارتكبه جنود القائد المخزني كان قاتلا، حيث تمكنت بني مسارة من استجماع قواها من جديد، ودخلت مرة أخرى في مواجهات مع جيوش السلطان وكان النصر هذه المرة حليفها، وأشار السفير الفرنسي أن ضحايا المواجهات بلغت من القتلى في الطرفين ٢٥٠ قتيلاً من بينهم ٥ ضباط سامين من الجيش النظامي أربعة منهم برتبة تقابل رتبة كولونيل، وخامسهم تعادل رتبته رتبة جنرال[٤٢]. وعلى الرغم من القمع الذي كانت تتعرض له القبيلة من طرف قادة المخزن، إلا أنها كانت تستجمع قواها وتجدد من تمردها وعصيانها كل مرة، وهو ما دفع السلطان إلى إرسال حركتين أخريتين سنة ١٨٨٢-١٨٨٣م بقيادة قائد الغرب بن عودة الجزائري ثم القائد أبو بكر الحباسي الغرباوي[٤٣]، وقد تمكنت بني مسارة من القضاء على الحملة الأولى[٤٤] والفشل في الحملة الثانية.

للقضاء على فساد القبيلة، قام المخزن بإلحاقها إداريًا بعمالة الغرب بقيادة القائد أبو بكر الحباسي الغرباوي الذي بقي في حكمه عليها إلى سنة ١٨٨٧م، ولمساعدته في إدارة شؤون القبيلة عين السلطان سنة ١٨٨٤م القائد الدريدي البوصروري في بني مسارة السفلى المعروفة بلوطة، أما في بني مسارة العليا (جبالة) فخلع القائد الذي عينه السكان السيد الهاشمي المرابط وعين بدله القائد محمد العربي الرضواني المثيوي، وعلى الرغم من ذلك جددت القبيلة ثورتها، وعزلت القائدين وعينت مكانهما قائدين آخرين[٤٥]، وهو ما أرغم المخزن على القيام بحملة تأديبية بنفسه، قادها السلطان المولى الحسن الأول سنة ١٨٨٩م في إطار الرحلة التي كان يقودها نحو الشمال، وكان هدفها الاتصال المباشر مع القبائل، وفرض قدر من القانون والنظام عليها، إضافة إلى إظهار قوة المخزن، وأن سلطته تصل إلى كل الأماكن، ولما كانت بني مسارة مصدر الشغب بمنطقة وزان، لأنها تتميز عن باقي قبائل المنطقة حيث كانت مرتعا للتآمر والاضطراب، فهي القبيلة الأكبر والأكثر تسليحًا ويجب كبح جماحها.

كان السلطان على رأس حركة عسكرية قوية، نزل في خولان بأعلى القبيلة وأنزل جيوشه بقيادة قائده محمد الشركي ببونيزر في وسط القبيلة لمداهمة المتمردين[٤٦]، وأطلق يد الجيش تقتيلا ونهبا وترهيبا[٤٧]، ومن المؤسف أننا لم نتمكن من معرفة التفاصيل الدقيقة حول قوام المحلة المخزنية ومن تقدير جموع بني مسارة وقادتهم، ومن المؤكد هو أن الجمعان التقيا في بونيزر قرب قاعدة القبيلة بمركز زومي، حيث دارت بينهما مواجهة عنيفة كانت لصالح الجيش المخزني الذي شتت جموع القبيلة. وما يلاحظ على عمل السلطان في هذه الحملة، أنه لم يبادر إلى مغادرة القبيلة مباشرة بعد تأديب المتمردين ومعاقبتهم، بل طاولهم وأثقل عليهم وظلت حركته جاثية عليهم بكلكلها من أجل تأديبهم واستئصال شأفتهم، حيث أدى شريعة عيد الأضحى بالقبيلة [٤٨]، إذ تصبح ملزمة بأداء مؤونة الجيش وشروط الضيافة من علف للدواب وطعام للجنود، إضافة إلى الهدايا التي يجب أن تقدم إلى السلطان ومرافقيه، وهذه كلها مصاريف ثقيلة جدا على القبيلة، خاصة إذا علمنا قوام الحملة المخزنية من جنود ودواب وخدم، والتي بدون شك كبيرة جدا، نظرا للمهام التي أنيطت بها من معاقبة للقبائل الثائرة، وطول الرحلة التي تشمل الشمال الغربي بكامله.

إن التكلف بإعالة هذا الجيش العرمرم تتطلب مصاريف ثقيلة على سكان بسطاء لا يجدون ما يسدون به رمقهم، وهذه وسيلة أخرى لمعاقبة الثوار، ويعتبر استقرار السلطان لمدة طويلة بقبيلة معينة وسيلة فعالة من وسائل التأديب، وهذا ما حدث مع بني مسارة سنة ١٨٨٩، حيث اضطر جيش السلطان للإقامة من ٢ إلى ٢٤ غشت أي مدة ٢٢ يوما لإخضاعها[٤٩]، وهي مدة طويلة كافية لإخضاع أي قبيلة مهما كانت قوتها، حيث كان المخزن يتعمد المكوث طويلاً في أراضي القبائل الثائرة، إذ كان يجبرها على أداء مؤونة الجيش كاملة من

طعام للجنود وكلأ لدوابهم، وهي وسيلة فعالة لإفقار هذه القبائل وإجبارها على الطاعة، يقول لويس أرنو على لسان شاهده سالم العبدي الذي شارك في حملة للمولى عبد العزيز في منطقة واد زم وتادلة سنة ١٨٩٧"... وكان مختلف قواد الطوابير يقولون للانفصاليين المنشقين: استسلموا وأدوا مستحقاتكم من الضرائب، وحينئذ سنغادركم، أما إن رفضتم فإننا سنظل بأراضيكم، وستكونون مرغمين على مؤونتنا، وتغذيتنا إلى أن تفتقروا وتصبحوا أعرى من كأس كما يقال"[٥٠].

اكتفى السلطان بفرض الغرامات الثقيلة على السكان، حيث رابطت محلته في بونيزر تؤدب وتغرم حتى أرغمهم على الإذعان والخضوع، لجعلهم يقررون دفع مؤخر ضرائب طويل، يقول المشرفي: "ووظف عليهم وظائف أدوا بها التبعات وما عليهم من دين الزكاة"[٥١]، ورغم ذلك لم يعزم المساريون على فعل ذلك إلا بعد مساومات طوال، وبعد أن استنفدوا مع السلطان نفسه كل وسائل التسويف[٥٢]. وبعد التأديب تقدم أعيان القبيلة بطلب العفو والشفعة لدى الحضرة الشريفة، حيث تقدم الجميع شيوخا وأعيانا وعامة إلى خيمة السلطان، وأقاموا عروضًا موسيقية أمام خيمته وكان يتقدمهم مقدم الطلبة محمد بن أحمد القشودي[٥٣]، يقول البكاري في هذا الشأن"...فتقدم إليه الطلبة ومقدمهم وأعيانهم وغياطتهم وطبالتهم الماهرون...وصدحت الغيطة وطبلت الطبول ساعات، ثم سكتت واصطف الحاضرون وانحنوا أمام المولى الحسن الأول طالبين منه العفو والصفح، وأعلنوا توبتهم وأنهم طائعون لله ولرسوله ولأمير المؤمنين ...فرد عليهم بقوله:" إن التوبة يا بني مسارة لها شروط منها أن ترد المظالم إلى أهلها، وأنتم تظلمون الناس وتأخذون أموالهم وتعتدون عليهم..."[٥٤]، ويلاحظ أن السلطان لم ينفذ عقوبة شديدة على المساريين على شاكلة ما كان ينزله أسلافه من العقاب والعذاب على القبائل المتمردة، وخاصةً الطرد والتغريب عن بلادها، ولما كان يضمره هو نفسه ضدها. وهذا ما أشار إليه المشرفي بقوله: "كان قصده الفتك ببني مسارة، لما اشتهروا به من نهب الركبان وقطع الطريق على المار لمدينة وزان"[٥٥].

لقد كشف تعامل مولاي الحسن الأول مع بني مسارة عن ضعف المخزن في منطقة جبالة، وعن مرونة واضحة عندما لم يعاقبها بعد قمع الثوار والسيطرة على الناس، وربما كان هدف السلطان في الظاهر هو تهدئة الأمور واتخاذ موقف مصالحة القبيلة مع جيرانها باعتباره الحكم الأعلى، مفضلا نهج المصالحة والتعاون على أسلوب القمع والاضطهاد، لقد قضى السلطان معظم وقته في استقبال الوفود من أعيان القبيلة، والقبائل المجاورة والاستماع إلى الشكاوي والمطالب والتحكيم في النزاعات.

٢/٣-مواجهة السلطان الحسن الأول للتمرد الثاني لبني مسارة (١٨٨٩ ـ ١٨٩٣م)

كانت قضية "السيبة" في بني مسارة في هاته المرحلة قد بلغت مستوى من الخطورة لتدفع بغضب المخزن إلى مداه، وسبق أن رأينا كيف حاول السلطان الحسن الأول ردع طغيان القبيلة وفسادها، وردها إلى الجادة بالتهديد والوعيد، وأحيانا بتجريد حملات عسكرية لردعها وإجبارها على دفع مؤخر الزكاة الذي كانت ترفض أداءها[٥٦]، لكن في نهاية المطاف تعود الحملات العسكرية أدراجها، ويعود سياب القبيلة إلى نشاطاتهم المعهودة من جديد، واستغلال أتفه الأسباب في ذلك، فأي حادث مهما كانت تفاهته أو بساطته كنزاع شخصي بين مساري ووزاني، أو مساري مع أي شخص من القبائل المجاورة... كان يشكل بحكم الجهل والتعصب المستشري في المجتمع آنذاك، نقطة انطلاق لصراع مسلح وحرب طاحنة تكون فيها الغلبة دائمًا للمساريين لأنهم الأكثر عددا وبسالة وانسجاما من غيرها من القبائل الأخرى أناسها لا يقهرون[٥٧].

لقد شغل السلطان جزءا من وقته في الفصل في النزاعات لتحقيق قدر من الاستقرار، لكنه لم ينجح إلا مؤقتا، فالصراع بين القبيلة وجيرانها من بني مزجلدة ومصمودة... صراع أزلي متواصل ولا يفتر إلا لماما[٥٨]، وقد فوض السلطان الحسن الأول أمر معالجة فتنة بني مسارة إلى قائده العربي السوسي وذلك في صيف سنة ١٨٩٣م[٥٩]، والذي قاد حملة عسكرية لتأديب القبيلة وإجبارها على تنفيذ الأوامر المخزنية وأداء الضرائب والديوان، ويبدو أن القائد المخزني قد اعتبر دخوله إلى

بني مسارة دخول عنوة بسبب ما سلف منهم من عصيان وعتو، لذلك صير أموالها فيئا بين جيوشه، يقول الأستاذ محمد عمراني في هذا الشأن "..وهذه ألزم القبيلة بأداء السخرة للجيش وقدرها مائة وخمسة ريال القائد الرحى وكل من معه من قواد المئين خمسة عشر ريالا للواحد ولكل مقام سبعة ريال وكل مخازني ثلاثة ريال..."[٦٠]، وإذا كانت بني مسارة قد وافقت على مصالحة جيرانها، وعلى عدم إثارة الاضطرابات في حضرة السلطان الحسن الأول النازل بترابها كما رأينا، إلا أن العناصر الثائرة في القبيلة لم تتخل نهائيا عن نهجها المعهود، فبمجرد مغادرة السلطان عادت إلى سابق عهدها بالضغط على مدينة وزان، وعلى القبائل المجاورة، حيث ثارت من جديد، وعادت إلى أفعالها بإحداث الفوضى والاضطرابات... وجر إخوانها الآخرين المعتدلين والمسالمين إلى الحرب والانتقام عن طريق منظومة التضامن التي كانت تطبع المجتمع المحلي آنذاك، حيث أصبحت هذه الأفعال عادة من الحياة اليومية.

بل إن أحد زعماء التمرد في القبيلة المدعو المرابط المستاري تحالف وجر إليه حتى العناصر الثائرة من القبائل المجاورة من غزاوة، وبني مزجلدة، وسطة، وبني يحمد، وقادهم في هجوماته على وزان ورهونة ومصمودة، جاء في رسالة من السلطان الحسن الأول إلى شريف وزان سيدي العربي بن الحاج عبد السلام الوزاني في هذا الشأن: "وبعد وصل كتابك معلما بأن الصلح الذي وقع بين ءال وزان، وبني مستارة الشامل لقبيلتي رهونة ومصمودة وأمضيناه. وألقى كل فريق السلاح عملا بمقتضاه حيث نهضنا للحركة الميمونة رام الخديم المرابط المساري نقض ذلك الصلح، بجمع الحركة من فساد غزاوة وبني مزجلدة وسطة وبني يحمد وغيرهم، ممن سعى في الأرض الفساد وعزمه على ضرب رهونة ومنهم إلى مصمودة حتى [...] في جميع ذلك البلاد"[٦١].

٣/٣-مواجهة المولى عبد العزيز للتمرد الثالث لبني مسارة (١٨٩٤ ـ ١٩٠٨م)

على الرغم من الخسائر التي تكبدتها القبيلة، وما أنزل بها السلطان الحسن الأول وقواده من بعده من تقتيل وغرامات ومصادرات... فإن المخزن لم يستطع تكسير شوكة القبيلة، وتمهيدها للانضباط، حيث عادت إلى أفعالها السابقة بتهديد جيرانها وقطع السبل على الناس في الطرقات ونهبهم. جاء في رسالة من المولى عبد العزيز إلى الحاج محمد الطريس في هذا الشأن:"... بأن بني مستارة أخذوا لأصحاب السيد محمد بن عبد السلام الوزاني في طريق توجههم للشاون ست عشرة بهيمة وحوايجهم ودراهم كانت معهم، كما أخذوا للأخوين السيد علي والسيد أحمد من عزيبهما المعروف بالمرابيح مائة وستة وستين رأسا من البقر ظلما وتعديا"[٦٢]. لقد استفحل تمرد بني مسارة، وأصبح ثوارها يتشوفون للهجوم على مناطق أبعد من مناطق وزان في سهل الغرب وفي القصر الكبير. وهذا ما توضحه رسالة من الوزير باحماد إلى الحاج محمد الطريس: "ولم يبق إلا ما في بني مستارة من الطيش الذي صار بها وهم يتحدثون بسبب بالهجوم على القصر [مدينة القصر الكبير]، وعلمنا ما أثرت به منهم وأنهيناه لسيدنا أيده الله... وعن بني مستارة فإنه أعزه الله كان كتب لهم قبل صحبة الكاتب السيد أحمد الكردودي بما يحملهم على الكف والجلوس عند الحد، بعد أن أمر الكاتب المذكور بالبحث عن أحوالهم فيما تشوفوا له، وقد جرد الأمر الشريف لعامل الخلط والطليق برد البال للقصر.."[٦٣].

ورغم هذه الإجراءات عاودت القبيلة هجوماتها المعتادة على جيرانها، كمصمودة سنة ١٩٠١م وعلى بني مزجلدة ١٩١١م وعلى غزاوة ١٩١٩... وعاثت فيهم فسادا وحرقا وتقتيلا، يقول البكاري تعليقا على هذه الأحداث:"... وفي سنة ١٣١٩هـ هجم بنو مسارة على مصمودة وعاثوا فيها الفساد والقتل والنهب والسلب..."[٦٤]، ولم يكن ثوار القبيلة يكتفون بنهب أبناء القبائل بل تطاولوا إلى اختطاف النصارى وطلب الفديات لإطلاق سراحهم، ومن بين هؤلاء رعايا إسبان اختطفوا من القصر الكبير سنة ١٩٠١، ورغم ما بذله المخزن في العرائش والقصر الكبير وأصيلا ووزان بقيادة القائد الخلخالي لإطلاق سراحهم إلا أنهم فشلوا، وبدأوا ينتظرون حملة مخزنية لإطلاق سراحهم[٦٥]، ومع تكرار الأفعال والشكاوى إلى المخزن سينهض السلطان

المولى عبد العزيز بمجموعة من الإجراءات التي لم تحد عن ما كان يتخذه أسلافه في حق بني مسارة قبل توجيه أي حملة تأديبية في حقهم ومنها:

- إرسال رسائل التأنيب إلى زعماء وكبراء القبيلة، تحثهم على الانضباط والطاعة وإرجاع المنهوب إلى أهله والكف عن الناس، وتوقير الشرفاء.

- بعث مبعوثين ورجال تحكيم للفصل في الخصومات، والطلب من الشرفاء الوزانيين التوسط في الخصومات وفض النزاعات.

- إرسال القوات لحماية مدينة وزان والدفاع عنها.

يقول الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) في رسالة إلى محمد الطريس في شأن هذه الإجراءات:" فبمجرد ما بلغنا ذلك[٦٦] قبل ورود كتابك كتبنا لبني مستارة بما لا مزيد عليه من اللوم والتوبيخ على ذلك، وأمرناهم برد جميع المنهوب بتمامه، وحذرناهم من العود لمثله، والرضوخ للسكينة والهدنة وتجديد عقد الصلح والفصال مع أهل وزان. وكتبنا لعاملهم بإلزامهم تعجيل التنفيذ وأمرنا الخديم عبد المالك السعيد بتكليف خليفته الذي بوزان بالاجتماع مع أعيانهم ومع كبير الزاوية سيدي محمد بن المكي وأخذ الحق منهم لمن ذكر. وكتبنا للسيد العربي الوزاني بأن يحضر هو وأخوه السيد محمد معهم على ذلك بقصد الفصال ووجهنا من حضرتنا الشريفة من يقف على التنفيذ، وتحقيق الواقع في القضية من أصلها ومعرفة السبب في منشئها، كما وجهنا قائد رحى ومعه عدد من العسكر السعيد للمكوث بوزان ورد البال إليها، والدفاع عن أهلها وصيانتها ممن يريد الإضرار بها، وأمرنا بمزيد التيقظ والقيام كما ينبغي في الحراسة"[٦٧].

تبين رسائل المولى عبد العزيز أن مسؤولية كل ما كان يقع من فوضى واضطراب في منطقة وزان، كان ينسب إلى بني مسارة وحدها، بل إن جزء منه كان يتحمله شرفاء وزان أيضًا، والذين كانوا يهرعون إلى السلطان صارخين بأن بني مسارة تعتدي عليهم، فشرفاء الوقت في وزان لم يكونوا كسابقيهم، ينشرون السلم ويصلحون بين الناس، وما زاد من تعقيد الأمور، هو أن الشرفاء الوزانيين كانوا يلطخون سمعتهم باعتبارهم وسطاء نزيهين عندما كانوا يلجؤون إلى الأخذ بالثأر المستمر وانتقلوا من فئة مسالمة إلى فئة غير مسالمة[٦٨]، كما كانوا منقسمين على فرقتين متصارعتين، وأصبحوا طرفا في الصراع بسبب الخصومات والنزاعات الكثيرة التي كانت تنشأ فيما بينهم، حول المناصب والمكاسب والنفوذ، وجر العناصر الفاسدة في القبائل المجاورة إلى صفوفهم، وهذا ما كان يساهم في إشاعة الفوضى والاضطراب، ويسمح لبني مسارة أن تسرح وتمرح في ميدان المنطقة بلا حسيب أو رقيب، ويقوض جهود المخزن في تهدئة الأوضاع واستقرار البلاد. يقول الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) في نفس الرسالة السابقة: "... والغالب على الظن أن هذا الحادث لم يخل عن سبب، والذي يظهر هو أن السيد محمد بن عبد السلام المذكور يتسبب في موجبات ذلك، ويسعى في نقض أحكام الفصال والصلح المتقدمين، ويترامى على الناس ويدخل لوكلاء المخزن كنائب العامل وكبير الزاوية في أحكامهما، وينقض ويسرحِ من سجناه، ويسجن من يرضاه، ويجمع اللف في صورة الأصحاب، وكلهم من أهل الجبال الذين أحوالهم غير مرضية، ولا يسعون إلا في الفتنة توصلا لأغراضهم الفاسدة"[٦٩].

لكل هذه الأسباب، ومع تكرار الأفعال والشكاوى إلى المخزن، جرد المولى عبد العزيز حملة تأديبية قوية ضد بني مسارة سنة ١٩٠٢م بقيادة قائده مولاي عبد السلام الأمراني الذي نزل بجيوشه بأقصى جنوب بني مسارة السفلى في موقع سيدي بودومة، ومن مهامها الرئيسية: "جلب ضرائب المنطقة وحماية مدينة وزان المهددة دائمًا بهجومات جبالة رغم تأثير وقوة شرفاء وزان"[٧٠]، وقد حاول القائد الأمراني أن يمارس هيبة المخزن على القبيلة، وقاد حركة قوية وفعل مع أفرادها ما كان يفعله القادة الآخرون، حيث أنه حين وصل للقبيلة عمد إلى تطويقها من الشمال والجنوب، ونزلت جيوشه في البداية بسيدي بودومة أسفل القبيلة[٧١]، ونزلت المحلة لاحقًا بأعلى القبيلة لمحاصرتها ومعاقبتها وتأديبها. يقول السلطان المولى عبد العزيز في رسالة جوابية إلى قائده الأمراني، ونجده فيها مبتهجا ومغتبطا بعد قمع القبيلة بشدة ومعاملتهم بالغلظة:" وبعد، وصل كتابك بما فتح الله به من الظفر بفساد جبالة بني مسارة، وهم بنو يمل وبنو قيس وقضاء الغرض فيهم..."[٧٢].

إن هذه الرسالة نموذج حي تبرز بصفة خاصة درجة الفوضى وانحلال الأمور ببني مسارة، وتبين من جهة أخرى الهجمة الشرسة للمخزن على القبيلة، وتعود أسباب هذه القسوة في نظرنا إلى كون سلطة المخزن في ذلك الوقت كانت قد عرفت تدهورا خطيرا في منطقة وزان، لذلك أراد السلطان من خلال هذه القسوة استرجاع نفوذه وهيبته المفقودة، عملا بنصيحة من مستشاريه الإنجليز الذين كانوا ينصحونه بإظهار القوة والحزم إزاء أي تمرد يمس سلطته[٧٣]، ويؤكد أيضًا أن جهازه القمعي كان ما يزال قائما، وقد وظف بشكل جيد في تصفية بني مسارة حيث كانت له صولات وجولات بترابها، وقد ظلت جيوش السلطان جاثمة على القبيلة، تفرض التغريمات الثقيلة وتلقي القبض على العتاة، لاستئصال شأفتهم وإرعابهم، وهذا ما يؤكده جواب السلطان على رسالة لقائده الأمراني:" وعلمنا ما عزمت عليه من الأخذ في استئصال الباقين كما بينته ..وإزعاجهم لذلك وما أخبر به كبير الزاوية عندهم السيد محمد الطاهر من بلوغ العقوبة فيهم ...وتشوف باقيهم للفرار من البلاد لما خامرهم من الرعب..."، هذا وقد أرغم القائد المخزني القبيلة على أداء الضرائب، وكل ما وظف عليهم، يقول المولى عبد العزيز أيضًا في نفس الرسالة: "ونأمرك أن تجد في مطالبتهم بأداء الموظف عليهم وإزعاجهم لذلك". وقد كان غرض السلطان من ذلك هو التأديب والردع والزجر."... ثم ما اقتضته المصلحة بعد تنضيض الموظف يكون الإقدام عليه إذ التربية والزجر لذوي الجرائم مطلوب والسلام"[٧٤].

أما المولى عبد العزيز فقد برر هذه القسوة والعنف المبالغ فيه اتجاه أفراد القبيلة، وما بدر منهم بقوله:"...وما حل بهم كله بسبب ما اقترفوه... إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وقد صادف فيهم البلاء محله..."[٧٥]، وذكر البكاري أن القائد المخزني قطع سبعين رأسا من أفراد القبيلة[٧٦]، وللخروج من هذه المأساة التجأ المساريون إلى طلب العفو من المخزن، بوساطة شيخ زاوية مولاي عمران السيد محمد الطاهر الذي أثمرت وساطته بإعطاء الأمان، وتخفيف القبضة العسكرية عليهم، يقول السلطان في هذا الشأن:".. وما أخبرك به كبير الزاوية عندهم السيد محمد الطاهر من بلوغ العقوبة فيهم خذها وتشوف باقيهم للفرار من البلاد لما خامرهم من الرعب، وما أجبته به من الأمان عليهم ورفعت العسكر عنهم ليعمروا بلادهم"[٧٧]، ويمكن تفسير شدة المخزن ومبالغته في العقاب إضافة إلى ما سبق هو محاولة السلطان ردع من كان على شاكلة بني مسارة من القبائل الأخرى بإدخال الرعب في قلوبها وتذكيرها بالمصير الذي سيؤول إليه كل من تسول له نفسه العصيان والتمرد على الأعتاب الشريفة، كما أن أوضاع البلاد الداخلية والخارجية وما كانت تعانيه من ضغوطات أجنبية وثورات واستفحال للفوضى والنهب، فرضت على المخزن إبداء الحزم والضبط[٧٨]، وهذا ما وقع لبني مسارة. ولحسم مادة فساد بني مسارة قام السلطان المولى عبد العزيز بتعيين قادة جدد على القبيلة، حيث أعيد القائد الدريدي البوصروري في ولاية جديدة على بني مسارة السفلى، وعين القائد المخزني عبد السلام الأمراني على بني مسارة العليا[٧٩]، وهذا ما جعلنا نتساءل، ألم يجد السلطان قائدا مناسبا يعينه على القبيلة غير قائده العسكري؟ أم أن الأمر خطير كان يستدعي جلوس قائد قوي ذي ثقة وحزم بها؟ وهذا أمر يؤكد بجلاء، انتباه السلطان المولى عبد العزيز إلى قبيلة بني مسارة وتخوفه مما قد ينجم عن عدم التحكم والسيطرة عليها من أخطار، سيما وأنه كان يتوجس خيفة من رجوع القبيلة إلى شغبها المعهود، لأنها كانت قد ألفت الفوضى مباشرة بعد عودة جيوش السلطان، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الخطر الذي شكلته القبيلة في المنطقة، وعلى رفضها للسلطة الزمنية للمخزن من خلال قتل قواده وممثليه، وقد ساهم تعيين الأمراني قائدًا على القبيلة في تقوية سلطة المخزن بها بواسطة ضغط ضريبي مجحف، وبتعسفات خطيرة أهمها، القتل والإعدام والتغريم.

بقيت حركة الأمراني جاثمة على القبيلة طيلة سنتي ١٩٠٢و ١٩٠٣م، ولم ترحل إلا بعد اندلاع تمرد بوحمارة واشتداد أمره، يقول عبد الرحمان ابن زيدان في هذا الصدد: "ولما اتصل الخبر بفاس (هزيمة بوحمارة بعين القداح من بلاد الهبارجة) فرح الناس واستبشروا وظنوا أن الأمر قد تم، فأصدرت الأوامر لمولاي عبد السلام

الأمراني الذي كان نازلا بجيش كثيف ببني مسارة بالإتيان، بما معه من الجيوش والتخييم بها مع مولاي الكبير بأوطى بوعياد"[٨٠]، عند رحيل الأمراني عن بني مسارة أخذ معه عدد لا يستهان به من شبانها، وهنا نجد أنفسنا في مواجهة سؤال آخر، لماذا أخذ الأمراني معه هؤلاء الرجال لما غادر القبيلة؟ هل أخذهم كرهائن ضمانة لعدم تمرد القبيلة مرة أخرى؟ أم أنه أخذهم كسند ودعم لمعاونته في حربه ضد "بوحمارة"؟ إن الجواب عن هذين السؤالين صعب لغياب المصادر، لكن القرائن المحتملة تجيب عن السؤالين معا. فيما يخص الرهائن، فإن ما قام به الأمراني يمكن قبوله من وجهة نظر عسكرية، إذ لم يكن المخزن يطمئن لتصرفات بني مسارة التي عادة ما كانت تثور مباشرة بعد كل حملة مخزنية، فما بالك إذا انضمت إلى الثائر "بوحمارة" الذي راسلها وطلب دعمها والانضمام إليه، فالرهائن هنا وسيلة فعالة لردعها عن أي تصرف طائش أو فعل معادي للقبيلة ضد المخزن، كما يمكن استغلال هؤلاء الرهائن في العمليات الحربية لمواجهة بوحمارة والقبض عليه، وهذا ما يؤكده البكاري بقوله:" عندما أعطى الأمراني الأمان للقبيلة المسارية فرض عليها الخدمة العسكرية جبرا وأخذ منهم الأعيان والفقهاء والطلبة والعامة، وسار بهم إلى غياثة مع الجيش المخزني لمحاربة جيش "بوحمارة" الثائر هناك"[٨١]، وقد أصبح تاريخ ولاية الأمراني على بني مسارة تاريخًا مشهودًا، يؤرخ به السكان لمواليدهم ووفياتهم وأحداثهم البارزة باعتباره حدثًا تاريخيًا بارزًا، وكيف لا يكون كذلك؟ وقد أعدم فيه سبعون رجلا من أفراد القبيلة، ومارس فيه غلظة شديدة في المغارم والجبايات، إضافة إلى تغريب الرجال الرهائن والدفع بهم لمواجهة الثائر "بوحمارة"، ويعرف عامه هذا محليًا بـ"عام اليمراني"[٨٢].

قبل رحيل القائد الأمراني عن بني مسارة سنة ١٩٠٣م، سيثبت بأمر من السلطان المولى عبد العزيز القائد الدريدي البوصروري في قيادته ببني مسارة السفلى سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م، وعين على بني مسارة العليا القائد محمد بن محمد القيسي القطاري، لكن القبيلة ثارت من جديد، فخلعوا بن محمد القيسي وهجموا عليه في داره بعين أقطار ونهبوها، فخرج هاربا إلى المحلة[٨٣]، لكن بعض الأفراد من قرية اعسارة تبعوه ولحقوا به بقبيلة غزاوة فقتلوه وحرقوا جثته[٨٤]، وولي مكانه القائد المرابط اللاوي بأمر من الخليفة الأمراني وذلك لسوء سيرة هذا القائد معهم. أما القائد البوصروري فجددت القبيلة ثورتها عليه، إذ سارع الناس إلى نهب داره وعائلته وطرده من القبيلة حيث فر إلى مدينة الجديدة[٨٥]، فكان القائد بدله هو القائد بوشتى بن الهاشمي الحجري، وبعد بضعة أشهر عاد البوصروري من جديد وبقي في حكمه سنتين فقط؛ عندما تمردت القبيلة عليه وخلعته هو والقائد المرابط اللاوي وبقيت تحكم نفسها بنفسها حتى مجيء السلطان المولى عبد الحفيظ ١٩٠٨-١٩١٢م.

٤/٣-جهود المولى عبد الحفيظ للقضاء على التمرد الرابع لقبيلة بني مسارة (١٩٠٨-١٩١٢م)

بعد القبض على الثائر بوحمارة ببني مسارة، أعاد المولى عبد الحفيظ القائد البوصروري إلى حكمه من جديد، بعد أن أضاف إلى قيادته كل من فرقتي بني يمل وبوقرة[٨٦]، لكن طيش القائد البوصروري وقسوته ورغبته الملحة في جمع الضرائب والإصرار على الانتقام من خصومه سيؤلب الناس عليه من جديد، فبعد أن استتب له الأمر بدأ يدبر مؤامرة الانتقام من السكان خاصة من خصومه ومنافسيه السياسيين، وعلى رأسهم السيد سلام الكابوس من دوار القيطون[٨٧]، إلا أنهم تفطنوا لألاعيبه ودبروا خطة للقضاء عليه قادها خصمه اللدود سلام الكابوس الذي جعلهم يثورون عليه ويقتلونه في داره التي أحرقت، وأحرقت معها كل ممتلكاته بدواره في المناصرة سنة ١٩١٠م[٨٨].

وقد عين السلطان المولى عبد الحفيظ بدله السيد أبو الشتاء بن الهاشمي من فرقة حجر بني عيش قائدا على القبيلة، لكنه لم يستطع إخضاع السكان لإرادة المخزن، فتخلصوا منه سنة ١٩١٢م بتهمة التخابر مع الفرنسيين، وقد مر المسكين بمحنة شديدة حيث قبض عليه في سوق السبت كرمال بالقبيلة السفلى، وسلم إلى فرقته حجر بني يعيش ليقتلوه، فرفضوا قتله وسلموه إلى فرقة بني كلة عند مشرع وادي الكبير قرب صخرة كرمال، إلا أنهم ترددوا في الأمر وأطلقوا سراحه، فتدخل عنصران من فرقة أولاد كنون وقتلوه، وهما: ولد

حميدو بن كبير وبوشتى بن رقيوش[٨٩]، وعلى ما يبدو فقد مات المسكين ظلما وعدوانا[٩٠]، أما في بني مسارة العليا فعين المولى عبد الحفيظ القائد الطيب بن محمد القيسي الذي انتفضوا عليه، فاضطر إلى الفرار بنفسه إلى قبيلة عوف[٩١] في مكان قرب مدينة جرف الملحة الحالية، ولازالت ذريته هناك إلى اليوم يعرفون بـ(القواس) نسبة إلى القيسي. لقد فشلت مجهودات المخزن إذن في ردع بني مسارة، وتثبيت الاستقرار بمنطقة وزان، فلم تنفع الحملات والفرق العسكرية التي أرسلها لتأديب القبيلة، إذ يبدو من خلال ما جرى أن المخزن لم تكن لديه لا الموارد العسكرية ولا القوة البشرية لتحقيق أي شيء، ماعدا التأثير العابر عند حضوره، لأن ممارسات القبيلة كانت شبيهة بالعصابات تسرق وتسبي... وتستغل ضعف المخزن وهشاشته، ومن هنا نتصور البلبلة التي استحوذت على عقول المساريين أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، فسلطة الدولة منحلة، والعنف متبادل بين القبائل، والسلطة الرمزية لشرفاء وزان منحلة.

على الرغم من أن المخزن كان يعاقب القبيلة من الفينة لأخرى، إلا أن اللافت للانتباه في العلاقة التصادمية بين قبيلة بني مسارة والمخزن هو هذه المفارقة، ففي الوقت الذي كانت العلاقة بين الطرفين مطبوعة بالعداء والعنف والإكراه، لأن المخزن كان يلتجئ لإخضاع المساريين بالقوة وسحقهم بالضرائب والغرامات المجحفة، وتجريد الحملات القمعية المتتالية ضدهم لاستخلاصها، واستعمل في حقهم الأوصاف الجارحة والألفاظ النابية والقذف الجارح باعتبارهم متمردين شقوا عصا الطاعة، أما المساريون فكانوا يجنحون إلى التمرد والعصيان ويرفضون أداء الضرائب، ولا يعترفون بالسلطة الزمنية للمخزن من خلال طرد قواده وممثليه وتنصيب قوادا آخرين بدلهم... إلا أنه لا أحد من المساريين كان يشكك في شرعية السلطان أو يطعن في سلطته الروحية، بل أن أغلبية الناس كانت تشعر بأن لا حياة بلا سلطان، فلا تؤدى صلاة الجمعة إلا باسمه، ولازال إلى اليوم يرفع في المساجد الدعاء التالي: " الله ينصر السلطان ويهدن الأوطان" وحين هددت البلاد بالغزو الأجنبي، شاركت بني مسارة في المجهود الحربي، وزودت المخزن بالرجال والمؤونة، كالمشاركة في حرب تطوان مع الإسبان ١٨٥٩-١٨٦٠، بالإضافة إلى مساندة السلطان في القبض على معارضيه، خاصة الثائر "بوحمارة" كما سنرى، فسوط المخزن إذن حسب الأغلبية الساحقة من الناس كان موجها فقط للعصاة ورؤوس الفتنة، ومن هنا نندهش لماذا لم تستجب القبيلة لدعاوى بوحمارة الثائر على المخزن؟ ألم تكن ثورة "بوحمارة" كما كان يدعي بسبب الظلم والتعسف وفساد المخزن؟ لماذا التزمت القبيلة الحياد ولم تستغل هذه الثورة للانتقام من المخزن؟ إن حاجة المخزن في بعض الأحيان، كانت تفرض عليه اللجوء إلى بني مسارة وطلب مساندتها، فبعد اشتداد أزمة المخزن إثر اندلاع ثورة "بوحمارة" وخوفا من انضمام القبيلة إليه، التجأ المخزن إلى المساريين وطالبهم برصده والقبض عليه، يقول المولى عبد العزيز في رسالة وجهها للقبيلة في شأن تمرد بوحمارة:"...وعليه فنأمركم أن تجعلوا أمره من الأمر المهم الأكيد وتنصبوا له الأرصاد بجهاتكم وعدم إفلاته وتعملوا جهدكم أن يجعل الله مزية التمكين منه على أيديكم ..."[٩٢].

إن عدم خوض بني مسارة في ثورة "بوحمارة"، لدليل قاطع على عدم ميل المساريين إلى الانشقاق، ذلك أن "بوحمارة" دعي لا يمثل الشرعية، وأن سلطة السلطان شرعية لا يمكن البتة الخروج عليها، بل إن القبيلة مالت إلى جانب المخزن" الشرعية" أكثر لما ساهمت في القبض على "بوحمارة" وتسليمه للمخزن عندما حل الثائر بترابها هاربا من القوات المخزنية المطاردة له، وهناك مسألة أخرى لا تقل أهمية عن قضية بوحمارة، وهي علاقة المخزن بالزاوية الوزانية، فالممارسات العنيفة لبني مسارة اتجاه الزاوية الوزانية وشرفائها، لم يكن ينظر إليها المخزن دائمًا بعين الريبة والظلم، بل كان يُنظر إليها -لكن بشكل خفي- كشيء إيجابي، لأنها كانت تقمع شرفاء وزان الطامعين في السلطة، ومعاقبتهم على تحالفهم مع الأجنبي، ففيما يخص مسألة السلطة، فالزاوية الوزانية ظهرت في نفس الوقت مع ظهور حركة العلويين، ورغم طابع الصداقة والعلاقات المتواشجة التي كانت سائدة على الدوام بين السلاطين العلويين والزاوية

الوزانية، إلا أن العلاقة كانت تتوتر في بعض الأحيان، لأن المخزن لم يكن يرقه أن تأخذ الزاوية الوزانية أكثر مما تستحق من النفوذ، فصار يتخوف من "أن تنحرف الزاوية عن خطها الديني وتتجه نحو الأمور السياسية"[٩٣]، لهذا السبب كان السلاطين ينظرون إلى الوزانيين بعين الريبة، خاصة المولى إسماعيل الذي اتخذ عدة تدابير للحد من نفوذها، والقبض على اتباعها، ولم تعد المياه إلى مجاريها إلا عندما أركب الشيخ مولاي التهامي بيده السلطان على جواده، ويقال إن مولاي إسماعيل صاح حينئذ " منذ هذه اللحظة قد أصبحت فعلاً سلطانًا حقيقيًا"[٩٤].

كما كانت تتداول وسط العامة بالمنطقة مقولة للشرفاء الوزانيين لا زالت إلى اليوم، ورصدها الأجانب "مِنَّا ما يكُنشِي وبِلا بِنا ما يَمكِنشِي" أي أن السلطان لا يكون من الوزانيين، وأن السلطان لا يعترف به عاهلا ولا تستقيم الأمور له إلا بعد مباركتهم (سادة وزان)[٩٥]، ولهذا عندما كانت بني مسارة تهجم على الوزانيين، كانت تخدم مصالح المخزن من حيث لا تدري، في قمع معارضيه وكبح جماح أي منافس محتمل لسلطته. يقول موليراس في هذا الشأن: "ولهذا السبب عندما كانت تخرب المدينة، وتنهب من طرف جيرانها المساريين، فإن السلطان "لا يأسف في العمق، على التنكيل الذي يتعرض له أناس يطمعون في عرشه، وهو لا يسعى إلى مناصرتهم، بل يرغب في أن تتم إبادة العائلة التي تجرأت على التحالف مع الأجنبي والطمع في السلطة"[٩٦].

خاتِمَةٌ

إن مثل هذه المواقف لدليل على أن المساريين كانوا يحترمون سلطة السلطان الذي يكنون له كل التقدير والاحترام. لكن أحيانا يقع التجاوز من جهة المخزن نفسه، فينقلب هذا الحب والتقدير إلى غضب وتمرد. لقد كان الناس في حيرة من أمرهم، فكيف كان بإمكانهم أن يفهموا المطالبة بالمال دون مراعاة لظروف عيشهم ولأحوالهم المعيشية الصعبة، والتي كانت تزداد صعوبة مع سنوات الجفاف والمجاعات؟ إن عدم قبول إعفاء سكان القبيلة أو تأجيل دفع أعشارهم له وعدم معاقبة قائد فاسد جائر بعد تشكي الناس منه، ولا يلقى أي ردع أو إقالة أو عقاب من السلطان، هي أسباب كانت تدفع القبيلة إلى التمرد والعصيان، كما أنه في حالة تعرض القبيلة لاعتداءات الجيران ومن شرفاء وزان أنفسهم... دون أن تحظى بأي تدخل من المخزن لرد العدوان عنها وتوفير الحماية لها، فهل ستقف مكتوفة الأيدي ولا ترد الصاع صاعين؟ بالفعل إنه لأمر مقلق ومريب بالنسبة لأي قبيلة، كان ينجم عنه تزايد حدة الغضب والشعور بالألم، وبخيبة الأمل من المخزن والسلطان، الذي لم يكن يمارس سلطاته في استتباب الأمن ورعاية مصالح الناس الدنيوية، والحفاظ على السلم المجتمعي. وعندما تقوم القبيلة بالرد على هذه الإساءات، وترفض دفع ما بذمتها من ضرائب، أو تسقط قائدا مستبدا مشتطا في سلطته، تأتي جيوش السلطان لتقتل وتغرم، فهل يصح بعد هذا القول إن بني مسارة كانت تعشق العصيان دائمًا، ولا تخشى سلطة السلطان، وأنها كانت مجبولة على السيبة بالفطرة، كما تبين الكتابات الأجنبية.

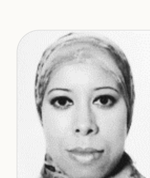
الإحالات المرجعية:

(١) عبد السلام البكاري، **الإشارة والبشارة في تاريخ وأعلام بني مسارة**، الطبعة الأولى ١٩٨٤ والثانية ٢٠٠٧، ص: ٨٣.
(٢) قبيلة عربية حاضرتها اليوم جماعة حد كورت.
(٣) قبيلة عربية حاضرتها اليوم مدينة سوق الأربعاء الغرب.
(٤) أحمد المسياح، **قبيلة بني مسارة: علاقتها بالمخزن ومقاومتها للاحتلال الفرنسي خلال القرنين ١٩ و٢٠**، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، إشراف الأستاذ علال الخديمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية ١٩٩١-١٩٩٢، ص: ١٥.
(٥) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص١٠١.
(٦) إبراهيم بل العافية، **الجماعة الترابية سيدي رضوان بين الماضي والحاضر، التاريخ - الإنسان - المجال**، الجزء الأول، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص: ٧١.
(٧) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٧.
(٨) محمد عمراني، "الشرفاء الوزانيون والقبائل المجاورة لمدينة وزان أواخر القرن التاسع عشر"، **ندوة علاقة المدن بالأرياف على الطرف الجنوبي لبلاد جبالة، لمجموعة البحث المتعددة الاختصاص حول جبالة**، تأليف مجموعة من الأساتذة بمساعدة مؤسسة كونراد أديناور، ١٩٩٥، ص: ٣٩.
(٩) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤١.
(١٠) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، المجلد الرابع، المطبعة المهدية، ١٩٦٤، ص١١٦.
(١١) رسالة من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى بوسلهام بن علي أزطوط في ٢١ رجب الفرد الحرام عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، خ. س. ر، ك ١٧رقم ٢٧/١٢.
(١٢) رسالة من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى بوسلهام بن علي أزطوط في ٧ صفر الخير عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٣م، خ. س. ر، ك١٧ رقم ٣/٢٣.
(١٣) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ١٠١.
(١٤) البكاري عبد السلام، **الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة وعلاقة وزان وما والاها من قبائل جبالة، دراسة وثائقية تحليلية**، الطبعة الأولى، نونبر ١٩٩٧، ص:
(15) De La Martinière (Henrys Poisson) et La Croix (Napoléon). Documents pour servir à l'étude du nord- réunis et rédigés par ordre de Mr Gaules Gambon, gouverneur général de l'Algérie, service des affaires indigènes, p.464 .
(16) Alfred Le Châtelier. **Notes sur les villes et tribus du Maroc en 1890 – 1902, Sahel – Gharb – Haouz Fès – Sais – Haouz Méknès – Djebala, Angera,** imprimerie A. Bordin et C(ie), 1902, p.22.
(١٧) المشرفي محمد بن محمد بن مصطفى، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص: ١٨٥.
(١٨) ابن زيدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، الرباط، ١٩٩٠، ص: ٤٠٣.
(١٩) عمراني، م، س، ص: ٤١.
(٢٠) عمراني، م، س، ص: ٤١.
(٢١) رسالة من الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) إلى شريف وزان السيد العربي بن الحاج عبد السلام، بتاريخ ٢ محرم عام ١٣١١/ ١٨٩٤م، م. و. م، سجل ٦٢/ ج٢٧/٢.
(٢٢) رسالة من الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) إلى النائب الحاج محمد الطريس بتاريخ ٢٥ شوال عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م. خ، ع، م، ت، الأرشيف التاريخي، مح٣٦/٢٥. (انظر الملحق ١٣)
(٢٣) رسالة من الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) إلى محمد الطريس بتاريخ ٥ صفر الخير عام ١٨٩٩/١٣١٧، خ. ع. م، ت، الأرشيف التاريخي، س٣٣٠، مح ١٨/٢٦.
(٢٤) الضعيف الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص: ٣٥٣.
(٢٥) عمراني، م، س، ص: ٣٦.
(٢٦) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤١.
(٢٧) مصطفى الشابي، **النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر**، ترجمة أحمد التوفيق، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥، ص: ٣٨.
(٢٨) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٦٤.
(٢٩) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، م، س، صص: ١٠٢-١٠٤.
(٣٠) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٦.
(٣١) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٣٩.
(٣٢) دامت الفوضى سبع سنوات وبني مستارة بدون قائد أو ممثل مخزني، منذ أن طرد القيسي ١٨٧٣ إلى ١٨٨٠م، حين جاءت حملة المحابس الغرباوي لتأديبها وإعادة سلطة المخزن إليها من جديد. بل العافية، **الجماعة الترابية**، م، س، ج١، ص: ٧١.
(٣٣) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٧.
(٣٤) بل العافية، **الجماعة الترابية**، م، س، ج١، ص: ٧٢.
(٣٥) إبراهيم بل العافية، **الشرفاء الكنونيون أهل الزواقين بقبيلة بني مستارة - مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي** - مطبعة المعرف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص: ٧٢.
(٣٦) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٣٩.
(٣٧) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ١٠٩.
(٣٨) رسالة من القائم بأعمال مفوضية فرنسا إلى وزير الخارجية الفرنسي السيد دوفريسيني، ٣١ يوليوز ١٨٨٠، بنمنصور، مجلة الوثائق، م، س، ص: ١٠٧.
(٣٩) نفسه، ص: ١٠٨.
(٤٠) مبارك بن سحلن، هو تحريف لاسم أبو بكر الحباسي.
(٤١) رسالة من القائم بأعمال مفوضية فرنسا إلى وزير الخارجية الفرنسي السيد دوفريسيني، ٣١ يوليوز ١٨٨٠، بنمنصور، م، س، ص: ١١٥.
(٤٢) رسالة من القائم بأعمال مفوضية فرنسا إلى وزير الخارجية الفرنسي السيد دوفريسيني، ٣١ يوليوز ١٨٨٠، بنمنصور، م، س، ص: ١١٥.
(٤٣) ابن زيدان، م، س، ج٥، ط٢، ص: ٤٠٣.
(٤٤) H. P, de la Martinière et N. la Croix. op.cit, p.464.

(٤٥) البكاري، **الإشارة**، من س، ص: ٨٥.
(٤٦) نفسه، ص: ٣٩.
(٤٧) عمراني، م، س، ص: ٤٠.
(٤٨) ابن زيدان، م، س، ج ٥، ط٢، ١٩٩٠، ص: ٤٠٣.
(49) H . P. de la Martinière et N. la Croix. op.cit, p.464.
(50) Arnaud (Louis), op.cit, p.125.
(٥١) المشرفي، **الحلل البهية**، م، س، ص: ١٨٥.
(52) H . P. de la Martinière et N. la Croix. op.cit, p.464.
(٥٣) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٦٩.
(٥٤) نفسه، ص: ٦٩.
(٥٥) المشرفي، **الحلل البهية**، م، س، ص: ١٨٥.
(56) H . P, de la Martinière et N, la Croix. op.cit. p464.
(57) Michaux - Bélaire (E). **Villes et tribus du Maroc**, rabat et sa région, tome IV. Le Gharb (les Djebala). Editions Ernest Leroux, paris, 1918, op.cit. p.284.
(٥٨) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤١.
(٥٩) نفسه، ص: ٤٠.
(٦٠) عمراني، م، س، ص: ٤٠.
(٦١) رسالة من الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) إلى شريف وزان السيد العربي بن الحاج عبد السلام، بتاريخ ٢ محرم عام ١٣١١/ ١٨٩٤م. خ. ع. م. ت، الأرشيف التاريخي، سجل ٦٢/ مح٢/٢٧.
(٦٢) جاء في رسالة من المولى عبد العزيز إلى الحاج محمد الطريس بتاريخ ٧ ربيع الأنور عام ١٣١٣/١٨٩٦م، خ. ع. م. ت، الأرشيف التاريخي، سجل١٩٥٣مح٢٢/٤٤.
(٦٣) رسالة من الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) إلى محمد الطريس بتاريخ ٥ صفر الخير عام 1899/١٣١٧م، خ. ع. ت، الأرشيف التاريخي، س٣٠٥، مح ١٨/٢٦.
(٦٤) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط١، ص: ٤٢.
(65) La République nouvelle. A2. N°440, vendredi 27 décembre 1901, p.2.
(٦٦) يتحدث الوزير باحماد عن قضية سرقة متاع أصحاب الشرفاء في طريق الشاون، وعن سرقة بني مسارة لعزيب الشرفاء المعروف بالمرابيح قرب مدينة جرف الملحة الحالية.
(٦٧) رسالة من الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) إلى الحاج محمد الطريس بتاريخ ٧ ربيع الأنور عام ١٣١٣/١٨٩٦م، خ. ع. ت، الأرشيف التاريخي، سجل١٩٥٣مح ٢٢/٤٤.
(٦٨) عمراني، م، س، ص: ٣٨.
(٦٩) رسالة من الوزير أحمد بن موسى البخاري (باحماد) إلى الحاج محمد الطريس بتاريخ ٧ ربيع الأنور عام ١٣١٣هـ/١٨٩٦م.، خ. ع. ت، الأرشيف التاريخي، س١٩٥٣مح ٢٢/٤٤.
(70) Arnaud (Louis), **Au temps des Mehallas: ou le Maroc de 1860 à 1912**, 1952, éditions atlantiques, Casablanca, op.cit, p.153.
(٧١) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٥٥.
(٧٢) عبد الرحمان ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الرباط، 1930، ص: ٤٠٣.
(٧٣) سعيد عاهد، **الفتان، محكيات من سيرة الروكي بوحمارة لصحفيين وكتاب غربيين معاصرين له**، منشورات جريدة الاتحاد الاشتراكي، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص: ٨٦.
(٧٤) ابن زيدان، م، س، ج١، ص: ٤٠٣.
(٧٥) ابن زيدان، م، س، ج١، ص: ٤٠٣.
(٧٦) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط١، ص: ٥٤.
(٧٧) ابن زيدان، م، س، ج١، ص: ٤٠٣.
(٧٨) مصطفى فنيتر، "المخزن وقواد البوادي"، **ندوة البوادي المغربية عبر التاريخ**، تنسيق إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٧٧، ١٩٩٩، ص: ٨٣.
(٧٩) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٦٢.
(٨٠) ابن زيدان، م، س، ج١، ص: ٤٠٣.
(٨١) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٦٢.
(٨٢) شهادات شفوية عديدة من بينها شهادة الخمار ولد منانة العمراوي.
(83) GIL BLAS. A24.N°8343, jeudi 18 septembre 1902, pp.2 -3.
(٨٤) البكاري، **الإشارة**، م، س، ص: ٤٨.
(85) GIL BLAS, op.cit, pp.2 -3.
(٨٦) المسياح، م، س، ص: ١٩.
(٨٧) بل العافية، **الشرفاء الكنونيون**، م، س، ص: ٩٧.
(٨٨) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٥٥.
(٨٩) بل العافية، **الشرفاء الكنونيون**، م، س، ص: ١١٢.
(٩٠) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٧٨.
(٩١) المسياح، م، س، ص: ١٩.
(٩٢) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٥٢.
(٩٣) محمد العمراني، الزاوية الوزانية والمخزن العلوي من مرحلة التأسيس إلى أواخر القرن الثامن عشر، **مجلة المناهل**، الزوايا في المغرب، الجزء الأول، العددان ٨٠. ٨١، فبراير ٢٠٠٧، ص: ١٣٥.
(٩٤) نفسه، م، س، ص: ١٣٤.
(٩٥) موليراس، م، س، ص: ٤١٢.
(٩٦) نفسه، ص: ٤٢٠.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الرحلة المغربية تجسيد لروح المواطنة
وصلة وصل بين المشرق والمغرب العربيين



د. كوثر أبو العيد
دكتوراه تاريخ العلاقات المغربية والمشرقية
أستاذة باحثة في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

مُلَخّص

إن هويّة أية أمة هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبّر عن شخصيتها الحضارية المبنية على نقط ثلاث: الدين الذي به يفسر الوجود واللغة الواسطة التعبيرية الطيّعة لنقل الخطاب والتاريخ الذي يحفظ الذاكرة وينعش الإحساس بالانتماء. والوطن العربي من الخليج إلى المحيط تجمعه هويّة الروح واللغة والتاريخ المشترك، ولم يكن بعد الواجهتين بمبرر لإحجام المغرب عن الاهتمام بهذه الناحية. بل أنه على العكس من ذلك كان يتوق إلى التوفر على معلومات أكثر عن تلك الجهات النائية التي تربطه بها رابطة الروح أولاً ورابطة اللغة ثانيًا. الروح، لأن الطرفين ولو أنهما متباعدان مسافة لكنهما يعتنقان دينًا واحدًا هو دين الإسلام الحنيف، وفي أكثر الجهات وفي أغلب الظروف كان الطرفان يتحدان أيضًا في المذهب الإسلامي كذلك، فالمذهب المالكي الذي استقر عليه الأمر في المغرب الأقصى منذ فجر الإسلام هو المذهب الذي وجد في المشرق ملاذًا يحتمي فيه من المنافسين له ممَّن كانوا يريدون فرض مذاهب أخرى لهم بالجزيرة العربية، وهكذا فكما تحصن مذهب مالك بديار المغرب منذ البداية وجد مكانًا له في شعاب الجزيرة وأطرافها كيف وهو المذهب الذي نشأ في أحضان مدينة الرسول (ﷺ). أما الآصرة الثانية فهي اللغة الواحدة التي تعزز الانتماء بالذات والمواطنة العربية والتي يرجع لها أكبر الفضل في تمتين الصلات الروحية التي تحدثنا عنها. ولعل أيضًا من أبرز مظاهر الوحدة العربية الإسلامية هو ذلك التواصل الحضاري الذي ربط الخليج بالمحيط من خلال الرحلة المغربية إلى المشرق التي وصلت بين شقي العروبة، فرحلات المغاربة في مختلف العصور تعطينا صورة عن مدى إسهام الفكر العربي المسلم في هذا الشق الغربي من الوطن العربي في دعم مقومات المواطنة العربية التي هي من أبرز مفاخر تراثنا ومظاهر وحدتنا .

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠١ مايو ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣٠ مايو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الوحدة العربية الإسلامية؛ تاريخ العروبة؛ المغرب والمشرق؛ الرحالة المغاربة

 10.21608/kan.2024.374411 **معرِّف الوثيقة الرقمي:**

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

كوثر أبو العيد. "الرحلة المغربية تجسيد لروح المواطنة وصلة وصل بين المشرق والمغرب العربيين".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٧٨ – ١٨٩.

Corresponding author: kaoutaraboulaidfes@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تعتبر الرحلة من أهم الفنون الأدبية التي تمتن الاتصال بين الشعوب والتفاعل بين الأمم وما ينجم عن ذلك من تلاقح فكري وخدمات اقتصادية واجتماعية، كما تبقى الرحلة مصدرًا مهمًا للتعرف على البلدان والخصائص البشرية، ومن خلالها يكتشف الإنسان العالم فهي قناة لمعرفة الآخر ووسيلة من وسائل التواصل الحضاري بين البلدان. لقد رسخت كل العوامل والمفاهيم التي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض، بل لقد فجرت في الإنسان استشعار المصالح المشتركة التي وثقت عرى هذه الوحدة على الأرض، ومن غير الرحلة ينفرط عقد هذه الوحدة وتتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك. إنها إذن الحكمة الإلهية الداعية إلى الاتصال والتواصل، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (القرآن الكريم، سورة الحجرات آية١٤). فالدعوة إذن عامة لكافة الناس للتواصل والحوار. ولا شك أن هذا التعارف الذي تدعو إليه الآية الكريمة لن يتم إلا باتصال الشعوب ببعضها البعض، ومن ثمة كانت الرحلة اليد التي تمتد لتقرب شعوبا تناءت عن أخرى تفصل بينها البحار والقفار، إذ سعت إلى وحدة البشر وتواصل الأمم في عصر خلا من وسائل الاتصال الحديثة التي تجاوزت حد التصور.

فالرحلة إذن رمت إلى معرفة الآخر، لذلك عني الرحالة في أسفارهم بالأمور الاجتماعية عناية بالغة، فتحدثوا عن شعوب البلاد التي زاروها واصفين عاداتها وطباع أهلها المألوف منها وغير المألوف، كما تحدثوا عن أصولهم. ومن ثمة كانت الرحلة أيضًا منهلا لعلماء الاجتماع والأنثربولوجيا والإثنوغرافيا. وينطبق هذا على الرحلة المغربية نحو المشرق منذ القرون الوسطى، فقد حقق المغاربة الحظ الأوفر في هذا المضمار، بل يمكن أن نصرح بكل ثقة واطمئنان أن المغاربة تفوقوا وحازوا فضل السبق والريادة في مجال الرحلة (نواب ١٩٩٦، ص ٧١) فلا غرو إذن أن يكون أشهر الرحالين الملقب بشيخ الرحالة (زيادة ١٩٨٠، ص١١-١٢) وأمير الرحالين المسلمين وماركو بولو العرب (أرينسون ٢٠٠٥، ص ١٧٣)، هو رحالة مغربي ويتعلق الأمر بابن بطوطة الذي غذت رحلته موضوعا للدراسة والترجمة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر(Sanguinetti 1968) . ولعل ما يفسر تفوق المغاربة والاهتمام بالرحلة، أنهم كانوا يرون في السفر رمزا للتحرر بمفهومه الوجودي والطبيعي (الأحرش ٢٠٠٤، ص٣١)، ولكونهم جبلوا على زيارة المقدسات الإسلامية والأخذ عن الشيوخ والتجوال من أجل البحث والاطلاع والتواصل مع الآخر، فضلاً عن مآرب أخرى استدعت تغربهم كالتجارة، لذلك كانت قائمة الرحلات في المكتبات المغربية تكاد لا تحصى خاصة تلك التي كانت صوب المشرق، فالحضور المغربي بالمشرق شكل ظاهرة متميزة على الصعيد السياسي والاقتصادي والثقافي والديني والاجتماعي (عبد الرحمان ١٩٧٧، ص ٩٩). فقد أقام المغاربة في مصر والشام والحجاز وشاركوا في الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية (ط. عبد الرحمان ٢٠٠٠، ص ١٥-١٦)، فالشرق كان ولازال بغض النظر عن الأسباب التي كانت وراء رحلات المغاربة صوبه، يشكل رحلة في الزمان والمجال من حيث كونه يختزن ذاكرة تاريخية جماعية وتضم أرضه الأماكن المقدسة الإسلامية. كما أنه من بين أسرار ارتباط المغاربة بالمشرق: هو رغبتهم في ربط أواصر الأخوة والتعاون والاندماج في الأمة الإسلامية (تاويت ١٩٧٠، ص ٦٢) والابتعاد عن كل نزعة انفصالية دينية (Dragues 1951, p 41)

لقد كان الإنسان المغربي يحس بأن الفضاء الذي يعيش فيه لم يكن كافيا لإرضاء كل رغباته، بكل ما كان يحتضنه هذا الفضاء من محامد ومناقب، ولذلك فإن عليه أن يسعى لرؤية العالم الآخر: عالم المشرق الذي كان مصدر سعادته، والذي كان يجسد له مركز الإشعاع الروحي والفكري والحضاري بشكل عام. وإذا كانت المصادر التاريخية قد دونت أسماء عدد كبير من الرحالة المغاربة الذين جابوا الآفاق، فإن هناك من لا نجد له ذكرا فيها، نذكر على سبيل المثال أبو هارون الأغماتي الذي فارق وطنه في أواخر القرن الخامس وزار مصر والحجاز والعراق وخراسان وما وراء النهر ودخل

سمرقند وكان شاعرًا وخطيبًا بليغًا (الكتاني ٢٠٠٥، ص ٧). هذه الشخصية لا نجد لها ذكرًا في المصادر المغربية وهو الذي فتح سلسلة العلماء والأدباء الذين كانوا يغادرون أوطانهم باتجاه المشرق فيحصلون هناك على الشهرة.

هكذا يمكن القول إن عددًا كبيرًا من الرحلات المغربية قد تعرض للضياع أو مازال منزويًا في الرفوف المنسية لم تمتد إليه بعد يد التنقيب والدراسة. انطلاقًا من هذه المعطيات سنتطرق في موضوعنا عن دور الرحلة الحجية المغربية في تجسيد روح المواطنة وربط الصلة بين المغرب والمشرق، مع تقديم نماذج من الرحلات المغربية الموثقة لهذه الصلات الحضارية.

أولاً: الروابط التاريخية بين المغرب والمشرق

تعتبر العلاقات بين المغرب والمشرق من العلاقات المنسية وهو ما جعل المؤرخ المغربي "ابن زيدان" يقول في معرض حديثه عنها بأنها: كاد يصيبها الاضمحلال لولا أقلام الرحالة أمثال "الزياني" و "ابن عثمان" وغيرهم. ملاحظًا في نفس الوقت أن العلاقات الأوربية مع المغرب "وجدت من تنافس من أجلها وبنى لها صروحًا من الدعاية" (التازي، في تاريخ المغرب الدبلوماسي ــــ عدد ١٣٥ السنة ١٩٨٩). وإذا عدنا إلى هذه العلاقات، فإننا سنجدها علاوة على ذلك تمتاز عن باقي العلاقات المغربية الخارجية، بكونها تتجاوز المضامين السياسية لتشمل الروابط الجغرافية (جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي ١٩٦٩) والتجارية (ع. منصور ١٩٦١) والبشرية (زرع، الأنيس المطرب ١٩٧٢) إضافة إلى رابطة اللغة (الفاسي ١٩٨٥) والدين (جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي ١٩٦٩). وبشكل عام يمكن ملاحظة أن العلاقات المغربية المشرقية قد مرت بمرحلتين أساسيتين، قبل أن تأخذ طابعًا ومضمونًا سياسيًا، بعد الانقسام الذي عرفه العالم الإسلامي، وبعد ضعف الخلافة الإسلامية في الشرق. وهما مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي ومرحلة ما بعده.

أما مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي، فقد كانت الرابطة التجارية، أبرز تلك الروابط مما جعل علاقة المغرب بالمشرق تكتسي طابعًا تجاريًا، جعل من بلاد المغرب منطقة عبور ومن سكانه وسطاء، وبقيت وظيفة التعامل السياسي مع الخارج من اختصاص الدول التي سيطرت على المغرب الذي عاش حالة تبعية لم يبدأ العمل على التخلص منها إلا بقيام الإمارات والدول المستقلة بالغرب الإسلامي، ومن بينها دولة الأدارسة بالمغرب (١٧٢ه-٧٨٨ م). أما المرحلة الثانية والتي ابتدأت مع الفتح الإسلامي، فتتميز بكون المغرب فيها لم يعد يكتفي بدور الوساطة التجارية، بل تعداها إلى القيام بوظائف روحية دينية، تمثلت في حمل لواء الإسلام والثقافة العربية، ونشرهما من طرف المغاربة في اتجاه الجنوب والشمال.

مع قيام الأدارسة وبعد التطورات التي عرفها العالم الإسلامي بشكل عام، دخلت العلاقات المغربية المشرقية مرحلة المواجهة والاصطدام، لكون الأدارسة لم يهدفوا إلى إقامة دولة مستقلة عن الخلافات الإسلامية بالمشرق فقط. بل اعتبروا المغرب خطوة أولى فقط لتحقيق هدفهم الأكبر وهو إعادة وحدة العالم الإسلامي تحت رايتهم. حيث راسل المولى إدريس أهل مصر يدعوهم لبيعته (بنمنصور بلا تاريخ) كما كانت أولى خطواته العملية في اتجاه تحقيق هذا الهدف، ضم تلمسان (أحمد بن خالد الناصري ١٩٥٥) مما حرك ردود فعل عنيفة من طرف الخلافة في المشرق تمثلت في قتل المولى إدريس من طرف أحد حلفاء الرشيد بعدما صرح بأن"...الرجل فتح تلمسان، وهي باب إفريقيا، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار..." (الزياني ١٩٦٧).

مع قيام الفاطميين سيزداد الصراع بين المشرق والمغرب حدة نتيجة عامل الاحتكاك الناتج أولاً عن الجوار الجغرافي بين الطرفين بعدما أصبح نفوذ الفاطميين يضم إلى جانب الشمال الإفريقي مصر وفلسطين وسوريا. ثانيًا، نتيجة الصراع العقائدي بين الطرفين فالفاطميين شيعة والأدارسة سنة (زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ المغرب ومدينة فاس ١٩٧٣). والصراع بين الطرفين تحول إلى صراع إيديولوجي، جعل كل طرف يبرر موقفه السياسي من

الآخر تبريرا مذهبيا، خاصةً وأن الأدارسة بالمغرب والمروانيين بالأندلس أصبحوا يمثلون قاعدة الإسلام السني في الغرب الإسلامي (زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ المغرب ومدينة فاس ١٩٧٣، ص ٨٩-٩٠).

مع المرابطين دخلت العلاقات بين المغرب و المشرق مرحلة التميز و الاستقلال النهائي عن المشرق، ذلك أن يوسف بن تاشفين الذي بايع في البداية الخليفة العباسي في المشرق نجده فيما بعد يتلقب بلقب "أمير المسلمين وناصر الدين" بعد انتصاره في معركة الزلاقة، وبعث بأحد سفرائه إلى المشرق (بنمنصور بلا تاريخ، ص٢٠٤) وهي سفارة وإن كان الغرض منها تأكيد سلطة يوسف بن تاشفين على ما هو موجود تحت سلطته الفعلية وتبرير شرعية أعماله بالنسبة لملوك الطوائف فإنها تدل أيضًا على بداية مرحلة الاستقلال النهائي عن المشرق خاصةً بعد ازدياد الأخطار الخارجية على العالم الإسلامي وخاصة على منطقة الغرب الإسلامي حيث حمل المرابطون لواء الجهاد بالأندلس، وهو ظرف كان يتطلب استقلالا في القرار السياسي لمواجهة الأخطار المسيحية بالمنطقة (بنمنصور بلا تاريخ، ص١٧٨).

في العصر الموحدي أصبح التقارب السياسي بين المشرق والمغرب ضرورة موضوعية واستراتيجية لمجابهة الأطماع الخارجية بالنسبة للجانبين وتجاوز التمزق السياسي الداخلي خاصةً بمنطقة الشمال الإفريقي، حيث انفصل الحفصيون بتونس (حسني ١٩٧٦، ص١٢٣). وبنو عبد الواد بالمغرب الأوسط (المنوني ١٩٧٩، ص٥). مع الدولة المرينية ازدادت شروط التقارب بين المغرب والمشرق بعدما تكتلت الإمارات وتحالفت مع ما بقي من ملوك الطوائف ضد السلطة المرينية وبعدما عرف المشرق بدوره هجوما من طرف التتر مهد لإقامة اتصالات ديبلوماسية بين الطرفين، حيث كاتب السلطان المريني أبو الحسن، الملك الناصر محمد قلاوون (القلقشندي ١٩٩٢، ج٧، ص ٣٩٥) وقد تناولت تلك الرسائل الأحوال في المشرق والمغرب كما حملت تفاصيل أخبار هجوم تيمورلانك على الشام والوضع في مصر. وقد مهدت تلك الاتصالات إلى بداية التفكير في بناء حلف عسكري بين المرينيين وممالك مصر لمجابهة الأخطار الخارجية حيث عرض السلطان أبوسعيد عثمان على الملك الناصر، مساعدة عسكرية إذا استمر الزحف على المشرق من طرف تيمورلانك سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) (القلقشندي ١٩٩٢، ص ١٠٣ــــ١٠٦).

مع بداية العصر الحديث ونظرًا للتغيرات التي عرفها العالم آنذاك والمرتبطة ببداية تفوق الجانب المسيحي على الجانب الإسلامي وبداية الاكتساح العثماني لمصر وبلدان الشمال الإفريقي، جعلت العلاقات المغربية المشرقية تدخل مرة أخرى مرحلة من مراحل المجابهة المباشرة بين المغرب والمشرق خاصةً عندما أعلن محمد الشيخ السعدي حربه على الأتراك الذين بدورهم بعثوا من اغتاله سنة ١٥٥٧م (Meinier 1982, p459).

وتبقى فترة حكم سيدي محمد بن عبد الله من أهم فترات الوفاق السياسي في العلاقات المغربية المشرقية ويأتي ذلك نتيجة جهوده التي بذلها من أجل تطوير العلاقات المغربية الخارجية ومن بينها علاقته مع السلطة العثمانية بالمشرق. لكن مع حكم السلطان المولى سليمان الذي تعاطف مع تعاليم الحركة الوهابية وارتبط بدعاتها ستأخذ العلاقات المغربية المشرقية مضمونًا روحيًا ودينيًا خاصةً بعد أن استجاب السلطان العلوي لتعاليم الوهابية (الزياني ١٩٦٧، ص٤٦٦- ٤٧٠) مؤكدًا بذلك الأسس الموضوعية والدينية التي بنى عليها سياسته المشرقية وهي الأسس التي هدفت إلى إقامة وحدة إسلامية مبنية على وحدة القاعدة الدينية، وذلك بالرجوع بالإسلام إلى صفائه ونقائه الأصلي. الجدير بالذكر أن أخبار الحركة الإصلاحية الوهابية وصلت إلى المغرب عن طريق الرحلة المغربية الحجية لسنة (١٢١٧هـ/١٨٠٢م) (Mohamed s.d., p 266) مما يدل على أن رابطة الروح والدين واللغة كانت حاضرة، يرجع لها الفضل في تمتين الصلات الحضارية و من الطريف أن نجد أن بني سليم وبني هلال الذين تحيزوا إلى عمان البحرين وصاروا جندًا للقرامطة، هم أنفسهم الذين صاروا إلى المغرب عن هذا الطريق بعد أن انتقلت دولة العبيديين المغاربة إلى مصر وغلبوا القرامطة على الشام وردوهم إلى البحرين (التازي، في تاريخ المغرب الدبلوماسي ــــ عدد ١٣٥ السنة ١٩٨٩).

إن هذا الواقع الذي أصبحت تعرفه العلاقات المغربية المشرقية ستغيره الأحداث التي عرفتها نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، خاصة أحداث الحملة الفرنسية على مصر التي أصبح مشروع غزوها ضرورة استراتيجية بالنسبة لفرنسا في حربها مع إنجلترا. وهو ما انعكس سلبًا على علاقات المغرب بالمشرق حيث أصبح من المتعذر على الطرفين الاتصال ببعضهما البعض وأصبح من الصعب على الرحالة، الوصول إلى المشرق عبر الطريقين البري والبحري، وحتى ركب الحاج المغربي والذي كان مروره لا يرتبط ولا يتأثر بتقلبات الظروف السياسية في المشرق، نجد الفرنسيين قد فرضوا عليه عدة إجراءات لمنعه من المرور، ويورد لنا المؤرخ المصري: الجبرتي عن هذه الحادثة قائلاً: "حيث نادوا على الأغراب من المغاربة وغيرهم من الخدامين أو البطالين ليسافروا إلى بلدهم، وكل مَنْ وجد بعد ثلاثة أيام يستأهل الذي يجري عليه..." (الجبرتي ١٩٧٨، ص ١٩٨). ثم يذكر الجبرتي -في نفس السياق- أن حضور المغاربة إلى الحج في ذي القعدة سنة ١٢١٣هـ، أشاع حالة استنفار بمصر لكون الناس أذاعوا بأنهم عشرون ألفا حضروا لتخليص مصر من الفرنسسين (الجبرتي ١٩٧٨، ص ٢٦٩). وقد أرسل الفرنسيون من استطلع الأمر فوجدوهم" ...طائفة من خلايا وقرى فاس فصادروا أسلحتهم واحتفظوا بكبيرهم كرهينة عندهم حتى يمروا ويلحق بهم بعد يوم" (الجبرتي ١٩٧٨، ص ٢٦٩).

نستنتج من كلام الجبرتي أمرين اثنين:

الأول: رغم الظروف السياسية التي كان يمر بها العالم الإسلامي - في هذه الظرفية التاريخية من توسع الحركة الإمبريالية— لم ينقطع ركب الحاج المغرب إلى المشرق، مما يدل على رغبة المغاربة الجامحة في الاتصال بإخوانهم المشارقة في أحلك الظروف مهما كلفهم ذلك.

الثاني: رحلة المغاربة إلى المشرق من أجل الحج أو لقاء العلماء أو المجاورة بالحرمين الشريفين والحرم الأقصى، لم تكن تثنيهم عن القيام بالعمل الخلقي تجاه إخوانهم المشارقة والمتمثل في الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي في مصر وهذا يذكرنا بما ورد في المصادر التاريخية مثل موسوعة مجير الدين العليمي "الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل" عن مشاركة المغاربة لصلاح الدين الأيوبي في استرجاع القدس من الصليبيين وهو الأمر الذي جعله يتمسّك بهم ويقطعهم الأرض التي ستصبح فيما بعد "حارة المغاربة".

وبعودتنا إلى الجبرتي ندرك أن فرنسا كانت تحتاط من المغاربة على الخصوص من كون بعضهم تزعم حركة الجهاد ضد الفرنسيين بمصر ونورد في هذا الصدد كلام الجبرتي عندما ذكر أن الفرنسيين في ذي الحجة من عام ١٢١٣هـ توجهوا إلى دامنهور لقتل بني عدي "... لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربي يدعي المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دامنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية..." (الجبرتي ١٩٧٨، ص ٢٧٤). ولم يكن هذا الشخص هو المغربي الوحيد الذي تزعم جهادا ضد الفرنسيين بعد دخولهم إلى مصر، إذ نجد شخصًا آخر بشبه الجزيرة العربية عندما سمع بقدوم الفرنسيين إلى مصر فقام بالحجاز ونادى بجهادهم (الجبرتي ١٩٧٨، ص ٢٥٠). كما يخبرنا الجبرتي أيضًا في مؤلفه المذكور في الجزء الثالث منه عن شخص مغربي يدعى السباعي، مرّ بمصر في طريقه إلى الحجاز لكنه اصطدم بالاستعمار الفرنسي فقطع حجته واستقر بمنطقة البحيرة يجاهد إلى جانب إخوانه المصريين (عبد الرحيم ٢٠٠١).

لذلك كان المحاربون يحتاطون لمرور المغاربة بمصر ويراقبون عملية الاتصال بينهم وبين المشارقة لمنع أي ارتباط بين الطرفين خاصةً وأن حركة جهاد المتطوعين المغاربة ومَنْ انضم إليها من المصريين- رغم ضعفها وتفرقها- أثرت على مخططات الفرنسيين بمصر والشام، وقد كانت عملية الجهاد هذه من بين الأسباب التي دفعت نابليون إلى رفع الحصار على مدينة عكا حسب التقرير الذي بعثه إلى الجيش الفرنسي بمصر، إذ يذكر أن من بين الأسباب: المغربي محمد الأحرش الذي جمع المتطوعة و حارب بهم الفرنسيين بمصر وعاد لينضم إلى حركة المقاومة في الجزائر سنة ١٨٠٥ إلى أن قتل سنة ١٨٠٧م (الجزائري ١٩٦٤، ج ١، صص ١١٧-١١٨). مما جعل نابليون يضطر إلى التفاوض مع

العثمانيين وحلفائهم الإنجليز، فكانت اتفاقية العريش عام (١٢٢٤هـ/١٨٠٠م) التي تقضي بانسحاب الفرنسيين من مصر وإعادتها للعثمانيين.

وهناك ناحية مهمة من تاريخ المنطقة ظلت مجهولة إلى الآن، ونعني بها تلاقي المحيط مع الخليج في الإجهاز على السيطرة الأجنبية التي تتمثل في سيطرة البرتغال على القلاع الحساسة المشرفة على الخليج والساحل. ويتعلق الأمر بالفترة المظلمة التي مر بها ساحل عمان ومضيق هرمز وساحل الخليج، فقد تمكنت البرتغال من بسط نفوذها في الخليج منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي (١٥٠٧ وفي سنة ١٥٢٢)، عين مسؤولون برتغاليون لتحصيل الضرائب الجمركية من هرمز والبحرين ومسقط (التازي، في تاريخ المغرب الدبلوماسي ـــ عدد ١٣٥ السنة ١٩٨٩).

وقد كانت البرتغال عمدت إلى محاولة إنزال الضربة القاضية بالمغرب الذي ما فتئ يقدم العون لإخوانه في المشرق على الرغم من بعد الدار.. هكذا استولى البرتغاليون عام (١٤١٥-١٤١٦) على مدينة سبتة المغربية بعد محاصرة ست سنوات. وليس صحيحًا أن الباعث لانسياب البرتغال في أطراف آسيا كان فقط بدافع الاتجار في البهارات، ولكن هنالك باعثا وراء ذلك الغزو.. ولا نعتقده إلاّ الحرب الصليبية التي كشرت عن أنيابها ضد مختلف الجهات التي كان فيها الإسلام سائدًا. وهذا يذكرنا بما وقع زمن صلاح الدين الأيوبي الذي بعث سفارة للعاهل المغربي المنصور الموحدي ورجوع السفارة بما طلبته في مائة وثمانين أسطولاً منعت النصارى من سواحل الشام (أحمد بن خالد الناصري ١٩٥٥، ج٢، ص ١٦٢-١٦٣-١٦٤).

لقد تمكن البرتغال هنا وهناك، وفي هذا الوقت كان المغرب كان على علم تام بما يجري على أطراف عمان وبالتالي على شاطئ الخليج من خلال سفرائه العديدين الذين كان يبعث بهم إلى الدولة العثمانية. نذكر على سبيل المثال: سفارة التامجروتي (الغربي ١٩٧٠) وقد حكى عن القمع الذي كان يمارسه البرتغال سواء مع القوى المحلية للمنطقة أو مع الأتراك أنفسهم. (ferrand s.d.) وفي هذا الوقت بالذات كان البرتغاليون يطمحون إلى أن يستحوذوا على الساحل المغربي كله، فقدموا لغزوه حيث كانت معركة وادي المخازن (عام ٩٨٦هـ-١٥٧٨م) التي حاول التاريخ الأوربي عن عمد كتم أنفاسها وإخفاء أبعادها عن الناس. هذه الأحداث وهذا التاريخ المشترك بين الخليج والمحيط يعكس روح الوحدة التي قادتهما إلى روح المواطنة العربية التي ربطتهما منذ فجر التاريخ. ومن المشرف حقًا أن الجهود كانت تضافرت كلها من أجل طرد الأجنبي عن البلاد، ولم يبق هناك أي شعور بالمذهبية ولا أي شعور بالطائفية أمام الغزاة. وكما كان الأمر بالأمس فقد تناسى الناس كل المنافسات المذهبية وتكتلوا صفًا واحدًا ضد الوجود الأجنبي ولم يبق هناك أي شعور بالنعرات الطائفية كذلك، هكذا لبى المالكية نداء الأباضية للجهاد كما وقفت إلى جانبهم مختلف المذاهب الأخرى.. فكانت نهاية الحرب الصليبية في هذا الجزء من العالم الإسلامي.

إن هذا الاهتمام والارتباط بالمشرق، ظل قائما إلى يومنا هذا وهو ما يجسده التفاعل مع تطورات وأحداث عديدة عرفها المشرق العربي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، لعلّ أهمها على الإطلاق تقسيم فلسطين ونكبة العرب في حرب ١٩٤٨م أمام إسرائيل، مما ألقى بثقله على المنطقة طوال عقد الخمسينيات من القرن الماضي وما تلاه، وهو ما ظل قائمًا إلى الآن. وقد تفاعل المغاربة معها بحكم الوشائج التاريخية والدينية والعاطفية والانتماء المشترك مع أقطار المشرق العربي إلى المؤسسة ذاتها أي الجامعة العربية. إضافة إلى تأثير تلك الأحداث والتطورات بشكل من الأشكال في المغرب.

عبّر المغاربة عن تفاعلهم مع قضايا المشرق العربي في الخمسينيات عبر أدوات مختلفة:

- رحلات إلى بلدان مشرقية، من أبرزها رحلات عبد الهادي بوطالب (بوطالب ١٩٩٣) والتهامي الوزاني (الوزاني ٢٠١٣) وأبي بكر القادري (القادري ١٩٩٥). وإذا كانت رحلة الوزاني اقتصرت على مصر فإن رحلتي بوطالب والقادري شملت بالإضافة إلى مصر، أقطارًا عربية أخرى. مما جعلهما يقفان على الفوارق والتجاذبات القطرية والبين قطرية. قدم القادري تقريره إلى الملك محمد الخامس فور عودته من رحلته إلى المشرق، وما من شك أن السلطات المغربية

استفادت من هذا التقرير حول أوضاع أقطار مشرقية في ترتيب دخولها للجامعة العربية وتنظيم علاقاتها بهذه الأقطار، وفي الإعداد لاحقا لزيارة محمد الخامس لدول مشرقية في أوائل سنة ١٩٦٠ (المكاوي ٢٠٢٠، ص ١٥).

- شهادات ومذكرات طلبة مغاربة في دول عربية خاصة في مصر وسورية، فقد عاش هؤلاء وعايشوا أمثال عبد الكريم غلاب، محمد التازي، محمد برادة، محمد عبد الجابري أحداثًا جسيمة، منها: ثورة الضباط الأحرار، العدوان الثلاثي على مصر، الوحدة المصرية السورية...إلخ.
- شهادات ومذكرات شخصيات مغربية عملت في السلك الديبلوماسي أو تقلدت مناصب وزارية: منهم عبد اللطيف الفيلالي، محمد التازي، عبد الرحيم بوعبيد.
- صحف ودوريات مغربية غطت أحداث أقطار عربية مشرقية وتفاعلت معها من منطلقات مختلفة سواء في أواخر عهد الحماية أم بعد حصول المغرب على استقلاله، نذكر منها: العلم، صحراء المغرب، رسالة الأديب، الطليعة، دعوة الحق...
- مناقشات واستفسارات تمت إبان انعقاد المجلس الوطني الاستشاري فيما بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٥٩، عن تأخر انضمام المغرب للجامعة العربية، والإنزال الأمريكي في لبنان والتدخل البريطاني في الأردن.
- بيانات رسمية وردود فعل السلطات المغربية إزاء قضايا مشرقية مثل مساندة المغرب لمصر إبان حرب السويس، أو استنكار انطلاق جنود الإنزال الأمريكي في لبنان من قواعد عسكرية أمريكية فوق التراب المغربي..

ويمكن التقاط تفاعل المغاربة مع قضايا مشرقية من مصادر شرقية أو من مصادر أوربية لاسيما فرنسية فقد كانت فرنسا على سبيل المثال، حريصة على رصد ردود فعل المغاربة ومواقفهم إزاء إسهامها في العملية الثلاثية (حرب السويس) ضد مصر، دون أن يغيب عن الأذهان، ربط فرنسا لهجومها على هذا القطر بدعمه للثورة الجزائرية، مع إرهاب المغاربة حديثي العهد بالاستقلال مع استمرار أعداد هائلة من القوات الفرنسية مرابطة فوق التراب المغربي.

ثانيًا: من مظاهر الوحدة العربية الإسلامية (الرحلات الحجازية وصلت بين شقي العروبة)

لا يوجد في تاريخ الإنسانية موقع جغرافي حج إليه ملايين البشر في كل جيل مثل الجزيرة العربية، و لا يوجد موطن استقطب خمس الإنسانية في طموحاتها الفكرية و تطلعاتها الروحية مثل الحجاز، الوطن الروحي الأول لكل مؤمن، فادعاء الاغتراب في مهبط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية هو شذوذ في عقيدة كل مؤمن يستشف في مثوى الرسول رمز الرحمة والمثالية وإشعاع الروح والوجدان، فلذلك لم تعرف و لن تعرف مواقع السياحة الدولية مسارًا أكثر استراحًا وأشد استمراحا من هذه الأرض الطاهرة التي ظلت كعبة الرواد منذ انطلقت دعوة إبراهيم الخليل الأب الثاني للبشرية، تذكي الأفئدة والمشاعر خلال أربعة آلاف من السنين، وشاء القدر الذي هيأ لهذه البقعة المقدسة أن تكون منارًا للإنسانية جمعاء- أن تكون أيضًا منطلق الحضارات التي أشعت على الرافدين ونهر "بارادا" والبحر المتوسط، وقد جمعنا الحجج التاريخية النابعة من الحفريات الأثرية ومقارنة اللهجات السامية الدالة على أن الجزيرة العربية هي منبثق الحضارات السامية التي كيفت أقاليم الهلال الخصيب وما وراءه اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا، ولذلك يمكن القول بأن العرب البائدة الأصيلة هي التي نزحت من جنوب الجزيرة العربية حول الألف الثانية قبل الميلاد إلى جنوب العراق واستقرت في مناطق بابل إلى آسيا الصغرى ومنها انطلق الآخيون والدوريون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى بحر إيجة لتأسيس ممتدنات اليونان (التازي، اللغة الأم ١٩٩٠).

فلا بد إذن أن تستكمل الجزيرة العربية مسارها الحضاري في تاريخ المستقبل لأنها هي النبع الوحيد الذي يفيض ليغمر تواريخ الإنسانية في كل مكان وخاصةً في المعمور الذي رفرفت عليه ألوية الإسلام. وقد تجلت هذه النفحات في آلاف الرحلات التي دونها المسلمون

طوال أزيد من ألف عام في مختلف بقاع الأرض ليسجلوا انطباعاتهم وارتساماتهم في طريقهم إلى الحرمين. وقد يكون من العبث محاولة تقصي هذه النفحات بالنسبة لإقليم بذاته، فضلاً عن المجموع، غير أن استعراضًا موجزًا لرحلات ضمن مكان مخصوص كرحلات المغاربة في مختلف العصور، تعطينا صورة عن مدى إسهام الفكر العربي المسلم في هذا الشق الغربي للعالم العربي في دعم مقومات المواطنة العربية التي هي من أبرز مفاخر تراثنا ومظاهر وحدتنا.

وهذه نبذة يسيرة وأنموذجًا مقتضبًا عن الرحالين المغاربة:

- ابن أبي عسرية أحمد الفاسي الفهري (١١٣٧هـ/١٧٢٤م). له رحلة حجازية نقل عنها صاحب "نشر المثاني" (القزويني ١٩٧٧) في ترجمة ابراهيم بن محمد الشاوي السريفي ونسبها له سلطان المغرب مولاي سليمان في كتابه "عناية أولي المجد".
- الأزرقي أحمد بن محمد أبو محمد إسحاق الخزاعي الفاسي. له "تاريخ مكة" (نسخة بألمانيا عدد١٧٠٥).
- أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير، رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية: عصر الحروب الصليبية. تحقيق، حسين نصار، دار مصر للطباعة، بدون تاريخ.
- محمد بن محمد العبدري الحيحي، رحلة العبدري المسماة: الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم وتعليق، محمد الفاسي الرباط، ١٩٦٨.
- رحلة الحسن بن محمد الغسال: الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية- قام بها عام (١٣١٥هـ)، وهي من تقديم وتحقيق: عبد الخلوق التمسماني، مطبعة فضالة، ط ١، المحمدية ١٩٩٨م.
- رحلة أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني: الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية قام بها سنة (١٣٢١ هـ/١٩٠٤ م) وهي من تخريج الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، تقديم وتعليق محمد بن عزوز، ط ١، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- رحلة الشيخ ماء العينين بن العتيق: الرحلة المعينية. قام بها سنة (١٩١١م) وهي من تحقيق: شبيهنا حمداني، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، ط ١، الرباط، ١٩٩٨م.
- رحلة ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (٧٧٩-١٣٧٧م). طبعت مرارًا أعوام ١٢٧٨هـ و١٣٢٢هـ و١٣٤٦هـ. وهي الرحلة المعروفة باسم: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار.
- رحلة محمد حجي بوشعرة إلى الحجاز سنة ١٣٤٨ه وهي من تحقيق د. كوثر أبو العيد من منشورات المركز العربي للأدب الجغرافي، دار السويدي، أبو ظبي، ٢٠٢٢م.

هنالك رحلات أخرى غير هذه يتعذر استيفاؤها وإنما أعطينا نماذج لنلمس مدى أهمية هذا النوع من التراث في إلقاء أضواء كاشفة على جوانب خاصة من تاريخ الجزيرة العربية والأقطار الواقعة في طريق الحجيج.

ولا توجد في جغرافية المسالك والممالك قطعة من الأرض حظيت بعناية الرحالين والمؤرخين مثل الطرق الكبرى المؤدية إلى الحجاز التي صنفت فيها مئات الكتب المختلفة المنازع والأساليب ومآت القصائد الحافلة بوصف المنازل والمراحل، علاوة على ما تطفح به من مشاعر الحنين التي جعلت من هذه الطرق لا متعبدات فقط، بل مجمعات استوثقت عبرها الصلات بين الشعوب الإسلامية ومبادلة الإجازات بين العلماء وتلاقح معطيات الفكر العربي والإسلامي مما لم يعرف له نظير حتى بعد عصر النهضة وما طرأ من سهولة وسرعة على المواصلات. بل طرقًا صوفية سنية كطريق أبي محمد صالح دفين آسفي (وهو من رجالات القرن الثامن امتدحه شعراء الشرق مثل البوصيري) اقتصر شعارها الصوفي على ترحيل الحجيج من المغرب إلى الحجاز وتوفير محطات الاستراحة و متطلبات السفر على طول المراحل وخاصةً الصحراء، وكان هؤلاء الحجيج الذين لم تكن تخلو منهم الجادات و السبل الكبرى طوال السنة يتواكبون في ركب موصول يسمى "الركب الصالحي"

(التازي، في تاريخ المغرب الدبلوماسي ــــ عدد ١٣٥ السنة ١٩٨٩) يستهدف بالإضافة إلى أداء فريضة الحج، توثيق الرباط بين الشعوب الإسلامية، وكانت لأفواج الحجيج قوافل تنحدر من شنقيط وكبريات عواصم المغرب لتتجمع بسجلماسة أو مراكش أو فاس ومنها تتخذ طريقها متكاثفة عبر ما سماه الرحالة ابن مليح بطريق الفقهاء أي فقهاء المذهب المالكي الذين كانوا ينحازون عن متجمعات الخوارج في بعض مناطق المغربين الأوسط والأدنى للإنسلال من بلاد فزان إلى أرض الكنانة.

وقد تبلور نتاج هذه الروابط علاوة على الرحلات فيما صنفه العلماء من فهارس وأثبات سجلوا فيها إجازاتهم وارتساماتهم وما جنوه من ثمار خلال رحلاتهم، فلم يقل هذا النوع من المعلومات فائدة ولا عائدة عن مضامين الرحلات، وكانت الصلات حقًا متبادلة، إلا أنها نادرة بالنسبة للواردين على المغرب من المشرق، ومع ذلك فإن فكرهم النابع من إجازاتهم ودروسهم ومؤلفاتهم، كان يرحل إلى المغرب مع العائدين فيهم بحظ وافر في إثراء المكتبة العربية الإسلامية في المغرب العربي وما زالت مكتباتنا العامة والخاصة تزخر بنوادر المخطوطات الشرقية التي ضاع بعضها في الشرق واحتفظ المغرب بأصولها الفريدة، ويندهش المشرقي عندما يتصفح فهارس المخطوطات بالمغرب فيجد مئات المصنفات الأصلية التي لا تعرف مكتبات المشرق إلا عناوينها محفوظة مصونة تنتظر توثيق التعاون بين شقي العروبة لإحياء هذه المعالم الناصعة لترتثنا المشترك وهو عمل يحب ألاّ نتوانى في وضع التخطيطات الرصينة لبعثه لأنه لا يقل أهمية عن باقي مقومات تراثنا ودعامات كياننا الحضاري.

إن رحلات المغاربة إلى الشرق للحج أو الجوار، جسدت مفهوم المواطنة العربية من خلال الدور الطلائعي الذي قام به الرحالة في بلورة التبادل الفكري بين أجزاء العالم الإسلامي، ومن هؤلاء:

محمد حجي الهاشمي بوشعرة الذي عرّج على العديد من الدول المشرقية في رحلته الحجية سنة (١٣٤٨ه/١٩٢٩م) —التي سبق ذكرها- والتقى هناك برجالات الفكر والأدب كالشيخ الخطيب "محمد المحمصاز" وهو شافعي المذهب، والعلامة "يوسف النبهاني" قاضي بيروت الذي زود بوشعرة بآخر إنتاجاته الفكرية (بوشعرة ٢٠٢٢، ص ١٧) فالحج إذن فضلاً عن كونه شعيرة دينية، كان أيضًا مناسبة اجتماعية وثقافية (المليح ٢٠٠٥، ص ٣٣-٦٠). بل كان على مر التاريخ ذلك الشريان الذي يربط المغرب بالمشرق رغم المحن والحوادث التي عرفها العالم الإسلامي، فكانت الرحلة المغربية صوب الحجاز نعم السفير والوسيط في توطيد العلاقات التاريخية بين المغرب والمشرق لاسيما على المستوى الفكري والاجتماعي والسياسي (ferrand بلا تاريخ).

أحمد بن عبد الله الغربي الرباطي الدكالي (١١٧٨ه/١٧٦٤م) رحل إلى المشرق عام (١١٤٠ه/١٧٢٧م)، وأخذ عنه شيوخ مصر والحرمين وذاع صيته في الحجاز فأصبح أحد سفراء الشرق لا في المغرب الأقصى وحده، بل من فاس إلى دكار نظرًا للدّور الذي كانت تقوم به جامعة القرويين وعلماؤها بين الشناقطة وأهل السنغال من خلال مذهب واحد تغلغلت جذوره في قلب الحواضر والصحاري وهو مذهب إمام المدينة مالك بن أنس، ويكفي أن نلاحظ أن المسمى علي بن عبد القادر الشرقي باشا السودان الغربي، هو الذي ترأس ركب حجيج السودان عام (١٠٤٠هـ/١٦٣٠م) صحبة الرحالة المغربي: ابن مليح. حيث كانت مواكب الحجيج من داكار إلى فاس تتجمع لتآليف قوافل ما يمكن أن تسميه اليوم بإفريقيا الشمالية الغربية. وبعض هؤلاء الحجاج الذين لم يسجلوا الرحلات صنفوا في "مناسك الحج وآداب الزيارة" كأحمد ابن قاسم جسوس (١٣٣١هـ/١٩١٢م).

ومن المغاربة الذين جاوروا في الحجاز وطافوا المعمور ناقلين روائع الفكر الإسلامي الحجازي وخاصة المكي والمدني إلى مختلف الجهات:

- سليمان بن أحمد الطنجي المتوفى قبل ٤٤٠ه/١٠٨٤م (العزيز ٢٠٠١، ص٦٤).
- موسى بن إبراهيم أبو هارون الأغماتي المحدث (٥١٦هـ/١١٢٢م) الذي التحق بعد مقام في الحجاز بمصر وخراسان وما وراء النهر وأقام بنيسابور (الحموي ١٩٩٣).

- علي بن عتيق بن عبد الرحمان الفاسي الأصولي المفسر الحافظ (كان حيًا عام ٧٢٦هـ/١٣١٥م) الذي استقر بعد في "صفد" قبل العودة إلى المغرب. (العزيز ٢٠٠١).
- محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي الشاعر المحاضر دفين المدينة المنورة (١٣١١هـ١٨٩٣م).

له تاريخ في علماء عصره وقد افتتحه بشيخه علي بن ظاهر الوتري مسند المدينة المنورة ١٢٦١هـ/١٩٢٢م) الذي زار المغرب مرتين وأخذ عن مغاربة جلة. وابن ظاهر هذا هو الذي أحيا موات الرواية بالمغرب وأنعشها بالمشرق (إبراهيم ١٩٩٣).

- محمد المجيدري اليعقوبي الذي كان أحد أربعة لم يبلغ أحد مبلغهم في عصره وهو القرن الثاني عشر الهجري وكانت له جولات في الحجاز وسائر أقطار الشرق. (العزيز ٢٠٠١، ص٦٤).

وهنالك كتب أخرى انتشر خلالها تاريخ الفكر من علماء الحجاز ككتاب " إيماض البرق في أدباء الشرق" لابن الأبار البلنسي.

خَاتِمَةٌ

تلك فذلكة مقتضبة يتضح لنا من خلالها مدى ما يمكن أن نستفيده من بعث تراثنا العربي الإسلامي في مختلف مظاهره ومعطياته وهو بعث كفيل بالمساهمة في دعم تاريخ العروبة والإسلام وتوطيد الصلات وتعميقها بين شقي العروبة شرقًا وغربًا.

وبعد، إن هناك فترات في تاريخنا البعيد والقريب ما تزال في حاجة إلى البحث والتنقيب، وأن في صدر تلك الفترات ما يوجد في تلك الظروف العصيبة التي استهدفت فيها بلاد المشرق والمغرب للغزو الأجنبي، وأنه إذا كان من مصلحة الذين غزونا وهاجمونا في عقر دارنا أن يطمسوا معالم قوتنا، وأن يكتموا جوانب تضامننا مشرقًا ومغربًا، فإنه لا يحق بحال لمؤرخينا أن يغفلوا عن أي آصرة من الأواصر التي جعلت منا مناضلين على أرض متباعدة ولهدف واحد وجعلت منا منتصرين هنا وهناك، لأن هدفنا كان واحدًا. وللتعبير من مؤرخينا عن اهتمامهم بذلك ينبغي أن يبرزوا في مناهج التاريخ، روح الوطنية والتاريخ المشترك الذي يربط بين المغرب والمشرق العربيين.

لائحة المصادر العربية والأجنبية:

المصادر العربية

- القرآن الكريم.
- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتا ريخ مدينة فاس. الرباط، ١٩٧٣.
- أبو العباس أحمد القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٢.
- أبوبكر القادري. رحلاتي الحجازية (ارتسامات وذكريات عن ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٥.
- أحمد المكاوي. المغرب والمشرق العربي (١٩٥٠-١٩٦٠) صلات ومواقف. الطبعة الأولى. طنجة: الفاصلة للنشر، ٢٠٢٠.
- أحمد بن خالد الناصري. الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى. الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٥.
- التهامي الوزاني. الرحلة الخاطفة (مشاهدات ولقاءات في القاهرة سنة ١٩٥٧). تطوان: منشورات جمعية تطوان اسمير، ٢٠١٣.
- الجبرتي. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار. ط ٢. المجلد ج٢. بيروت: دار الجبل، ١٩٧٨.
- الزياني. الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا. المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٦٧.
- السعيد لمليح. التواصل الفكري والروحي بين المغرب والمشرق الإسلاميين (مصر، الحجاز) أسسه ومظاهره من بداية القرن السابع إلى أواخر الثامن الهجريين. الطبعة الأولى. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٥.
- السملالي المراكشي العباس بن إبراهيم. الإعلام بمَنْ حل بمراكش وأغمات من الأعلام. الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٩٣.
- حسن حسني عبد الوهاب. خلاصة تاريخ تونس. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦.
- سارة أرينسون. "الاكتشافات والملاحة البحرية في العالم الوسيط." عالم المعرفة، ٢٠٠٥: ١٢٣-١٧٣.
- عبد العزيز بنعبد الله. الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ. الرباط: دار نشر المعرفة، ٢٠٠١.
- سعيد الأحرش. الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة وتركيا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين: مصدر من مصادر المعلومات عبر العالم الإسلامي. الطبعة الأولى. المجلد ٢. الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز، ٢٠٠٤.
- شارل أندريه. تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٦٩.
- طه عبد عبد الرحمان. "الإسهام المغربي في التراث الإسلامي، إسهام أخلاقي، عمل المغاربة الخلقي في مصر نموذجًا". مجلة التاريخ العربي، عدد١٤, ٢٠٠٠: ٢٠-٥٤.
- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم. "دور المغاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث." المجلة التاريخية المغربية، ٢٠٠١.
- عبد الهادي التازي. "في تاريخ المغرب الدبلوماسي." دعوة الحق، ــــ عدد ١٣٥ السنة ١٩٨٩: ٢٠- ٣٥.
- "اللغة الأم." مجلة اللسان العربي، ١٩٩٠: ٥٠-٧٨.
- عبد الهادي بوطالب. ذكريات ...شهادات ووجوه. الطبعة الأولى. جدة: الشركة السعودية للأبحاث والنشر، ١٩٩٣.
- عبد الوهاب بن منصور. العز والصولة في معلم نظم الدولة. الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٦١.
- عبد الوهاب حسن حسني. خلاصة تاريخ تونس. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦.
- عواطف محمد يوسف نواب. الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن للهجرة: دراسة تحليلية مقارنة. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٦.
- محمد الغربي. "معركة وادي المخازن." مجلة اللقاء، يوليوز ١٩٧٠: ٢٥-٥٤.
- محمد الفاسي. "من تاريخ الأدب المغربي." مجلة تطوان، ١٩٨٥: ١٦ــــ ٦٤.
- محمد القزويني. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. الرباط، ١٩٧٧.
- محمد المنوني. ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين . الرباط: كلية الآداب، ١٩٧٩.

- محمد بن تاويت. "المغرب الأقصى والمشرق العربي." دعوة الحق، ٣, ١٩٧٠: ٦٢.
- محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني. الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية. الطبعة الأولى. بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٥.
- محمد بن عبد القادر الجزائري. تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. بيروت: دار اليقظة، ١٩٦٤.
- محمد حجي بوشعرة. الرحلة الحجية. أبو ظبي: دار السويدي، مركز ارتياد الآفاق، ٢٠٢٢.
- نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب. الطبعة الثانية. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠.
- ياقوت الحموي. معجم البلدان. بيروت، ١٩٩٣.

لائحة المصادر الأجنبية

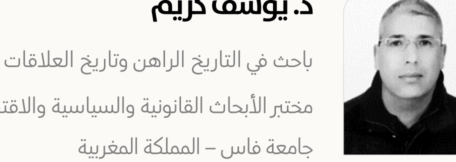
- Defremery et le Dr B.R Sanguinetti. Voyages D'ibn Batouta. Paris: Authopos, 1968.
- El Mansour Mohamed . Political and Social Developements in Morocco.
- Gabrel ferrand . Instruction nautique et routieresarabes et portugaise du XVl siecle.
- Georges Dragues . Esquises d'histoire religieuse du maroc . Paris ، 1951.
- J Meinier–libr Klineksick ، 1982 . le maroc Saharien des origines.



مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أهمية إعادة قراءة التاريخ على ضوء التحديات الراهنة
العلاقات بين المغرب وإسبانيا نموذجًا



د. يوسف كريم

باحث في التاريخ الراهن وتاريخ العلاقات الدولية

مختبر الأبحاث القانونية والسياسية والاقتصادية

جامعة فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

للعلاقات المغربية الإسبانية طابع خاص واستثنائي، وقد حركت هذه الاستثنائية على مدى العصور أقلام العديد من الدارسين والباحثين والمؤرخين الذين أعطوها أوصافا متباينة ووصفوها بالعلاقات الصعبة التي راكمت تاريخًا طويلاً من الجوار القلق. ولكي نفهم أكثر طبيعة هذه العلاقات التي تتراوح بين الانفتاح والتعاون أحيانًا، وبين الاحتراس والتحوط أحيانًا أخرى، يبدو المدخل التاريخي مهمًا جدًا لفهم الأبعاد المعقدة التي توجه صانع القرار الاستراتيجي الإسباني في تعاطيه مع المغرب، حيث يلعب الإرث التاريخي والاستعماري دورًا محوريًا في المعادلة. ما يستطيعه التاريخ اليوم بلغة "باتريك بوشرون" (Patrick Boucheron) هو استدعاء البنيات الممتدة في الزمن من أجل فهم السياقات المفسرة للمستبطن والخفي فيما جرى ويجري في الزمن الراهن، انطلاقًا من كون أزمات الحاضر تتغذى على رواسب الماضي، وأن عدم فهم الحاضر يولد بالضرورة من الجهل بالماضي، وأن فهم واقع العلاقات الدولية يبدأ من حيث ينتهي التاريخ. وإذا كان التاريخ يتحرك، فإن ديكتاتورية الجغرافيا جعلت من المغرب وإسبانيا بلدين جارين يطلان على حوض البحر الأبيض المتوسط، وبحكم هذه الجوار الذي يشبه السكن في منزل واحد، فإن ما يجمع المغرب وإسبانيا من مصالح متبادلة وعلاقات استراتيجية، أكبر بكثير مما يفرقهما من خلافات أو سوء فهم.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٢	أبريل	٢٠٢٤
تـاريخ قبـول النشـر:	٢١	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

التاريخ الحديث والمعاصر؛ المغرب؛ إسبانيا؛ العلاقات الدولية والعلوم السياسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.282541.1122 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يوسف كريم. "أهمية إعادة قراءة التاريخ على ضوء التحديات الراهنة: العلاقات بين المغرب وإسبانيا نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٩٠ – ١٩٧.

Corresponding author: youssefk8@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

تطبع العلاقات بين المغرب وإسبانيا كثيرا من حالات التوجس والشك وعدم الاستقرار. وحكم على علاقات البلدين الجارين بالعيش تحت رحمة الأزمات والخضوع لمنطق التوتر الدائم والمتجدد، والاحتقانات بتعقيداتها وإشكالاتها، بحكم القرب الجغرافي، ونقاط التلاقي التاريخية بين البلدين، في قضايا شديدة الحساسية، وخاصة في العقدين الأخيرين، وقد سعت مختلف الكتابات إلى تناول العلاقات بين المغرب وإسبانيا بمنطق مغاير لما تعرفه العلاقات بين الدول، فالمغرب لم يكن بالنسبة لإسبانيا مجرد بلد جار، مثلما أن إسبانيا لم تكن بالنسبة للمغرب مجرد ضفة أخرى لبحر يطل عليه، ما جعل حدود العلاقات بين ما هو ثنائي مغربي إسباني وما هو مغربي أوروبي غير واضحة وتتداخل في الكثير من الأحيان(1). فالعلاقات المغربية الإسبانية تبقى شديدة الخصوصية والتفرد، حيث يلعب الإرث التاريخي والاستعماري دورًا محوريًا في المعادلة، ولا يمكن فهم واقع العلاقات بين الطرفين إلا من خلال العودة الى المرحلة الاستعمارية وما قبلها، لما لهما من أهمية في تحديد دينامية تطوير العلاقات اقتصاداً وسياسة، مجتمعًا وثقافة.

وتهدف هذا الدراسة إلى تعرف المبادئ الأساسية التي تتأسس عليها العلاقات بين المملكتين المغربية والإسبانية، وما إذا كانت هذه العلاقات قائمة على الندية وسليمة بين البلدين، أم أنها مبنية على عقلية استعمارية وترسبات تاريخية. كما تسعى هذه الدراسة إلى مناقشة طبيعة ومسار العلاقات بين البلدين، وذلك من زاوية تحليل نستحضر فيها المعرفة التاريخية وضرورة استثمار هذه المعرفة في التحليل. فرغم أن المغرب وإسبانيا قد وقعا في يوليوز ١٩٩١ على معاهدة للصداقة والتعاون وحسن الجوار، هي الأولى من نوعها بين دولة عربية وأخرى أوروبية، إلا أن العلاقات بين الطرفين ظلت طيلة العقود الماضية تتراوح بين المد والجزر، نتيجة لوجود عدة قضايا خلافية معقدة وشائكة، تمتح من خلفيات مرتبطة باستمرار منطق الهيمنة والوصاية، واجترار ندوب الماضي حسب المحطات التاريخية، لذلك فإن الفرضية الأساسية التي تنطلق هذه الدراسة هي أنه لا يمكن فهم طبيعة العلاقات القائمة حاليًا، والمستشرفة مستقبلاً بين المغرب وإسبانيا، دون استحضار البعد التاريخي والحضاري وتسليط الضوء على تاريخ العلاقات الثنائية، المحكومة برواسب الماضي، والموروثة عن الحقبة الاستعمارية وما قبلها.

وتنتهي الدراسة إلى استنتاج مركزي مؤداه أنه إذا كان التاريخ يحتفظ بوديان من المشاكل والخلافات وسوء الفهم بين البلدين، منذ فتح الأندلس إلى تاريخ الزمن الراهن، فإن كل هذه الأحداث والانعطافات يجب أن تظل مجرد تاريخ لأخذ العبرة، وليس لمصادرة المستقبل، وما يتيحه من فرص للتعاون على قاعدة الربح المشترك والحوار الجاد لحل كل الإشكالات العالقة بين بلدين جارين.

أولاً: خلافات الماضي وأزمات الحاضر

ثمة مقولة مشهورة للكاتب الأمريكي أبراهام فيرجيزي (Abraham Verghese) مفادها أن "الجغرافيا هي قَدَرُ الشعوب". وقدَر إسبانيا والمغرب أن يتقاسما ليس فقط تاريخا طويلا وحافلا من الأخذ والرد والمد والجزر، ولكن أيضا حدودا وإطلالة مشتركة على حوض البحر الأبيض المتوسط. وبحكم هذا الجوار الجغرافي الذي "يشبه السكن في منزل واحد"، فقد تندلع بين الفينة والأخرى حالة من الاضطراب والتصادم، بل حتى التوتر، وقد يحصل أن تفتر العلاقات بين البلدين لفترة من الفترات، وتنذر في كل لحظة بأنها معرضة للانفجار بسبب تداخل المصالح وأحيانا بسبب تضاربها.

ورغم أن العلاقات المغربية الإسبانية غالبًا ما تعرف قدرًا من الاستقرار لكن الأزمات التي تندلع بين الأمم والشعوب، كما يقول المؤرخ زكي مبارك، لا تأتي فجأة من السماء، ولا تنبت من الأرض كالطفيليات دفعة واحدة، وإنما نتيجة أفعال وأعمال وأحداث تاريخية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو جغرافية. فما يبدو تمظهرات آنية وظرفية لأزمة عابرة قابلة للتغيير والتجاوز، قد يجد تفسيره في خلفية ثقافية تشكل

امتدادا لبنية سلوكية تشكلت على مدى سنوات أو عقود، بل وحتى قرون. وتأخذ هذه الدراسة كنموذج للاشتغال، إحدى الأزمات الحديثة التي نشبت بين المغرب وإسبانيا منذ بداية الألفية الثالثة سواء خلال ولاية الحزب اليميني الشعبي أو الحزب الاشتراكي العمالي، وما ورافقها من ممارسات وردود أفعال ومواقف وتمثلات لا يمكن فهمها بمعزل عن الأحداث الماضية التي طبعت تاريخ العلاقات بين البلدين الجارين، وأن إسبانيا لازالت تنظر إلى المغرب كرقم أساسي في سياستها، وكفاعل أثر في تاريخها منذ الأندلس المسلمة وإلى غاية المرحلة الراهنة عبر محطات كانت لها تداعياتها وتأثيراتها على العلاقة بين البلدين.

١/١-الأزمة مع اليمين (ولاية "أثنار" ١٩٩٦-٢٠٠٤)

عرفت العلاقات بين المغرب وإسبانيا تدهورا دراماتيكيا، ووصلت درجة من التحامل تجاه المغرب بسبب وصول رجالات اليمين الإسباني المتطرف إلى السلطة، خصوصًا خلال الثماني سنوات من حكومة خوسيه ماريا أثنار (José Maria Aznar)[٢] بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٤، وهي فترة تميزت بالعديد من الخلافات بين المملكتين. فالحكومة اليمينية التي تدير الحكم في إسبانيا، والمعروفة بمواقفها المعادية والمتشددة والموسومة بالنفحة الاستعمارية تجاه المغرب، تسلمت هذه المرة مقاليد الحكم وهي مضغوطة بتبعات الأزمة الاقتصادية، ومن ثم فهي منشغلة بالبحث عن حلول فورية لهذه الأزمة، التي يوجد جزء منها في الخارج وبشكل أكبر في الخارج القريب، الذي يتضمن بالأساس المغرب، فالمغرب يشكل جزءًا من الحلول بالنسبة إلى إسبانيا. وقد بدأت بوادر أولى الخلافات بين الطرفين، بعد رفض المغرب تجديد اتفاقية الصيد البحري، ورفضه تحمل تبعات الهجرة غير الشرعية المغاربية والأفريقية في إسبانيا، ما جعل الحكومة الإسبانية تستدعي القائم بالأعمال المغربي في مدريد إلى مقر الخارجية الإسبانية، لإبلاغه انزعاج إسبانيا من كثرة عدد المتسللين، وردًا على ذلك استدعت الخارجية المغربية القائم بالأعمال الإسباني في الرباط لتبلغه أن المغرب يقوم بما عليه في مراقبة المرشحين للهجرة غير الشرعية انطلاقًا من أراضيه في حدودإمكانياته وقدراته المادية والبشرية واللوجيستيكية.

وسيعرف ملف الهجرة منذ أواسط ٢٠٠٢ تحولا تجاوز دائرته الثنائية إلى ما هو أعقد وأكبر بعدما قررت إسبانيا طرح الملف على هامش قمة الاتحاد الأوروبي بإشبيلية (Séville) يومي ٢١ و٢٢ يونيو ٢٠٠٢ مطالبة بمعاقبة الدول المصدرة للهجرة وفرض عقوبات اقتصادية عليها إذا لم تبد استعدادا للتعاون. وقد استغل رئيس الحكومة الإسبانية "أثنار" خلاصات القمة وقام بتوظيف قضية الهجرة لأغراض انتخابوية، متهما بعض الدول المصدرة للهجرة (في إشارة إلى المغرب) بتهديد أمن إسبانيا وهويتها الثقافية وأمنها القومي والروحي، لذلك سارعت إسبانيا في عهد حكومة "أثنار" إلى تسليح نفسها بترسانة من القوانين التنظيمية طغى عليها الهاجس الأمني على حساب حماية حقوق المهاجرين[٣]، وكان من مظاهر هذه المقاربة الأمنية لإشكالية الهجرة إقدام الحزب الشعبي على تغيير قانون الهجرة ثلاث مرات[٤].

ستدخل علاقات البلدين منعطفًا جديدًا بعد أزمة جزيرة ليلى، والإهانة السياسية التي لحقت هيبة المغرب الإقليمية والدولية من طرف الجار الإسباني، بالنظر إلى الطريقة الاستعراضية التي تمت بها عملية الغزو والتصريحات العنترية التي تلتها. وأزمة جزيرة ليلى (بالإسبانية: Isla Perejil)، هي أزمة دامت ٩ أيام فقط، (من ١١ إلى ٢٠ يوليوز٢٠٠٢) لكنها كانت أكثر الأيام توترا في تاريخ البلدين منذ الفترة الاستعمارية، وكادت أن تؤدي إلى مواجهة عسكرية، بعد إقدام المغرب على خطوة إقامة مركز مراقبة أمني بجزير ليلى بهدف محاربة الهجرة غير الشرعية والإرهاب في مضيق جبل طارق، قابلتها إسبانيا بإرسال فرقة من القوات الخاصة في إطار عملية عسكرية أطلقت عليها "روميو سيرا". وقد تدخلت الولايات المتحدة بوساطة وزير خارجيتها "كولن باول"(Colin Powell) من أجل حل الأزمة، لتعود الجزيرة خالية من القوات المغربية والإسبانية.

٢/١-الأزمة مع اليسار (ولاية سانشيز من ٢٠١٨ إلى ٢٠٢٣)

في أبريل ٢٠٢١، تفجرت أزمة جديدة بين المغرب وإسبانيا، بدخول زعيم جبهة البوليساريو، إبراهيم غالي، بهوية مزورة تحت مسمى "بنبطوش" للأراضي

الإسبانية، وقد شكل حدث تهريب زعيم جبهة البوليساريو إلى الأراضي الإسبانية بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، وأخرجت إلى العلن ملامح أزمة بين البلدين ظلت تطبخ على نار هادئة منذ تشكيل حكومة بيدرو سانشيز(Pedro Sánchez)، وقد ظهر هذا الوضع جليًا من خلال موقف المغرب تأخير عقد قمة ثنائية هي الأولى من نوعها منذ عام ٢٠١٥، إلا أن الدبلوماسية المغربية اعتبرت هذه الأزمة "أكبر من قضية تهريب متهم بارتكاب جرائم خطيرة ضد الإنسانية، مطروحة أمام القضاء الإسباني، أو أنها ستنتهي برحيله عنها"، بل إن الأمر يتعلق "بثقة واحترام متبادل جرى العبث بهما وتحطيمهما، وأن ما جرى هو اختبار لمصداقية الشراكة بين المغرب وإسبانيا"[٥]. من جهتها، اتهمت إسبانيا، في سياق أزمتها مع الرباط، السلطات المغربية باستغلال ملف الهجرة للضغط على الحكومة وأوروبا عبر فتح الحدود والمعابر في وجه المهاجرين غير النظاميين الذين تدفقوا بالآلاف إلى سبتة ومليلية المحتلتين[٦].

المثير في تصريحات وبلاغات وخطاب النخبة السياسية في إسبانيا، هو حجم التناقض الحاصل بين الخطاب الرسمي الإسباني من جهة، وواقع المواقف والسياسات التي لا تخلو من عداء للمغرب، ومن نظرة استعلائية، وإحساس إسباني بالعجرفة، وتبني خطاب محكوم بغريزة الاستعلاء والعنصرية والغرور، وبعقلية المتفوق الذي لا يعير اهتماما لجاره الجنوبي "القابع في تخلفه". وحتى عندما استدعى المغرب سفيرته في مدريد، لإجراء تقييم للعلاقات مع إسبانيا، كان رد الفعل الإسباني تنظيم مظاهرات أمام مقر سفارة المغرب بمدريد، ووصف المملكة المغربية بنعوت غير مقبولة، وأنه لا يجوز لمستعمرة الأمس أن تسلك هذا المسلك المتمرد، أو تعلن حالة عصيان، علما بأنه حق سيادي وشأن داخلي.

"مع إسبانيا لن يكونوا قادرين على ابتزازنا"، تقول وزيرة الدفاع "مارغريتا روبليس"(Margarita Robles)، كما أن إسبانيا تتخذ "قرارات متأصلة في سياستها ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تؤدي إلى التشكيك في الحدود"، تضيف نائبة رئيس الحكومة الإسباني "كارمن كالفو" (Carmen Calvo) ومن باب التذكير، يتعين على المغرب "ألا ينسى ألا حليف أفضل له أو أكبر من إسبانيا في الاتحاد الأوروبي"، يصرح رئيس الحكومة الإسباني" بيدرو سانشيز" (Pedro Sanchez). ما يعكس أن إسبانيا لا تريد أن تكون علاقتها مع المغرب قائمة على الندية وعلى التنافسية الإيجابية، ولكنها تريدها علاقة مبنية على عقلية استعمارية سابقة ومستحكمة في الضمير الجمعي الإسباني. إن الأزمات الحديثة التي نشبت بين المغرب وإسبانيا، والتي أشرنا إلى بعضها خلال هذه الراسة، وما ورافقها من ممارسات وردود أفعال ومواقف وتمثلات لا يمكن فهمها بمعزل عن الأحداث الماضية التي طبعت تاريخ العلاقات بين البلدين الجارين، وأن إسبانيا لا زالت أسيرة عقدة التاريخ، ولا يزال يسكنها رهاب الماضي، ولازالت تنظر إلى المغرب كفاعل أثر في تاريخها منذ الأندلس المسلمة وإلى غاية المرحلة الراهنة عبر محطات كانت لها تداعياتها وتأثيراتها على العلاقة بين البلدين.

ثانيًا: خلفيات العداء الإسباني للمغرب

إن توتر العلاقات المغربية الإسبانية ليس مسألة سطحية عابرة وعادية، وإنما تمتد في جذور التاريخ لتكشف عن مجموعة من الأبعاد المعقدة توجه صانع القرار الإستراتيجي الإسباني في تعاطيه مع المغرب. لذلك، فإن الفهم العميق لحضور المغرب بكل تشعباته ومظاهره في المخيال الإسباني، يتطلب الإبحار عبر حقب زمنية تمتد من التواجد العربي الإسلامي بالأندلس إلى اليوم، بهدف معرفة الكيفية والمراحل التي جرت بها صياغة الصورة الفكرية حول المغرب في مختلف مظاهر الفكر الإسباني، سياسيًا، وثقافيًا، ودبلوماسيًا.

هناك اعتقاد خاطئ يسود في إسبانيا، مفاده أن ""العدو يأتي دائما من الجنوب"، وهو أن المغرب والمغاربة يتحملون المسؤولية في المصائب الكبرى التي تحل بهم، سواء كانت ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، أي أن الرأي العام الإسباني أصبح مهيئًا لتقبل كل ما هو سلبي عن جاره الجنوبي، لأنه يتماشى مع ما هو متجذر في ذاكرته الجماعية، وخلقت مخيالاً شعبيًا جماعيًا

يرتكز على مجموعة من الكليشيهات والصور النمطية، جعلت من المغربي عقدة العقد بالنسبة للإسبان رغم تغير الأحزاب السياسية وتعاقبهم على الحكم. فالمغربي هو في الأصل محط رفض ذهني مسبق ترسخ عبر القرون، وامتزج في صنعه العامل الجيوسياسي والصدام الحضاري، كما تقول الباحثة السوسيولوجية "خيما مارتن مونيوث" (Gema Martín Muñoz) من جامعة مدريد المستقلة في بحث بعنوان "النظرة الثقافية تجاه المغرب انطلاقا من إسبانيا"، فهو في مخيلة الإسبان بمثابة الجار المباشر، والمزعج الفقير، والمختلف ثقافيًا، والخصم الأبدي الذي توجد معه حسابات لا تنتهي.

ولفهم خلفيات هذه النظرة القاتمة يجب الرجوع إلى أحداث تاريخية سوداء شكلت مع مرور الوقت عقدة الإسبان من المغرب، منها ما يعود إلى بداية الحضور الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، ومنها ما له ارتباط بأحداث خلال القرن العشرين، استمرت بعد استقلال المغرب ونهاية الحماية الإسبانية في شمال المغرب.

٢/١-تاريخ الأندلس وإسبانيا الإسلامية

إن فهم الأسباب الحقيقية لهذا "العداء المرضي" من طرف إسبانيا، وما تخبئه صدور الكثير من السياسيين والإعلاميين والرأي العام الإسباني من فوبيا متأصلة وحقد دفين على المغرب، يجد تفسيره الأساسي في التأثير العربي الإسلامي الذي بدأ مع وصول الإسلام للأندلس في القرن الثامن الميلادي، إذ لا يمكن أيضا تغييب الأحداث التي كان المغرب فاعلا مباشرا فيها، والتي تمتد جذورها إلى العصر الأندلسي، حيث بقي المسلمون في بلاد الأندلس ثمانية قرون كاملة، قبل أن تأفل شمسهم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢. فخلال المرحلة الأندلسية، ما بين القرنين الثامن والخامس عشر، تميزت العلاقات بين المغرب وإسبانيا بالتبعية السياسية للسلطة المركزية بالمغرب، ولا يمكن للإسبان أن ينسوا عند استحضار هذه المرحلة، معكرة الزلاقة (١٠٨٦م) ومعركة الأرك (١١٩٥م) التي بفضلها مدد المرابطون والموحدون حكم المسلمين بالأندلس، وعلى مدى ثمانية قرون تقريبا أسس العرب حضارة في شبه الجزيرة الإيبيرية وتركوا آثارًا عميقة مازالت تتراءى مظاهرها بوضوح حتى اليوم، تجلت في انتشار العلوم والفنون والعمران كما في الصناعة والزراعة والهندسة المعمارية إبان تلك القرون الغابرة، مما جعل الأندلس آنذاك مزدهرة ومركز إشعاع في أوربا كلها، ومحجة لطالبي العلم فيها، فقد انفصلت الأندلس تمامًا عن تقاليدها و"انضمت للعالم الإسلامي وتلقت ثقافته"(٧).

هذا الخوف التاريخي من الساكن في الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق يدفع للقول إن إسبانيا مازالت تمارس رقابة خفية على حقبة سوداء من تاريخها، وتتعمد تجاهل الظلم الذي تعرض له المسلمون خلال نفيهم من إسبانيا. فبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، كرست إسبانيا الكاثوليكية جهودها لاجتثاث كل ما يمكن أن يؤدي إلى استمرارية الإسلام في بلاد الأندلس، ونال مسلموا الأندلس النصيب الأوفر من ويلات الحرب الصليبية والتي بلغت درجة اللاإنسانية ، بالنظر لما تعرضوا له من مختلف ضروب وأشكال المجازر والنهب والسلب والاضطهاد والتنصير ومصادرة الأملاك الخاصة، بصفتهم يقطنون جزءًا من أوروبا ويهددون المسيحية في عقر دارها(٨)، ولم يتوقف الحقد المسلط على الموريسكيين الأندلسيين إلا بعد إصدار مراسيم الطرد النهائي في حقهم ما بين عام ١٦٠٩ و١٦١٤(٩)، وملاحقتهم إلى شمال إفريقيا في إطار الصراع القائم بين الهلال والصليب(١٠).

مازالت إسبانيا تنظر إلى تاريخ الإسلام بالأندلس كسلسلة من الصراعات العدوانية، وتظهر المسلم كعدو للملوك الكاثوليكيين، ومازال جزء كبير من النخبة الإسبانية ينساق مع المواقف الرسمية للدولة الإيبيرية، وصعوبة تخلصها من ترسبات الماضي، وإقامة مسافة مع وصية الملكة إيزابيل الكاثوليكية التي أنهت السلطة الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي التي خطت على فراش الموت ما مفاده بأن الحدود الحقيقية لإسبانيا تنتهي عند جبال الأطلس المغربية، وهذا ما دفع الإسبان إلى محاصرة ما اعتبروه خطرا مغربيا عبر السيطرة على مواقع استراتيجية في البحر الأبيض المتوسط. وقد انتظرت إسبانيا حتى القرن السادس عشر، ليبدأ العد العكسي في العلاقة بينها وبين المغرب، حيث احتلت أجزاء من البلد، أولها سبتة، ثم مليلية ومجموعة من الموانئ في ساحل الأطلس المغربي. لذلك

يعتبر المؤرخ عبد الواحد أكمير، الخبير في شؤون القارة الايبيرية، أن الإسلاموفوبيا قبل أن تظهر في أوروبا ظهرت قبل ذلك بقرون في إسبانيا، أي منذ طرد الموريسكيين في القرن السابع عشر، بسبب خوف وهمي من تحالف الموريسكيين مع العثمانيين والسعديين والعودة لاحتلال إسبانيا[١١]، وهذا الأمر جعل المؤرخ "بروديل" يعتبر القضية الموريسكية، ما هي إلا حلقة من حلقات الصراع الحضاري الطويل في البحر المتوسط بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي اللذين يتبادلان الغنى والفقر والتفوق والتأخر، ويتناوبانهما[١٢].

٢/٢-فترة الحماية الإسبانية بالمغرب

ليس ثقل التاريخ الأندلسي وحده من لعب دورا في تأجيج حجم العداء والكره غير المبرر الذي يبديه الإسبان تجاه جارهم الجنوبي، بل إن التحولات الكبرى السلبية التي عرفتها إسبانيا خلال القرن العشرين ظلت مقترنة بالمغرب، رغم أن الوجود الاستعماري الإسباني بالمغرب، لم يحظ بما ينبغي من عناية مقارنة بنظيره الفرنسي، وبقي هامشيا وباهتا في إنجازاته وآثاره مقارنة برديفه الفرنسي[١٣]. وقد شكل اندلاع حرب الريف (١٩٢١-١٩٢٦) أهم اختبار تخوضه إسبانيا خارج حدودها خلال القرن العشرين، وكان التوغل العسكري الإسباني في الريف عصيا مكلفا، سرعان ما تحول إلى سلسلة انتكاسات. وفي هذه الحرب، تجرعت إسبانيا هزيمة قاسية ومهينة في معركة "أنوال" بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، وفضحت هذه المعركة ضعف إسبانيا أمام القوى الإمبريالية ودفعتها إلى استعمال غازات سامة. وقد كانت نتائج معركة أنوال كارثية على إسبانيا لدرجة تسميتها من قبل الإسبان بكارثة أنوال (Desastres de Annuel)، إذ لا يمكن فهم الانقلاب العسكري الذي حدث في إسبانيا سنة ١٩٢٣ بمعزل عن معركة أنوال، كما عززت هذه المعركة من مشاعر رفض الحرب ونصب العداء للمغاربة في صفوف الإسبان.

عامل آخر تسبب في ترسيخ هذه الصورة النمطية عن المغاربة، يتعلق بالدور الذي لعبوه أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، حين أقدم "الجنرال فرانكو" على تجنيد عشرات الآلاف من المغاربة من شمال المغرب بهدف الإطاحة بالحكومة الجمهورية المنتخبة، إذ لا يمكن نسيان أو تجاهل الدور الذي لعبه المغاربة من الذين ساهموا في عبور فرانسيسكو فرانكو من شمال المغرب إلى إسبانيا، والمشاركة في الحرب الأهلية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) لصالح الجنرالات الذين تمردوا على الجمهورية الاشتراكية آنذاك، وكان أداؤهم حاسما في هزيمة الجمهوريين وتثبيت الديكتاتورية الفرانكاوية (Franquismo)[١٤] التي حكمت البلاد لنحو أربعة عقود من الزمن. وبحسب المؤرخة الإسبانية دي مادارياغا (María Rosa de Madariaga)، فإن "المغرب أعاد فتح إسبانيا مرة ثانية بقيادة فرانكو"، حيث كانت مشاركة القوات المغربية خلال الحرب الأهلية في بلادها إلى جانب فرانكو، من بين العوامل التي عملت على تأجيج وترسيخ الصورة المتجذرة سلفا في المتخيل الجماعي لدى الشعب الإسباني، حيث استغل الجنرال فرانكو مرحلة عاشها المغاربة في ظل الحماية الإسبانية وما رافقها من مظاهر الهشاشة، لتمرير أفكار وإيديولوجيا معادية لما كانت تصفه بعض الكتابات بـ "العدو الأحمر"، وتقصد به الجمهوريين الإسبان، الذين كانوا يعتبرون "شيوعيين وملحدين"، وظن مغاربة فرانكو أنهم يؤدون رسالة تخدم الإسلام والمسيحية اللتين أصبحتا متآخيتين في خطابات العسكريين الفرانكاويين وفق تلك الإيديولوجية[١٥]، وهو ما جعل مسألة التعبئة الدينية للمغاربة من أجل الحرب إلى جانب فرانكو، تُعَدّ من أكبر عمليات الاحتيال الاستعماري في التاريخ. وما من شك في أن مشاركة القوات المغربية إلى جانب فرانكو قد ساهم في تغذية نظرة الإسبان المعاصرين، لأنهم يعتبرون أن المغاربة، أعاقوا بناء الجمهورية الحديثة، ولذلك ينظر الإسبان إلى أن المغرب جزء من مخيالهم وفاعل في مسارهم[١٦].

يقول الكاتب الإسباني "خوان غويتصولو" (Juan Goytisolo) إن هذا "الكره الغريزي للمورو" الذي غذته طيلة عقود ذكرياتنا السيئة لحملاتنا الاستعمارية البليدة، وتوظيف الفرنكاويين للريفيين المساكين في الحرب الأهلية ما بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ يعتبر مرضا متفشيا حتى بين من يدعون أنهم يساريون، بل وحتى ثوريين"[١٧]. لم تستطع إسبانيا أن تخرج من قلقها التاريخي المزمن، وأن تتخلص من كتبها القديمة التي

صورت عبور طارق بن زياد بجيشه للمضيق كلحظة مليئة بالعنف والقتل، حيث يتصور المتخيل الإسباني أن مع سفن طارق جاءت كل الكوارث. وحتى بعد رحيل هذا "المورو" إلى الضفة الأخرى للمضيق لم يختف العداء، وإنما تكرس في الكثير من الخطابات والممارسات العنصرية التي يعاني منها المهاجرون المغاربة في إسبانيا. وتستغل أحزاب اليمين، التي على رأسها الحزب الشعبي (El partido popular) وحزب فوكس (partido Vox)، الطروحات الصليبية الاستئصالية المتطرفة في الماضي، من أجل كسب تعزيز مخاوف الإسبان وتوجساتهم، وتوظيف هذه الهواجس كورقة انتخابية لاستمالة أصوات الناخبين[١٨]، كما أن العمليات الإرهابية التي شهدتها بعض المدن الإسبانية (تفجيرات مدريد في ١١مارس٢٠٠٤، و الهجوم الإرهابي بساحة "لاس رامبلاس" (Las Ramblas) الشهيرة بالعاصمة الكطلانية في غشت ٢٠١٧، ولد لدى جزء كبير من الرأي العام الإسباني ربطا مختزلا بين وجود المهاجرين وعدم الاستقرار السياسي والأمني، وازدادت درجات معاناة الجالية المغربية بعد ما تضاعفت نسب الاعتداءات العنصرية ضدهم.

خَاتِمَةٌ

إن تاريخ الخلافات المغربية الإسبانية قديم، قدم وجودهما ككيانات سياسية على ضفتي المتوسط، والأمثلة التي أوردناها على سبيل المثال، تبين أن توتر العلاقات المغربية الإسبانية يمتد في جذور التاريخ، وفيه الكثير من رواسب الماضي الذي مازالت أحداثه تقرأ من خلال حال الحاضر وتشعباته، وبالتالي، فليس من السهل تجاوز الإرث التاريخي الذي يلقي بظلاله على علاقات المغرب بإسبانيا، لأن ثمانية قرون من التواجد العربي الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية، وأربعين سنة من الحضور الإسباني في المغرب مازالت جاثمة بأحداثها إلى اليوم.

لكن على الرغم من القضايا العالقة، والأزمات التي تندلع بين الفينة والأخرى، فإن الخلاف لم يصل في أي مرحلة إلى القطيعة التامة بين المغرب وإسبانيا، وذلك لأن الطرفين يستمران في إدارة علاقاتهما من منطلق الحفاظ على المصالح المشتركة، فالعلاقات المغربية الإسبانية تبقى متشابكة، مبنية على مصالح متبادلة وذات امتداد تاريخي، ولها أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية كبيرة؛ وبالتالي لا يمكن أن يراهن أي ملاحظ على أن هذه العلاقة ستنتهي بالقطيعة، وهو ما يجعل من التعاون خيارا استراتيجيا للبلدين على صعيد جميع المستويات، خصوصًا في الجانب الاقتصادي الذي تقع عليه مسؤولية إصلاح ما تفسده حسابات السياسة وإيديولوجيات السياسيين. ويمكن القول إن التعاون الاقتصادي بين المغرب وإسبانيا، يعد بمستقبل واعد، بالنظر للإرادة الراسخة للبلدين في إعطاء دفعة جديدة لعلاقاتهما الثنائية؛ من أجل شراكة قوية وآفاق واعدة في العديد من القطاعات الاقتصادية بالبلدين. وليس من باب الصدفة أن يعتبر المغرب بالنسبة لإسبانيا الوجهة التاسعة في معاملاتها الخارجية، وأول سوق في إفريقيا، والثالث من خارج الاتحاد الإفريقي؛ فيما تعتبر إسبانيا أول مورد وأول زبون بالنسبة للمملكة المغربية، لتكون بذلك أول شريك تجاري لها.

من جهة أخرى، لا يزال هناك الكثير مما ينبغي عمله على المستوى الاجتماعي والثقافي والإنساني، باعتباره عاملاً أساسيًا للتعايش البناء؛ فعلى الرغم من القرب الجغرافي ووجود تراث ثقافي وتاريخي مشترك، خاصة في الأندلس، فإننا بحاجة إلى التغلب على حواجز عدم الفهم التي لا تزال قائمة، وتعميق جذور المعرفة المتبادلة بين شعوب البلدين لتعزيز أسس الاحترام المتبادل بين الأفراد والمجتمعات.

العلاقات بين البلدين بلغت مرحلة النضج، ومستقبل العلاقات بين البلدين مستقبل واعد بدون شك، لكنه يحتاج إلى بعض الإجراءات العملية التي تقوم بالأساس على الوضوح وعلى حسن النية والمساواة، لذلك، فإن المطلوب في الوقت الراهن، هو إعادة قراءة الإرث التاريخي والثقافي والحضاري المشترك لكل من المغرب وإسبانيا بنظرة واقعية براغماتية هادئة وبناءة، لأن ما يجمع المغرب وإسبانيا أكبر بكثير مما يفرقهما، وعمق العلاقات بين البلدين أكبر من أن تتجاوزه التقلبات الجيوسياسية.

الإحالات المرجعية:

(١) عبد العالي بروكي **"العلاقات المغربية الإسبانية في سياقها الأوروبي"**، ضمن مؤلف **"العلاقات المغربية الإسبانية المعيقات والآفاق"**، منشورات معهد الدراسات الإسبانية البرتغالية، السنة ٢٠١٢، ص ٤٠.

(٢) للوقوف أكثر على طبيعة شخصية أثنار وتكوينه الديني والسياسي، ودوره في تأزيم العلاقات بين المغرب وإسبانيا، يراجع الفصل الأول من كتاب **"الجوار الحذر "للكاتب الصحفي نبيل درويش"**، منشورات سليكي إخوان طنجة، الطبعة الأولى. يناير ٢٠١٥.

(٣) تشدد اليمين الإسباني في ملف الهجرة سيطفو على شكل ممارسات عنصرية عانى منها المهاجرون المغاربة في إسبانيا، وفي هذا السياق نستحضر ما لاقاه هؤلاء في بلدة "إيليخيدو" (El Ejido) التي تقع بألميرية (جنوب شرق إسبانيا)، والتي تحسست طريقها نحو الازدهار بفضل قوة سواعدهم. للتوسع أكثر في هذا الموضوع، يراجع: عبد الواحد أكمير، **"الهجرة إلى الموت، إسبانيا وأحداث إليخيدو"**، منشورات الزمن، سلسلة رقم ٢٨، السنة ٢٠٠١.

(٤) كانت البداية مع قانون ٢٠٠٠/٤ والذي تمت المصادقة عليه في ١١ يناير ٢٠٠٠ بواسطة المرسوم الملكي رقم ٢٠٠٠/٢٣٩، تلاه قانون ٢٠٠٠/٨ والذي اعتبر من أكثر القوانين المنظمة للهجرة إجحافاً وصرامة ضد الهجرة والمهاجرين، وقد تم تعديل هذا القانون بقانون جديد، يتعلق الأمر بالقانون ٣/١٤٠٠.

(٥) بلاغ صحافي صادر عن وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الإفريقي والمغاربة المقيمين بالخارج، يوم الاثنين ٣١ ماي ٢٠٢١.

(٦) سبتة ومليلية هما اهم الثغور التي لاتزال تحتلهما إسبانيا في شمال المغرب، منذ نهاية ما يسمى (La Reconquista) حروب الاسترداد. سقطت مليلية أولاً تحت الحكم الإسباني في سنة ١٤٦٧، أما سبتة التي استولى عليها البرتغاليون في عام ١٤١٥ فقد حولت إلى إسبانيا بمقتضى اتفاقية لشبونة في عام ١٦٦٨.وبرغم أن احتلال إسبانيا لهذه المناطق قديم جدا ويعود إلى القرنين الخامس عشر والسابع عشر، فإن جهود المغرب لاسترجاع هاتين المدينتين وباقي الجزر الجعفرية التي تحتلها إسبانيا على طول الشواطئ المغربية على البحر الأبيض المتوسط لم تتوقف قط.

(٧) خوليو رييس روبيو" المجريطي"، **"الأندلس.. بحثًا عن الهوية الغائبة"**، ترجمة غادة عمر طوسون، ورنا أبو الفضل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٤، ص ١٥٣.

(٨) انظر: محمد عبده حتامله، **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها**، ط ١. مطبعة دار الشعب، عمان الأردن، ١٩٧٧.

(٩) حول قرارات الطرد التي تعرض لها الموريسكيون، يراجع، لمزيد من التفاصيل، كتاب" **أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي**" للكاتب حنيفي هلايلي، دار الهدى الجزائر، ٢٠١٠.

(10) Fernand, Braudel, Les Espagnols et La Berbérie De 1492 à 1577, éd N°02, Belles Lettres étude, Algérie, 2013, pp.200 - 201.

(١١) عبد الواحد أكمير، **"الجالية العربية في إسبانيا"**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت/ أكتوبر ٢٠١٣، ص٢٢١.

(12) Fernand, Braudel, La Méditerranée et Le monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, Armand colin, 1965. Paul Carmignani, Autour de F. Braudel, Presse Universitaire de Perpignan, 2002, pp 515-539.

(١٣) للاستزادة حول هذا الموضوع، يراجع: ميمون أزيزا،"**الريف زمن الحماية الإسباني**ة"، منشورات ملتقى الطرق، ٢٠٢١، الدار البيضاء، المغرب.

(١٤) **الفرانكوية** هو تعبير يشير إلى فترة من تاريخ إسبانيا، بعد الحرب الأهلية ١٩٣٦-١٩٣٩، والتي قام الديكتاتوري الإسباني "فرانسيسكو فرانكو" بحكمها، ما بين أعوام ١٩٣٩ و١٩٧٥، وقد وقعت إسبانيا خلال تلك الفترة تحت الحكم الشمولي والفاشي المستبد.

(١٥) ماريا روسادي مادارياغا، **"مغاربة في خدمة فرانكو"**، ترجمة كنزة الغالي، سلسلة ضفاف، منشورات الزمن سنة ٢٠٠٦، ص٢٣٤.

(١٦) محمد العربي المساري، **"مقاربة لصورة المغرب بإسبانيا"**، مجلة المناهل، عدد ٦٦-٦٧ شتنبر ٢٠٠٢، ص ٢٦١.

(١٧) خوان غويتيصولو: "**إسبانيا في مواجهة التاريخ.. فك العقد**"، ترجمة عبد العالي بروكي، منشورات الزمن، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ١١٩.

(١٨) يوسف كريم، **"دور اليمين المتطرف في أمننة الهجرة بأوروبا"**، مجلة قضايا التطرف والجماعات المسلحة، العدد ٥، ماي ٢٠٢١، ص ١٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

منظمات الصليب الأحمر وحرب الريف
اللجنة الدولية للصليب الأحمر ومنظمة الصليب الأحمر الإسباني

محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

باحث دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة عبد المالك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

أثارت المآسي الإنسانية وقعت خلال حرب الريف وخصوصًا قضية الأسرى، انتباه الرأي الأوربي، مما دفع اللجنة الدولية للصليب الأحمر وعدد من المنظمات الإنسانية إلى محاولة التدخل. لكنها اصطدمت بالعراقيل التي وضعتها السلطات الفرنسية والإسبانية، لينحصر عملها في النهاية على مدينة طنجة ذات النظام الدولي. ورغم أن اللجنة الدولية، والمنظمات المهتمة، لم تستطع القيام بإجراءات فعالة، باستثناء الضغط على الحكومتين الفرنسية والإسبانية، إلا أن حرب الريف شكلت منعطفًا حاسمًا في تاريخ العمل الإنساني، حيث وضعت على المحك اتفاقية جنيف واتفاقيتي لاهاي الأولى والثانية، لأن الأمر كان يتعلق بسكان منطقة مستعمرة. من جانب آخر عززت منظمة الصليب الأحمر الإسباني من وجودها في المغرب، ووفرت إمكانيات مادية وبشرية مهمة لكن خدماتها ظلت حكرا على الجنود الإسبان. وقد توصلت الدراسة إلى أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ومعها العديد من المنظمات الإنسانية، حاولت مد يد المساعدة للمغاربة ضحايا الحرب، لكنها اصطدمت بتعنت السلطات الإسبانية والفرنسية، التي منعتها من القيام بأي تدخلات في المنطقتين الإسبانية والفرنسية، ليقتصر نشاطها في منطقة طنجة الدولية، التي كان سكانها المغاربة اللاجئون والأصليون في حالة يُرثى لها. أما منظمة الصليب الأحمر الإسباني، التي كان لها حضور قوي في الميدان بفضل ما توفرت عليه من إمكانيات مهمة، فقد اقتصر عملها على إسعاف ومعالجة جرحى ومرضى الجيش الإسباني ومعالجتهم، في حين لم تحظ بثقة المغاربة ولم توفر لهم أدنى مساعدة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٦ مايو ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٣١ مايو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

حرب الريف؛ العمل الإنساني؛ اللجنة الدولية للصليب الأحمر؛ الصليب الأحمر الإسباني؛ ضحايا النزاعات المسلحة.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.375548 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد عبد المومن, "منظمات الصليب الأحمر وحرب الريف: اللجنة الدولية للصليب الأحمر ومنظمة الصليب الأحمر الإسباني".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٩٨ – ٢٠٧.

Corresponding author: dream-way@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تعتبر حرب الريف من بين أهم الحروب الاستعمارية خلال القرن العشرين، بالنظر إلى تبعاتها التي تجاوزت النطاقين المحلي والإقليمي، وبالنظر أيضًا للعديد الكبير من الجنود الذي شاركوا في معاركها حيث تجاوز العدد مئات الألاف من المغاربة، والإسبان، والفرنسيين، دون أن ننسى المرتزقة الذي قدموا من فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وغيرها، والسنغاليين الذي أجبروا على المشاركة في حرب لا علاقة لهم بها. ومما ميز هذا الحرب، العدد الكبير من القتلى والجرحى والأسرى، الذين جذبوا اهتمام الصحافة الدولية، التي تتبعت أطوار الحرب وكان لها تأثير على بعض أطورها، والمنظمات الدولية التي حاولت التدخل وتقديم المساعدة، سواء للقوات المتحاربة أو للمدنيين المهجرين، ومن بين تلك المنظمات اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ومنظمات الصليب الأحمر الفرنسية والإسبانية. إن تاريخ العمل الإنساني في حرب الريف لم يكتب، بعد باستثناء بعض الإشارات التي نجدها في بعض المؤلفات التي أرخت للجنة الدولية للصليب الأحمر، لذلك سنحاول من خلال هذه المساهمة الإجابة عن هذه الأسئلة:

- لماذا تأخر تأسيس منظمة الهلال الأحمر المغربي إلى سنة ١٩٥٧؟
- ما هي الجهود التي قامت بها اللجنة الدولية للصليب الأحمر لمساعدة ضحايا حرب الريف؟
- كيف تدخلت منظمات الصليب الأحمر والإسبانية في حرب الريف؟ هل استفاد المغاربة من تلك التدخلات؟

تهدف هذه المساهمة إلى لفت الانتباه إلى جانب لا يُعرف عنه الكثير، وأعني العمل الإنساني خلال حرب الريف، وكذلك إلى التعريف بوثائق منظمات الصليب الأحمر التي تتضمن معطيات مهمة حول المغرب خلال فترة الحماية.

أولاً: محاولات إنشاء فرع مغربي لمنظمة الصليب الأحمر قبل ١٩٢١

تميزت سنوات حكم السلطان الحسن الأول (١٨٧٣-١٨٩٤) بتصاعد الضغط الاستعماري الأوربي، وباستمرار محاولات الإصلاح، وباستقرار العديد من البعثات الديبلوماسية والأجانب في طنجة. وخلال تلك الفترة، بدأت المحاولات الأولى لتأسيس منظمات تعنى بالإنقاذ البحري والعمل الإنساني، بما في ذلك محاولة إنشاء فرع مغربي لمنظمة الصليب الأحمر وقد استمرت تلك المحاولات إلى ما بعد ١٩١٢، ومرت بمرحلتين.

١/١-المرحلة الأولى

تمتد هذه المرحلة عشرين سنة حكم خلالها السلطان الحسن الأول وابنه مولاي عبد العزيز. وقد تميزت بتصاعد الضغط الاستعماري على المغرب، وبالمحاولات الإصلاحية التي شملت مجالات الجيش والاقتصاد والإدارة. كما شهدت هذه الفترة قدوم مجموعة من الأوربيين من أنصار التغلغل السلمي كان من بينهم الاسبانيان رودولفو بيدال Rodolfo Pidal ممثل شركة ترانس أتلانتيكا، وفيليب أوبيلو Filipe Ovilo عضو الجمعية الأفريقانية الاسبانية. والذين حاولا تأسيس فرع للجمعية الإسبانية للإنقاذ البحري. Sociedad Española de Salvamento de Náufragos ولكن قبل ذلك كان لابد من إقناع السلطان ونائبه في طنجة بجدوى هذا الفرع، وبأنه لن يمثل انتهاكا لسيادة المغرب. وبالفعل تم إنشاء ذلك الفرع، ولكن وفق رؤية مغربية خالصة.(١)

على العموم، قضى الطبيب فيليبي أوبيلو Filipe Ovilo، الذي كانت له ارتباطات قوية باللجنة المركزية للصليب الأحمر الإسباني، سنوات طويلة في طنجة وأسهم في تأسيس العديد من المؤسسات الصحية العصرية في هذه المدينة. نذكر منها:

- مدرسة الطب
- المجلس الصحي
- مستشفى حاييم بن شيمول.
- المستشفى الإسباني
- المستشفى الفرنسي
- مستشفى طولوش ميموريال.(٢)

كون هذا الطبيب العديد من أطباء عسكريين وقادهم في زيارة إلى مدريد سنة ١٨٨٨. وبعد ذلك بأربع سنوات، شارك هو وطلابه في الحملة المخزنية التي

استهدفت قبيلة أنجرة، لعلاج الجنود الجرحى ونال بذلك إشادة من طرف السلطان الحسن الأول.(٣)

خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ازدادت حدة الصراع الداخلي في المغرب، وخلال تلك الفترة وجَّه السلطان الحسن الأول، العديد من الحملات العسكرية التي خلفت العديد من الضحايا. وحاول الدكتور فيليب أوبيلو إقناع السلطان بضرورة وجدوى إنشاء مؤسسة على شاكلة الصليب الأحمر، لإغاثة ضحايا الحروب والنزاعات الداخلية، لكن اندلاع الحرب في كوبا، عجل برحيله عن المغرب. مع العلم أنه ظل خلال السنوات اللاحقة عنصرا فاعلا في العلاقات المغربية الإسبانية.(٤)

نفس الفترة، أي أواخر القرن التاسع عشر، تجددت الحرب بين المغرب وإسبانيا على جبهة مليلية، فيما يسمى حرب سيدي ورياش (٥) أو Guerra de Margallo ، فقامت منظمة الصليب الأحمر الإسباني بمراسلة وزارة الخارجية الإسبانية، لاستفسار السلطان مولاي عبد العزيز بخصوص إمكانية الانضمام إلى اتفاقية جنيف، أو على الأقل التعهد باحترام المستشفيات وعربات الإسعاف والأطر الطبية.

وقد حولت وزارة الخارجية الطلب إلى المفوض الإسباني بطنجة إميليو أوخيدا Emilio Ojeda ، الذي التقى في شتنبر من سنة ١٨٩٤ النائب السلطاني محمد الطريس ومساعده محمد اللبادي.(٦)

رد السلطان بأنه يقدر الأعمال الإنسانية التي تضطلع بها منظمة الصليب الأحمر الإسباني، لكنه لن يستطيع تقديم أية ضمانات، لأن الجيش المخزني مكون أساسا من متطوعين قادمين من مختلف القبائل والذين يصعب السيطرة عليهم. (٧) وفي سنة ١٨٩٩، عاودت اللجنة المركزية للصليب الأحمر الإسباني مراسلة وزارة الخارجية، للقيام بمحاولة أخرى لإقناع مولاي عبد العزيز بالموافقة على اتفاقية جنيف،(٨) خصوصًا أنهم كانوا مقتنعين بأنه موافق على مضامين الاتفاقية، لكن السلطان رفض مرة ثانية وأخيرة.(٩)

٢/١-المرحلة الثانية

تمتد المرحلة الثانية من ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٢١، أي من انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء إلى اندلاع حرب الريف، وهي مرحلة تميزت بفقدان المغرب لاستقلاله جزئيًا بعد المؤتمر، وكليًا بعد معاهدة فاس، ثم اندلاع المواجهات المسلحة بين القوات الاستعمارية الفرنسية والإسبانية من جهة، والمقاومين المغاربة من جهة ثانية، في إطار ما عرف بالتهدئة. (١٠) خلال سنة ١٩٠٨ قام خوليو لوسيو إي نافاس Julio y Navas ، وهو إسباني كان ذا مرتبة رفيعة في منظمة فرسان مالطا، – منظمة دولية تتشابه أهدافها ووسائل عملها مع منظمة الصليب الأحمر – بإحداث ما سمي بـ: "لجنة الصليب الأحمر والإنقاذ البحري" Cruz Roja y Salvamento de Náufragos وقد اتخذت هذه اللجنة من مدينة طنجة مقرًا لها.(١١)

لكن منظمة الصليب الأحمر الإسباني، ووزارة الخارجية الإسبانية، عارضتا تأسيس هذه اللجنة على اعتبار أن تخالف القوانين الإسبانية والمغربية، ومضامين معاهدة جنيف وهذا ما أدى إلى حلها سنة ١٩١١.(١٢) بالنسبة للصليب الأحمر الفرنسي، فقد بدأ نشاطه بالمغرب سنة ١٩٠٧ مع احتلال الدار البيضاء، ومن ثَمَّ واكب تقدم القوات الفرنسية في المغرب، خصوصا بعد فرض الحماية.(١٣) أما الصليب الأحمر الإسباني، فقد بدأ نشاطه في المغرب خلال العقد الأول من القرن العشرين، (١٤) حيث أنشأ صيدلية كانت تقدم الأدوية للمغاربة والأوربيين، كما واكب المواجهات المغربية الإسبانية. وفي سنة ١٩١٧ أسس بتطوان أول مصحة مؤقتة حملت اسم كاسا دي سوكورو (Casa del Socorro)، وكانت تقدم العلاجات المجانية. وخلال سنوات حرب الريف افتتح العديد من المراكز الطبية.(١٥)

ثانيًا: اللجنة الدولية للصليب الأحمر

٢/١-محاولات التدخل الإنساني في حرب الريف

رأينا في المبحث السابق، كيف أن مساعي تأسيس منظمة الهلال الأحمر المغربي لم تحقق أهدافها بسبب مخاوف المخزن، وبسبب معارضة جهات خارجية، على اعتبار أن ذلك يتعارض مع القوانين المغربية والإسبانية ومع مضامين اتفاقية جنيف. لا يمكن الحديث عن اتفاقية جنيف الموقعة يوم ٢٢ غشت ١٨٦٣ من طرف ممثلي ١٢ دولة، بما فيهم إسبانيا. دون الحديث عن

الاتفاقية الخاصة باحترام قوانين وأعراف الحرب البرية (اتفاقية لاهاي الثانية لسنة ١٩٠٧) والتي جاء فيها: "إذا انتقلت سلطة القوة الشرعية بصورة فعلية إلى يد قوة الاحتلال، يتعين على هذه الأخيرة، قدر الإمكان تحقيق الأمن والنظام العام، وضمانه مع احترام القوانين السارية في البلاد، إلا في حالات الضرورة القصوى التي تحول دون ذلك".[١٦] [١٧]

رغم أن هذه الاتفاقية تضع الدول المُستَعمِرة أمام مسؤولياتها تجاه سكان المناطق والأقاليم المُستعمَرة، لم تثني اللجنة الدولية للصليب الأحمر عن بذل المزيد من الجهود، حيث كانت القضايا المتعلقة بحماية المدنيين، والأسرى، واللاجئين، والمهجرين، في صلب المؤتمرات التي عقدتها اللجنة الدولية، وخصوصا المؤتمر العاشر المنعقد في الفترة ما بين ٣٠ مارس و٧ أبريل ١٩٢٣ والذي جاء ضمن مقرراته ما يلي: "الصليب الأحمر يعترف بأن جميع ضحايا الحرب الأهلية، أو الاضطرابات المذكورة، لهم الحق في الإغاثة، دون استثناء، وفقًا للمبادئ العامة للصليب الأحمر.. في كل بلد يشهد اندلاع الحرب الأهلية، تكون الجمعية الوطنية للصليب الأحمر في هذا البلد هي التي تتحمل في المقام الأول مسؤولية التعامل بشكل شامل مع احتياجات إغاثة هؤلاء الضحايا، ولهذا الغرض، فإنه من الضروري أن تُترك هذه الجمعية حرة في التصرف بكل نزاهة لصالح جميع الضحايا.[١٨]

ويبدو أن المشاركين في المؤتمر كان تساورهم الشكوك في أن بعض الدول والمنظمات ستتقاعس عن القيام بواجباتها تجاه المدنيين، لذلك تركوا الباب للجنة الدولية للصليب الأحمر حرية اختيار الوسائل التي تراها مناسبة لتحقيق أهدافها وآمالها. [١٩] وقد شكلت حرب الريف امتحانًا عسيرًا لإسبانيا، باعتبارها قوة احتلال، وللصليب الأحمر الإسباني، خصوصًا أن المغرب كان واقعًا تحت الحماية الفرنسية – الإسبانية وكذلك للجنة الدولية للصليب الأحمر وللاتفاقيات الدولية.

يذهب الباحث فرانسيسكو خابيير مارتينيث أنطونيو، إلى أن محمد بن عبد الكريم الخطابي حاول ابتداء من شهر يونيو ١٩٢٤الحصول على المساعدات الأجنبية، خصوصًا الطبية منها، ولهذه الغاية كلف لهذه الغاية الحاج عبد الكريم اللوه بالاتصال بمن يمكنه أن يقدم المساعدة، وفي هذا الإطار التقى اللوه بالضابط البريطاني روبرت غوردون Robert Gordon الذي تمكن من إقناع الدكتور إرنست غريفين Ernest Griffinأحد الوجوه البارزة في العمل الإغاثي البريطاني، بالتوجه إلى جنيف وحث اللجنة الدولية على ضرورة تقديم المساعدة العاجلة للساكنة المتضررة.[٢٠]

أما أندري ديرون، مؤلف كتاب تاريخ اللجنة الدولية للصليب الأحمر، فيرى أن الاهتمام الأوربي بحرب الريف بدأ سنة ١٩٢٣ مع تحرير الأسرى الإسبان، واشتداد الهجمات البرية والجوية التي كانت تشنها القوات الإسبانية على سكان شمال المغرب، ويذهب نفس الباحث إلى أن اللجنة الدولية تلقت أول اقتراح للتدخل في شهر يوليوز من سنة ١٩٢٤، وكان من جمعية بريطانية (Near and Middle East Association) ومن ثَمَّ بدأت الاتصالات بين اللجنة الدولية للصليب الأحمر، والصليب الأحمر الفرنسي، ونظيره الإسباني الذي كان رده واضحًا:[٢١] "إن الصليب الأحمر الإسباني، بالتنسيق مع الحكومة الإسبانية والمخزن، يرون أنه من غير المناسب أن تتدخل اللجنة الدولية للصليب الأحمر لتخفيف معاناة الريفيين في ظل العمليات العسكرية الضرورية لاستعادة النظام المختل بواسطة المتمردين، الذين يتجاهلون السلطة القانونية للمخزن المحمي من طرف الحكومة الإسبانية بموجب الاتفاقيات الدولية".[٢٢]

هذا الرد السلبي، لم يثني اللجنة الدولية للصليب الأحمر عند بذل المزيد من الجهود، إذ أرسلت مبعوثا يحمل مطالب اللجنة زار كل من باريس ومدريد والتقى بالمسؤولين عسكريين وديبلوماسيين، وخلال هذه الزيارة تلقى وعدا بأن الصليب الأحمر الإسباني سينظم بعثات طبية إلى مناطق المتضررة من المواجهات العسكرية لكن ذلك لم يتحقق.[٢٣]

تلقت اللجنة الدولية مزيدًا من المطالب والمناشدات خلال سنة ١٩٢٥ كان مصدرها الصليب الأحمر الألماني، والصليب الأحمر السويدي، اللذين كانا منشغلين بمصير المفقودين من الألمان والسويديين، والهلال الأحمر التركي الذين أراد إرسال بعثة ميدانية بتقديم المساعدة. وقد

استغلت اللجنة الدولية الاجتماع السادس للجمعية العامة لعصبة الأمم فأعاد رئيسها طرح الموضوع مع الوزير الخارجية الفرنسي، ومع ممثل إسبانيا في الاجتماع ومرة أخرى حصلت اللجنة على مزيد من الوعود المعلقة.[٢٤]

أمام التماطل والتجاهل الإسباني الفرنسي، قررت اللجنة إرسال مندوب إلى منطقة طنجة ذات النظام الدولي للوقوف على حقيقة ما يجري في المغرب.

٢/٢-زيارة مبعوث اللجنة الدولية للصليب الأحمر هنري مونتا لمدينة طنجة للاطلاع على أحول اللاجئن والمهجرين

حل المحامي السويسري ومندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر، هنري مونتا بالمغرب يوم ٢٨ نونبر ١٩٢٥ وغادره في السادس من الشهر الموالي، وكان الهدف من زيارته إعداد تقرير عن وضع المغاربة المتضررين من الحرب، خصوصا اللاجئين في منطقة طنجة. وعقد لقاءات مع المؤسسات الإنسانية العاملة في المدينة، ومع المقيم العام الفرنسي.[٢٥] وبالفعل تمكن من زيارة المدينة، والاطلاع على أحوال سكانها من المغاربة. كما التقى بعدد من العاملين في المجال الإنساني، كما هو واضح في الجدول التالي. في حين أن زيارته إلى الرباط يوم ٤ دجنبر على أية تثمر أية نتيجة، لأن المقيم العام الفرنسي ستيغ Steeg[٢٦] كان في زيارة لفرنسا.[٢٧]

جدول رقم (١)
يوضح المؤسسات التي زارها هنري مونتا في طنجة وطبيعة الخدمات التي كانت تقدمها.

المؤسسة	الدولة	المسؤول الذي استقبل هنري مونتا	الخدمات المقدمة	الفئة المستفيدة
معهد باستور[٢٨]	فرنسا	الدكتور ريميليغيز		
الصليب الأحمر الفرنسي	فرنسا		العمليات الجراحية	الجنود الإسبان
المستشفى الفرنسي	فرنسا	الدكتور فوراز	العمليات الجراحية	جل المستفيدين من الفرنسيين وعدد محدود من المغاربة
الصليب الأحمر الإسباني	إسبانيا		أنشطة هامشية محدودة	
المستشفى الإسباني	إسبانيا		القيام بالعمليات الجراحية	الإسبان وعدد محدود من المغاربة
مستشفى هوب هاوس	المملكة المتحدة	الدكتور لايلي	تقديم العلاجات	المغاربة
مؤسسة دراموند هاي	المملكة		تقديم المساعدات	المغاربة

المؤسسة	الدولة	المسؤول الذي استقبل هنري مونتا	الخدمات المقدمة	الفئة المستفيدة
	المتحدة		للفقراء والمعدمين	
الهلال الأحمر البريطاني	المملكة المتحدة		تقديم التبرعات للجمعيات والمنظمات العاملة في طنجة	المغاربة
دار الأيتام إيلسون	الولايات المتحدة	السيد إيلسون	رعاية ٥٠ يتيما ثلاثون منهم مغاربة بالإضافة إلى إيواء المشردين ليلاً. توزيع الدقيق يومي الثلاثاء والجمعة.	المغاربة
مؤسسات خيرية إسلامية	المغرب		توزيع ١٥٠ خبزة يوميا ومساعدات مالية قدرها ١٥٠٠ فرنك أسبوعيا.	المغاربة.

المصدر:

Henri MENTHA, Mission à Tanger, Revue Internationale de la Croix-Rouge, Septième année, N° 84. Décembre 1925

رغم أن السيد هنري مونتا كان ينتقي كلماته بدقة محاولاً التخفيف من هول ما رأى، إلا أنه من الواضح أن طنجة كانت تعيش كارثة إنسانية بكل المقاييس وقد حدد عدد اللاجئين في حوالي ٤٠٠٠ لاجئ، مع العلم أن سكان طنجة آنذاك كانوا في حدود ٦٠,٠٠٠ وهو يرى أن معظم هؤلاء من القبائل المجاورة، وخصوصًا أنجرة، وبعض الفارين من الريف، وكلهم لا يمكنهم العودة، لخوفهم من انتقام الإسبا. ومما جاء تقريره ما يلي: "لا توجد قضية للاجئين كما هو معتاد، بل هي جزء من بؤس طنجة. هناك لاجئون، بالطبع، لكن من الصعب جدًا تحديد عددهم، فهم مندمجون بين سكانها الأصليين، ففي حين يعيش بعضهم من أقاربه، يعيش آخرون مع أصدقائهم ومعارفهم، ومن المستحيل حصر أعدادهم بدقة حيث إن عددًا مهمًا منهم عبروا الخطوط الدفاعية واستحال عليهم العودة إلى ديارهم".[٢٩]

أما عدد الجرحى المغاربة الذين الذي كانوا يتلقون العلاج في مجموع المراكز العلاجية التي زارها، ففي حدود ٢٠٠ شخص. ونسبة كبيرة منهم من النساء اللواتي عبرن الخطوط الدفاعية الإسبانية ليلا لبيع السلع في أسواق طنجة، لكن تم استهدافهن بالرصاص.[٣٠] ويخلص مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلى أن قصر زيارته، واقتصارها على طنجة، وعدم إلمامه باللغة العربية حال دون إنجازه تقريرا شاملا ووافيا حول وقع معارك حرب الريف على السكان. ويرى أن هناك الكثير من المعيقات التي تعرقل عمل اللجنة الدولية في المغرب وأن عليها الانتظار إلى أن تنتهي المعارك.[٣١]

خلال الشهور اللاحقة لزيارة مونتا تمكن أحد المراسلين الصحفيين السويديين من الوصول الى الريف، والتقى بمحمد بن عبد الكريم الخطابي، الذي حمَّله رسالة إلى الأمير كارل [٣٢] مما جاء فيها: "إن الأمة الريفية ضعيفة ولا يصلها أي دعم أو مساعدة، وهي معزولة عن العالم وبدون تواصل مع أشخاص مثل سموك لطرح قضيتها على الرحماء وأولئك الذين يدافعون عن الإنسانية. إذا كان سموك قادرًا على تقديم

بعض المساعدة لجرحانا، الذين يعانون من عدم توفر الرعاية ولا يمتلكون سوى الصبر، فإنك بذلك ستقدم خدمة إنسانية جليلة". (٣٣)

فما كان من الأمير كارل إلى أن وجه الرسالة إلى اللجنة الدولية التي قررت أن الوقت قد حان للتدخل، فبدأ الاستعداد لتوجيه بعثة إلى مناطق الريف المتضررة من الحرب، في هذه الأثناء كانت البعثة الطبية التي أرسلها الاتحاد الوطني الفرنسي لقدماء المحاربين ومعطوبي الحرب متوجهة إلى الريف.(٣٤) وفي ٢٣ ماي ١٩٢٦ ، حمل بيير بارون Pierre Parent أحد المشاركين في بعثة أرسلها الاتحاد الوطني الفرنسي لقدماء المحاربين ومعطوبي الحرب، رسالة إلى المقيم السامي الفرنسي والى الجنرال سان خورخو Sanjurjo،(٣٥) بخصوص استسلام الخطابي وهو الخبر الذي جرى تعميمه يوم ٢٨ من نفس الشهر، وبسبب ذلك تم إلغاء بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر.(٣٦)

لم تستطع اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ولا المنظمات الأخرى التي أشرنا إليها سابقًا التدخل إنسانيًا في حرب الريف، وتقديم المساعدة لضحاياها بسبب تعنت السلطات الإسبانية، لكن هذه الحرب في المقابل، شكلت محطة مهمة ساعدت على تطوير أساليب التدخل في المستعمرات، وعلى ابتكار أساليب جديدة في التدخل الإنساني تقوم أساسًا على التعامل مع المنظمات المحلية، وعلى تنسيق الجهود مع منظمات الصليب الأحمر المختلفة.

ثالثًا: منظمة الصليب الأحمر الإسباني

٣/١-الإمكانات اللوجستية لمنظمة الصليب الأحمر الإسباني

بدأ الصليب الأحمر الإسباني نشاطه في المغرب خلال العقد الأول من القرن العشرين، حيث أنشأ صيدلية كانت تقدم الأدوية للمغاربة والأوربيين، وتعزز حضوره مع تقدم القوات الاستعمارية الإسبانية، واحتدام المواجهات العسكرية في الشمال الشرقي قرب مدينة مليلية المحتلة في سياق ما عرف باسم حرب مليلية الثانية.(٣٧) إلا أن تأسيس أول مصحة تأخر إلى سنة ١٩١٧، وكان مقرها مدينة تطوان عاصمة المنطقة الإسبانية، ومن المرجح أنها كانت عبارة عن مستشفى ميداني مؤقت والسبب في ذلك هو قرب تطوان من سبتة التي توفرت فيها هذه المنظمة على مستشفى متطور.

خلال سنوات حرب الريف، وتحت إشراف الدوقة Maria del Carmen de Angolotiمارية ديل كارمين دي أنغلوتي توسعت أنشطة الصليب الأحمر الإسباني في منطقة الحماية الإسبانية، فتم إقامة العديد من المستشفيات حتى بلغ عددها ٣٦ مستشفى كما توسعت الخدمات الصحية وخصوصًا في تطوان والعرائش ومليلية.(٣٨) وكان لمنظمة الصليب الأحمر الإسباني دور بارز في تطوير اللوجستيكي لعمليات الإسعاف خلال الحرب، حيث توفرت قطارات للإسعاف، وعلى سفينة مستشفى، وسيارات إسعاف تسير على السكك الحديدية، كما كان أول منظمة إنسانية وصحية توظف الطائرات في عمليات الإنقاذ(٣٩)كما كان لها مركز خاص للنقاهة بالجزر الجعفرية خصص للجنود الذين خضعوا لعمليات جراحية، بحيث كانوا يقضون به عددًا من الأسابيع إلى أن يتماثلوا للشفاء.(٤٠)

وقد شكلت قضية الأسرى الذين وقعوا في قبضة المقاومة الريفية، بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي بعد معركة أنوال (١٧ يوليوز ١٩٢١)، أهم تحدي واجه منظمة الصليب الأحمر الإسباني، لكن هذه المنظمة لم تستطع تحرير الأسرى، ربما لأنها لم تحظ بثقة قيادة المقاومة الريفية. فتم اللجوء إلى وسيط هو إدريس بن سعيد، الذي(٤١) تمكن من إقناع الطرفين فتم تحرير الأسرى الإسبان مقابل ٤ مليون بسيطة إسبانية، وإطلاق سراح عدد غير محدد من أسرى المغاربة لدى القوات الإسبانية، وقد تسلم الصليب الأحمر الإسباني الأسرى الإسبان خصوصًا أن بعضهم كان في حالة صحية صعبة.(٤٢) ولإعطاء فكرة عن إمكانيات وأدوار مستشفيات منظمة الصليب الأحمر الإسباني بالمغرب، سنأخذ مؤسسة واحدة نتوفر على معلومات كافية عنها هي مستشفى تطوان على سبيل المثال.

٣/٢-مستشفى الصليب الأحمر الإسباني خلال حرب الريف

تأسس مستشفى الصليب الأحمر بتطوان بمبادرة من الملكة فيكتوريا أوخينيا Victoria Eugenia، زوجة الملك ألفونسو الثالث عشر Alfonso XIII، ورئيسة

الصليب الأحمر الإسباني آنذاك، واستمر في تقديم خدماته من شهر شتنبر ١٩٢٤ إلى شهر غشت من السنة الموالية، وإلى جانبه تم افتتح مدرسة للتمريض، ومكتبة. أما عن طاقمه فقد تشكل من أطباء عسكريين متطوعين، في حين أن ممرضاته كن راهبات من رهبانية هيرماناس دي لا كاريداد Hermanas de la caridad. اعتمد المستشفى بشكل كامل على التبرعات، التي كان يتلقها من المتبرعين ومن المؤسسات الإسبانية المختلفة، وعلى وجه الإجمال توصل المستشفى خلال أحد عشر شهرا ما قيمته ٢٧٣,٠٠٠ بسيطة إسبانية في حين بلغت نفاقاته ٢٠٧,٠٠٠.(٤٣)

أما عن الأدوار التي قام بها هذا أطر هذا المستشفى فهي:

- إخلاء المصابين من ميادين القتال:

كان إخلاء المصابين من ميادين القتال، من أهم المهام التي قامت بها الأطر الطبية خلال حرب الريف، ويبدو من خلال الجدول التالي، أن عدد هؤلاء كان مرتفعًا لأن المواجهات كانت محتدمة على عدة جبهات وخصوصًا في جبل غورغير، ودار بن قريش، وبني حسان، وشفشاون.

جدول رقم (٢)

يوضح أعداد الجنود المصابين الذين تم إخلاؤهم من طرف الطبية التابعة لمستشفى الهلال الأحمر بتطوان في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٢٤ وغشت ١٩٢٥

الشهر	عدد المصابين الذين جرى إخلائهم
أكتوبر	٨٥٤
نونبر	١٦٦١
دجنبر	٢٠٣٤
يناير	٧٨١
فبراير	معطيات غير متوفرة
مارس	٧٦
أبريل	معطيات غير متوفرة
ماي	معطيات غير متوفرة
يونيو	٢٩٩
يوليوز	٦٥٧
غشت	٢٥٦
المجموع	٤٨١٨

المصدر:

Cruz roja Española, Memoria del hospital de la cruz roja de Tetuán, 1924 a 1925. P 56.

- تقديم العلاجات:

تكفل المستشفى بتقديم العلاجات للجنود والضباط الجرحى الذين كان يتم إجلاؤهم من ساحات المعارك، وعادة ما كان يعاني هؤلاء من إصابات متفاوتة الخطورة، وبالإضافة إلى هؤلاء الذين كانوا يخضعون لعمليات جراحية لاستخراج القذائف والشظايا وعلاج الكسور، كان المستشفى يقدم العلاج للمرضى، لكن هؤلاء شكلوا نسبة ضعيفة جدا.

الجدول الموالي، يكشف عن عدد المصابين الذين استقبلهم المستشفى، هذه الأرقام الكبيرة تبين مدى شدة المقاومة.

جدول رقم (٣)

عدد الضباط والجنود المصابين الذين تلقوا العلاج في مستشفى الصليب الأحمر بتطوان في الفترة ما بين أكتوبر ١٩٢٤ وغشت ١٩٢٥

الشهر	عدد من تلقوا العلاج من الضباط	عدد من تلقوا العلاج من الجنود
أكتوبر	٤٣٠	١٩٥٨
نونبر	٧٤٥	٥٤٩
دجنبر	٥٢٣	١٥١٧
يناير	٣٥٨	١٥٥٣
فبراير	١٧٧	٧٢١
مارس	٨١	٦٧٣
أبريل	٢٠٣	٥٨٨
ماي	١٨٦	٦٥٩
يونيو	٣٤	١١٥٦
يوليوز	معطيات غير متوفرة	٣٧٧
غشت	معطيات غير متوفرة	٥٧
المجموع	٢٧٣٧	٩٨٠٨
المجموع الكلي		١٢٥٤٥

المصدر:

Cruz Roja Española, Memoria del hospital de la cruz roja de Tetuán, 1924 a 1925. P 57.

- المشاركة في مراسيم إقبار الجنود المتوفين:

بالإضافة الى ما سبق، قام العاملون في مستشفى الصليب الأحمر الإسباني، بالمشاركة في مراسيم دفن الجنود الذي سقطوا قتلى المعارك، والجنود الذين توفوا نتيجة الإصابات الخطيرة، هذا إلى جانب أنشطة أخرى كانت تنظم في المستشفى كتنظيم الاحتفالات الدينية، وزيارة الفقراء، ومساعدتهم ماديًا، ومعنويًا.(٤٤)

لقد توفر الصليب الأحمر الإسباني على إمكانيات مالية ولوجستيكية مهمة، بل إنه كان رائدًا في استخدام وسائل لم تسبقه إليها دولة، ولا منظمة إغاثية، لكن كل جهوده كانت مخصصة للجنود الإسبان في حين كان على المغاربة اللجوء إلى الطب التقليدي وهو ما كان يتسبب في الموت وفي الإعاقة الدائمة.(٤٥) ويفسر هذا الأمر، بما أورده الباحث باسكال دودان حيث أورد ما يلي: "أثارت حرب الريف، رد فعل باهت في إسبانيا، لأن الجمهور كان لا يزال يؤمن بشدة بأنه يجب بذل كل جهد لمحاربة ومعاقبة "الشعوب المتخلفة"، التي تلجأ إلى السلاح ضد "القوى المدنية المتحضرة"... لقد كانت العقلية الإسبانية مختلفة تمامًا عن تلك التي أدت إلى "الأسبوع المأساوي" في برشلونة في عام ١٩٠٩، حيث تحولت الاحتجاجات على إرسال الجنود إلى المغرب إلى عدة أيام من الاضطرابات العنيفة للغاية في المدينة".(٤٦)

خَاتِمَةٌ

نخلص من خلال ما سبق، إلى أن عدم تأسيس فرع مغربي لمنظمات الصليب والهلال الأحمر قبل ١٩١٢، يعود بشكل أساسي إلى معارضة الدولة المغربية ممثلة في سلاطين تلك الفترة، وخصوصًا الحسن الأول ومولاي عبد العزيز، الذين رأوا في ذلك بابًا آخر للتسرب الاستعماري، وسيلة إضافية قد تستفيد منها القوى الاستعمارية في زيادة الضغط على المغرب.

أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ومعها العديد من المنظمات الإنسانية، حاولت مد يد المساعدة للمغاربة ضحايا الحرب، لكنها اصطدمت بتعنت السلطات الإسبانية والفرنسية، التي منعتها من القيام بأي تدخلات في المنطقتين الإسبانية والفرنسية، ليقتصر نشاطها في منطقة طنجة الدولية، التي كان سكانها المغاربة اللاجئون والأصليون في حالة يُرثى لها، كما صرح بذلك مبعوث اللجنة الدولية للصليب الأحمر الدكتور هنري مونتا.

أما منظمة الصليب الأحمر الإسباني، التي كان لها حضور قوي في الميدان بفضل ما توفرت عليه من إمكانيات مهمة، فقد اقتصر عملها على إسعاف ومعالجة جرحى ومرضى الجيش الإسباني ومعالجتهم، في حين لم تحظ بثقة المغاربة ولم توفر لهم أدنى مساعدة.

وختامًا، نرى أنه لابد من تعميق البحث في المآسي التي نجمت عن حرب الريف، فمن شأن ذلك أن يساعد على شفاء جروح التي خلفتها، كما صرح بذلك جوزيف بوريل وزير الخارجية الإسباني سنة ١٩١٨.

الإحالات المرجعية:

(1) Martínez-Antonio, F. J. (2014). Resilient modernisation: Morocco's agency in Red Cross projects from Hassan I to the Rif Republic, 1886-1926. *Asclepio*, 66(1). P 3.

(2) Ibid., 4.

(3) Ibid., 5.

(4) Ibid., 5.

(٥) سلسلة من المواجهات العسكرية التي وقعت سنتي ١٨٩٣ و١٨٩٤ بين الجيش الإسباني من جهة وبين عدد من قبائل الريف الشرقي بسبب استفزازات الاسبانية.

(6) Martínez-Antonio, F. J. (2014). *Op.cit.*, 6.

(7) Ibid., 7.

(٨) اتفاقية جنيف الأولى لتحسين حال جرحى الجيوش في الميدان وقعت في ٢٢ غشت ١٨٦٤ من طرف ١٢ دولة بما فيها إسبانيا.

(9) Martínez-Antonio, F. J. (2014). *Op.cit.*, 7.

(10) Martínez-Antonio, F. J. (2016). Estado de necesidad: la Cruz Roja Española en Marruecos, 1886-1927. *História, Ciências, Saúde – Manguinhos*, 23(3), 871.

(11) Martínez-Antonio, F. J. (2014). *Op.cit.*, 5.

(12) Ibid.

(١٣) من الجدير بالذكر أن منظمة الصليب الأحمر الفرنسي كان لها إسهام كبير في حرب الريف إلى أن أجلنا البحث في مساهمتها إلى دراسة لاحقة.

(١٤) ما نشاطه في مدينتي سبتة ومليلية المحتلتين فيعود إلى أواخر القرن ١٩.

(15) Martínez, F. J. (2014). *Op.cit.*, 6.

(١٦) زهرة الهياض، القواعد الأساسية لحماية ضحايا النزاعات المسلحة المعاصرة، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص ٦٣.

(١٧) كانت الزعمات المغربية على اطلاع على مضامين هذه الاتفاقيات وما تنص عليه من حقوق وواجبات. انظر على سبيل المثال كتاب محمد بن عبد الكريم الخطابي، **مذكرات لاريونيون**، تحقيق تعليق وتقديم عبد المجيد العزوزي وآخرون، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٧، ص ٩٤.

(18) Résolutions et vœux de la X -ème Conférence internationale de la Croix-Rouge. (04-1921). *Revue Internationale de la Croix-Rouge et Bulletin international des Sociétés de la Croix-Rouge*, 338.

(19) Durant, A. (1978). *Histoire du Comité international de la Croix Rouge - Tome 2, De Sarajevo à Hiroshima.* Genève: Institut Henri-Dunant, 1978, 197-200.

(20) Martínez-Antonio, F. J. (2014). *Op.cit., 7*

(21) Durant. A, (1978). *Op.cit.* 198.

(22) Ibid.

(23) Ibid., 199.

(24) Ibid., 200.

(25) Mentha, H. (Décembre 1925). Mission à Tanger. *Revue internationale de la Croix-Rouge*, Septième année, N° 84, 971-981

(٢٦) تيودور ستيغ: شغل منصب المقيم العام الفرنسي بالمغرب فيما بين أكتوبر ١٩٢٥ ويناير ١٩٢٩.

(27) Ibid., 973.

(٢٨) انظر ما أورده الباحث بوجمعة رويان عن هذه المؤسسة في كتابة **الطب الكولونيالي بالمغرب ١٩١٢ -١٩٥٦**، مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، ص ٢٨٥.

(29) Mentha. H. (Décembre 1925). Mission à Tanger. *Op.cit.* 973.

(30) Ibid., 974.

(31) Ibid.,981.

(٣٢) الأمير كارل ، دوق فسترغوتلاند، أحد أفراد الأسرة الملكية السويدية (١٨٦١-١٩٥١).

(33) Durant. A, (1978). *Op.cit.* 200.

(34) Martínez, F. J (2016). *Op.cit.* P

(٣٥) خوسي سان خوخو: المندوب السامي الإسباني في المغرب في الفترة مابين نونبر ١٩٢٥ ونونبر ١٩٢٨.

(36) *Au riff. (1926). Revue Internationale de la Croix-Rouge et Bulletin international des Sociétés de la Croix-Rouge, 30.*

(٣٧) سلسلة من الموجهات العسكرية بين القوات الاسبانية وقبائل الريف الشرقي بقيادة الشريف أمزيان والتي وقعت في ما بين يوليوز و دجنبر من سنة ١٩٠٩ بسبب محاولة مد خطوط السكك الحديدية بين مليلية المحتلة ومناجم الحديد.

(38) Martínez-Antonio, F. J. (2016). 875.

(39) Riesgo, J.M. (2022). La modernización del Cuerpo de Sanidad Militar basada en las experiencias de la Primera Guerra Mundial. *Reacción y Renovación*, Museo del Ejército, 153.

(٤٠) كارلوس إيسكمبري إينوخو، **الجزر الجعفرية خلال القرن العشرين**، ترجمة محمد عبد المومن، دورية كان التاريخية، العدد ٤٥، ص ١٤١.

(٤١) خوسي كاساريس لوكاس، **ومضات مضيئة عن الحرب الريفية**، تعريب وتعليق محمد بن عزوز حكيم، الرباط، ١٩٨٦، ص ٣٧.

(42) *Le rachat des prisonniers au Maroc. (03-1923). Revue Internationale de la Croix-Rouge et Bulletin international des Sociétés de la Croix-Rouge, 253.*

(43) Cruz roja española, Memoria del hospital de la Cruz Roja de Tetuán, 1924 à 1925. 60.

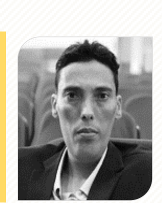
(44) Cruz roja española, Memoria del hospital, *Op.cit.* P 51.

(٤٥) العياشي المريني، **صفحات من التاريخ البطولي لمنطقة جبالة**، المطابع المغربية والدولية، طنجة، الجزء الثاني، ص ٦٢ و ص ٦٥.

(46) Daudin, P. (2023). The Rif War: A forgotten war? *International Review of the Red Cross*, 105(923), 937.

العبيد في تاريخ المغرب

مساهمة في دراسة عبيد البوادي ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر



د. هشام مرزوق

دكتوراه في التاريخ الحديث

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن طفيل - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

تقرير عن أطروحة الدكتوراه، في التاريخ الحديث، التي نوقشت بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة ابن طفيل القنيطرة. يوم الإثنين ٠٥ يونيو ٢٠٢٣.

الباحث: هشام مرزوق

إشراف: الأستاذة الدكتورة حفيظة الدازي

التخصص: التاريخ الحديث

عدد الصفحات: ٣١٨ صفحة.

لجنة المناقشة: الدكتور الطيب بياض
الدكتور رحال بوبريك
الدكتور عبد الإله الدحاني
الدكتور محمد الغرايب
الدكتورة مريم الحنصالي

يسعى هذا البحث الموسوم بـ "العبيد في تاريخ المغرب: مساهمة في دراسة عبيد البوادي ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر" إلى محاولة لمنح مساحة تحت الشمس لفصل من فصول التاريخ المنسي للهامش والمهمش بالمغرب الحديث، فإننا نطمح إلى إعادة موضوع العبودية إلى دائرة الاهتمام، من خلال البحث في الأدوار الاقتصادية والاجتماعية لفئة عبيد القرى بالمغرب ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلادي، الذين قبعوا في أسفل الهرم الاجتماعي بالمغرب. يندرج موضوع بحثنا في إطار تاريخي ارتبط بأفول نجم الدولة المرينية وصعود الدولة السعدية، نظرًا للتغيرات العميقة التي حدثت في الضفة الجنوبية للمتوسط، وما عرفه المغرب من تحولات عميقة خاصةً على المستوى الداخلي، منها معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، وازدهار صناعة السكر ودور هذه العوامل في وجود أعداد كبيرة من العبيد في المغرب. فمن خلال تبنينا للمنهج التاريخي الوصفي التقليدي، فإننا سعينا إلى رصد تطور ظاهرة العبودية بالمغرب خلال الفترة الحديثة، للبحث في وضعية عبيد البوادي بالمغرب، وفق رؤية شمولية تأخذ بعين الاعتبار الإحاطة بالظاهرة وتتبع آليات وجود العبيد، وأدوارهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.265902.1102

كلمات مفتاحية:
البوادي المغربية؛ المجتمع المغربي؛ العبيد السود؛ الدولة السعدية؛ تاريخ المهمشين.

مُقدِّمَة

يسعى هذا البحث الموسوم بـ "العبيد في تاريخ المغرب: مساهمة في دراسة عبيد البوادي ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر" إلى محاولة لمنح مساحة تحت الشمس لفصل من فصول التاريخ المنسي للهامش والمهمش بالمغرب الحديث، فإننا نطمح إلى إعادة موضوع العبودية إلى دائرة الاهتمام، من خلال البحث في الأدوار الاقتصادية والاجتماعية لفئة عبيد القرى بالمغرب ما بين القرنين الخامس عشر والثامن

عشر الميلادي، الذين قبعوا في أسفل الهرم الاجتماعي بالمغرب، فباستثناء بعض الدراسات التي أنجزت حول مساهمتهم في المجال العسكري خاصةً في تجربتي المنصور السعدي والمولى إسماعيل؛ ومَرَدُّ ذلك يعود إلى مجموعة من الصعاب التي تعترض من يريد خوض هذا المغامرة البحثية، وفي مقدمتها قلة المصادر وندرتها، التي يفسرها – غالبًا - عدم اهتمام "المجتمع الثقافي" (من كتاب ومؤرخين وغيرهم...)، بهذه الشريحة العريضة من المجتمع، بفعل النظرة الدونية التي كانت تؤثث الوجدان الجمعي العام، وهكذا تم إسقاط كثير من القضايا والموضوعات من حقل الكتابة التاريخية، ومنها تاريخ الاقتصاد والأسعار والفئات المهمشة... التي أرخى عليها الإهمال ستاره، قبل أن يبتلعها النسيان، فغاب معها تاريخ فئات اجتماعية عريضة أريد لها أن تقبع في زاوية المنسي من الذاكرة الجمعية، فأصبح لا يتم استحضارها عادة إلا ملتبسة داخل متن يراد له – من حيث الأصل - أن يعالج قضية سياسية أو فقهية أو عسكرية... فتندس في ثنايا الخطاب، رغم الأدوار الكبيرة التي قامت بها هذه الشرائح الاجتماعية على جميع المستويات.

تقدّم المعطيات السالفة الذكر لمحة موجزة عن عامل موضوعي رئيس كان دافعا لخوض غمار البحث في هذا الموضوع. يتعلق الأمر بغياب يكاد يكون كلي لأي دراسة تناولت تاريخ عبيد البوادي، كموضوع وكتيمة مستقلة في تاريخ المغرب خلال الفترة الحديثة حسب علمنا. أمّا عن العوامل الذاتية المحدِّدة لهذا الاختيار، فألخصها في عامل واحد هو:

الرغبة في خوض معترك البحث في تاريخ الفئات المهمشة، وهو اهتمام ذاتي بفئة اجتماعية استضعفت في الأرض، وباعتبار أن البحث في قضية الاستعباد هو بحث في قضية الإنسانية.

أما على مستوى الحقبة الزمنية للبحث وإطاره الجغرافي، فيندرج موضوع بحثنا في إطار تاريخي ارتبط بأفول نجم الدولة المرينية وصعود الدولة السعدية، نظرا للتغيرات العميقة التي حدثت في الضفة الجنوبية للمتوسط، وما عرفه المغرب من تحولات مهمة على وجه الخصوص الجانب العسكري والاقتصادي، من قبيل معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، ورغبة السلطان السعدي تقوية المؤسسة العسكرية عبر إدماج عناصر دخيلة عن المجتمع المغربي سواء العلوج أو العبيد السود. كما ساهم ازدهار صناعة السكر والحاجة إلى اليد العاملة في وجود أعداد كبيرة من العبيد في المغرب.

ومن جهة أخرى، نبرر أسباب اختيارنا لنهاية القرن الثامن عشر الميلادي كسقف زمني تنتهي عنده دراستنا بنهاية تجربة السلطان المولى إسماعيل ودخول البلاد أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧-١٧٥٧م) وما أعقب هذه الفترة من تفكك جيش عبيد البخاري وتفرقه في أصقاع المغرب وبواديه. ومن البديهي كذلك الحديث عن الإطار الجغرافي لأطروحتنا، حيث رأينا بعد الاطلاع على الدراسات السابقة في الموضوع، أن جلها تطرق للعبيد داخل المجال الحضري، وبالتالي ومن أجل إعطاء نوع من الجدة والراهنية لبحثنا فقد ارتأينا أن نشتغل على موضوع عبيد البوادي بالمغرب خلال الفترة الحديثة.

الحقبة الزمنية والإطار الجغرافي للبحث

يندرج موضوع بحثنا في إطار تاريخي ارتبط بأفول نجم الدولة المرينية وصعود الدولة السعدية، نظرًا للتغيرات العميقة التي حدثت في الضفة الجنوبية للمتوسط، وما عرفه المغرب من تحولات عميقة خاصةً على المستوى الداخلي، منها معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، وازدهار صناعة السكر ودور هذه العوامل في وجود أعداد كبيرة من العبيد في المغرب.

ومن جهة أخرى، نبرر أسباب اختيارنا لنهاية القرن الثامن عشر الميلادي كسقف زمني تتوقف عنده دراستنا لأسباب معروفة لدى المختصين من المؤرخين باعتبارها فترة نهاية العصر الحديث وبداية الحقبة المعاصرة، كما نشير أن الفترة التي أعقبت القرن الثامن عشر الميلادي ظلت فئة العبيد حاضرة وبقوة في المجتمع المغربي، وعلى حد علمنا فإن هذه الفئة حظيت بالبحث والدراسة خلال القرن التاسع عشر الميلادي التي مارست نوعًا من الجاذبية على المؤرخين المغاربة كما يذهب إلى ذلك المؤرخ عبد الأحد السبتي[1].

كما نشير إلى أن الحدود الزمنية للحقبة التاريخية الخاصة بأطروحتنا تقع بين تاريخين فاصلين، أي وصول الدولة السعدية للحكم وما ارتبط بها في مسألة وجود العبيد، خاصة نتائج معركة وادي المخازن وحملة أحمد المنصور على بلاد السودان، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، اختيارنا لنهاية القرن الثامن عشر الميلادي كسقف زمني تتوقف عنده دراستنا باعتبارها فترة نهاية أزمة الثلاثين سنة التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل (١٧٢٧-١٧٥٧م) وما أعقب هذه الفترة من

تفكك جيش عبيد البخاري وتفرقه في أصقاع المغرب وبواديه.

ومن البديهي كذلك الحديث عن الإطار الجغرافي لأطروحتنا، حيث رأينا بعد الاطلاع على الدراسات السابقة في الموضوع، أن جلها تطرق للعبيد داخل المجال الحضري، وبالتالي ومن أجل إعطاء نوع من الجدة والراهنية للبحث فقد ارتأينا أن نشتغل على موضوع عبيد البوادي بالمغرب خلال الفترة الحديثة.

العبيد والأسرى: الفئة المعنية بالبحث

بحثنا هذا سينصب حول فئة العبيد السود بالدرجة الأولى، مصادر جلب العبيد وأهم الروافد، الأدوار التي شغلتها هذه الفئة بالبوادي المغربية خلال الفترة الحديثة، طبيعة العلاقة والأنساق التي جمعت هذه الفئة بمحيطهم الاجتماعي. وبدرجة أقل بعض الأعداد القليلة جدا للأسرى الأوربيين الذين رمت بهم الأقدار إلى الاشتغال بمجال البوادي وعددهم قليل جداً.

وقد ارتأينا تخصيص هذه الفقرة حتى نرفع أي لبس حول تداخل مفهوم العبد مع باقي مظاهر الاسترقاق، خصوصا مع الأسرى الأوربيين والعديد منهم تحول إلى عبد، وقد اطلعنا على العديد من الدراسات والمصادر التاريخية حول الأسر والأسرى في نفس الفترة المدروسة لكن الذي وجدنا هو سرعة الافتداء للأسرى الأوربيين وهناك العديد من الجمعيات التي نشطت في هذا الباب. وثانيا هو أننا نشتغل على مجال البوادي ونادرا ما وجدنا أن هناك أسرى في البوادي نظرا لغلاء أسعار الأسرى الأوربيين، وفي هذا السياق نذكر إشارة نوازلية مهمة وردت عند أبي زكريا يحي السراج فقد سئل "**عن أربعة مساكين كانوا شركاء على السواء في مملوك نصراني**"[٢].

فقد تركزت ملكية الأسرى الأوربيين بيد السلاطين أولاً[٣]، ورؤساء الجهاد البحري او القراصنة وعدد من التجار الكبار بمن فيهم اليهود، أما بخصوص بيع الأسرى فيبدو أنه اقتصر على المدن وبعض أحوازها، بحيث لم نقف على ما يثبت بيعهم بالبوادي، وذلك حتى يسهل تحريرهم متى توفرت فديتهم، لأن الهدف الأساسي من شراء الأسرى هو تحقيق ربح مادي خلال عملية الافتداء، كما أن القائمين بالشراء كانوا ممن يتوفرن على رؤوس أموال مهمة تمكنهم من تغطية مصاريف الأسرى والمدد الضرورية قبل افتدائهم.

في هذا الصدد ورد نص مهم في رحلة الأسير طوماس بيلو (*Thomas pellow*) حول انتقال الأسرى من ملكية القراصنة والتجار إلى ملكية السلطان: "بعد حوالي ثمان ساعات وصلنا إلى القصر الفخم، كان علينا أن نترك دوابنا ونخلع نعالنا لندخل حفاة الأقدام أولا عبر باب منصور العلوج (...) حيث يتواجد السلطان العجوز[٤]، وقام القراصنة بتسليمنا إليه"[٥]. ونفس الإشارة وردت عند الأسير جيرمان مويط في حديثه عن رحلة الأسر التي قادته من عرض البحر إلى سلا ومن تم في رحلة طويلة وشاقة على مكناس مرورا بحواضر وبوادي المغرب وصلاو إلى قصر السلطان المولى إسماعيل بمدينة مكناس.

ما يمكن أن نستشفه من هذه الإشارات، هو حرص السلاطين على تملك الأسرى المسيحيين البيض، فانطلاقا من سنة ١٦٧٢ أصبح العبيد والأسرى في ملكية السلاطين، وهم من يقررون في مصائرهم[٦]. كما إن السلاطين خصصوا أماكن للأسرى داخل القصور، بهدف الحصول على فدية، أو إدخالهم في عملية لتبادل الأسرى، أو الضغط بهم على الدول التي ينتمون إليها بهدف الحصول على امتيازات سياسية أو اقتصادية. وبالتالي فأماكن تمركز الأسرى والعبيد البيض كانت هي المدن والحواضر، وتشير المصادر المغربية أن المهن التي امتهنوها هي حرف ومهن جلها يمارس داخل المدن. يقول ابن زيدان في هذا الباب: "(الأسرى) منهم الرخامون، والنقاشون، والحجارون، والحدادون، والبناؤون، والنجارون والزواقون والمهندسون والمنجمون والأطباء"[٧]. ويضف أنه كان في (سجون السلطان مولاي إسماعيل من أهل الجرائم العظيمة كالسارق والقاطع والقاتل نحو الثلاثين ألفا كلها تقيل بالخدمة مع أسارى الكفار ويبيتون بالسجون والدهاليز تحت الأرض"[٨].

إشكالية البحث وقضاياه

ينطلق هذا البحث من إشكالية محورية، هي كون الحديث عن العبيد في المظان التقليدية ارتبط في الغالب بالحملات العسكرية أو وصف للقصور وبيوت الأغنياء وأعيان المدن... وقلما يقترن بإشارات إلى الموضوعات الاقتصادية والحرفية، وهذا الفقر على مستوى المادة المصدرية يحيل على عوز شديد في الكتابة عن عبيد المدن، هذه الفئة التي حظيت بأهمية محورية في هذه الكتابات؛ فإذا كان الحال بالنسبة لعبيد الحواضر والمدن فلا شك أن واقع الحال سيكون أسوأ بالنسبة لعبيد الأرياف والبوادي!

تجمع أغلب المصادر التاريخية أن التهميش الذي طال العبيد لم يكن حائلا دون اضطلاع هذه الفئات بأدوار مهمة في ميادين شتى، من قبيل الجيش والإدارة والخدمة في القصور. وفي بيئات مختلفة،

في المدن والبوادي، وأثروا وتأثروا بالأوضاع العامة للمغرب عبر فترات مختلفة من تاريخه. **فماذا عن أدوار وأوضاع العبيد في البوادي والقرى بالمغرب ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين؟**

إن مثل هذا النوع من الأسئلة يستمد مشروعيته من أهمية الأدوار المختلفة التي اضطلعت بها فئة العبيد خلال الفترة الحديثة من تاريخ المغرب؛ وهو أمر لا يجادل فيه اثنان عندما يتعلق الأمر بمناقشة أدوار العبيد في تاريخ الدولة السعدية والعلوية، على المستوى العسكري؛ **لكن ماذا عن هذه الأدوار في المجالين الاقتصادي والاجتماعي بالبوادي المغربية؟** لا نهدف إلى ابتكار في هذا الموضوع، ولا نعتقد أننا قد توصلنا إلى ذلك؛ ولكن الغاية التي أردناها بالأساس هي إعطاء قراءة جديدة لفئة من العبيد من منطلق إشكالية الهامش والمهمش؛ أي أدوار العبيد وأوضاعهم في مجال غير المجال المديني الحضري، مجال البوادي.

من هنا تبدى لي أنه من الممكن أن يكون في هذه الدراسة بعض الفائدة، إذا ماهي استطاعت المساهمة في نفض الغبار عن فئة عبيد البوادي.

أما عن القضايا التي يتغيا هذا البحث الإجابة عنها، فقد حددناها في ثلاثة مسائل غاية في الأهمية. تتمحور **القضية الأولى** في الضرورة الملحة للعبيد بالمغرب، مع تباين روافد ومصادر العبيد خلال نفس الفترة، فإذا كانت الحرب والتجارة والهدايا قد شكلت الروافد الرئيسية لجلب العبيد خلال القرنين ١٥ و١٦م، فإن تراجع هذه الروافد التقليدية للعبيد خلال القرنين ١٧ و١٨م وحاجة المولى إسماعيل للعبيد جعلته يسن سياسة تجميع العبيد من كل مدن وبوادي المغرب قصد تشكيل "جيش عبيد البخاري". وما يهمنا نحن في أطروحتنا بالأساس من سياسة المولى إسماعيل في إدماج العبيد في الجيش. هو **أين كان هؤلاء العبيد قبل الجمع؟ وما الأدوار التي أسندت لهم في البوادي؟ وإلى أين رمت بهم الأقدار بعدما تفكك جيش عبيد البخاري عقب وفاة المولى إسماعيل؟**

أما **القضية الثانية** تنطلق من طبيعة الأدوار الذي اضطلع بها العبيد بالبوادي، خلال الفترة المدروسة، **وهل ارتبط وجود العبيد بالقرى المغربية بأعمال موسمية؟ أم بممارسة حرف وأنشطة دائمة؟ أم أنهم كانوا أداة رئيسية ضمن الأنساق الاجتماعية بالبوادي؟ وهل أصبح من لا حرفة له من العبيد في البوادي المغربية جنديًا محاربًا؟**

في حين تتمحور **القضية الثالثة** حول الأحوال الشخصية للعبيد بالمغرب، الأسرة والحياة اليومية لهذه الفئة، **كيف عاشت هذه الشريحة من المجتمع حياتها الخاصة؟ وهل كان حرص المخزن من تزويج العبيد هو ضمان استمرار نسل هذه الفئة والتكثير من عددها لضمان أجيال من العبيد الفتية والشابة؟ أم لتوفير أعداد مهمة من الجند تساهم في ضمان الأمن الداخلي، وبذلك ضمان لاستمرارية فعالية سلطة المخزن؟**

وإننا إذ نطرح هذا الموضوع لا ندعي فيه الوصول إلى كل المبتغى، بل يعتريه النقص لا محالة مادام يشكل محاولة ومقاربة موضوع متشعب ومحير ومعقد، تتداخل فيه عدة جوانب، عقدية وثقافية ذهنية واقتصادية واجتماعية، ولكن في نفس الوقت يفتح شهية البحث والتنقيب لإماطة اللثام عن مجموعة من الجوانب التي تهم مجتمع عبيد البوادي بالمغرب خلال الفترة الحديثة.

منهجية البحث

تسلحنا بالمنهج التاريخي الوصفي التقليدي، فعلى الرغم من تعدد الزوايا التي يمكن النظر بها ومنها إلى موضوع العبيد، وعبيد البوادي على وجه الخصوص، والصعوبة التي تكتنف سبر أغوار هذا الموضوع، فإنني لا أدعي القدرة على الانفتاح على تلك الطفرة المنهجية في مجال دراسة العلوم الإنسانية ومحاولة توظيفها في إنجاز هذه الأطروحة.

فمن خلال تبنينا **للمنهج التاريخي الوصفي التقليدي**، فإننا سعينا إلى رصد تطور ظاهرة العبودية بالمغرب خلال الفترة الحديثة، للبحث في وضعية عبيد البوادي بالمغرب، وفق رؤية شمولية تأخذ بعين الاعتبار الإحاطة بالظاهرة وتتبع آليات وجود العبيد، وأدوارهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين.

وفضلاً عن هذا المنهج، نزعم اعتمادنا على مناهج أخرى – وإن بشكل محدود- مثل أدوات **المنهج الاجتماعي** فيما يتعلق بوضعية عبيد البوادي وأنساق العلاقات الاجتماعية بباقي فئات المجتمع المغربي. وكذلك أدوات **المنهج الإحصائي** كمحاولة لضبط أعداد العبيد انطلاقا من أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلادي، بناء على ما وفرته لنا سجلات ودفاتر العبيد.

ولم نجد غضاضة في اتباع **المنهج الوصفي** في إبراز السمات العامة لعبيد البوادي اعتماداً على المادة الجديدة التي تم العثور عليها والإرتكان إليها

بشيء من الإسهاب والإطالة وإن تطلب الأمر منا ذكر الأحداث والاقتباس والأرقام، وأحيانا الإفراط فيها نظرا لطبيعة الموضوع.

كما اعتمدنا بعض أدوات **المنهج المقارن** خاصة فيما يتعلق بوضعية العبيد خلال الفترة الوسيطية والحديثة التي أحدثت نقاشا واسعا خاصة في طبيعة العلاقة التي جمعت مجتمع العبيد بمجتمع الأحرار، وكذلك بعض الرموز الاجتماعية، (أسماء ولباس ومسكن العبيد ...).

تصميم البحث

وأما تصميم البحث فقد خلصنا إليه بعد النظر والتأمل، فرتبناه تبعا في أربعة أبواب: صدرته بمقدمة مبينة وأردفته بخاتمة ملخصة ويمكن إجمال أهم محاور البحث فيما يلي:

خصصت المقدمة للتعريف بالموضوع وبيان أهميته، والأسباب الكامنة وراء الاختيار والانتخاب، مع ذكر للدراسات السابقة، والصعوبات والعقبات التي واجهت عملية البحث، والمنهجية المعتمدة، وخطة البحث، وإشكاليته. فاحتوت الخطة بذلك على أربعة أبواب و**مدخل** تطرقت فيه لمجموعة من المفاهيم المرتبطة بالعبودية، من قبيل العبد، المملوك، والوصيف، والرقيق، والقن، والحرطاني. حيث وقفنا على مفهوم العبد من الناحية اللغوية المعجمية، إضافة إلى تعاريف دينية وكيف نظَرت ونظَّرت لموضوع العبيد، كما تطرقنا لهذه المفاهيم من منطلق وسياق تاريخيين، ومحاولة الوقوف على الدلالات والوظائف الخاصة بهذه الألقاب.

اعتنيت في **الباب الأول** ببيان أهم مصادر وروافد العبيد في المغرب خلال الفترة الحديثة، من خلال التطرق لأهم مصادر العبيد الرئيسية والثانوية، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والشق الثاني من هذا الباب خصصناه لعملية جمع العبيد من مختلف أنحاء المغرب، مع التركيز أكثر على البوادي وأحواز المدن، ومحاولة تقديم إحصائيات في هذا الباب.

الباب الثاني؛ تعرضنا فيه للبوادي المغربية خلال الفترة الحديثة، ووقفنا على أهم ما ميز التراتبية الاجتماعية، ومؤشرات التمايز الاجتماعي، ومعرفة موضع وموقع العبيد ضمن هذه التراتبية. هذا من جهة، ثم بحثنا في ثنائية حسن المعاملة أحيانا والسيئة أحيانا أخرى، وختمنا هذا الباب بالتطرق لأهم الوظائف والأعمال التي أسندت لهذه الفئة ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

في **الباب الثالث**؛ بسطنا الحياة اليومية للعبيد بالبوادي المغربية من السوق إلى السيد أو المالك، مع التطرق لعملية البيع وما يرافقها من طقوس خاصة بالبيع والشراء. ثم بحثنا في الرموز الاجتماعية للعبيد من قبيل "اللباس، الأسماء، والسكن".

أما **الباب الرابع**، فقد عالجت فيه الوضعية الاجتماعية لمجتمع العبيد بالبوادي، وذلك من خلال التطرق لقضايا تخص الحياة اليومية الخاصة، مع عرض للحياة الأسرية لمجتمع عبيد البوادي، بالتركيز على الزواج وترتيباته والإنجاب والسكن، وكل ما يخص حياة هذه الفئة.

لنختم هذه الدراسة بخاتمة ضمناها بعض الخلاصات والاستنتاجات، مدبجة ببعض الملاحظات، وبيان مدى مساهمتنا في معالجة ودراسة أهم مصادر وروافد العبيد بالمغرب خلال الفترة الحديثة، والوضعية الاقتصادية والاجتماعية لهذه الفئة بالبوادي المغربية، وحياتهم اليومية وكل ما يتعلق بأسرة العبيد.

ولمعالجة موضوعنا، لجأنا إلى اعتماد خرائط توضيحية أنجزناها بناء على ما وفرته لنا المصادر المختلفة من إشارات ومعطيات، وبعض الجداول المفصلة والمختصرة، والرسوم المبيانية، قصد التمكن والإلمام بكل المعطيات التي تخص هذه الفئة.

خلاصات البحث وآفاقه

ولئن كانت مرحلة البحث والتركيب قد بسطت فيها بالتفصيل النتائج والخلاصات الخاصة بكل باب وبكل قضية في البحث، وهو ما يضيق المقام عن عرضها هنا، فإنّنا نكتفي فيما يلي بتسجيل بعض النتائج العامة التي رأينا أنّها تجيب بصورة أو بأخرى عن أطروحة البحث:

لقد تبين لنا الحضور القوي **للعبيد المجلوب** خلال الفترة السعدية، وهو العبيد الذي تم توريده وجلبه من أوطان أخرى، إما عن طريق التجارة أو الحرب أو الهدايا. وقد وقفنا على بداية تراجع حضور هذا النوع من العبيد بالمغرب مع بداية تفكك الدولة السعدية، وتنامي الحروب الداخلية، وانتشار الأمراض والأوبئة، وتراجع التجارة الصحراوية. كل هذه العوامل جعلت المولى إسماعيل "يستثمر" في نوع جديد من العبيد، هو "**العبيد المولد**" الذي نشأ وترعرع بالمغرب، وتشرب عادات وتقاليد وأعراف البلد. وكان منتشرا في كل أصقاع بوادي المغرب وأحواز المدن.

يمكن ربط الدوافع الأساسية في تجميع عبيد البوادي ودمجهم في جيش عبيد البخاري على عهد السلطان المولى إسماعيل، برغبة هذا الأخير في

احتواء القبائل ومختلف مكونات المجتمع المغربي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن فهم التجاء المخزن إلى تجميع عبيد البوادي وبناء القصبات والقلاع في جل المجال المغربي، إلا بالبحث في الوضع الاقتصادي للبلاد حيث كانت رغبة المخزن ملحة في توفير قوة عسكرية قادرة على تحصيل مداخيل قارة لبيت المال، في الوقت الذي تعطلت فيه تجارة العبور بعد وصول الأوربيين إلى السواحل الأطلسية لدول إفريقية الغربية. وبالتالي فسعي المولى إسماعيل إلى تكوين جيش من العبيد لم يكن نتيجة لتحديث مؤسسة من مؤسسات الدولة بقدر ما كانت عنصر ضبط للقبائل المتنمرة.

ومع وفاة السلطان المولى إسماعيل دخلت البلاد في أزمة شاملة عصفت أولا بتفكك مؤسسة العبيد والانتشار في البوادي وأحواز المدن، وثانيا عودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل تشكل جيش العبيد، حيث انتهى الصراع بانتصار الواقع الاجتماعي على القرار السياسي، وتوقفت تجربة "العصبية الممتازة" أو "العصبية السوداء" وانغلق باب الترقي الاجتماعي من جديد".

من هذا المنطلق فقد سجلنا حضور بارز كمي وكيفي للعبيد بالبوادي في مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، فعلى المستوى الاقتصادي كان حضور العبيد مهمًا ورئيسيًا خاصةً في المجال الفلاحي وامتهان بعض الحرف والاشتغال في التجارة وباقي الحرف اليدوية الأخرى، التي كانت سائدة آنذاك، كما اشتغل بعض العبيد والإماء في منازل أسيادهم، فقد أسندت لهم أنشطة مختلفة يقومون بها داخل البيت أو خارجه. وخلصنا أن هذه الفئة تعرضت لأبشع أنواع القهر الاقتصادي.

وعلى المستوى الاجتماعي، وانطلاقًا مما وفرته لنا سجلات العبيد من أرقام ومؤشرات عددية، حتى وإن كانت دراسة وتحليل الظواهر الديموغرافية لفئة معينة تقتضي وتستوجب إحصاءات دقيقة حول الساكنة أو فئة ما، تطورها، تفيئها حسب الجنس والعمر. لكن هذه المؤشرات والأعداد من الصعب تتبعها عبر مختلف مراحل تاريخ المغرب، بسبب انعدام التأطير الإداري. وفي غيابها يصعب استخدام أدوات ومناهج التحليل الديموغرافي.

نشير هنا إلى أن النتائج المتوصل إليها في محاولتنا لاستغلال أدوات المقاربة الديموغرافية في الباب الرابع من البحث، تبقى قابلة للنقاش والتطور لترقى إلى المستوى الحقيقي للدراسات الديموغرافية، خاصة إذا تمت الإحاطة بكل الدواوين الخاصة بالعبيد. لذا يبقى الأمل معقودًا على حقل الديموغرافية التاريخية لتقديم دراسة قيمة لفئة العبيد خلال الفترة الحديثة من تاريخ المغرب، خاصةً إذا ما تم الحصول على المعطيات الإحصائية الضرورية التي تخص فئة العبيد، لتكون المقاربة الديموغرافية قابلة للقياس والحكم عنها عن بينة.

وختامًا لقد كان "عيب" عبيد البوادي، هو كونهم فاعلين بدون صوت، شأنهم في ذلك شأن كل الفئات المهمشة التي قبعت أسفل الهرم الاجتماعي. لم يكتبوا أو يدونوا تاريخهم، إضافة إلى كونهم عاشوا ضمن مجتمع البوادي، الذي لا يكتب إلا نادرا، ولا يؤلف إلا قليلاً، وفي مواضيع وقضايا تكاد تكون محصورة، ومرد ذلك إلى النظرة الدونية لفئة العبيد فبالأحرى تدوين تاريخهم والكتابة في قضاياهم.

إن مختلف تلك الاستنتاجات السابقة الذكر مثلت بالنسبة لنا خطوطاً عريضة حاولنا من خلالها تقديم بعض ما أفادتنا به مصادر فترتنا وتبقى الدراسات المفصلة والمركزة أكثر على مصادر جديدة أو مقاربات متجددة هي السبيل لإنارة الباحثين في موضوع الفئات الاجتماعية.

الإحالات المرجعية:

(١) السبتي، عبد الأحد، **التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج: ملاحظات أولية**، ضمن كتاب **البحث التاريخي في المغرب حصيلة وتقويم**. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٤، ١٩٨٩، ص ٤٣-٥٧.

(٢) الزياتي، عبد العزيز بن حسن المهدي، **الجواهر المختارة، فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**، خ. ع، ج٢، ص٦٢.

(3) tellat Abdelkader, **L'esclavage au Maroc entre Ahmed al-MANSUR AL Saadi et Mulay Ismail al-Alawi (XVI°- XVIII° siècles)**, 2 éd ,Impression Imarsi, 2007. P.236 – 237 – 238 – 239.

(٤) نعت الأسير السلطان مولاي إسماعيل بـ"**العجوز**" لأن أسر طوماس بيلو تم في سنة ١٧١٥، والسلطان كان قد ولد سنة ١٦٤٥ أي أنه تجاوز السبعين سنة بقليل.

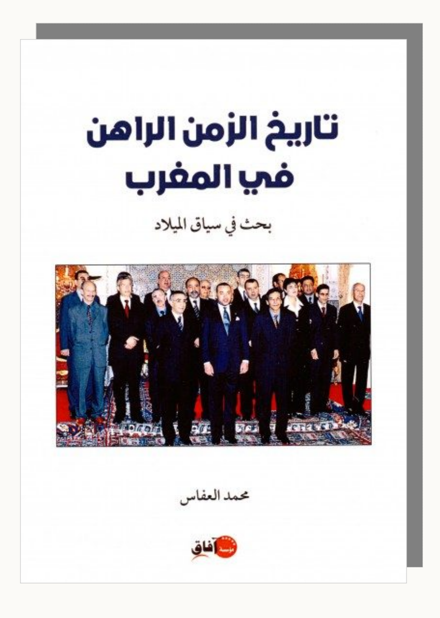
(5) Morsy Magali, «la **Relation de Thomas pellow, une lecture du Maroc au 18e siècle** ». Éd. Recherche sur les civilisations. Paris 1983. P.٧٣.

(6) tellat Abdelkader, **«L'esclavage au Maroc entre Ahmed al-MANSUR AL Saadi et Mulay Ismail al-Alawi (XVI°- XVIII° siècles)** » ,op.cit, pp 238-239 .

(٧) ابن زيدان، عبد الرحمن، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية الرباط، ط الثانية ١٩٩٠، ج٢، ص ١٦.

(٨) نفسه.

تاريخ الزمن الراهن في المغرب
بحث في سياق الميلاد





د. جواد التباعي
باحث في التاريخ والتراث
أكاديمية فاس
مكناس – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: محمد العفاس
سنة النشر: ٢٠٢٣
عدد الصفحات: ٢٥٥ صفحة من القطع المتوسط

المطبعة: مؤسسة آفاق.
مكان الطبع: مراكش، المملكة المغربية.
الناشر: مؤسسة آفاق، بدعم من وزارة الثقافة

كلمات مفتاحية:
الزمن الراهن؛ العلوم الاجتماعية؛ تاريخ المغرب؛ الألفية الثالثة؛ حقوق الإنسان؛ أرشيف المغرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.375558 

مقدمة

صدر للباحث محمد العفاس كتاب "تاريخ الزمن الراهن في المغرب بحث في سياق الميلاد" عن مؤسسة آفاق. وهو الإصدار الذي نشرته مطبعة آفاق بمراكش ربيع ٢٠٢٣م. جاء الكتاب في ٢٥٥ صفحة من القطع المتوسط بغلاف أبيض أنيق، تتوسطه صورة لاستقبال الملك لأعضاء هيئة الأنصاف والمصالحة بمدينة أكادير في ٧ يناير ٢٠٠٤. تعبر الصورة عن مضمون الكتاب، لما لهذا الحدث من أهمية في ميلاد تاريخ الزمن الراهن ببلادنا. تضمن الكتاب مقدمة وأربعة فصول، وملحق لنصوص مترجمة ذات صلة بالموضوع، وحوار مع مدير مؤسسة أرشيف المغرب، ولائحة بيبليوغرافية موسعة بلغات متعددة.

صرح الكاتب في **عنوان** كتابه بأنه سيركز على السياق الذي ولد فيه تاريخ الزمن الراهن ببلادنا، وربط في **المقدمة** ظهور تاريخ الزمن الراهن في المغرب بثلاث سياقات رئيسة:

سياق سياسي: طبعه انفراج في العلاقة السياسية بين الملكية وأحزاب المعارضة، أنهى مسلسل صراع طويل بإشراك هذه الأخيرة في حكومة التناوب التوافقي سنة ١٩٩٨م. وهو أمر يسر مع بداية عهد محمد السادس عدة ملفات (حقوق الإنسان، المرأة، الأمازيغية، التنمية

الاقتصادية والاجتماعية...)، ومنح من حرية أكبر للصحافة والمذكراتيين تفعيلاً توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة المتعلقة بالعدالة الانتقالية، وحفظ التاريخ والذاكرة والأرشيف.

سياق حقوقي: تميز بتأسيس المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان ١٩٩١، وتنصيص دستور ١٩٩٢ على احترام حقوق الإنسان، وإحداث وزارة مكلفة بحقوق الإنسان، وتأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة التي أوصت بضرورة الاهتمام بالأرشيف وخلق مؤسسة ومعهد لجمعه والحفاظ عليه.

سياق أكاديمي: تميز بتعدد ندوات ولقاءات الأكاديميين بشأن سبل دراسة الماضي القريب، ومشاركة مؤرخين في صياغة تقرير الخمسينية، وإبداء حماسة لإطلاق تجربة المغرب في الزمن الراهن.

الفصل الأول: تاريخ الزمن الراهن حقل إسطوغرافي جديد

استعرض فيه الباحث السياق التاريخي لبروز هذا الحقل الإسطوغرافي الجديد بالجامعات عبر العالم خلال العقود الأربع الأخيرة. مبرزا تفاعل المؤرخين مع خصوبة وعمق أحداث القرن ٢٠م (الحربين، أزمة١٩٢٩، بروز الاتحاد السوفياتي، حركات التحرر، سقوط المعسكر الشرقي...)، والمعارك الفكرية التي خاضها المتحمسون في سبيل توحيد تسميته ومحدداته الكرونولوجية لتفسير الكثير من الظواهر. قسمه الباحث إلى خمسة محاور بدأها بسياق ميلاد تاريخ الزمن الراهن، وعرج على إشكالية التسمية والتعريف والمحددات الكرونولوجية، ونبش في سبل مواجهة الاعتراضات التي واجهها هذا الحقل التاريخي. وتطرق لخصائصه ومميزات مصادره.

١. سياق الميلاد

استهل الكاتب هذا المحور بكشف سياق دفاع كبار المؤرخين عن تاريخ الزمن الراهن، ومنهم مارك بلوخ الذي صرح أن "**سوء فهم الماضي هو وليد الجهل بالحاضر**"، لأن هذا الأخير بوصلة توجه الأبحاث التاريخية. وأكد جون فرانسوا سولي أن كتابة التاريخ القديم اعتمادا على المقابلة الشفهية والمقارنة مصدر مهم، وتقليد قديم مارسه هيرودوت ومؤرخو مختلف العصور. وتتبع الباحث سياق تراجع الاهتمام بهذا الحقل التاريخي مع اختراع المطبعة، وتراجعه مع بروز النزعة العلمية خلال القرن التاسع عشر الميلادي. ورصد تقديس المدرسة الوضعانية للوثيقة تحت شعار "**لا تاريخ بدون وثيقة**" مكتوبة تحديدا، واعتماد مسافة زمنية عن الأحداث. وهو ما يعني ضمنيا إقصاء التاريخ القريب، وتقسيم العمل بين المؤرخ الخاضع لمنهج تاريخي والصحفي[١].

وتتبع تراجع الاهتمام بالزمن الراهن في خمسينات القرن الماضي بسبب اهتمام بروديل بالزمن الطويل والبنيات. وأبرز دور تحولات ما بعد الحرب العالمية الثانية في إعادة تاريخ الزمن الراهن إلى الواجهة، بعد فقدان السرديات لبريقها، وسيادة "تيارات العودة" خاصة التاريخ السياسي الحدثي، البيوغرافيا، التاريخ والذاكرة، والبحث القلق عن الهوية. وبيَّن مساهمة سقوط الأنظمة الديكتاتورية وظهور المنظمات الحقوقية، ودخول عدة دول في مرحلة العدالة الانتقالية، وتوسع هامش الحرية لدى المؤرخ وتزايد معاهد الزمن الراهن ومن أبرزها:

*معهد **تاريخ الزمن الراهن** في فرنسا منذ ١٩٧٨ كاستمرارية للجنة الحرب العالمية الثانية لسنة ١٩٥١[٢]، والذي ترأسه فرانسوا بيداريدا منذ التأسيس حتى ١٩٩٠[٣]

*معهد **التاريخ المعاصر** بجامعة أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم، وقد اشتغل وفق مقاربة متداخلة مع باقي التخصصات على مواضيع عدة[٤].

*معهد **التاريخ البريطاني المعاصر:** تأسس سنة ١٩٨٦، وسعى لإثارة الانتباه إلى الأربعة عقود الأخيرة بجمع الشهادات الشفوية والمكتوبة. وتتبع تطور التعليم والتكوين المهني الابتكار التقني. واستنتج الباحث تقارب منهجيات العمل والتسميات في أمريكا وبريطانيا[٥].

٢-إشكالية التسمية والتعريف والمحددات الكرونولوجية

ناقش المؤلف مسألة تعدد تسميات المرحلة المعاصرة جدًا (القريب، المباشر، تاريخ الزمن الراهن...)، وخلص إلى أنها لا تحيل على نفس الكرونولوجيات، وبالتالي غياب إجماع حولها. وعاد ليؤكد هيمنة تسميتين يخلط بينهما كثير من القراء وحتى المؤرخين الفرنسيين والبريطانيين هما:

عرض كتاب

- تاريخ الزمن الراهن
- التاريخ المباشر

اعتبر بعضهم التاريخ المباشر تاريخا غير علمي لارتباطه بالصحافة. وتحجج آخرون بغياب أرشيف هذه المرحلة لسرد النقاش الدائر. يعتبر جامع بيضا تاريخ الزمن الراهن كل تاريخ يكتب تحت أنظار الشهود، ويصنفه سولني ضمن الجزء الأخير من التاريخ المعاصر، أي فترة موجزة لا تتعدى القرن الواحد لايزال شهودها على قيد الحياة. وتعتبر معظم المعاهد (معهد أوهايو، المعهد البريطاني...) نهاية الحرب العالمية الثانية هي بداية الحقبة، أي حوالي ٧٥ سنة أو تزيد قليلا. بينما عاد الفرنسيون إلى بداية الحرب العالمية الأولى كإطار متحرك راهن اليوم، وليس كذلك بعد عقد من اليوم.[٦]

3. في مواجهة الاعتراضات:

أثار فيه المؤلف الأسئلة الأكاديمية الحارقة بشأنه فأجملها في[٧]:

مشكلة القرب	مشكلة غياب المصادر الأرشيفية:	الجهل بالمآلات:
ذكَّر فيه ببداية المسافة الزمنية بين الأحداث والتأريخ لها مع المدرسة الوضعية التي استفادت من توفر الأرشيف خلال القرن التاسع عشر. ومن ذلك الحين اعتبره المعارضون شرطا ضروريا. واعترف جاك لوغوف بصعوبة الجمع بين الالتزام الشخصي والواجب المهني". وحاول	يتأسف جاك لوغوف لغياب الأرشيف العمومي. ويرد المؤيدون أن المؤرخ ليس صاحب كرسي ينتقد وينتظر الأرشيف العمومية (الشهادات المتعددة، الوثائق المتنوعة...)، بل يقارنها مع الأرشيف الخاص لخلق التوازن (مذكرات، رسائل، صور ...)، رغم أن	بين فيه الباحث ما يقوم مؤرخ الزمن الراهن بتأويلات وتحليلات ضمن سيرورات لامتناهية، لا يعرف نتائجها ولا كيف ومتى ستنتهي. لذلك لا يتوصل إلا إلى خلاصات مؤقتة خاضعة للإضافة التصويب والتعميق.
فرانسوا بيداريدا نزع صفة القدسية عن المسافة الزمنية، ونبه ج فرانسوا سولني إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر، وعدم الانجرار وراء نوازع الذات التي تصيب مؤرخي التاريخ المباشر.	الفاعلين لا يسلمون وثائقهم للدولة. ويلتزم بالمنهج النقدي والاستعداد لتحويل التجارب إلى تاريخ.	ويصرح مؤرخو الزمن الراهن أن العائق الأكبر أمام أعمالهم هو انعدام حرية التعبير سواء من الدولة أو من الضغط الاجتماعي.

٤ خصائص الزمن الراهن:

أجملها الباحث في خمس خصائص رئيسية:

أ. التباس الذاكرة بالتاريخ: ساهمت غزارة الذاكرة في ملء الفراغات الحاصلة في التاريخ القريب، وبين المؤرخون الفرق بينها وبين التاريخ. واعتبر الذاكراتيون إنتاجاتهم أحيانا مساعدة للتاريخ، ويجعلونها محله أحيانا أخرى رغم طبيعتها الذاتية والانفعالية. لذلك ينزعجون من مهنية المؤرخ وتخصصه المعرفي، بينما يحسم المؤرخون في اعتبار التاريخ تخصصا، والذاكرة عفوية، وخيالا أحيانا يشترك فيها الجميع[٨].

ب-بين المؤرخ والصحفي: ذكر المؤلف سبق الصحفي لكتابة التاريخ القريب، وبيَّن أوجه نجاحه في التعريف بقضايا تاريخية في مجالات متعددة (التاريخ، العلوم السياسية...)، وذلك رغم تركيزه على السرد الكرونولوجي. واعترف بصعوبة الفصل التام بين التاريخ والصحافة، بدليل أن الصحفي بدوره يغوص في الوثائق والسجلات، ويحلل، ويقارن... ويساهم في تعميم المعرفة التاريخية في صفوف عموم القراء. بينما تبقى الكتابة التاريخية عسيرة الهضم بالنظر لشروط التوثيق العلمي. وأكد بالمقابل على أن الصحفي لا يقوم مقام المؤرخ بالنظر لفارق السرعة، وإكراهات الوقت، فالمؤرخ

يأخذ وقته للتحليل والغربلة (بيضا) والنقد، بينما يبقى الصحفي شاهداً على عصره.

وخلص إلى أن الصحفي صحفي والمؤرخ مؤرخ. يتميز هذا الأخير بثقافة وحدس واسعين، وإلمام بنظريات المعرفة التاريخية. لذلك اعتبر العروي أصحاب فكرة "**الصحفي مؤرخ اللحظة**" جاهلين بالفروق التقليدية بينهما[٩] . وتأسف ج. لوغوف لانعدام الحس التاريخي لدى الصحفيين، لذلك أوصاهم بالركائز الآتية:

- قراءة الحاضر والحدث بعمق تاريخي كاف ووجيه.
- إخضاع المصادر للحس النقدي الخاص بكل نوع منها.
- الاجتهاد في التفسير وعدم الاكتفاء بالوصف.
- التمييز بين الأحداث الدالة والعرضية، وموضعتها في الزمن الطويل. وتأطيرها بإشكالية وإخضاع أحداثها لتراتبية معينة.

ج ـ كتابة تحت أنظار الشهود: يثير فيه الباحث مسألة المأزق المعرفي الذي يقع فيه المؤرخ الذي يشتغل على ذاكرة الشهود، وتحت أنظارهم. تبدأ مواجهة درامية بين "ذاكرة الشاهد" و"عمل المؤرخ" بعد الاطلاع على ما كتبه هذا الأخير، وذلك بالنظر لاختلاف أهدافهما. إذ يعتبر الأول شهادته حقيقة، بينما يخضعها الثاني للنقد التزاما بقواعد النهج التاريخي، لذلك نجد الفاعل يتهيب من عمل المؤرخ لأنه قد يقلل من الاحترام الواجب له[١٠].

د ـ تأثير الطلب الاجتماعي: بين فيه دور الطلب الاجتماعي في تزايد الاهتمام بتاريخ الزمن الراهن. لذلك دافع المؤرخون عن حقهم في إعطاء التفسيرات اللازمة للأحداث الوطنية والإقليمية والدولية، من أجل انطلاقة تنموية أفضل. لكنهم سعوا دائما لإيجاد توازن بين تحفيز الطلب الاجتماعي، وحده من حرية اختيار المواضيع حسب فرانسوا بيداريدا[١١].

ه ـ عودة الحدث والزمن القصير والحوار مع العلوم الاجتماعية: تناول فيه توافق الاشتغال على الزمن القصير مع الاشتغال على الماضي القريب. وأبرز تخوف فرانسوا سولي من الخلط بين" المهم" و"الشكلي"، وتراجع عدد من المؤرخين عن احتقار التاريخ الحدثي الموروث عن تعاليم بروديل. وتطلب الاشتغال على التاريخ الراهن التفاعل مع العلوم الاجتماعية بمقاربة تاريخية دون أن يزيد ذلك عن اللزوم[١٢].

هـ مميزات مصادر تاريخ الزمن الراهن:

بين فيه دور تاريخ الزمن الراهن في تسليط الضوء على مصادر تاريخية جديدة كالصور، والوثائق السينمائية، وتسجيلات الفيديو. وأبرز المكانة المتميزة للشهادة (سمعية، بصرية، مكتوبة...) عند تعذر الولوج إلى الأرشيف. وذلك نظرا لسهولة القيام بتسجيلها، مع تجنب تصيف الشهود إلى جيد وسيء. تشجع الشهادة أيضا على البحث في تمثلات والأثر النفسي للحدث على الفرد والجماعة، كما تساهم في إنقاذ الذاكرة من التأويلات المغرضة[١٣].

الفصل الثاني: بداية التفكير في كتابة تاريخ المغرب الراهن

سجل الباحث تأخر كتابة الزمن الراهن في المغرب، رغم بداية النقاش التاريخي الأكاديمي حوله منذ ثمانينات القرن الماضي تزامنا مع توسع هامش الحرية في البلاد. وتفاعل جماعة المؤرخين المغاربة مع النقاش العالمي في هذا الشأن من خلال ثلاث ندوات:

ا ـ ندوة البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم[١٤]: في ثلاث محاور:

أولها: مراحل واتجاهات ومناهج الكتابة التاريخية منذ الاستقلال، وثانيها قضايا قطاعية، وثالثها التعريف بالتأليف التاريخي حول المغرب في بلدان أوروبية. وكل ذلك لرصد وتلمس آفاق تاريخ تمت الإشارة إليه ب "الساخن" و"القريب جدا"[١٥].

أثار فيها عبد الأحد **السبتي** إشكال امتداد الماضي القريب في الحاضر، وامتناع الشهود عن الشهادة لمن لا يجاملهم. وعزى رجوع مؤرخين إلى القرن ١٩م (العروي، عياش...) إلى الرغبة في مواجهة الأطروحات الاستعمارية غنى الأرشيف. وأشار إلى إغفال البحث التاريخي للتحولات الاج في ظل الحماية، وتمثلات المغاربة للحظة الاستعمارية. وربط محمد **كنبيب** بين قلة الدراسات حول تاريخ يهود الحماية وضعف تقييم الأثر اليهودي في تاريخ المغرب خلال هذه المرحلة. واعتبر دانييل **ريفي** المرحلة الاستعمارية منعطفا يجب أن يحظى باهتمام المؤرخين لفهم الاستعمار الذي لايزال جاثما على الذاكرة الجمعية والخروج من الذكرى. ودعا إلى البحث عن تقاطعات التاريخ مع باقي العلوم، والتركيز على الأرشيف

الكولونيالي[16] لأنه يسهم في تعدد المصادر رغم فوضويته. ويقترح دراسة الزمن تاريخ الحماية بالمغرب وفق ثلاث إيقاعات:

- **إيقاع الزمن المضطرب أو القصير:** لفهم بداية ونهاية الحماية

- **إيقاع الزمن شبه القصير أو البطيء:** يدرس التحولات الديمغرافية والاقتصادية والحياة اليومية للبسطاء مغاربة وأجانب.

- **إيقاع الزمن الطويل:** مغرب الحماية في علاقته بما قبلها وبعدها وفي ارتباط بالعالم الإسلامي والمتوسطي وإفريقيا وليس بالدول المستعمرة فقط، إذ كان مغرب الحماية وما بعدها موضع كتابات أجنبية كثيرة في دول كروسيا انطلاقا من منهجية " تقدمية" قائمة على النظرة الاشتراكية العلمية. لقد ركزت هذه الدراسات على الجانبين السياسي والاقتصادي، وحركات التحرر، وأزمة أكادير، ودور الأمازيغ في الحياة السوسيو اقتصادية والسياسية خلال الخمسينات، والطوائف الإثنية، والحركة العمالية والسياسة الخارجية للمغرب[17].

وخلص الباحث إلى أن الندوة كانت محطة بارزة في حصيلة البحث التاريخي بالمغرب، تحاشى فيها الباحثون الخوض في التاريخ القريب لارتباطه بحساسيات الحاضر. وعرج على هامش الحرية الذي سجله المغرب في بداية التسعينات، خاصة مع الإصلاحات السياسية والدستورية. وهذا ما فرض ضرورة تفاعل المؤرخين مع المحيط والذي تجلى في ندوتي "وثائق الحماية: رصد أولي" سنة ١٩٩٥، وندوة "إعادة التفكير في حقبة الحماية" سنة ١٩٩٨م.

٢ ـ مظاهر الانفراج السياسي في التسعينيات:

تتبع خلالها الباحث إشراك المعارضة في الحكم، والإصلاحات الدستورية، وتعزيز ثقافة حقوق الإنسان مؤسساتيا ودستوريا استجابة لضغط وطلب شعبي:

- **الضغط الدولي:** تمثل في:

- إدانة منظمة العفو الدولية سنة ١٩٩٠ لوضعية حقوق الإنسان بالمغرب، تذكير الولايات الدولية للمغرب بالمواثيق الموقع عليها في هذا الشأن.
- رصد السفارة الأمريكية لوضعية حقوق الإنسان وإنجاز تقارير سنوية بشأن انتهاكاتها ...).
- رغبة في تحسين صورة المغرب في إطار "خصوصيته" في خضم سقوط الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة، وموجة الديمقراطية بأوروبا الشرقية،
- تساؤل الإعلام الفرنسي عن وضعية السجون بالمملكة (القنيطرة، تازمامارت..)
- تحرك الناشطين الحقوقيين المقربين من دوائر القرار الفرنسية بصدور كتاب "صديقنا الملك"[18] الذي خلق أزمة ديبلوماسية بين المغرب وفرنسا بسبب اهتزاز الصمت المحيط بسنوات الرصاص.

الطلب الوطني والشعبي: تجلت تمظهراته في:

- تأسيس المنظمة المغربية لحقوق الإنسان ١٩٨٨، وانخراطها في مسلسل الإصلاحات الحقوقية والدستورية.
- تأسيس المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان في ٨ ماي ١٩٩٠ لتصفية مشاكل ضحايا سنوات الرصاص وطي صفحة الماضي[19].
- تعديل الدستور سنة ١٩٩٢ وتدبيجه بعبارة "تشبث المملكة بحقوق الإنسان كما هو متعارف عليها عالميا".
- إحداث وزارة حقوق الإنسان (١٩٩٣) في حكومة عزيمان أحد مؤسسي المنظمة المغربية لحقوق الإنسان وصرف تقاعد بقيمة ٥٠٠٠ درهم لمعتقلي تازمامارت[20].

لقد تكتلت أحزاب المعارضة في "الكتلة الديمقراطية"، وامتنعت عن التصويت لدستور ١٩٩٢ باعتباره مخيبا للآمال، ولم تعترف بنتائج انتخابات ١٩٩٣. ورفضت المشاركة في الحكم، ورغم عدم تلبية كل المطالب اقتنعت معظم أحزاب المعارضة بتعديلات دستور ١٩٩٦[21] وصوتت لصالحه (باستثناء منظمة العمل الديمقراطي الشعبي).

قررت تلك الأحزاب المشاركة في انتخابات ١٩٩٧، وقبلت على مضض تكليف إدريس البصري وزيرا الداخلية بإيجاد صيغة للتوافق مع المعارضة لإنجاح هذه الانتخابات، انتهى بتوقيع ميثاق شرف في فبراير١٩٩٧. نص الميثاق على التزام السلطات العمومية بضمان انتخابات نزيهة، واعتراف المعارضة بنتائجها وتمويل الدولة للانتخابات وحق الأحزاب في الإعلام العمومي[22].

تصدر الاتحاد الاشتراكي انتخابات١٩٩٧، وكلف الحسن الثاني عبد الرحمان اليوسفي بتشكيل حكومة التناوب التوافقي ربيع ١٩٩٨ دون وزارات السيادة (الداخلية، العدل، الأوقاف، الخارجية)، وأسندت للمعارضة القطاعات الاجتماعية المتأزمة. وجاء البرنامج الحكومي عبارة عن مقترحات لخبراء دوليين عجز وزراء التكنوقراط عن تنزيله بعد انسحاب الدولة من كل قطاعات الإنتاج والتوزيع، وتشجيع المنافسة، وإصلاح الإدارة، وعصرنة القضاء، وإدراج مفهومي المردودية والتأهيل في منظومة التربية والتكوين، وتخفيض النفقات الاجتماعية، وضمان السلم الاجتماعي.

لخص الباحث المشهد الجديد مستدلا بقول ميشيل أبيتول: "**بالتأكيد لم يعد مغرب الحسن الثاني كما كان. إذ لم يكن أحد يستطيع تخيل اجتماع واحد بين خليفة أوفقير والدليمي (يقصد إدريس البصري، ومساعد سابق للمهدي بنبركة (يقصد اليوسفي)، المحكوم غيابيا بعقوبات قاسية والعائد إلى أرض الوطن سنة ١٩٨٠ بعد زمن طويل من المنفى**". وقدساهم هذا الانفراج في تحرير الذاكرات والأقلام والأفواه وبدأت الجرأة في مناقشة قضايا التاريخ القريب مما كان له انعكاس أكاديمي في كتابة تاريخ الحماية وما بعد الحماية رغم صعوبات الوهلة الأولى.

٣ـ ندوة وثائق الحماية رصد أولي (1995)[٢٣]

أثيرت خلالها قضايا أبرزها تشتت مراكز الأرشيف، وغزارة وتنوع الوثائق المتعلقة بفترة الحماية، وصعوبة الوصول إليها. وعبر المشاركون عن سرورهم بحلول مرحلة كتابة تاريخ المرحلة الاستعمارية باحترافية. وهكذا أكد **البكراوي** ضرورة فحص مستندات عهد الحماية لتحليلها، والوقوف على مدى تأثيرها في حاضرنا. واستنكر ترك المؤرخين المغاربة مجال كتابة هذه المرحلة للأجانب علما إنها أكثر تأثيرا في المغاربة من مرحلة القرن ١٩. وأبرز **أبوبكر هادي** أهمية التعريف بالوثائق المتعلقة بفترة الحماية وطبيعتها والمؤسسات التي توجد بها. ونوه **عبد المجيد بنجلون** باهتمام المغاربة بتاريخ بلادهم خلال القرن ٢٠م، وسجل نقصا في معطيات الأرشيف الإسباني مثلا ودافع عن الأرشيف الشفوي لأنه يتيح الوصول على معلومات مباشرة من الشاهد الفاعل. واعتبر **عبد المجيد بن يوسف** الجريدة الرسمية منجما من وثائق تاريخ المغرب المعاصر. ونبه **بوشتى بوعسرية** لأهمية الأرشيفات الأجنبية وتعمد بعض دور الأرشيف إخفاء وثائق تثير قضايا حساسة. وأكد **جامع بيضا** صعوبة الاشتغال على أرشيف الصحافة لنذرته وانعدام صيانته وترميمه مما يعرض ما بقي للتلف بسرعة. وتأسف **المصطفى بوعزيز** على ضياع جزء كبير من أرشيف الأحزاب خاصة الاستقلال لكونه غير متاح للاطلاع أو مبتور. وسلط **حسن الشافعي** الضوء على أرشيف الغرف الاستشارية الفرنسية للتجارة والصناعة والفلاحة. وبين محمد يخلف أهمية أرشيفات البلديات من خلال نموذج فاس. وانتقد **عبد القادر بوراس** وثائق الأرشيف العسكري، لأنها لا تمد المؤرخ إلا برؤية جانبية حول المقاومة، وصورة بوليسية حول القبائل المغربية مما يتطلب منه التعامل الحذر معها. وفي ذات السياق نبه محمد خرشيش إلى بعض افتراءات قسم الاستعلامات بخصوص حرب الريف لتوجيه الراي العام الفرنسي، مما يتطلب الحذر في التعامل مع معطياتها.

وخلص الباحث في تحليه لمداخلات الندوة إلى أن كتابة تاريخ مغرب عهد الحماية صارت ممكنة وضرورية رغم الصعوبات، ومن أجل ذلك لابد من التعاون بين المؤرخين ومؤسسات الدولة لجرد الوثائق. ودعا لحفظ وتثمين الأرشيف وترتيبه وفهرسته ووضعه رهن إشارة الباحثين[٢٤].

٤ـ ندوة إعادة التفكير في حقبة الحماية (١٩٩٨) [٢٥]:

قسم فيها **كريستين لوفيس** توزي الدراسات حول مغرب الحماية إلى ثلاثة أقسام: أعمال تشمل كل إفريقيا، أعمال عامة حول الحماية. ودراسات أكثر تخصصا اهتمت بمواضيع متعددة، كجذور تنظيم الحماية، ودور ليوطي وسياسته الاستعمارية في المغرب، دور المغرب في الحرب العالمية الثانية، وفرق الكُوم... ودعت **آسية بنعدادة** إلى إعادة دراسة تاريخ عهد الحماية بالمغرب من منظور جديد يوظف وثائق متنوعة ويجيب على أسئلة حارقة. وتطرق **جامع بيضا** لقضية غياب الحريات العامة وما أثاره من احتقان في صفوف الوطنيين، وانعكاساته على تاريخ مغرب الاستقلال. وربط **إبراهيم بوطالب** بين الحماية وتطور السلوك الضريبي من خلال الإشارة الى ضريبة الترتيب التي ارتبطت تاريخيا بالحماية وجغرافيا بالمغرب وكان **محمد كنبيب** أول مؤرخ مغربي استعمل

عبارة تاريخ الزمن الراهن، معتبرا أن فهم تاريخ الحماية سيظل ناقصا إذا جُهلت التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لعقود الأولى للاستقلال، والأمر معكوس أيضا. واقترح على كل دارس لتاريخ حقبة الحماية الاستفادة من ثلاث مكاسب:

- التقدم المنهجي الذي حققه التاريخ خاصة في فرنسا.
- وجود مسافة زمنية معقولة مع الأحداث المعنية بالدراسة والتحليل.
- المنهجية المقارنة بالاستعانة بمكتسبات البحث التاريخي عن الحقبة الاستعمارية في بلدان مجاورة.

ونصح بمنح الأولوية للمصادر المكتوبة، والأرشيفات الوطنية والأجنبية، تم الرواية الشفوية والذاكرة. وأكد **فيكتور موراليس ليثكانو** ضرورة العودة إلى أرشيف مجموعة من الدول الى جانب المغرب وإسبانيا لدراسات العلاقات المغربية الإسبانية. وناقش **أبو بكر هادي** مسألة تتكامل وتتعارض وتتقارب وتكامل أرشيف الدول الاستعمارية حول المغرب، مما يساعد على تحقيق شروط الدراسة الموضوعية. ونبه **دانيال ريفي** لأهمية الأرشيفات الخاصة في دراسة تاريخ مغرب الحماية من خلال تقديم بعض النماذج. وأكد عكاشة برحاب أن القرب الزمني من الأحداث يوفر إمكانية توظيف الرواية الشفوية. وطرح **عبد الواحد أكمير** إمكانية اعتماد الأعمال الأدبية في كتابة التاريخ من خلال بعض النماذج. وأضاف **ديتريش زاوخبوركر** أهمية الصورة الفوتوغرافية في التاريخ[٢٦].

وعموما فقد سعت الندوة وفق خلاصة الباحث الى إعطاء دفعة قوية للبحث في تاريخ المغرب وتشجيع الباحثين على الخوض في ذلك.

الفصل الثالث: السياق العام ومتغيراته في بداية الألفية الثالثة

بعيد تولي محمد السادس عرش البلاد في ٢٣ يوليوز ١٩٩٩ ارتفعت حدة النقاش حول مجموعة من القضايا أبرزها: تحولات العهد الجديد، ومشاركة المؤرخين (مواطنين وكباحثين) في تكريس البحث في الزمن الراهن، تقرير الخمسينية، تقرير هيئة الإنصاف والمصالحة مما زاد حجم الطلب الاجتماعي على التاريخ القريب.

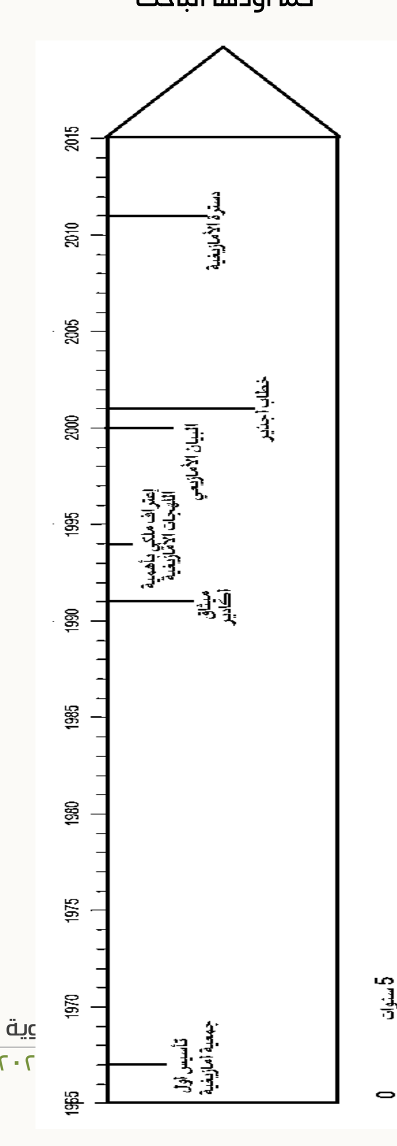
١ – تحولات العهد الجديد:

كانت تولية الملك انتقالا سلسا للسلطة بسبب مشاركة المعارضة في الحكم، وجاء خطاب ١٢ أكتوبر ١٩٩٩ ترسيخا للمفهوم الجديد للسلطة[٢٧]. لكن العهد الجديد ورث ملفات معقدة عن العهد السابق أبرزها: الانتقال الديمقراطي/قضية الأمازيغية/ حقوق الإنسان/ قضايا المرأة/التنمية الاقتصادية والاجتماعية/ تصاعد الإسلام السياسي...).

***قضية الأمازيغية:** استعرض الباحث كرونولوجيا تطور هذه القضية منذ تأسيس أول جمعية ثقافية أمازيغية ١٩٦٧ إلى خطاب أجذير ٢٠٠١ في ١٧ أكتوبر الذي اعترف بالأمازيغية كمكون أساسي للهوية والحضارة المغربية وتراث ثقافي زاخر كأحد أهم رموز الهوية الثقافية المغربية. وبناء عليه تم إحداث المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية الذي أعطى دفعة جديدة للأمازيغية بروافدها الثلاثة كتراث وطني ومبعث اعتزاز للمغاربة (الخطاب) وكتابتها بحرف التيفيناغ وختم بدسترة الأمازيغية لغة وطنية للبلاد منذ ٢٠١١ (الخط الزمني).

خط زمني لمراحل تطور القضية الأمازيغية

كما أودها الباحث



***الحركة النسائية:** حضرت بقوة في الساحة منذ التسعينات (الجمعية الديمقراطية لنساء المغرب)، وتزايدت مع إطلاق حملة لمراجعة مدونة الأحوال الشخصية خاصة ما تعلق بالزواج، والتعدد، والطلاق، والحضانة، والإرث. واعتبرت التعديل الدستوري لسنة ١٩٩٢ أقل من التطلعات، فوضعت الحركة النسائية خطة وطنية من أجل إدماج المرأة في التنمية نشرت سنة ٢٠٠٠، ولقيت مساندة نسائية ومعارضة جماعة العدل، والإحسان، وحزب العدالة والتنمية. وهو الأمر الذي عجل بتشكيل لجنة ملكية لتعديل مدونة الأحوال الشخصية قدمت قوانينها للبرلمان سنة ٢٠٠٣ ودخلت حيز التطبيق ٢٠٠٤م. جاءت بقوانين اعتبرتها المنظمات النسائية قفزة للأمام[٢٨].

***حقوق الإنسان:** ظل ضحايا سنوات الرصاص من الملفات المؤرقة للدولة خلال تسعينات القرن الماضي وبداية الألفية الحالية، مما عجب برغبة ملكية في تصفية الخلافات والآثار. وهكذا تشكلت في غشت ١٩٩٩ لجنة ملكية لدراسة تقديم تعويضات للمعتقلين السياسيين السابقين، وقدمت الدولة إشارات للمجتمع والحركة الحقوقية برغبتها في طي الملف (عودة أبرهام السرفاتي في ١٣ شتنبر ١٩٩٩، زيارة الريف في أكتوبر ١٩٩٩، إقالة إدريس البصري في نونبر من ذات السنة). وتم تأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة في يناير ٢٠٠٤ حيث سرد الضحايا وأقاربهم قصص التعذيب، وحالات الاختفاء القسري للعموم في تسجيلات، ومباشرة على الإعلام العمومي. وتم حديد مواقع التعذيب والمقابر السرية لدفن معارضي النظام، وصرفت الدولة تعويضات مالية شرط طي الملف[٢٩].

***الملف الاقتصادي:** تميز الوضع الاقتصادي بالتأزم بسبب الديون الخارجية، واستنزف ميزانية الاستثمار، وبطء النمو الاقتصادي الخاضع لإملاء المؤسسات الدولية. أدى كل هذا إلى تفاقم المشاكل الاجتماعية الناتجة عجز الاستثمارات الخاصة عن تحقيق للمطلوب بسبب تخوف المؤسسات المالية، وتهريب رؤوس الأموال، وتحذيرات المؤسسات الدولية من خطورة الوضع. لذلك نصح البنك الدولي بتخفيض قيمة العملة، وخفض التوظيف العمومي، ونهج سياسة التقشف، والخوصصة لتحسين المؤشرات الاجتماعية. فرض هذا الوضع المتأزم جعل محاربة الفقر والفساد أولوية وطنية. وهكذا فتح الملك سنة ٢٠٠٣ نقاشاً جماعيا لسياسيين خبراء أكاديميين... لصياغة تقرير شامل حول التنمية في البلاد طيلة ٥٠ سنة من الاستقلال وصدر التقرير سنة ٢٠٠٥ تحت مسمى " تقرير الخمسينية".

٢ تقرير الخمسينية:

ذكر الباحث بظروف صدور التقرير سنة ٢٠٠٥ تحت مسمى " ٥٠ سنة من التنمية البشرية بالمغرب وآفاق ٢٠٢٥"

بعد ٥٠ سنة على الاستقلال[٣٠]. صدر ٢٠٠٦ تحت عنوان " **المغرب الممكن إسهام في النقاش العام من أجل طموح مشترك**" لتقديم إضاءة لملك البلاد بشأن التحولات الاقتصادية والاجتماعية، والإيجابيات والمعيقات والطموحات لتفادي الوقوع في أخطاء الماضي والإجابة عن الأسئلة المتعلقة بمعيقات التنمية الاجتماعية؟ مواطن القصور؟ العوائق.

حضر تاريخ الزمن الراهن في تقرير الخمسينية لأن الهدف كان جعل التاريخ في خدمة التنمية من خلال مساهمة محمد كنبيب بتقرير "مغرب الاستقلال ١٩٥٥-٢٠٠٥ محاولة تركيب في ٥ محاور:

١٩٥٥-١٩٦٠ : سنوات انتقال وتكيف وتحديث الدولة

٢ ١٩٦٥-١٩٧٢: تقوية الدولة وتعثر اللعبة السياسية والتوترات الاجتماعية

١٩٧٣-١٩٨٣: بوادر الانفتاح

١٩٨٣ – ١٩٩٩: من السير نحو التناوب إلى عهد ملكي جديد

١٩٩٩-٢٠٠٥: المكتسبات الديمقراطية والتنمية المستدامة

وأبرز التقرير ضخامة الدين الخارجي في ظل التوترات السياسية عدم مطابقة التكوين لحاجات سوق الشغل، مؤكدا أن المنجزات لا تستقيم بدون رؤية تاريخية لتقديم مسار للتمية في تفاعلها مع أبعاد الحكامة. وقد قسم التقرير **الجانب الاقتصادي** إلى ثلاث مراحل:

١٩٥٥-١٩٨٢ مرحلة: بناء اقتصاد عصري باختلالات كثيرة

١٩٨٣- ١٩٩٣: مرحلة التقويم الهيكلي بسبب ارتفاع الديون

بعد ١٩٩٣ : الانفتاح وتحرير الاقتصاد (الخوصصة) وغياب محيط مشجع للاستثمار

وعزا إخفاقات النظام التربوي إلى الإخفاق في محاربة الأمية، وضعف القدرة الادماجية للمنظومة، وتعثر وظيفتها الاجتماعية والاقتصادية، وتذبذب تدبير السياسة اللغوية[٣١].

التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة:

أبرز المؤلف أن تأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة سنة ٢٠٠٤ لم يكن إملاءً، ولا مبادرة فردية ولا قراراً أحادياً، بل نتيجة سلسلة نضال حقوقي طويل تفاعل معه الملك، واستدل بخلاصات عبد الأحد السبتي التي توصل فيها إلى أن التقرير تفاعل مع ضحايا الانتهاك الذين يمثلهم "المنتدى المغربي للحقيقة والإنصاف". وفي ذات الاتجاه سار إبراهيم ياسين الذي سجل إصرار الدولة على إنهاء ملف حقوق الإنسان بنهاية العقد الأخير من الألفية الثانية. وذلك بتوصية المجلس الأعلى لحقوق الإنسان بالعفو عن المسؤولين عن انتهاكات حقوق الإنسان. ورفضتها الحركة الحقوقية لأنها لا تكشف عن مصير المختفين، ورفات القتلى، وعدم متابعة المسؤولين عنها.

صدر قرار بإحداث لجنة تحكيم في ١٦ غشت ١٩٩٩ لتحديد التعويضات المادية والمعنوية لفائدة الضحايا. ومع بداية سنة ٢٠٠٠ تلقت اللجنة ما يناهز ٤٠٠٠ طلب. ورصدت الحكومة ٤٠ مليون درهم للملف، لكن هذه المجهودات قوبلت برفض المنتدى المغربي الذي رفع شعار عدم الإفلات من العقاب. وطالبت كريستين دور السرفاتي بتعويض الضحايا، وإزاحة المسؤولين الرئيسيين من الساحة السياسية. وشدد إدريس بنزكري في أبريل ٢٠٠٠ على ضرورة تفسير الدولة لما حدث، والتحصين ضد تكرار ما جرى، وتحديد مسؤوليات المنتهكين لحقوق الإنسان باسم الدولة كقضية حساسة. وتعزز النقاش العمومي في الأمر مارس ٢٠٠٠، باجتماع أزيد من ١٥٠٠ شخص أمام كوميسارية درب مولاي الشريف[٣٢]. ونُظمت في نونبر ٢٠٠١ مناظرة حول انتهاكات حقوق الإنسان بمبادرة من الجمعية المغربية لحقوق الإنسان، والمنتدى الوطني لحقوق الإنسان، ومنظمة حقوق الإنسان وأصدرت عدة توصيات[٣٣] أهمها:

- إحداث لجنة حقيقية للتعويض، وجبر الضرر، وحفظ الذاكرة، التربية على حقوق الإنسان
- مسؤولية الدولة في متابعة المسؤولين

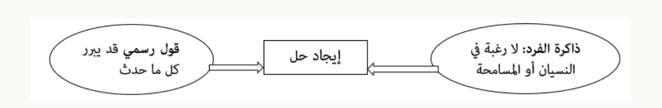
ونظم فاعلون إعلاميون، مناضلون حقوقيون، مثقفون، وعائلات وأقارب الضحايا وقفات ومسيرات بعد المناظرة بقلعة مكونة (١-٢ يونيو ٢٠٠٢)، وأكدز (أكتوبر ٢٠٢٢)، وأمام مقهى لبيب بباريس[٣٤]، وتوجت بمسيرة في الرباط.

أفضت هذه الضغوط إلى إحداث هيئة الإنصاف والمصالحة بداية ٢٠٠٤ بعد أخذ ورد[٣٥].

نصبت الهيئة في يناير ٢٠٠٤، وصدر الظهير المحدد لاختصاصاتها في أبريل من ذات السنة، والذي أكد أن اختصاصات الهيئة غير قضائية ولا تثير المسؤولية الفردية عن انتهاكات حقوق الإنسان.

هدفت لإثبات نوعية ومدى جسامة الانتهاكات الماضية لحقوق الإنسان، ومواصلة البحث والتحري[٣٦] بشأن حالات الاختفاء القسري، وتقييم مسؤوليات أجهزة الدولة أو غيرها في الانتهاكات والتعويض عن الأضرار المادية والمعنوية التي لحقت الضحايا أو ذوي حقوقهم. والتحكيم وجبر الأضرار التي لحقت ضحايا الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي.

أعدت الهيئة تقريرًا رسميًا تضمن خلاصات الأبحاث والتحريات والتحاليل المجراة بشأن الانتهاكات وسياقاتها. وقدمت توصيات لحفظ الذاكرة، وضمان عدم تكرار ما جرى، ثم تنمية وإثراء سلوك الحوار وإرساء مقومات المصالحة. خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين الاستقلال سنة ١٩٥٦ ووفاة الحسن الثاني سنة ١٩٩٩، وضرورة الإحاطة التاريخية من خلال الاستعانة بالمؤرخين. لذلك عين إبراهيم بوطالب عضوا في الهيئة ووضع ورقة تاريخية في الموضوع، شدد فيها على سكوت الذاكرة، وغياب الأرشيف لأن الأولى كانت متوجسة خيفة، والأرشيفات مفقودة أو منطوية على دائرة مستنداتها وصعوبة استثمارها. لذلك يجد المؤرخ نفسه أمام أمرين[٣٧]:



أخد السياق التاريخي وقتا طويلا توج بإصدار كتاب **"السياق التاريخي للانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان بالمغرب**، بسبب تطلب القضايا مراجعة دائمة على ضوء ما يظهر من مستجدات، وتناقض سياقات الأحداث. وتم الاهتداء إلى ضرورة خلق مؤسسة علمية تجمع المؤرخين، وتوفر الأرشيف وتضمن حرية الفكرية للباحثين وتم عقد جلسات استماع عمومية لضحايا التعذيب والاعتقال التعسفي، وشهادات أخرى مكملة خضعت للتمحيص من طرف مراكز بحث وجامعات. وصدرت توصية بإحداث مركز جامعي للزمن الراهن، ومؤسسة عمومية لحفظ الأرشيف[٣٨] .

وأكد المؤلف أن تجربة الهيئة أثبتت أهمية كتابة التاريخ القريب، وأسدت خدمات جليلة للباحثين في هذه الفترة (شهادات وثائق...) بعد اضمحلال الموانع، واتساع هامش الحرية من المركز ليشمل الهامش أيضًا بعد أن أحيل أرشيفها لمجلس حقوق الإنسان. وشدد التقرير على دور أشغال الهيئة في إعادة بناء الذاكرة، حيث سجل المشاركون بروزاَ هادئا وتدريجيا لخطاب سياسي جديد يسهم في بناء ذاكرة وطنية تعددية غير انتقائية أو مبنية على الإقصاء. ونبه لضرورة جميع الأرشيف الوطني، وتنسيق تنظيمه بين كل الدوائر المعنية، كما اقترح سن قانون ينظم شروط حفظها وآجال فتحه للعموم وشروط الاطلاع عليه والإجراءات المترتبة على إتلافه"[٣٩]. ولأن الدراسات التاريخية حول الماضي القريب قليلة جدا، فقد أوصى التقرير الختامي بالاهتمام بتاريخ المغرب الراهن من خلال التشديد على ضرورة مراجعة تدريجية المحتوى برامج مادة التاريخ ببلادنا، وتأسيس معهد خاص بتاريخ الزمن الراهن يتولى التأليف والتوليف والبحث والنشر حول الأحداث التاريخية المتصلة بياضي الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، وبتطورات قضايا حقوق الإنسان، والإصلاح الديمقراطي.

أشار الباحث إلى النقاش الواسع والعميق الذي أثاره التقرير الذي رفع إلى الملك أواخر سنة ٢٠٠٥، حول موضوع الإصلاح الديمقراطي وطي صفحة الماضي في البلاد. وحول أهمية مساهمة المؤرخين في تعميق هذا النقاش. وخلص إلى إن أقل ما يمكن أن يقال عن هذا التقرير أنه زاد وتيرة الطلب الاجتماعي على تاريخ المغرب القريب، وجعل الناس يتساءلون: **أين المؤرخون؟**

٤- الطلب الاجتماعي على التاريخ الراهن:

تزايد الطلب الاجتماعي على تاريخ الزمن الراهن أواخر تسعينيات القرن الماضي وبداية "العهد الجديد" لمعرفة تاريخ في مغرب الاستقلال. واكبته غزارة المذكرات التي أثارت قضايا كانت مسكونا عنها، على غرار مذكرات محمد الفقيه البصري[٤٠]. تلاه إصدار مذكرات فاعلين وشهود إما تأييدا، أو اعتراضا، أو تكذيبا، أو إضافة، فتعددت الروايات المختلفة حول الحدث الواحد. وهكذا بيعت من كتاب "تازمامارت الزنزانة ١٠" لأحمد المرزوقي عن انقلاب الصخيرات ٤٠ ألف نسخة ٣٠٠٠٠ نسخة منها في أسبوع واحد. وانتعشت الصحافة الوطنية التي تفاعلت مع توصيات هيئة الإنصاف والمصالحة، فتحررت الأفواه وتطرق الصحفيون لمواضيع ساخنة من التاريخ القريب كعودة السرفاتي ١٩٩٩، وعودة أسرة بنبركة، وإقالة إدريس البصري نونبر ١٩٩٩. وأحداث كانتفاضة الدار البيضاء ١٩٥٦، ومحاولات انقلابي ١٩٧١ و١٩٧٢، ودار نقاش واسع حول سلطوية الدولة، والبيوغرافيات (بنبركة اوفقير...)[٤١]. وتوالى إصدار المذكرات. وساهم جو الانفراج السياسي في بداية عهد محمد السادس في انبثاق أحداث الماضي التي لم تندمل جراحها بعد.

بيّن بنيامين ستورا أن تناول الصحف لمغربية للأحداث التاريخ القريب راكز على ٣ مراحل:

المرحلة الأولى (١٩٥٦- ١٩٦١): ملكية قوية ومهيمنة على المشهد السياسي، وحركة الوطنية تابعة وخاضعة لمبادراتها

المرحلة الثانية (١٩٥٩- ١٩٦٥): أزمات انشقاقات الحركة الوطنية (اختطاف المهدي بن بركة...)

المرحلة الثالثة (١٩٦٥- ١٩٧٥): ركزت على النظام سلطوي، الانقلابين الفاشلين ضد الحسن الثاني، الجنرال أوفقير.

لقد أفقد هذا الكم الهائل من الروايات (récits) التاريخية وتأويلاتها الدولة بالتدريج احتكار كتابة التاريخ، وأدى إلى زيادة الطلب الاجتماعي على تاريخ الزمن الراهن.

٥. ندوة "العدالة الانتقالية في المغرب

نظمتها مجلة نوافذ يوم ١٩ فبراير ٢٠٠٦، وجاءت قراءةً في تجربة هيئة الإنصاف والمصالحة. أكدت فيها لطيفة الجبابدي[٤٢] أن عمل الهيئة أكبر محفز للمغاربة جميعا للاشتغال على التاريخ القريب. خاصة بعد أن واجهت الهيئة صعوبات في تحديد السباق التاريخي للانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان الإشارة إلى فاعلية المثقف المؤرخ، والاحترازية، وطلب ضمانات ولو في حدود اختصاصاته سواء تعلق الأمر بعدم كفاية الشهادات والضمانات حرية التعبير. وأكد السبتي أن المؤرخ يساعد الفرد والمجتمع على فهم ماضيه الذي كان مقصيا في الدرس الجامعي. وعرج الكاتب عل تعرض صحفيين لمتابعات قضائية (الأسبوع، الصحيفة ولوجورنال) وختم بالتأكيد على أن تجربة الزمن الراهن تتطلب تكوينا منهجيا ومعرفيا في هذا الحقل واتساع هامش الحريات[٤٣].

الفصل الرابع: التفاعل الأكاديمي والمؤسساتي مع التغيرات الجديدة

أبرز فيه المؤلف تزايد النقاش العمومي داخل أسوار الجامعة وبين الباحثين خارجها، وأيقنت الأغلبية بأن كتابة تاريخ الزمن الراهن ممكنة، بل وضرورية. وزاد التفاؤل بصدور قانون الأرشيف، وفتح أول ماستر للزمن الراهن ٢٠١٠-٢٠١٢، وتأسيس مركز الزمن الراهن سنة ٢٠١٣.

١. المذكرات والتاريخ

أشار المؤلف إلى تفجر كتابة الرواية التاريخية، وتعاطي الصحافة بجدية مع القضايا الساخنة، ونبه إلى تجنب الخلط بين التاريخ والذاكرة. وعقدت لهذا الغرض بمراكش ندوة "مذكرات الوطنيين المغاربة وإشكالية الزمن الراهن" سنة ٢٠٠٤[٤٤] ركز فيها المتدخلون على عدة قضايا أبرزها[٤٥]:

- إعبار المذكرات مصدر تاريخي إن أحسن استغلالها وتمحيصها كمخطوطات تتطلب تقنيات تحقيق.
- تأثير الزمن على الذاكرة من خلال توظيف أصحاب المذكرات للتلميح عوض التصريح، وذلك كلما طالت المدة بين زمن الكتابة وزمن المرويات.
- عدم احترام مجموعة من المذكرات للتسلسل الكرونولوجي للأحداث والتباس المذكرات بالتاريخ.
- تعارض المذكرات بفعل الخلاف بين قادة الحركة الوطنية من خلال نموذجي علال الفاسي، ومحمد بن الحسن الوزاني.
- تتبع كتاب "مذكرات حياة وجهاد" لعبد الهادي بوطالب وإبراز حجم الوثائق التي قدمها للحديث عن مذكرات انتقائية قصدا أو نسيانا[٤٦] تجعل من المذكرات مادة تكميلية.
- نقط القوة والضعف في مذكرات رجال المقاومة من خلال نموذج محمد بن سعيد ايت إيدر[٤٧]. إذ لا ينبغي التعامل مع المذكرات بأكثر من كونها وجهة نظر فاعل وشاهد على عصره صيغت بأسلوب سردي لأحداث من الذاكرة مرفوقة بتحليل وخلاصات.
- تعمد مذكرات بعض المقاومين ورجال الحركة الوطنية السكوت عن بعض الأحداث المهمة جدا، مثل صراع الأجنحة في المقاومة وجيش التحرير، وحل هذا الأخير سنة ١٩٦٠.
- تشجيع وفرة المذكرات على البحث في تاريخ المقاومة وجيش التحرير خاصة مرحلة الكفاح المسلح ومرحلة بناء الدولة المغربية الحديثة.
- أهمية بعض مذكرات المقاومة وجيش التحرير في بناء التاريخ (مذكرات الحسين برادة نموذجًا) دون أن يعني أنها تسمح بكتابة تاريخ موضوعي عن المرحلة
- التساؤل عن سبب عدم التركيز على التجربة الشخصية للمقاومين وإكراهات زمن الكتابة.

والخلاصة أن التاريخ تاريخ، والذاكرة ذاكرة، لها عيوبها كالنسيان والذاتية والسكوت المتعمد والكذب وتأثيرات زمن الكتابة ورهاناتها. وأكد الباحث أن ملتقيات التاريخ: مغرب القرن العشرين التي عقدت بالرباط بين ٣٠مارس و١أبريل[٤٨] كانت فرصة لدعوة **جماعة المؤرخين** لإعادة كتابة تاريخ البلدان المغاربية في عهد الاستعمار وزمن الاستقلال. واعتبرت التفكير في مكاسب الاستقلال يتطلب إعادة التفكير في المرحلة الاستعمارية وتصحيح أحكامنا عليه.

٢. تنظيم الأرشيف المغربي: ١٢٣

أشار فيه المؤلف إلى صدور القانون ٦٩,٩٩ المتعلق بالأرشيف في ٣٠نونبر ٢٠٠٧ كأول تشريع منظم للأرشيف العمومي. وأبرز أقسامه ومواده، وميز بين:

- الأرشيف العام لأنشطة ذات طابع رسمي.
- الأرشيف العام غير قابل للتقادم أو التفويت.
- الأرشيف العام المتاح أمام الباحثين والدارسين والجمهور بضوابط وشروط عند انصرام أجل ٣٠سنة من تاريخ إنتاجه[٤٩]. تسلم الإدارات العمومية أرشيفها لمؤسسة أرشيف المغرب التي تتمتع باستقلال مالي وإداري ضمن ثلاثة مستويات من الأرشيف العام: "أرشيف عادي" و "أرشيف وسيط" و"أرشيف نهائي".

٣. أرشيف المغرب

ذكر الكاتب انطلاقاً من قراءته للمادة ٢٧ من القانون أعلاه ببداية أعمال المؤسسة ربيع ٢٠١١م، وبسط أدوار المؤسسة في صيانة تراث الأرشيف الوطني، وتكوين أرشيف عام، وحفظه، وتنظيمه، وتيسير الاطلاع عليه لأغراض علمية وإدارية واجتماعية وثقافية وعرج على رصيدها الوثائقي الذي يضم:

- ـ أرشيف عمومي لفترة الحماية.
- أرشيفات خاصة سلمها أفراد لأرشيف المغرب قصد المعالجة وجعلها في متناول الجمهور.
- دراسات متنوعة تخص تاريخ المغرب، خاصة تقارير مركز الدراسات العليا الإدارية حول إفريقيا وآسيا الحديثة (CHEAM). كما أغنت المؤسسة أرشيفها بالأرشيف القادم من المجلس الوطني لحقوق الإنسان منذ ٢٠١٧.

تعمل المؤسسة على إغناء الرصيد عن طريق: الأرشيف العام الذي يسلم للمؤسسة، واقتناء أرشيف الخواص (علماء شخصيات عمومية، أسر، جمعيات...). تلا هذه الإجراءات صدور المرسوم ٢,١٤,٢٧٦ المتعلق بشروط تدبير وفرز وإتلاف الأرشيف وإجراءات تسلمه. وتم إصدار دليل مرجعي لتدبير الأرشيف العمومي بتعاون مع خبراء مغاربة ومؤسسات لها خبرة في الميدان دوليا يهم فقط الأرشيف الورقي. بعدها صدر قانون ٣١,١٣ المتعلق بالحصول على المعلومة التي قد تعرض من رفض ذلك لعقوبات ومتابعات قضائية[٥٠].

٤. ندوة من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن ٢٠٠٦[٥١]

بين الباحث أنها جاءت بهدف ملء البياضات التي اعترت مرحلة حاسمة من تاريخ المغرب، والاستجابة لحاجات المجتمع في معرفة ما حدث والإجابة عن تساؤلات مساهمات موضوعية ومنهجية. لاحظ من داخلها الحسني تضييق الدروس المخصصة للحماية لصالح ما بعد الاستقلال وبالتالي ضعف الاهتمام بتاريخ الزمن الراهن في المغرب بشكل يثير الاستغراب. وذلك رغم ما يمكن أن يثيره من حساسيات. وأكد السبتي أن "الذاكرة أتاحت إمكانيات الكتابة التاريخية حول الماضي القريب" لأنها أثارت تعدد المحكيات، وساهمت في تراجع مساحة الطابو والمحرمات والتنبيه إلى عدم الانسياق وراء التاريخ المستهلك إعلامياً. ولعل أكبر الاعتراضات حسب السبتي غياب المسافة الزمنية وندرة الوثائق التي يمكن التغلب على الأولى بالجرأة التاريخية وعلى الثانية بكونها مصطنعة. والخصاص في المصادر رغم تعدد وتوسع مفهوم الوثيقة وخصاص الأرشيف الرسمي فقط، إلى جانب التناقض بين التاريخ والراهن أي الماضي والحاضر الذي يجد قوته في تعدد وسائل انتشار الخطاب التاريخي[٥٢].

اعتبر كنبيب تاريخ الاستقلال حافلاً بـ[٥٣]:

الملاحم	طريق الوحدة، عمليات الحرث، المسيرة الخضراء...
الأخطاء	التفاوض على شروط الاستقلال، النموذج الاقتصادي والاجتماعي، الإصلاحات المفروضة في التعليم
ألغاز التاريخ	اغتيال المساعدي تصفية مناضلي حزب الشورى والاستقلال، اختطاف واختفاء المهدي بنبركة
خروقات التاريخ	أحداث الدار البيضاء ١٩٦٥، انتفاضة الخبز/ سنوات الرصاص)
منسيو التاريخ	قدماء المحاربين، فرق الكوم، ضحايا الزيوت المسمومة، وضعية المرأة...
صمت التاريخ	هجرات اليهود المغاربة إلى إسرائيل ووجهات أخرى سنوات

واقترح التقسيم التالي:

١٩٥٥-١٩٧٥: مرحلة الصراع الحاد بين الدولة والمعارضة حول السلطة

١٩٧٥-١٩٩٠: هيمنة مجريات الحرب في الصحراء والبحث عن توافق سياسي حول الملكية

١٩٩٥-٢٠٠٥: مرحلة انتقالية حاسمة.

تساءل المعارضون عن نوعية الوثائق المعتمدة؟ وطرحوا صعوبة الاطلاع على بعض الأرشيفات رغم نهاية المدة المحددة للاطلاع عليه. وأجاب المؤيدون أن التعويض سيكون عن الشهادات، السير الذاتية، البرامج الإعلامية الصحافة، الأرشيف الخاص، هيئة الإنصاف والمصادر الشفوية، سير المقاومين شرط التمييز بين التاريخ والذاكرة، واختيار المواضيع التي قد لا تخلق بعض الإزعاج (المناصب القائمة) واقترح السبتي تعميق الفرضيات والإشكاليات وتكثيف جمع الوثائق[٥٤].

٥ ندوة الزمن الراهن (٢٠٠٧)[٥٥]

اعتبر المتدخلون فيها تاريخ الزمن الراهن هو الذي يكتب تحت أنظار الشهود، وأشاروا إلى أن تاريخ الحماية بياضات ينبغي تسويدها بسبب انشغال البحث التاريخي ببناء الذاكرة الوطنية أكثر. وهكذا اعتبر **السبتي** القرن ٢٠ مرحلة واحدة، ورجح **عبد الحي المودن** الحرب العالمية الثانية كبداية ممكنة لتاريخ الزمن الراهن، واعتبر **الخصاصي** نفي محمد الخامس منعطف مهما. ورجحت حفيظة بلمقدم عودة محمد الخامس ١٦ نونبر ١٩٥٥ بداية لهذه المرحلة بحكم ضعف أرشيفات الإدارات العمومية ووجود عدد كبير منه في الخارج ١٤٩. بينما طالب **المعطي منجيب** بفتح أرشيفات الديوان الملكي، ومديرية الأمن الترابي...حتى لا يبقى التاريخ فريسة الأيديولوجيات ١٥٠. وسار شُكاك في نفس الاتجاه عندما نبه إلى تجاهل المغرب لجزء كبير من أرشيفه بالخارج، وإهماله لأشيف الإدارات العمومية بعد الاستقلال. واعتبر تاريخ الزمن الراهن إعادة اعتبار للبحث الميداني خاصة الدراسات المونوغرافية. تعددها يحقق التراكم المطلوب. وبخصوص مقاربات كتابة تاريخ الزمن الراهن اقترح **المحمدي** المقاربة البيوغرافية لسير فاعلين الكبار زمن الحماية والاستقلال. ودعا محمد أمطاط إلى ضرورة الانفتاح على العلوم المساعدة في دراسة التاريخ الراهن. واعتبر متدخلون آخرون ضعف مستوى الطلبة في اللغات خاصة الإنجليزية والفرنسية يساهم في ضعف التاريخ الراهن ١٥٦ واعتبروا البيوغرافيا، البروسبوغرافيا ١٦. التحليل النفسي مداخل ممكنة لدراسته[٥٦].

٦. من ماستر الزمن الراهن إلى مركز تاريخ الزمن الراهن:

حاول الباحث في هذا المحور إبراز مجهودات المدافعين عن تاريخ الزمن الراهن لترسيخ شرعيته داخل أسوار الجامعة. إذ عرج على النقاشات حادة التي دارت سعيا لإدراجه ضمن المواد الدراسية بالجامعة المغربية. وهكذا خرج إلى حيز الوجود أول ماستر لتاريخ الزمن الراهن ٢٠١٠-٢٠١٢، والذي ضم طلبة مجازين في التاريخ، الفلسفة، والصحافة...، وضمن مجزوءات كالمصادر الأرشيفية/ الذاكرة والتاريخ/ الحركات الاجتماعية الجديدة/ المعرب زمن الحماية / سوسيولوجيا النخب/ وحدات التواصل واللغات. ثم الدكتوراه وتم العمل على تفعيل توصيات بإحداث مركز الزمن الراهن سنة ٢٠١٣[٥٧].

يخلص الباحث في **خاتمة** عمله إلى أن البلاد تعرف حركية مجتمعية كبيرة، يمكن أن يساهم من خلالها مؤرخ الزمن الراهن في تكريس الاختيار الديمقراطي في بلده. ويؤكد على أن مؤرخ هذه الحقبة يمكن أن يتجاوز العراقيل الظاهرة (انعدام المسافة الزمنية، وقلة المصادر، وصعوبة الولوج إلى بعض الأرشيفات، وعدم اكتمال الأحداث...) ويخلق التراكم المعرفي الذي سيجيب على جانب من تساؤلات المجتمع. وذلك شرط توفر القدر الكافي من حرية التعبير إزاء السلطة، ومؤسسات الدولة، والتنظيمات السياسية والنقابية والجمعوية، والفاعلين الكبار أو ورثتهم، وإزاء المجتمع نفسه[٥٨].

خَاتِمَةٌ

لقد نجح الباحث في إنجاز دراسة وصفية تركيبية أعطت صورة شاملة عن تطور البحث في تاريخ الزمن الراهن بالمغرب في سياقه العالمي. ساعده على ذلك تمكنه من اللغات الأجنبية، وكونه ابن الدار باعتباره خريجا للدفعة الأولى من ماستر تاريخ الزمن الراهن بكلية الآداب بالرباط. وباستثناء بعض ملاحظة أو ملاحظتين معرفيتين بسيطتين أبدى الكاتب تجاوبه معها، واستعداده لمراجعتها في طبعة مقبلة كالخلط بين أجذير إزيَّان، وأجدير الريف عند الحديث عن تفعيل الطابع الرسمي للأمازيغية، فإن العمل جاد ورصين. زادت من أهميته الملاحق والنصوص المترجمة ذات صلة بالموضوع، والحوار مع مدير مؤسسة أرشيف المغرب.

وعمومًا هذا العرض المقتضب لا يعني الإحاطة بتفاصيله ولا يعفي كل راغب في التعمق الأكاديمي في هذه المرحلة من تاريخ المغرب من الاطلاع عليه مرات ومرات لأنه قدم في نظرنا إضافات مهمة. وزاد من آمال المجتمع المعلقة على مؤرخ الزمن الراهن للإجابة عن بعض أسئلة معيقات التنمية في البلاد.

الإحالات المرجعية:

(١) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن في المغرب بحث في سياق الميلاد**، منشورات مؤسسة آفاق، مطبعة آفاق، مراكش، ٢٠٢٣، ص ١٩-٢١

(٢) اهتمت بدراسة مواضيع الذاكرة الجماعية، الاستعمالات السياسية للماضي والفضاء العمومي ...

(٣) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، م. س، ص ٢١-٢٣

(٤) خص منها بالذكر مؤتمر بيكر للسلام، الإمبراطوريات الاستعمارية، وحركات التحرر، الحرب، والعنف، والثورات الدبلوماسية والاستراتيجية، التنمية، السلطة التنفيذية، العرق والنوع... ص ٢٤

(٥) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، م. س، ص ٢٥.

(٦) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، م. س، ص ٢٦-٢٩.

(٧) نفس المرجع، ص ٣١-٣٤.

(٨) الطاهري عبد العزيز، **الذاكرة والتاريخ المغرب خلال الفترة الاستعمارية (١٩١٢-١٩٥٦)**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٦، ص ٢٠٤.

(٩) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن... م. س،** ص ٣٧-٣٨

(١٠) نفس المرجع، ص ٣٩-٤٠.

(١١) نفسه، ص ٤١...

(١٢) نفسه، ص ٤١-٤٢.

(١٣) نفسه، ص ٤٣-٤٤

(١٤) انعقدت سنة ١٩٨٦ بالرباط بعد ٣ عقود من الاستقلال

(١٥) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٤٨

(١٦) بنوعيه: أرشيف تصور (بقي المغرب) وأرشيف تدبر (نقل إلى فرنسا).

(١٧) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٤٩-٥٣

(١٨) لجيل بيرو في شتنبر ١٩٩٠

(١٩) تجسد إظهار حسن نية بإطلاق أبرهام السرفاتي سنة ١٩٩١ وتحرير معتقلي تازمامارت.

(٢٠) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٥٤-٥٦.

(٢١) احتفظ للملك بصلاحيات كبرى، وتبنى نظام غرفتي البرلمان.

(٢٢) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٥٧

(٢٣) نظمتها الجمعية المغربية للبحث التاريخي يومي ٢٩ و٣٠ ماي ١٩٩٥ بكلية الآداب بالرباط

(٢٤) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٥٩-٦٨

(٢٥) نظمتها مجلة هيسبيريس تمودا بين ٢٨ و٣٠ ماي ١٩٩٨

(٢٦) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٧١-٧٣

(٢٧) رعاية المصالح العمومية والشؤون المحلية، وتدبير الشأن المحلي والحفاظ على السلم الاجتماعي

(٢٨) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٧٥-٧٦

(٢٩) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٨٥

(٣٠) شارك في صياغته ٧٥ باحثا وخبيرا، وضم عشرات التقارير الموضوعاتية، و١٤٩ تقرير أفقي.

(٣١) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٨٩-٩٢

(٣٢) مقر تعذيب واستجواب خلال سنوات الرصاص.

(٣٣) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن**...، **م. س،** ص ٩٤-٩٦

(٣٤) مكان اختطاف المهدي بنبركة في ٢٩ أكتوبر ١٩٦٥م.

(٣٥) كانت الكواليس بين من يرى أن دور المجلس كاف ولا حاجة لإيقاظ الجراح، وتيار متحمس فأكدوا أن الحقيقة والمصالحة ضروريين

وسيكون للمغرب قصب السبق في المجال والمصالحة مع الذات ومع الدولة ضرورة ملحة. وتم التوصل لهيئة الإنصاف والمصالحة كتسمية نهائية عوض مقترح "هيئة الحقيقة والمصالحة".

(٣٦) انظر المادة ٦ ص ٩٧

(٣٧) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن...، م. س**، ص ٩٧-٩٩

(٣٨) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن...، م. س**، ص ٩٩-١٠٠.

(٣٩) التمست الهيئة وبشكل استعجالي استصدار مذكرة ملكية تحت كافة الوزارات والإدارات العمومية، والأجهزة الأمنية على صون الأرشيف وحفظه، ولو في وضعيته الحالية. وطالبت بتشدد المذكرة في المعاقبة القانونية على كل فعل من شأنه إتلاف أو تدمير أو جزئي للوثائق والسجلات الرسمية

(٤٠) بعد سنوات طويلة في المنفى.

(٤١) نشرت جريدة المنظمة كتاب "تازمامارت سجن للموت بالمغرب" في حلقات ابتداء من دجنبر ١٩٩٩، ونشرت جريدة الاتحاد الاشتراكي سنة ٢٠٠٠ مذكرات معتقل سابق بتازمامرت (*٣ القراء)، وتطرقت لوجورنال للتصفيات الجسدية للحركة الوطنية بين ١٩٥٦-١٩٦٠ في يناير ٢٠٠٠، وأجريت حوارات مطولة جزئين

(٤٢) معتقلة سياسية ورئيسة اتحاد العمل النسائي سابقا، وعضو هيئة الإنصاف والمصالحة. ومن

(٤٣) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن...، م. س**، ص ١١٥-١٢٠.

(٤٤) نشرت فعاليات هذه الندوة ضمن العدد ٣ من مجلة البحث التاريخي ٢٠٠٥ بعنوان " بين التاريخ والذاكرة"

(٤٥) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن...، م. س**، ص ١٠٦-١١٠.

(٤٦) عن حزب الشورى والاستقلال ومستشار ملكي ووزير سابق. ويتعلق الأمر باستجوابات على عجل مع جريدة الشرق الأوسط في حلقات ٢٠٠١. تعد مذكراته

نموذجا لمذكرات الفاعل السياسي الذي حاول ذ رسم صورة مثالية عن نفسه، وسكت عن بعض التفاصيل بسبب المناصب السياسية. وميز الباحث بين أربع مستويات من الوقائع المروية: ١- وقائع شارك فيها/ ٢- وقائع سمع عنها/ ٣- وقائع لم يعاصرها لكنه يتوفر على وثائق/شهادات بشأنها. لصالح خصوم له أثناء تقلد مناصب الخدمة (محمد العفاس، تاريخ الزمن الراهن....، ص ١١٦)

(٤٧) ركز فيها على أربع قضايا: تأسيس جيش التحرير في الجنوب/ العمل المسلح ومسائل تنظيمية /التحالف الفرنسي الإسباني/ ثم آفاق العمل المسلح بعد عملية إيكوفيون. بالإضافة إلى وثائق الملحق+

(٤٨) نظمتها الجمعية المغربية للمعرفة التاريخية الرباط بين ٣٠مارس و١أبريل ٢٠٠٦ في موضوع المغرب الكبير المعاصر: ثوابت وتحولات موائد مستديرة

(٤٩) باستثناء الوثائق المتعلقة بأسرار الدفاع واستمرارية السياسة الخارجية ومن وسلامة الدولة والحياة الشخصية للأفراد والمصادر القضائية (٦٠سنة) وفهارس الأصول وسجلات الحالة المدنية ومصلحة التسجيل... ١٠٠ سنة، واستثنى الأرشيف العسكري حيث تم إحداث لجنة للتاريخ العسكري.

(٥٠) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن...، م. س**، ص ١٢٥-١٢٩

(٥١) نشرتها كلية الآداب بالرباط سنة ٢٠٠٦ في كتاب تحت عنوان " **من الحماية إلى الاستقلال: إشكالية الزمن الراهن**"

(٥٢) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن...، م. س**، ص ١٢٩-١٣٧

(٥٣) نفس المرجع، ص ١٤٠

(٥٤) نفسه، ص ١٤٢.

(٥٥) ندوة نظمها المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب في ١٤ يوليوز ٢٠٠٧ ونشرت سنة ٢٠١٣

(٥٦) العفاس محمد، **تاريخ الزمن الراهن...، م. س**، ص ١٤٤-١٦٠.

(٥٧) نفس المرجع، ص ١٦٦-١٦٨.

(٥٨) نفسه، ص ١٧١-١٧٢





https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449
https://www.facebook.com/historicalkan